

يفغيني بتروف

إيليا إيلف

# الكراسي الإثنا عشر



ترجمها عن الروسية  
د. نزار عيون السود



الكراسي الاثنا عشر

إيليا إيلف

يفغيني بتروف

ترجمة:

د. نزار عيون السود



[www.daralrafidain.com](http://www.daralrafidain.com)

الكراسي الاثنا عشر

إيليا إيلف / يفغيني بتروف

ترجمة: د. نزار عيون السود

العنوان بالروسية:

*Илья Ильф*

ترجمة عنوان الكتاب بالإنكليزية:

# *The Twelve Chairs*

*By Ilya Ilf & Yevgeny Petrov*

*Translated by Nizar Oyouun Al-Soud*

الطبعة الأولى: مارس – آذار، 2023 (1000 نسخة)

**This Edition Copyrights@Dar Al-Rafidain2023**

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافة نابضة بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخة أصلية من هذا الكتاب واحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أي من أجزائه بأي شكل من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمر برفد جميع القراء بالكتب.



بغداد – العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520 / +9647811005860



www.daralrafidain.com



info@daralrafidain.com



daralrafidain@yahoo.com



Dar ALRafidain دار الراfidain



daralrafidain



dar.alrafidain



dar\_alrafidain



daralrafidain دار الراfidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر  
بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 691 - 05 - 3

حاشية دار النشر:

رواية «الكراسي الاثنا عشر» الشهيرة اللامعة، لمؤلفيها إيليا إيلف ويفغيني بتروف، عن  
المُحتال الكبير أستاذ بندر، لا تحتاجُ إلى تعريفٍ، فبطلها المفضل هذا أحبه القارئ منذ زمنٍ  
بعيد، وأصبح صديقه، وتحولت أقواله إلى عباراتٍ ماثورة تُساعد القارئ على الخروج من  
مواقف الحياة الصَّعبة.

## مقدمة المترجم

«الكراسي الاثنا عشر» رواية كلاسيكية ساخرة كتبها الكاتبان السوفييتيان إيليا إيلف وييفغيني بتروف عام 1927، ونُشرت في عام 1928 في المجلة الأدبية «ثلاثون يوماً» ثم صدرت كتاباً مستقلاً في العام نفسه. وهي أول عمل أدبي مشترك للمؤلفين المشاركين. تستند حبكة الرواية الشيقة إلى البحث عن الماس المُخبأ في أحد الكراسي الاثني عشر لمدام بيتخوفا. لكن الرواية لا تقتصر على كونها رواية مغامرات بل تعطي «صورة بانورامية شاملة لعصرها وبيئتها»، بحسب رأي الباحثين، بأسلوبٍ ساخر تهكمي.

استقبلت الأوساط الأدبية السوفييتية في عشرينيات القرن الماضي الرواية بكثيرٍ من الترقب وضبط النفس والتأييد والمعارضة. لكنها لاقت قبولاً وشهرة واسعة في أوساط عامة القراء. وكان من بين الذين دعموا الرواية الكاتب يوري أوليشا، والسياسي البارز نيقولاي بوخارين، والناقد أناتولي تاراسنيكوف، وبعض الكتاب المعاصرين الآخرين لإيلف وبتروف. وتم تصويرها فيلماً سينمائياً على الشاشة في الثلاثينيات. ونُشرت في عدة طبعات خلال الثلاثينيات والأربعينيات. ولكن منذ عام 1949 وحتى أواسط الخمسينيات صدرَ قرارٌ بحظر رواية «الكراسي الاثنا عشر» ومنع تداولها بالإضافة إلى رواية المؤلفين الثانية «العجل الذهبي»، بناءً على قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في أواخر عام 1948. وقد تم رفع الحظر عن نشرها مع وصول «نيكيتا خروتشوف» إلى رئاسة الحزب والدولة السوفييتية. وحتى السبعينيات من القرن الماضي تم نشرها في طبعات عديدة وترجمت إلى عدة لغات وصُورت عدة مرات للسينما والتلفزيون في الاتحاد السوفييتي وفي بلدان أخرى. كانت رواية «الكراسي الاثنا عشر» تُنشر وتصور دائماً خلال الحقبة السوفييتية بعد حذف فصلين كاملين من الرواية (الفصل الخامس والفصل الحادي والثلاثون) وحذف عدة مقاطع وعدة صفحات من فصول أخرى (الفصول السابع عشر، الخامس والعشرون، الثلاثون، الرابع والثلاثون، السابع والثلاثون، الأربعون). وقد قُمْتُ بالإشارة في الفهرس وفي المضمون إلى مواضع الحذف. وتتالت بعد ذلك طبعات عديدة لهذه الرواية مع الحذف المذكور حتى عام 1990، نظراً لشعبيتها وطلب القراء المتزايد على شرائها.

لم تنشر الرواية كاملة إلا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، بعد عام 1992. وقد تُرجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية، كالإنكليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية وغيرها من اللغات، بصيغتها الكاملة.

اعتمد المؤلفان في روايتهما الساخرة، من أجل تصوير الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في روسيا السوفييتية في مُنتصف العشرينيات في مرحلة النيب (السياسة الاقتصادية الجديدة) التي تخلت عن كثيرٍ من مبادئ الاقتصاد الاشتراكي المركزي

وسمحت بالأعمال الخاصة والقطاع الخاص، على أسلوبٍ فني متميز يجمع بين السُّخرية، والمبالغة، وإبراز المفارقات الكبيرة والأساليب البيروقراطية السائدة في المجتمع، والتصوير الكاريكاتوري، والمحاكات وتقليد التعابير البرجوازية الصغيرة، والصَّيغ والشِّعارات الثوريَّة البروليتاريَّة المقولبة. وقد وجه النقد الأدبي السوفييتي الرسمي الانتقادات الشَّديدة رغم السماح بنشرها ورغم شعبيتها الواسعة بين أوساط القراء، حول التوجهات الأيديولوجية لمؤلفي الرواية، واستمر النقاش فترة طويلة بين الكتاب والنقاد السوفييت حولها.

كان تأثير رواية «الكراسي الاثنا عشر» كبيراً على الآداب والسينما العالمية. فقد جالت العالم كله، واقتبست الرواية، من حيث مضمونها في البحث عن الماس المخبأ في الكراسي، دون أن تطرق إلى محتواها الأيديولوجي الانتقادي الساخر، من قبل كثير من المخرجين السينمائيين والمسرحيين وظهرت أفلام سينمائية ومسرحيات ومسلسلات، منذ الثلاثينيات وحتى السبعينيات، في بولونيا وتشيكيا وبريطانيا وأمريكا وروسيا، بالاستناد إلى قصتها وأحداثها. كما اقتبس فكرتها المسلسل التلفزيوني السوري المعروف في العالم العربي «حمام الهنا» في عام 1969.

إن رواية «الكراسي الاثنا عشر» التي نقدمها مترجمة إلى اللغة العربية للقارئ العربي هي الصيغة الكاملة للرواية المنشورة في موسكو عام 2017.

الدكتور نزار عيون السود

## الإهداء

مُهداة إلى فالتين بتروفيتش كاتايڤ

## الجزء الأول أسد ستارغورود



## الفصل الأول بيزنشوك و«الحوريات»

في بلدة المقاطعة (ن) كان هناك الكثير من صالونات الجِلاقة ومكاتب الدفن، وبدا وكأن سكان هذه البلدة يولدون، كي يحلقوا ذقونهم ويقصوا شعورهم فيما بعد وينعشوا رؤوسهم بماء الكولونيا ثم يموتون على الفور. ولكن في الواقع، في بلدة مقاطعة (ن)، كان يولد الناس، ويحلقون ويموتون نادراً. كانت حياة البلدة (ن) هي الأكثر هدوءاً. وكانت أمسيات الربيع بهيجة، وكانت الأوساخ تتلأأ تحت ضوء القمر مثل فحم الأنتراسيت، وكان شباب البلدة كلها مولعين بسكرتيرة اللجنة المحلية للبلدية، لدرجة أن ولعهم هذا كان يعيقها عن تحصيل رسوم العضوية.

لم يكن هيبوليت ماتفييفتش فوروبيانينوف يهتم بمسائل الحب والموت، رغم أنه كان مسؤولاً عن هذه المسائل، بحكم طبيعة خدمته، من التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساءً، يومياً، مع نصف ساعة استراحة لوجبة الإفطار.

في الصباح، وبعد أن يشرب من كأس بارد، معرّق، حصته من الحليب الساخن، الذي تقدمه كلوديا إيفانوفنا، كان يخرج من بيته شبه المظلم إلى شارع الرفيق غوبرنسكي، المفعم بالنور الربيعي الحيوي. كان هذا أجمل شارع في بلدات المقاطعة. على الجهة اليسرى، وخلف الزجاج المموج المخضر، كانت تتلأأ توابيت مكتب الدفن «الحورية». وعلى الجهة اليمنى، خلف النوافذ الصغيرة التي انهارَ طلاؤها، كانت تضطجع متجهمة، توابيت البلوط المغبرة والمملة المخصصة للدفن والتابعة للمعلم السيد بيزنشوك. وبعدها «الحلاق المعلم بيير وكونستانتين» كان يعد زبائنه بـ «تنظيف الأظافر» و«تجعيد الشعر في المنزل». ويقع بعدها فندق مع صالون للحلاقة، وخلفه وفي مكان شاغر كبير كان يقف عجل لونه بلون القش، يلحق، بلطف، لافتة صدئة تتكى على بوابة واحدة بارزة:

### مكتب جنازي «على الرّحّب والسّعة»

رغم وجود العديد من مكاتب الدفن، لكنها لم تكن غنية بالزبائن. فقد أفلس مكتب «على الرّحّب والسّعة» قبل ثلاث سنوات من استيطان إيبوليت ماتفييفتش في بلدة (ن)، أما المعلم بيزنشوك فقد شرب فودكا مرة، وحاول ذات يوم رهن أفضل تابوت معروض لديه.

كان نادراً ما يموت الناس في بلدة (ن)، وكان هيبوليت ماتفييفتش يعرف هذا أفضل من أي شخص آخر، لأنه كان يخدم في دائرة الأحوال المدنيّة، حيث يُدير مكتب الوفيات والزواج.

كانت الطاولة التي يعمل عليها هيبوليت ماتفييفتش تشبه شاهدة قبر قديمة. وقد قضت الفران الزاوية اليسرى منها. وكانت أرجلها الضعيفة تهتز تحت عبء الأضابير المنتفخة ذات اللون التبغي بمدوناتها، التي يمكن من خلالها أخذ جميع المعلومات عن أنساب سكان بلدة (ن)، وعن أشجار النسب، التي نشأت على تربة المقاطعة الهزيلة.

في صباح يوم الجمعة 15 نيسان/أبريل 1927، استيقظ هيبوليت ماتفييفتش كعادته في السابعة والنصف، وغرس أنفه على الفور في نظارته القديمة ذات القوس الذهبي. لم يكن يرتدي نظارات. ذات مرة، قرر هيبوليت ماتفييفتش أن ارتداء النظارة الأنفية غير صحي، فتوجه إلى محل بيع النظارات الطبية، واشترى نظارات مذهب من دون إطار. أعجبه النظارات منذ المرة الأولى، لكن زوجته (قبل وقت قصير من وفاتها) وجدت أنه في هذه النظارات صورة طبق الأصل عن ميليوكوف (وزير خارجية روسيا سابقاً وعضو مجلس الدوما 1895 - 1943 م)، فأعطى النظارات للبواب. ورغم أن البواب لم يكن قصير النظر، لكنه اعتاد على النظارات، وأخذ يرتديها بسرور.

بونجور! - خاطب هيبوليت ماتفييفتش نفسه، وهو ينزل قدميه من السرير. كانت تشير «بونجور» إلى أنه استيقظ بمزاج جيد. أما إذا قال عند استيقاظه «غوت مورغن» (صباح الخير بالألمانية - م.) فهذا يعني أن كبده يؤلمه، وأن اثنين وخمسين عاماً - ليست بالعمر القليل وأن الطقس رطب في هذه الأيام.

دفن هيبوليت ماتفييفتش ساقبه الهزليتين في سرواله المفصل، وربطهما عند الكاحلين بشريطين وغمس قدميه في جزمة قصيرة ناعمة ذات أنفين مربعين ضيقين. وبعد خمس دقائق ازدهى هيبوليت ماتفييفتش بصدرية قمرية اللون، نُقشت عليها نجمة فضية صغيرة، وجاكت بيريق ألوان قوس القزح. سرح شعره الشائب المتبقي بعد غسله بقطر الندى، وهز هيبوليت ماتفييفتش شاربيه بوحشية، ولمس بتردد لحيته الخشنة، وأدار الفرشاة على شعره القصير بلون الألومنيوم، وبعد أن ابتسم باحترام، تحرّك نحو حماته كلوديا إيفانوفنا التي دخلت الغرفة.

- هيبوليت - قالت بصوت عال - اليوم رأيت حلماً سيئاً.

ونطقت بكلمة حلم (سون بالروسية - م.) باللفظ الفرنسي.

نظر هيبوليت ماتفييفتش إلى حماته من الأعلى إلى الأسفل. كان طوله يصل إلى متر وخمسة وثمانين سنتمتراً، وبمثل هذا الطول كان من السهولة عليه بمكان أن ينظر إلى حماته ببعض الازدراء.

تابعت كلوديا إيفانوفنا:

– لقد رأيت الفقيدة ماري بشعر منفوش ووشاح ذهبي.

من صوت كلوديا إيفانوفنا المدفعي اهتز المصباح الحديدي الصب مع نواته وخردقه وزينته الزجاجية المغبرة.

– أنا قلقة للغاية. أخشى أن لا يحدث شيء ما.

ونطقت بكلماتها الأخيرة بقوة، لدرجة أن الشعر على رأس هيبوليت ماتفييفتش تطاير في اتجاهات مختلفة. فجعد وجهه وقال بصورة بطيئة مفصلة:

لن يحدث شيء يا أمّاه. هل دفعت فاتورة الماء؟ تبين أنك لم تدفعي. كما أن الجزمة المطاطية (القالوش) لم تغسلها.

لم يكن هيبوليت ماتفييفتش يحب حماته. كانت كلوديا إيفانوفنا غبية، كما أن تقدمها في العمر لم يسمح بالأمل بأن تصبح ذكية يوماً ما. كانت غبية بصورة استثنائية، وفقّر هيبوليت ماتفييفتش وحده لم يسمح لها بإطلاق هذا الشعور المثير. كان صوتها يتمتع بقوة وكثافة لدرجة كان يمكن أن يحسدها عليه ريتشارد قلب الأسد، الذي كانت الخيول من صرخاته تجلس القرفصاء، كما هو معروف. علاوة على ذلك – وهذا كان الأفظع – كانت ترى الأحلام دوماً. كانت ترى في مناماتها فتيات في الزناير، وخيولاً مغطاة بأشرطة صفراء، وكناسين يعزفون على القيثارة، وملائكة في أبراج المراقبة يتجولون ليلاً، والمدقات بأيديهم، وأبر الحياكة التي تقفز في أنحاء الغرفة من تلقاء ذاتها، محدثة رنيناً مؤلماً. كان المرأة العجوز كلوديا إيفانوفنا فارغة. إضافة إلى كل هذا، نما تحت أنفها شاربان، وكل شارب كان شبيهاً بفرشاة الحلاقة.

خرج هيبوليت ماتفييفتش من المنزل منزعجاً قليلاً.

كان يقف معلم صناعة التواييت عند مدخل ورشته المتهالكة، مستنداً إلى إطار الباب، وعاقداً ذراعيه على صدره. كانت عينا المعلم، بسبب الاخفاقات المنتظمة لأعماله التجارية وبسبب الاستخدام الطويل الأمد للمشروبات الكحولية المسكرة، صفراوين لامعتين، كما لدى القط، وكانتا تحترقان بنار لا تنطفئ.

– الاحترام للضيف العزيز – صرخ بسرعة عند رؤية هيبوليت ماتفييفتش – صباح الخير!

رفع هيبوليت ماتفييفتش باحترام قبعة الجوخ الملطخة.

– كيف صحة حماتك – أسمح لي بالسؤال؟

مير – مير – مير(المقصود ميرسي – شكرا، لكنه لم يكملها – م)، – أجاب هيبوليت ماتفييفتش بغموض، وهز كتفيه المستقيمين، وتابع طريقه.

حسناً، فليمنّ الله عليها بالعافية – قال بيزنشوك بمرارة – كم سنتحمل من الخسائر، فلتذهب إلى الجحيم!

وعقد ذراعيه من جديد فوق صدره، وابتكأ على الباب.

أوقف هيبوليت ماتفييفتش مرة أخرى أمام بوابة مكتب الدفن «الحورية»

كان أصحاب المكتب ثلاثة. انحنوا ثلاثتهم لهيبوليت ماتفييفتش، وسألوا ثلاثتهم بصوت كورس عن صحة حماته.

بصحة جيدة، بصحة جيدة – أجاب هيبوليت ماتفييفتش – ماذا يجري لها! اليوم رأيت فتاة ذهبية، بشعر منفوش. هذا ما رأيته في منامها.

نظر أصحاب «الحورية» الثلاثة إلى بعضهم بعضاً وتنهّدوا بصوت عال.

أخّرت هذه المحادثات كلها هيبوليت ماتفييفتش في طريقه، ووصل إلى خدمته، خلافاً للعادة، عندما أشارت عقارب الساعة الجدارية، المعلقة فوق شعار «غادر إذا أنجزت عملك!»، إلى الساعة التاسعة وخمس دقائق.

لقب هيبوليت ماتفييفتش في دائرته، نظراً لطول قامته، وخاصة لشواربه، بماشيستي(1)، رغم أن ماشيستي الحقيقي لم يكن له شوارب.

بعد أن أخرج من درج الطاولة طرّاحة من اللباد الأزرق، وضعها هيبوليت ماتفييفتش على الكرسي، وقتل شاربیه بالاتجاه الصحيح (موازيين لاتجاه الطاولة) وجلس على الوسادة، مرتفعاً قليلاً عن زملائه الثلاثة. لم يكن هيبوليت ماتفييفتش يخشى البواسير، كان يخاف أن يبلى سرواله، لهذا كان يستخدم طرّاحة اللباد الأزرق.

كان يراقب جميع تلاعبات هذا الموظف السوفييتي وحركاته بشدة شابان – رجل وفتاة. كان الشاب الذي يرتدي سترة من القماش الصوفي مكتئباً جداً من بيئة المكتب، ومن رائحة أحبار الأليزارين الكيميائية، ومن الساعة التي كانت تدق بكثرة وبقسوة، وخاصة من المصق الصارم: «غادر إذا أنجزت عملك!». ورغم أن الرجل ذا السترة لم يبدأ عمله بعد، لكنه أراد المغادرة بالفعل. فقد بدا له أن الموضوع الذي جاء من أجله، تافهاً جداً بحيث أنه من المعيب أن يزعج من أجله مثل هذا المواطن البارز ذي الشعر الشائب، كما كان هيبوليت ماتفييفتش. وأدرك هيبوليت ماتفييفتش نفسه أن موضوع هذا الرجل القادم صغير جداً،

وأنه يمكن تأخيرها، ولهذا فتح ملف الأوراق رقم 2، وحرك المزلاج، وغاص في الأوراق. أما الفتاة في جاكيتها الطويل، ذات الضفيرة السوداء اللامعة، فكانت تهمس للرجل، محمّرة قليلاً من خجلها، وأخذت تتحرك ببطء نحو هيبوليت ماتفييفتش.

– أيها الرفيق – قالت الفتاة – أين هنا...

تنفس الرجل ذو السترة بفرح، وصرخ بصوت عال، بصورة مفاجئة:

– عقد قران!

نظر هيبوليت ماتفييفتش باهتمام إلى الحاجز الذي وقف خلفه الزوج.

– ولادة؟ موت؟

– عقد قران – كرر الرجل ذو السترة، ونظر من حوله حائراً.

انفجرت الفتاة ضاحكة. أصبح الموضوع مفهوماً. وشرع هيبوليت ماتفييفتش بالعمل ببراعة الساحر. فكتب بخط رجل عجوز أسماء العروسين في سجلات سميكة، واستجوب بصرامة الشهود الذين ركضت العروس وجلبتهم من الفناء، ونفخ طويلاً بحنان على الأختام المربعة، ووقف وطبعها على جوازي السفر المهترئين. أخذ من العروسين روبلين، وقدم لهما الإيصال، ثم قال هيبوليت ماتفييفتش مبتسماً: «نخب عقد القران»، – وارتقى بكامل طوله الجميل، وكعادته نفخ صدره إلى الأمام (كان في السابق يرتدي مشداً). كانت أشعة الشمس الصفراء الكثيفة تحط على كتفيه كالكتافيات. كان شكله مضحكاً بعض الشيء، لكنه احتفالياً بصورة غير عادية. وكانت عدستا النظارة المقعرتان تلقيان ضوءاً أبيض. كان يقف العروسان كخروفين.

أعلن هيبوليت ماتفييفتش بأناقة بالغة:

أيها العروسان بفخامة، اسمحوا لي أن أهنئكما، كما كان يقال سابقاً، بالزواج الشرعي. يسعدني جداً جداً رؤية الشبيبة مثلكم الذين يمسك أحدهما بيد الآخر، وينطلقون لتحقيق المثل العليا الأبدية. جميل جداً جداً!

وبعد إلقاء هذه الخطبة، صافح هيبوليت ماتفييفتش ידי العروسين، وجلس، راضياً عن نفسه، وتابع قراءة ملف الأوراق رقم 2.

قبع الموظفون على الطاولة المجاورة أمام محابريهم متذمرين.

بدأ المسار الهادئ ليوم العمل الوظيفي. لم يزعج أحد مكتب تسجيل الوفيات والزواج. وكان يرى من النافذة كيف كان المواطنون، المرتجفون من برد الربيع، يهرعون بقشعريرة إلى منازلهم. في منتصف اليوم تماماً، صاح الديك في المزرعة التعاونية «المحراث والمطرقة». لم يفاجأ أحد بهذا. ثم بدأ هدير المحرك المعدني ونقيقه. ومن شارع الرفيق غوبرنسكي اندفعت سحابة كثيفة من الدخان البنفسجي. وأشتد نقيق المحرك. وبسبب الدخان سرعان ما ظهرت ملامح سيارة اللجنة التنفيذية للدولة رقم 1 بمبردها الصغير وحجمها الضخم. تخبّطت السيارة في الوحل، ثم عبرت ساحة ستاروبان، وتمايلت ثم اختفت في الدخان السام. وقف الموظفون فترة طويلة عند النافذة، معلقين على ما حدث، وربطوه باحتمال تقليص ملاك الموظفين. بعد فترة من الوقت، اجتاز المعلم بيزنشوك الجسور الخشبية للمشاة بحذر. فقد أمضى أياماً طويلة متنقلاً في المدينة، مستعلماً ما إن كان أحدهم قد مات.

حان وقت الاستراحة القانونية لمدة نصف ساعة، لتناول وجبة الإفطار. فسيطر صوت القضم العميق. أما السيدة العجوز التي جاءت لتسجيل حفيدتها فطردوها إلى وسط الساحة.

بدأ الموظف الناسخ سايبجنيكوف برواية الحلقة المعروفة جيداً من قصص الصيد. ويتلخص مغزاها في أنه أثناء الصيد، من الممتع، بل ومن الضروري شرب الفودكا. وكان من المستحيل فهم شيء آخر من الموظف الناسخ.

قال له هيبوليت ماتفييفتش ساخراً:

حسناً، هذا كل شيء. لقد قلت للتو، بأنك كسرت هاتين الزجاجةتين النصفيتين... وماذا بعد؟

بعد؟ بعد، ها أنا أقول، أنه يجب إطلاق خرطوشة كبيرة على الأرنب... وقد راهنتني على هذا غريغوري فاسيليفتش بزجاجة فودكا... وها نحن شربنا الزجاجة، وأضفنا لها مائة غرام أخرى. هذا ما حصل.

قال هيبوليت ماتفييفتش متذمراً بانفعال:

– وكيف هي الأرانب؟ وقد أطلقت عليها خراطيش كبيرة؟

انتظر، لا تقاطع. وهنا يصل على العربة دونيكوف، وقد أخفى هذا الأفاق تحت القش «إوزة كاملة، اصطادها، وربعية من النبيذ...»

انفجر سايبجنيكوف ضاحكاً، كاشفاً عن لثته الشاحبة.

نحن الأربعة قضينا على «الإوزة» كلها وذهبنا للنوم، لا سيما أنه يجب الخروج للصيد منذ الفجر. نستيقظ في الصباح. لا يزال الجو مظلماً، بارداً. وبكلمة واحدة، نرتجف منتعشين... وقد وجدت عندي نصف زجاجة. شربناها. ونشعر أنها لا تكفي. نرتجف! عجوز أعطتنا عشرين روبلاً. كان هناك في القرية مشعوذة – تبيع النبيذ...

متى ذهبتم للصيد، اسمحوا لي بأن أتطفّل؟

آنذاك ذهبنا للصيد... عندما توعكت صحة غريغوري فاسيليفتش! وأنا، تعرفون، أنني لا أمرض أبداً... حتى أنني شربت قليلاً لسهولة الحركة. أما الأفاق دونيكوف فقد انطلق بالعربة مرة أخرى، وهو يقول: «لا تتفرقوا يا شباب، سأحضر الآن شيئاً ما». وأحضر بالطبع. أحضر زجاجات فودكا من عيار 40% كلها. لم يوجد غيرها في تعاونية «المطرقة». حتى الكلاب أسكرناها...

والصيد؟! الصيد! – صرخ الجميع.

وأي صيد هذا مع الكلاب السكرانة؟ – قال سابيجنيكوف، منزعجاً.

إنه ولد، – همس هيبوليت ماتفييفتش وذهب، ساخطاً، إلى طاولته.

بهذا انتهت الاستراحة القانونية للإفطار لمدة نصف ساعة.

كان يوم العمل يقترب من نهايته. فُرعت الأجراس في قبة الجرس الأصفر والأبيض، حيث تجمع البول. كان الزجاج يرتجف. وطار الغربان من قبة الجرس وانتشرت في الساحة ثم ابتعدت. وتجمدت سماء المساء فوق الساحة الفارغة.

دخل إلى المكتب شرطي ملتج أحمر الشعر في قبعة رسمية ومعطف من جلد الغنم وقبة من الوبر. كان يمسك بحذر تحت إبطه سجل تسليم صغير، مغلف بقماش ملطخ بالشحم. وبعد أن طرق الأرض بخجل بجزمته المصنوعة من جلد الفيل، اقترب من هيبوليت ماتفييفتش وانحنى بصدرة على الحاجز الرفيع.

مرحباً، أيها الرفيق – قال الشرطي بسرعة، وأخرج من سجل التسليم وثيقة كبيرة – أرسلني الرفيق الرئيس إليك كي أبلغك من أجل التسجيل.

كانت الورقة بالمضمون التالي:

«مذكرة. إلى مكتب التسجيل. الرفيق فوروبيانينوف! يوماً سعيداً. وُلد لدي ابن. في الساعة الثالثة و15 دقيقة. أرجو أن تسجله من دون دور، وبدون روتين زائد. اسم الابن – إيفان،

وبكنيتي ولقبتي. تحية شيوعية. نائب رئيس الشرطة بيريرفين».

سارع هيبوليت ماتفييفتش، من دون روتين زائد، وبدون دور (لا سيما أنه لم يكن هناك دور أبدأً) إلى تسجيل ابن الشرطة.

كانت رائحة التبغ تفوح من الشرطي، كما تفوح من بطرس الأكبر، ولم يتنفس هيبوليت ماتفييفتش الشديد الحساسية بحرية إلا بعد أن غادر الشرطي.

وكان قد حان وقت انصراف هيبوليت ماتفييفتش أيضاً. وكل من كان من الممكن أن يولد في هذا اليوم قد وُلِد، وتم تسجيله في السجلات السميكة. ولم يكن هناك أي حادث موت واحد، ما شكّل إفلاساً واضحاً لمتعهدي التوابيت. أغلق هيبوليت ماتفييفتش سجلاته، وأخفي طرأحته في الدرج، ومَشَط شاربيه بالمشط، ونوى الخروج، حالماً بالحساء الساخن، حين فُتح باب المكتب، وظهر في العتبة معلّم شؤون التوابيت بيزنشوك.

ابتسم هيبوليت ماتفييفتش قائلاً:

الاحترام للضيف العزيز... ما ستقول؟

على الرغم من إشراق الوجه الموحش للمعلم في الشفق الذي حلّ بسرعة، لكنه لم يستطع قول شيء.

حسناً؟ ما بك؟ - سأل هيبوليت ماتفييفتش بصرامة.

«الحورية»، فلتذهب إلى الجحيم، وهل تعطي بضاعة؟ - اشتكى معلم التوابيت بغموض - وهل يمكنها أن ترضي المشتري؟ التابوت - كم يتطلب من الخشب وحده...

ماذا؟ - سأل هيبوليت ماتفييفتش.

إنها شركة «الحورية»... ثلاث عائلات تعيش من محل تجاري واحد. المادة الخام عندهم لم تعد كما كانت، والزخرفة أسوأ، والفرشاة سائلة، فلتذهب إلى الجحيم. وأنا عندي - شركة قديمة. تأسست عام 1907. والتابوت عندي - كحبة الخيار، منتقى بعناية، للهواة...

ماذا بك، هل جُننت؟ - سأل هيبوليت ماتفييفتش بدمائة، وتحرك نحو المخرج - ستصاب بالذهول بين النعوش.

فتح بيزنشوك الباب بلطف، وسمح لهيبوليت ماتفييفتش بالخروج أولاً، واقتفى أثره، وكأنه يرتجف من فارغ الصبر.



عندما كان «على الرحب والسعة»، كان صحيحاً آنذاك. ولم تكن هناك شركة تنافسهم، حتى في بلدة تفير نفسها، لم تستطع الصمود أمامها أي شركة، فلتذهب إلى الجحيم. أما الآن فأقول صراحة، لا وجود لبضاعة أفضل من بضاعتي. ولا داع لأن تبحث.

التفت هيبوليت ماتفييفتش بسخط، ونظر لحظة إلى بيزنشوك بغضب، ومشى بخطوات أكثر سرعة.

ورغم عدم حدوث أية مشكلات في العمل، شعر في نفسه بالقرف.

وقف أصحاب «الحورية» الثلاثة أمام مؤسستهم في الوضعية ذاتها التي تركهم فيها هيبوليت ماتفييفتش صباحاً. وبدا وكأنهم منذ تلك الأثناء لم يقل أحدهم للآخر كلمة واحدة، لكن التغيير الجذري في وجوههم، والرضا الغامض الذي كان يلمع بغموض في أعينهم كانا يدلان على أنهم على علم بشيء ما، ذي أهمية.

عند رؤية أعدائه التجاريين، لوح بيزنشوك بيده يائساً، وهمس إثر فوروبيانينوف:

سأتنازل عن اثنين وثلاثين روبلاً.

صعر هيبوليت ماتفييفتش خده وحثّ خطاه.

– ومن الممكن الانجاز بالتقسيط أيضاً – أضاف بيزنشوك.

مالكو «الحورية» الثلاثة لم يتفوهوا بكلمة. وهرعوا صامتين في إثر فوروبيانينوف، رافعين قبعاتهم باستمرار ومنحنين باحترام.

غضب هيبوليت ماتفييفتش أخيراً من مضايقات متعهدي الدفن السخيفة، فركض أسرع من عادته إلى الشرفة، وكشط بانزعاج الأوساخ من جزمته، ولشعوره بهجمة شهيته الشديدة، دخل إلى الممر. فقابله وجهاً لوجه راعي لكنيسة الشهيدين فلور ولاور، الأب فيودور، المفعم بالدفع، خارجاً من الغرفة. وبعد أن أمسك بيده اليمنى رداء الكنيسة انطلق الأب فيودور إلى المخرج، دون أن يلتفت إلى هيبوليت ماتفييفتش...

هنا، لاحظ هيبوليت ماتفييفتش نظافة مفرطة، وفوضى جديدة تؤذي العين في ترتيب الأثاث القليل، وشعر بدغدغة في أنفه، ناشئة عن رائحة الدواء القوية. في الغرفة الأولى استقبلته الجارة كوزنتسوبا، المهندسة الزراعية. فهمست في أذنه ولوحت بيديها:

– وضعها أسوأ، لقد أدت الاعتراف للتو. لا تقرع بجزمتك.

– أنا لا أقرع – أجاب هيبوليت ماتفييفتش بخنوع. – ماذا حدث؟

زمت مدام (هكذا وردت في الأصل - م.) كوزنتسوفاً شفتيها، وأشارت بيدها إلى باب الغرفة الثانية:

- نوبة قلبية عنيفة.

وكررت بوضوح كلمات الآخرين التي أعجبتها لأهميتها، فأضافت:

من غير المستبعد احتمال النهاية المميتة. أنا طيلة اليوم أقف على رجلي. أتيت في الصباح من أجل فرامة اللحم، نظرت فرأيت الباب مفتوحاً، ولا أحد في المطبخ، ولا أحد في هذه الغرفة أيضاً، فظننت أن كلوديا إيفانوفنا ذهبت للحصول على الدقيق من أجل الكعك. فقد عزمت منذ زمن قريب. وكما تعلم، الطحين، إذا لم تشتريه مقدماً...

تحدثت مدام كوزنتسوفاً طويلاً عن الطحين، وعن الغلاء، وعن كيف أنها وجدت كلوديا إيفانوفنا مستلقية إلى جانب الموقد المكسو بالبلاط في وضعية ميتة كلياً، لكن الأئين الذي صدر من الغرفة المجاورة أصاب أذني هيبوليت ماتفييفتشش بألم. فرسم علامة الصليب بيده المتخدرة قليلاً، وأسرع إلى غرفة حماته.

(1) ماشيستى: عبد روماني ضخم الجثة في روما القديمة، وقد مثل دوره الممثل الإيطالي بارتولومو باغانو. - م.

## الفصل الثاني وفاة مدام بيتوخوفا

كانت كلوديا إيفانوفنا مستلقية على ظهرها، واضعة يدها تحت رأسها. وكان رأسها مغطى بقلنسوة نسائية سميقة بلون المشمش، كانت دارجة في الموضة في عام من الأعوام، عندما كانت ترتدي السيدات فستان «شانتيكير»<sup>(2)</sup>، وبدأن يرقصن رقصة «التانغو» الأرجنتينية.

كان وجه كلوديا مهيباً، لكنه لم يكن يعبر عن أي شيء. وكانت تحقق بعينيها في السقف.

– كلوديا إيفانوفنا – ناداها فوروبيانينوف.

حركت الحماة شفتيها بسرعة، ولكن بدلاً من أصوات البوق المألوفة لأذن هيبوليت ماتفييفتش، سمع أُنيناً ناعماً، رقيقاً ومثيراً للشفقة ارتجف له قلبه. ونزلت فجأة بسرعة من عينه دمعة لامعة، وانزلت كالزئبق على وجهه.

كلوديا إيفانوفنا – كرر فوروبيانينوف – ماذا بك؟

ومن جديد لم يتلق أية إجابة. أغلقت العجوز عينيها واستلقت على جنبها.

دخلت المهندسة الزراعية بهدوء إلى الغرفة، واقتادته من يده، كالصبي الذي يقتادونه ليغتسل.

لقد نامت. لم يسمح الطبيب بإزعاجها. وأنت، يا عزيزي، اذهب إلى الصيدلية. إليك الوصفة، واسأل كم سعر كيس الثلج.

أطاع هيبوليت ماتفييفتش مدام كوزنتسوف في كل شيء، مدركاً تفوقها الذي لا ينكر في مثل هذه الحالات.

كانت الصيدلية بعيدة. أمسك هيبوليت ماتفييفتش الوصفة بقبضة يده، ونزل إلى الشارع بسرعة، على طريقة الرياضيين.

كان قد حل الظلام تقريباً. وعلى خلفية الغروب تراءى الشكل الهزيل لمعلم التوايت بيزنشوك، المتكى على البوابة المصنوعة من التنوب، وهو يأكل الخبز والبصل. وإلى جانبه جلس القرفصاء أصحاب «الحورية» الثلاثة، وكانوا يلعبون الملاعق ويأكلون من طاسة حديدية عصيدة الحنطة

السوداء. وعند رؤيتهم لهيبوليت ماتفييفتش، نهض متعهدو دفن الموتى ووقفوا كالجنود. هز بيزنشوك كتفيه بغضب، ومد يده باتجاه المتنافسين مدمماً:

أتعثر بهم دوماً! فليذهبوا إلى الجحيم!

\* \* \*

في وسط ساحة ستاروبان، بالقرب من التمثال النصفي للشاعر جوكوفسكي، الذي حفرت على قاعدته عبارة: «الشعر هو إله في أحلام الأرض المقدسة»، كانت تدور أحاديث حارة، بسبب خبر المرض الشديد لكلوديا إيفانوفنا. وقد خلص الرأي العام لأبناء البلدة المتجمعين إلى أن «الجميع سيكون مصيرهم هناك»، وأن «الله أعطى والله أخذ».

استجاب حلاق صالون «بيير وكونستانتين» بسرور لاسمه «أندريه إيفانوفيتش»، واستغل على الفور الفرصة لإظهار معارفه الطبية، المقتبسة من مجلة «أغونيوك» الموسكوفية.

قال أندريه إيفانوفيتش:

لقد وصل العلم الحديث إلى المستحيل. خذ، مثلاً، ظهرت بثرة في ذقن الزبون. كان يصل الأمر في السابق إلى تسمم الدم، وكما يقال – لا أدري إن كان هذا صحيحاً أم لا – من المفروض أن تستخدم فرشاة معقمة خاصة لكل زبون.

تنهد أبناء البلدة تنهيدة طويلة.

هذا أنت أندريه الذي التقطت شيئاً تافهاً...

أين سمعت هذا، بحيث يكون لكل شخص فرشاة خاصة؟ إنه يخترع!

حتى أن بروسيس، بروليتاري العمل العقلي سابقاً، وعامل الكشك حالياً، قال بعصبية:

اسمح لي، أندريه إيفانوفيتش، في موسكو، وبحسب معطيات التعداد السكاني الأخير، يعيش أكثر من مليوني نسمة! هذا يعني، ثمة حاجة لأكثر من مليوني فرشاة؟ شيء غريب.

كان الحديث يتخذ أشكالا ساخنة، والشيطان وحده يعرف إلى أين يمكن أن يصل لولا ظهور هيبوليت ماتفييفتش في نهاية شارع أوسيبنايا.

ركض إلى الصيدلية مرة ثانية. الأوضاع سيئة، إذن.

ستموت المرأة العجوز. ولا عجب أن بيزنشوك يدور في المدينة مضطرباً للغاية.

وماذا يقول الدكتور؟

وأي دكتور! وهل هناك أطباء في مكتب التأمين؟ وهل سيعيدون الصحة؟

لقد كان «بيير وكونستانتين» يسعى منذ زمن لنشر خبر حول موضوع طبي، وقال وهو يلتفت خائفاً:

– الآن، القوة كلها في الهيموغلوبين.

بعد قوله هذا، صمت «بيير وكونستانتين». وصمت سكان البلدة، وكل منهم كان يفكر في أسرار قوة الهيموغلوبين.

عندما ارتفع القمر وأثار بضوئه المخضر التمثال النصفى لجوكوفسكي، أصبح من الممكن قراءة مسبّة بذيئة كُتبت على ظهره بالطباشير.

ظهرت هذه العبارة لأول مرة على التمثال في 15 حزيران/يونيو عام 1897، في الليلة التالية مباشرة بعد افتتاح النصب. ومهما حاول رجال الشرطة مسحها، كانت هذه العبارة المهينة تظهر بإتقان كل يوم.

في البيوت الخشبية ذات المصاريح الخارجية، كانت أباريق الشاي (السماور) تغرّد. لقد حان وقت العشاء. لم يضع المواطنون الوقت عبثاً، وتفرقوا إلى بيوتهم. وهبت الريح.

في هذه الأثناء، كانت كلوديا إيفانوفنا تحتضر. فكانت تطلب الماء تارة، وتقول تارة أن عليها النهوض والذهاب لجلب حذاء هيبوليت ماتفييفتش الاحتفالي من محل التصليح، وتشكي تارة أخرى من الغبار التي قد تختنق بسببه، أو تطلب إضاءة جميع المصابيح.

كان هيبوليت ماتفييفتش، الذي سئم من القلق، يمشي متجولاً في الغرفة. وقد خطرت في ذهنه أفكار اقتصادية غير سارة. كان يفكر بأن عليه أن يأخذ سلفة من صندوق المعونة المتبادلة، ويركض وراء الكاهن، ويرد على رسائل التعزية الواردة من الأقارب. ومن أجل أن يبدد همّه قليلاً، خرج إلى الشرفة. في الضوء الأخضر للقمر كان يقف بيزنشوك معلم تجهيز التوابيت.

– إذن، ما هو طلبك، يا سيد فوروبيانينوف؟ – سأله المعلم، ضاغطاً بقبعته على صدره.

– حسناً، ربما. – أجاب هيبوليت ماتفييفتش مكتئباً.

– و«الحورية»، لتذهب إلى الجحيم، وهل تعطي بضاعة!

– اللعنة عليك! سئمت منك!

أنا لا بأس. أنا أتحدث عن البطانة والزخرفة. كيف العمل، لتذهب إلى الشيطان. هل ترغب في الصنف الأول، بريما؟ أو كيف؟

بدون أي بطانة أو زخارف. تابوت خشبي بسيط. من خشب الصنوبر. فهمت؟

وضع بيزنوشوك إصبعه على شفتيه، موضحاً بذلك أنه يفهم كل شيء، واستدار، وبعد أن أصلح وضعية قبعته، لكنه كان لا يزال يتأرجح، ذهب بعيداً. وهنا لاحظ هيبوليت ماتفييفتش، أن المعلم ثمل جداً بشكل مميت.

سيطر القرف من جديد على نفس هيبوليت ماتفييفتش بشكل غير عادي. لم يكن يتصور نفسه كيف سيدخل إلى الشقة الخاوية، المليئة بالأوساخ. كان يبدو له أنه بوفاة حماته، ستختفي تلك العادات ووسائل الراحة الصغيرة التي صنعها بجهد لنفسه بعد الثورة التي اختطفت منه وسائل الراحة الكبيرة والعادات الرحبة. «هل أتزوج؟ – فكر هيبوليت ماتفييفتش – ومن من؟ من ابنة أخ رئيس الشرطة، بربارة ستيبانوفنا، شقيقة بروسيس؟ أو ربما أستاذ خادمة بيت؟ ومن أين! وستجرك إلى المحاكم. كما أنها مكلفة».

اسودت الحياة على الفور في عيني هيبوليت ماتفييفتش. وسيطر عليه الاستياء والاشمئزاز من كل شيء في الدنيا، وعاد من جديد إلى البيت.

توقفت كلوديا إيفانوفنا عن الهذيان. ولاستلقائها بصورة مرتفعة على الوسائد، بدأت تنظر إلى هيبوليت ماتفييفتش عند دخوله نظرة ذات مغزى كبير، كما بدت له، بل وبصرامة.

– هيبوليت – همست بصوت واضح – اجلس بالقرب مني. عليّ أن أخبرك...

جلس هيبوليت دون ارتياح، متأملاً وجه حماته المتعب الذي غدا نحيفاً. حاول أن يبتسم وأن يقول شيئاً ما مشجعاً. لكن ابتسامته ظهرت متوحشة، ولم يعثر على أية كلمات مشجعة. ولم يخرج من حنجرة هيبوليت ماتفييفتش سوى صرير محرج.

– هيبوليت – كررت الحماة – هل تذكر طقم الموبيليا في غرفة الضيوف عندنا؟

– أي طقم؟ – سأل هيبوليت ماتفييفتش بمجاملة لا تليق إلا بالناس شديدي المرض.

– ذاك الطقم... المنجد بالقماش الانكليزي...

– أوه، الذي كان في منزلي؟

– نعم في ستارغورود...

أذكره، أذكره جيداً... صوفا، دزينة من الكراسي، وطاولة مستديرة بستة أرجل. كان أثاثاً ممتازاً، من صنع المعلم الشهير هامبس... ولماذا تذكرتيه؟

لم تستطع كلوديا إيفانوفنا الإجابة. لكن وجهها بدأ يتلون ببطء بلون زيتي. ولسبب ما، أسر هذا روح هيبوليت ماتفييفتش أيضاً. وتذكر بوضوح غرفة الضيوف في قصره، والأثاث المصنوع من خشب الجوز، الموزع فيه بشكل متناسق، ذي الأرجل المحنيّة، والأرضية الشمعية المصقولة، والبيانو العريق ذي اللون البني، والإطارات البيضاء السوداء التي تحوي صور أقاربه الكرام على الجدران.

وهنا قالت كلوديا إيفانوفنا بصوت خشبي، غير مبالي:

– لقد خيّطت ماساتي الشخصية وأخفيتُها في مقعد الكرسي.

نظر هيبوليت ماتفييفتش إلى العجوز نظرة جانبية.

آية ماسات؟ – سألتها بصورة آلية، ثم أضاف على الفور – أولم يصادروها آنذاك، أثناء التفتيش؟

لقد أخفيت الماسات في الكرسي – كررت المرأة العجوز بعناد.

قفز هيبوليت ماتفييفتش، وبعد أن نظر إلى وجه كلوديا إيفانوفنا الحديدي من خلال مصباح الكيوسين المضاء، أدرك أنها لا تتوهم.

– ماساتك! – صاح خائفاً من قوة صوته – في الكرسي! من نصحك؟ لماذا لم تعطني إياها؟

كيف كان من الممكن أن أعطيك ماساتي عندما أضعت عقار ابنتي؟ قالت العجوز بهدوء وحقد.

جلس هيبوليت ماتفييفتش، ثم نهض على الفور. كان قلبه يرسل بضجة دقات من الدم في جسده كله. وبدأ رأسه يطنّ.

– لكنك أخرجتها من الكرسي؟ هي هنا؟

هزت العجوز برأسها سلباً.

لم ألق. أتذكر؟، كيف اضطررنا بسرعة، وبصورة مفاجئة للهروب. بقيت في الكرسي، الذي كان واقفاً بين المصباح الآجري والمدفأة.

لكن هذا جنون! كم أنت تشبهين ابنتك! - صرخ هيبوليت ماتفييفتش بأعلى صوته.

لم يعد يشعر بحرج من أنه إلى جانب سرير امرأة تحتضر، دفع الكرسي من الخلف بضجة، وأخذ يخطو خطوات سريعة قصيرة في أنحاء الغرفة. كانت العجوز تراقب بلا مبالاة تصرفات هيبوليت ماتفييفتش.

ولكن، على الأقل، هل تتصورين إلى أين يمكن لهذه الكراسي أن تصل؟ أم تظنين أنها ربما تقف بهدوء وسلام في غرفة الضيوف من منزلي وتنتظر إلى أن تأتي وتأخذين مجوهراتك؟

لم تنبس العجوز بكلمة.

سقطت النظارة من أنف كاتب الأحوال المدنية، من الغضب، وبعد أن لمعت بقوسها الذهبي على ركبتيه وقعت على الأرض.

كيف؟ كيف يمكن زرع ماسات بقيمة سبعين ألفاً في كرسي! في الكرسي الذي لا يعلم أحد من يجلس عليه!...

هنا بكت كلوديا إيفانوفنا، وارتدت بجسدها كله إلى حافة السرير. حاولت الإمساك بهيبوليت ماتفييفتش، فرسمت بيدها نصف دائرة، لكن يدها سقطت على الفور على حافة اللحاف البنفسجي.

ركض هيبوليت ماتفييفتش إلى الجارة، صارخاً من الخوف.

- إنها تُنازع، على ما يبدو.

رسمت المهندسة الزراعية علامة الصليب بسرعة، وركضت مع زوجها المهندس الزراعي الملتحي إلى منزل هيبوليت ماتفييفتش. أما فوروبيانينوف نفسه، فتجول مذهولاً في حديقة البلدة.

بينما قام الزوجان المهندسان الزراعيان بترتيب غرفة الفقيدة مع الخادمة، كان هيبوليت ماتفييفتش يتجول في الحديقة، مصطدماً بالمقاعد، وظاناً أن العاشقين المتجمدين من حب أوائل الربيع البارد دغلاً.



الشیطان وحده یعرف ماذا كان یدور فی رأس هیبولیت ماتفیفتش. كانت تتردد جوقات غجرية، وكان أوركسترا السیدات ذوات النهود الكبيرة تعزف لحن «تأنغو – أمابا»، وتصور شتاء موسكو، وجواداً طویلاً أسود، یشخر بازدراء على المشاة. تخيل هیبولیت ماتفیفتش أشياء كثيرة: سراویل داخلية برتقالية باهظة الثمن، وولاء الخدم، ورحلة محتملة إلى مدينة كان.

كان هیبولیت ماتفیفتش یخطو ببطؤ، وتعثّر فجأة بجسم معلم ورشة التوابیت بیزنشوك. كان المعلم نائماً، مستلقياً فی معطف من جلد الغنم فی عرض طریق الحديقة. استيقظ من الصدمة، وعطس ثم نهض بخفة.

من فضلك لا تقلق، یا سید فوروبیانینوف – قال بحماس، وكأنه یتابع الحديث الذي كان قد بدأه معه. التابوت یتطلب عملاً.

ماتت كلودیا إیفانوفنا – أعلمه الزبون.

حسناً، فلیرحمها ملکوت السموات – وافق بیزنشوك – توفیت العجوز، إذن... النساء العجائز یذهبن دوماً إلى العالم الآخر... أو یقدمون أرواحهم لله – هذا یتوقف على جسم العجوز. حماک، على سبیل المثال، صغيرة، لكنها سميئة – ما یعني أنها توفیت. أما العجوز الأطول والأنحف جسدياً – فتعتبر أنها تقدم روحها لله.

کیف تعتبر هكذا؟ عند من تعتبر؟

عندنا تعتبر هكذا. عند معلمي التوابیت. أنت، على سبیل المثال، رجل بارز، طویل القامة، رغم أنك نحيف. إذا ما متّ، لا سمح الله، فیقولون، إنه «عزف فی الصندوق» (وتعني أنه مات – م.). أما الرجل التاجر الكبير، من غرفة تجارة سابقة، فیقال أنه «عاش طویلاً» (ومات – م.). أما إذا كان من رتبة أقل، كالبواب مثلاً، أو أحد الفلاحین، فیقال عنه بأنه «مدّ رجلیه» (أي مات – م.). أما الأقویاء عندما یموتون، مثل قاطع تذاكر السكك الحديدية أو أحد من الرئاسة، فیقال عنه «یعطون أرواحهم لشجرة بلوط». هكذا یقال عنهم: «هل سمعتم، فقیدنا أعطى روحه لشجرة بلوط».

سأل هیبولیت ماتفیفتش، مصدوماً من هذا التصنيف الغریب للأشخاص المتوفین:

– وأنت، عندما ستموت ماذا سيقول المعلمون عنك؟

أنا إنسان صغیر. سيقولون: «سقط بیزنشوك». ولن یقولوا شيئاً آخر – وأضاف بصرامة: – من المستحيل القول – أن أعطي روحي لشجرة بلوط أو أن أعزف فی صندوق: فأنا صغیر

الحجم... وماذا بالنسبة للتأبوت، سيد فوروبانيوف؟ أحقاً، سوف تضعها في تأبوت من دون بطانة وبدون زخارف؟

لكن هيبوليت ماتفييفتش غرق من جديد في أحلامه البراقة، ولم يجب بشيء وتحرك إلى الأمام. تبعه بيزنشوك، وهو يحسب شيئاً على أصابعه، متمتماً كعادته.

غاب القمر منذ فترة طويلة. كان الجو بارداً كما في الشتاء. وتغطت برك الماء بطبقة من الجليد الهش. في شارع الرفيق غوبرنسكي، حيث خرج رفاق الطريق، كانت الريح تتعارك مع اليافتات. ومن جهة ساحة ستاروبان، ومع صوت إنزال الستائر، انطلقت عربة الإطفاء على خيول نحيلة.

أنزل رجال الإطفاء أقدامهم المغطاة بالقماش الأبيض من منصة عربة الإطفاء، وهزوا رؤوسهم في خوذهم، وأنشدوا بأصوات مقززة عمداً:

المجد لمدير إطفاء النار

المجد لرفيقنا العزيز ناسوسوف!...

في حفل زفاف كولكا، ابن مدير الاطفاء، رقصنا ومرحنا - قال بيزنشوك بلامبالاة وحك صدره من تحت المعطف - أحقاً يريد التأبوت من دون زخرفة وبدون أي شيء؟

بحلول هذا الوقت، كان هيبوليت ماتفييفتش قد قرر كل شيء: «سأذهب - قرر - وسأعثر على الماسات. وهناك سنرى». وفي أحلامه الماسية بدت له حماته الفقيدة أجمل حتى مما كانت. فالتفت إلى بيزنشوك قائلاً:

عليك اللعنة! اعمل! زخارف! مع البطانة!

(2) «شانتيكير» فستان فرنسي صممه مصمم الأزياء شانتيكير Chantecler في بداية القرن العشرين - م.

## الفصل الثالث «مرآة الآثم»

بعد أخذ الاعتراف من المحتضرة كلوديا إيفانوفنا، غادر كاهن كنيسة الشهيدين فلور ولاور، الأب فيودور فوستريكوف منزل فوروبيانينوف بضجة كاملة، واجتاز الطريق كله حتى شقته، وهو ينظر من حوله شارد الذهن، مبتسماً بارتباك. وبنهاية الطريق وصل شرود ذهنه إلى درجة أنه كاد أن يقع تحت سيارة اللجنة التنفيذية الحكومية رقم 1. وبعد أن خرج من الدخان البنفسجي الذي أطلقته السيارة الجهنمية، وصل الأب فوستريكوف إلى درجة الاستياء التام، وبالرغم من مقامه الجليل وبلوغه أواسط العمر، قطع بقية الطريق بسرعة كبيرة مستهترّة.

كانت الأم كاترينا ألكسندروفنا قد جهزت مائدة العشاء. وكان الأب فيودور في الأيام الخالية من الصلوات، يحب تناول طعام العشاء باكراً. لكنه الآن، وبعد أن خلع قبعته ورداء الكاهن الدافئ، تسلل بسرعة إلى غرفة النوم، ولدهشة زوجته، أغلق الباب على نفسه، وبصوت أصم أخذ يدندن «تستحق العناء».

جلست الأم على الكرسي وهمست بهلع:

نوى مسألة جديدة! من جديد ستنتهي كما حصل مع نيركا. نيركا كان اسم كلبة فرنسية من نوع بولدوغ، كان الأب فيودور قد اشتراها بعشرين روبلاً من سوق ميوسك بموسكو. خطط الأب لتزويج الكلبة بولدوغ من كلب سكرتير اللجنة التنفيذية، ذي الوجه الحاد وكبير الخطم، دائم العطس، ونقل النسل من الزوج المنتقى إلى موسكو وبيعه بربح للهواة.

عند رؤيتها للكلبة، شهقت زوجة الكاهن، وأعلنت بصلابتها أنها لن تسمح بإقامة «مزرعة خيول». بيد أنه كان من المستحيل إقناع الأب فيودور بالعدول عن فكرته. وخضعت كاترينا ألكسندروفنا بعد ثلاثة أيام من المشاجرة، وبدأت تربية الكلبة. كانوا يقدمون الطعام للكلبة في ثلاثة صحن. في الصحن الأول قطع مربعة من اللحم المسلوق، وفي الثاني عصيدة السميد، وفي الثالث كان الأب فيودور يضع كتلة مثيرة للاشمئزاز، يدّعي أنها تحوي نسبة كبيرة من الفوسفور. وبفضل الغذاء الجيد والتربية اللطيفة، أزهرت الكلبة نيركا ونمت وأصبحت في العمر الضروري للإنجاب. كان الأب فيودور يراقب الكلبة، ويخالطها مع كلاب البلدة البارزين، ولكنه كان حزيناً فقط لأنه لا يستطيع التحدث مع سكرتير اللجنة التنفيذية للبلدة، العلامة الكبير، كما قالوا بشؤون تربية الكلاب.

أخيراً، ألبسوا نيركا طوقاً أنيقاً جديداً مع الريش، يذكّر بمعصم الملكة المصرية كليوباترا، واقتادت كاترينا ألكسندروفنا العروس المتأنقة، بعد أن أخذت معها ثلاثة روبلات، إلى

العريس الحاصل على الميدالية. استقبل الأمير السعيد نيركا الساحرة بنباح لطيف مسموع من مسافة بعيدة.

كان الأب فيودور، الجالس عند النافذة، ينتظر بفارغ الصبر عودة الصبية. وفي نهاية الشارع لاحظ قائم كاترينا ألكسندروفنا البدينة. وعلى بعد ثلاثين ساجين (الساجين: ستة أقدام - م.) من المنزل، توقفت للحديث مع جارتها. دارت نيركا، الممسوكة بالحبل، شاردة، حول صاحبها، ورأسمة دوائر وأعداد 8 وأشكالاً متكافئة، وهي تشم أحياناً قاعدة منضدة قريبة.

ولكن بعد دقيقة، حل السخط، ومن ثم الرعب، محل كبرياء السيد المسيطرة على نفس الأب فيودور. ركض بسرعة من خلف المنعطف الكلب مارسيك الأعور الكبير الشريد، والمعروف بدعارته في الشارع كله. لوح بذيله المبروم المستلقي على ظهره، وقفز اللقيط على نيركا بنوايا خبيثة.

قفز الأب فيودور على كرسيه ساخطاً. أما كاترينا ألكسندروفنا، المنشغلة بالحديث، لم تلاحظ شيئاً مما يجري خلف ظهرها. دُعر الأب فوستريكوف، وأخذ عصا من المدخل، وركض إلى الشارع. كان المشهد الذي برز أمام نظره درامياً للغاية. كانت كاترينا ألكسندروفنا تركض حول الكلبين، صارخة: «أذهب! انقلع! اذهب!» - وضربت بمظللتها ظهر مارسيك القوي. لم يعر الكلب أي اهتمام لضربها. فقد كانت أفكاره بعيدة. وأسرع فيودور لإنقاذ ثروته المقبلة، ولكن كان قد فات الأوان. وهرب الكلب مارسيك بعيداً على قوائمه الثلاثة.

في المنزل حدث مشهد قاس كبير، مليء بكثير من التفاصيل الصعبة. كانت زوجة الكاهن تبكي. وكان الأب فيودور ساكناً بغضب، ينظر باشمئزاز إلى الكلبة المدنسة. لم يبق إلا بصيص ضعيف من الأمل بأن جراء نيركا ستأتي من جهة كلب سكرتير اللجنة التنفيذية.

بعد فترة الحمل المخصصة، ولدت نيركا ستة جراء ممتازة كبيرة الوجه، عريضة الجانبين من سلالة بولدوغ النقية، ولكن كان لديها عيب صغير: لدى كل جرو كان هناك ذيل كبير أسود مبروم على ظهره. وبهذا الذيل المبروم الذي يشبه البسكويت انهارت إمكانية بيع نسل الكلبة بسعر مريح. أهدوا الجراء. وأخضعوا نيركا لعزلة صارمة وبدأوا من جديد انتظار النسل. في الليالي، وكذلك في الصباحات، لأيام وليال، كان الكلب الداعر مارسيك يمشي تحت نوافذ الأب فوستريكوف ببطء، محدقاً بعينه الوقحة الوحيدة في النافذة، ونابحاً بحزن وشكوى.

وعلى الرغم من نظام الحجز والروبلاات الثلاثة الجديدة، المصروفة على كلب السكرتير، جاء الجيل الثاني من الجراء أكثر شبهاً بالكلب الشريد مارسيك. حتى أن أحد الجراء وُلد أعوراً، بعين واحدة. كان نجاح هذا الكلب المتشرد غير مفهوم أبداً. ومع ذلك فقد جاء

الجيل الثالث من الجراء (وكان عددها اثنا عشر جرواً) صورة طبق الأصل من مارسيك، ولم تأخذ الجراء من زيارات أمها نيركا لكلب رئيس اللجنة التنفيذية الحائز على الجائزة، إلا القوائم المائلة. أراد الأب فوستريكوف المنفعل غضباً رفع دعوى، ولكن بما أن الكلب مارسيك كان شريداً، ولم يكن له صاحب، لم يتمكن من رفع أي دعوى. وهكذا انهارت «مزرعة الخيول» وأحلامه بالدخل الدائم الثابت.

كانت روح الأب فيودور المتهورة لا تعرف الراحة. ولم تعرفها قط. لا عندما كان طالباً في المدرسة اللاهوتية، فيديا(فيودور)، لا عندما كبر وأصبح لاهوتياً بشاربين، فيودور إيفانيتش. بعد أن انتقل من مدرسة اللاهوت إلى الجامعة ودرس في كلية الحقوق ثلاث سنوات، خاف فوستريكوف من تعبئة محتملة في الجيش فتابع من جديد تعليمه في المجال الروحي. عُيِّن في البداية شماساً، ثم سمي كاهناً وعُيِّن في بلدة المقاطعة(ن). ودوماً، في جميع مراحل وظيفته الروحية والمدنية، بقي الأب فيودور جشعاً، طامعاً بالمال.

كان الأب فوستريكوف يحلم بامتلاك معمل للشمع. ولتمزقه من رؤية براميل المصانع الكبيرة، التي تلف حبال الشمع السميكة، ابتكر الأب فيودور مشاريع مختلفة، كان من المفروض أن يمنحه تنفيذها رأس المال الأساسي والمضاف لشراء معمل صغير كان قد شاهده في سماري.

كانت الأفكار تلوح في رأس الأب فيودور فجأة، وكان يشرع فوراً في العمل. بدأ الأب فيودور بطبخ صابون غسيل الرخام، وطبخ منه عشرات الكيلوغرامات، لكن الصابون ورغم احتوائه على نسبة كبيرة من الدهون لم يكن يغسل ولا ينظف الرخام، علاوة على أن سعره كان أعلى بثلاث مرات من سعر صابون تعاونية «المحراث والمطرقة». ثم ترطب الصابون بعد فترة طويلة في مدخل المنزل وتحلل، حتى أن كاترينا ألكسندروفنا كانت تتساقط دموعها عندما كانت تمر من جانبه. ثم رموا الصابون في البالوعة.

بعد قراءته في مجلة من مجلات الثروة الحيوانية، أن لحم الأرانب طري، كلحم الفروج، وأن الأرانب تتكاثر بأعداد كبيرة، وأن تربيتها يمكن أن تجلب أرباحاً كبيرة للمالك الغيور، اشترى الأب فيودور على الفور نصف دزينة من الأرانب المنتجة، وبعد شهرين خافت الكلية نيركا من الأعداد الهائلة للمخلوقات ذات الأذنين الطويلتين، التي ملأت المنزل والفناء، فهربت إلى جهة مجهولة. وتبين أن سكان بلدة (ن) الملاعين محافظين للغاية، وباستثناءات نادرة، لم يشتروا أرانب فوستريكوف. عندها قرر الأب فيودور، وبعد أن تحدث مع زوجته، تزيين وجبات طعامه بلحم

الأرانب، الذي يفوق بطعمه لحم الفراريج. وأخذوا يحضرون من لحم الأرانب اللحوم المشوية، والكريات المقلية من اللحم المفروم، والشرحات المقلية؛ وغلوا لحم الأرانب مع

الحساء، وقدموه بارداً مع طعام العشاء، وخبزوه في الفرن مع العجين. لكن هذا لم يؤد إلى أي شيء. وأحصى الأب فيودور، أنه في حال الانتقال إلى لحم الأرانب حصرياً في قائمة الطعام، فإن الأسرة تستطيع أن تستهلك في الشهر ما لا يزيد على أربعين أرنباً، في حين أن التوالد الشهري للأرانب يبلغ تسعين أرنباً، زد على ذلك أن هذا العدد سوف يتضاعف شهرياً بمتواليات هندسية.

عند ذلك قرر آل فوستريكوف تقديم وجبات منزلية. أمضى الأب فيودور المساء كله في الكتابة بقلم كيميائي على أوراق مقطوعة بدقة حسابية للإعلان عن تقديم وجبات غداء لذيدة، محضرة حصراً بالزبدة البقرية الطازجة. وقد بدأ الإعلان بالعبارة: «رخيص ولذيذ». ملأت زوجة الكاهن صحناً مطلياً بالمينا بعجينة الطحين اللاصقة، وفي وقت متأخر من المساء علق الأب فيودور الإعلانات على جميع أعمدة البرق وبالقرب من المؤسسات السوفييتية. وقد حقق المشروع الجديد نجاحاً كبيراً. ففي اليوم الأول جاء سبعة أشخاص، بمن فيهم رئيس مكتب التسجيل في مديرية التجنيد بندين، ورئيس قسم المرافق العامة كوزلوف، والذي بفضلته تم هدم النصب التذكاري الوحيد من العصر القديم - قوس النصر من عصر إيليزابيت، الذي كان، حسب قوله، يعيق حركة المرور في الشوارع. حازت وجبة الغداء على إعجاب الجميع. وفي اليوم التالي حضر أربعة عشر شخصاً. لم يكن يتوفر لديهم الوقت لنزع الجلد عن الأرانب. وقد سارت الأمور بصورة رائعة طيلة أسبوع، وفكر الأب فيودور بفتح مصنع صغير لإنتاج الفراء، من دون محرّك، عندما وقع حادث غير متوقع أبداً.

فتحت تعاونية «المحراث والمطرقة» أبوابها، بعد إغلاق استمر ثلاثة أسابيع بمناسبة إعادة جرد البضاعة، والعاملون في الكشك، المتعبون من العمل، رموا في فناء التعاونية الخلفي، المشترك مع فناء الأب فيودور، برميلاً من الملفوف الفاسد المحمّض في حفرة في الفناء. انجذبت الأرانب إلى الرائحة اللاذعة وتراكضت نحو الحفرة، وفي صباح اليوم التالي بدأ وباء الطاعون ينتشر بين الأرانب القارضة. استمر هذا المرض المعدي ثلاث ساعات فقط، لكنه قضى على مائتين وأربعين أرنباً كبيراً وعلى عدد لا يحصى من الأرانب الصغيرة.

هدأ الأب فيودور المذهول لمدة شهرين كاملين، ولم تتدفق الروح فيه إلا الآن، وهو عائد من منزل فوروبيانينوف، حيث أغلق غرفة النوم على نفسه وسط دهشة زوجة الكاهن. كان كل شيء يشير إلى أن فكرة جديدة أشرقت على الأب فيودور، وسيطرت على روحه كلها. طرقت كاترينا ألكسندروفنا باب غرفة النوم بعظمة إصبعها المثنية. فلم تتلق أي جواب، بل زاد تغريده. وبعد دقيقة، فُتح الباب قليلاً، ومن شق الباب ظهر وجه الأب فيودور متورد الخدين.

– اعطني يا أماه، مقصاً بسرعة – قال الأب فيودور مسرعاً.

– وماذا بالنسبة لطعام العشاء؟

– حسناً. فيما بعد.

أمسك الأب فيودور بالمقص، وأغلق الباب على نفسه مرة أخرى واقترب من مرآة الحائط ذات الإطار الأسود المخدوش.

إلى جانب المرآة كانت معلقة لوحة شعبية قديمة «مرآة الآثم» مطبوعة على صفيحة نحاسية ومرسومة باليد بشكل جميل. لقد أدخلت «مرآة الآثم» الطمأنينة إلى قلب الأب فيودور خاصة بعد فشله بالأرانب. أظهرت الصورة بوضوح هشاشة كل ما هو أرضي. كانت هناك أربع لوحات صغيرة على طول الصف العلوي من الصورة، موقعة بالخط السلافي، ذات مغزى مهدئ للخواطر: «سام يصلي، وحام يزرع القمح، يافث يمتلك السلطة. الموت يحصد الجميع». وقد صُوِّر الموت بجناحين، وهو يحمل منجلاً وساعة رملية. وكان يبدو وكأنه مصنوع من أطراف صناعية، واقفاً بقدمين متباعدتين على تلة خاوية. وكان منظره يعبر بوضوح، على أن الفشل في الأرانب مسألة فارغة، تافهة.

وقد حازت على إعجاب الأب فيودور أكثر من أي شيء آخر لوحة «يافث يمتلك السلطة». كان يبدو رجلاً غنياً بديناً ذا لحية، جالساً على العرش في صالون صغير.

ابتسم الأب فيودور، ونظر باهتمام إلى نفسه في المرآة، وبدأ يشذب لحيته الجميلة. سقط شعره على الأرض، وكان المقص يصدر صريراً، وبعد خمسة دقائق اقتنع الأب فيودور أنه لا يعرف أبداً كيف يشذب لحيته. فقد بدت لحيته منجرفة من جهة، وفاحشة بل ومريبة أيضاً.

بعد أن تردد قليلاً أمام المرآة، غضب الأب فيودور، ودعا زوجته، ماداً لها المقص، وهو يقول بانزعاج:

– ساعديني أنتِ على الأقل، أيتها الأم، لا يمكنني أبداً التعامل مع شعري.

أرجعت زوجة الكاهن يديها إلى الوراء من الدهشة.

– ماذا فعلت بنفسك؟ – نطقت أخيراً.

– لم أفعل أي شيء. أقص شعري. ساعديني، من فضلك. وكأن الشعر هنا مائل...

يا إلهي – قالت زوجة الكاهن وهي تقص صفائر الأب فيودور، – أحقاً يا فيديا، أنت تنوي الانتقال إلى دعاة التجديد؟

فرح الأب فيودور بهذه الوجهة التي اتجه إليها الحديث.

– ولماذا، أيتها الأم، لا أنتقل إلى المجددين؟ أليس المجددون بشرًا؟

بشر بالطبع، بشر – وافقت زوجة الكاهن بصورة لازعة – بالطبع، إنهم يمارسون ألعاب الخفة، ويركضون وراء الأوهام، ويدفعون نفقة الزوجة المطلقة...

وأنا سوف أركض وراء الأوهام.

اركض، من فضلك.

سأركض.

وسترهق نفسك. انظر إلى نفسك في المرأة.

وبالفعل، ظهر من المرأة التي نظر إليها الأب فيودور وجه نشيط حيوي، بعينين سوداوين، ولحية صغيرة جامحة وشاربين طويلين سخيقيين.

وشرعا بتقليم الشاربين وجعلهما بحجمين متناسبين.

ما أعقب ذلك أثار أكثر دهشة زوجة الكاهن. أعلن الأب فيودور أنه سيسافر هذا المساء بشأن عمل، وطلب من كاترينا ألكسندروفنا بأن تركض إلى أخيها – الخبار وتستعير منه لمدة أسبوع المعطف بقبة جلد الخروف وقبعة قماشية بنية اللون.

– لن أذهب إلى أي مكان – أعلنت زوجة الكاهن وشرعت في البكاء.

تجول الأب فيودور في الغرفة نصف ساعة، مدخلاً الخوف على قلب المرأة بوجهه المتغير، وهو ينطق بالترهات. فهمت زوجة الكاهن شيئاً واحداً فقط: أن الأب فيودور قص شعره، دون أي سبب، ويريد بالقبعة الملعونة أن يسافر إلى جهة مجهولة، ويهجرها.

لا أهجرك – كرر الأب فيودور مؤكداً – لا أهجرك، سأعود بعد أسبوع. أليس من الممكن أن يكون هناك عمل لدى الإنسان. ممكن أم لا؟

غير ممكن – قالت زوجة الكاهن.

اضطر الأب فيودور، الوديع في التعامل مع المقرّبين، إلى أن يضرب بقبضته على الطاولة. ورغم أنه ضرب الطاولة بحذر وبشكل أخرق، لأنه لم يفعل هذا أبداً من قبل، فقد شعرت



زوجة الكاهن بخوف شديد، ووضعت منديلها على رأسها، وركضت إلى أخيها من أجل الملابس المدنية.

عندما أصبح وحيداً، فكر الأب فيودور في نفسه وقال: «النساء أيضاً يعانين الصعوبات»، وسحب من تحت السرير صندوقاً مغطىً بالصفيح. مثل هذه الصناديق تتواجد غالباً لدى رجال الجيش الأحمر. ويلصق عليها في الداخل أوراق جدران مخططة، تتربع فوقها صورة القائد الشعبي الروسي بوديوني أو لوحة من أوراق سجائر «بلاج» مع ثلاث فتيات حسانوات، مستلقيات على شاطئ باطوم المرصوف بالحصى. وقد ألصقت على صندوق آل فوستريكوف الصور كذلك، وهذا ما أثار استياء الأب فيودور، ولكن لم يكن بينها لا صورة بوديوني ولا صور حسانوات باطوم. فقد كانت زوجة الكاهن قد ألصقت في داخل الصندوق صوراً مقتطعة من مجلة «تاريخ حرب عام 1914». وكان من بينها صور «احتلال قلعة برزيميسل» (3) و«توزيع الملابس الدافئة على الرتب العسكرية الصغيرة في المواقع»، وصور أخرى عديدة.

بعد أن وضع على الأرض الكتب المرصوفة على سطح الصندوق: مجموعة مجلة «الحاج الروسي» لعام 1903، والكتاب السميكة «تاريخ الانشقاق»، وكتيب «روسي في إيطاليا»، الذي صُوِّر على غلافه بركان فيزوف المدخن، أدخل الأب فيودور يده إلى قعر الصندوق وسحب قبعة بالية لزوجته. ضاق صدر الأب فيودور من رائحة النفثتين التي أتت من قاع الصندوق، فمزق الدانتيل والغرز في القبعة، حيث يوجد بداخلها أسطوانة قماشية ثقيلة. كانت تحتوي هذه الأسطوانة على عشرين قطعة من فئة العشر روبلات ذهبية – وهي كل ما تبقى من مغامرات الأب فيودور التجارية.

وبحركة معتادة من يده، رفع نصف ثوبه وأدخل الأسطوانة في جيب سرواله المخطط. ثم اقترب من الخزانة وأخذ من علبة الحلوى خمسين روبلاً من فئتي الثلاث والخمس روبلات. وبقي في العلبة عشرون روبلاً.

تكفيها لأموال المعيشة – قرر الأب فيودور.

(3) في شهر آذار/مارس عام 1915 احتل الجيش الروسي القيصري قلعة برزيميسل الخاضعة لإمبراطورية النمسا – هنغاريا بعد حصار دام ستة أشهر أثناء الحرب العالمية الأولى. – المترجم.

## الفصل الرابع ربّة الرحلات البعيدة

قبل ساعة من وصول قطار البريد المسائي، كان الأب فيودور، في معطف قصير بالكاد يغطي الركبتين، وسلّة مجدولة، يقف في الطابور أمام شبّاك التذاكر، وينظر بخوف إلى أبواب الدخول. كان يخشى أن تأتي الأم، خلافاً لإلحاحه، إلى المحطة لتوديعه، وعندها سيعرفه فوراً صاحب الخيمة بريسوس، الجالس في البوفيه، والذي يقدم البيرة للمندوب المالي. كان الأب فيودور ينظر، بدهشة وخجل، إلى سرواله المخطط المكشوف لنظرات جميع الناس.

تمشّى عميل قسم المواصلات للإدارة السياسية للدولة ببطء في القاعة، وهداً المشاجرة التي نشأت في الطابور بسبب المكان وبدأ باصطياد المشردين الذين تجرؤوا على الدخول إلى قاعة الدرجتين الأولى والثانية، وهم يعزفون بالملاعق الخشبية «كانت هناك روسيا، كانت دولة عظمتى».

أمضى أمين الصندوق، المواطن الصارم، وقتاً طويلاً يحسب في المحسب، وأضاف على التذكرة أرقاماً، ولدهشة جميع الواقفين في الطابور، كان يعطي الباقي قطعاً نقدية صغيرة تافهة بدلاً من الطوابع الخيرية لصالح الأطفال.

كان الركوب في قطار من دون مقاعد فضائحي الطابع عادة. وكان الركاب المنحنون تحت ثقل أكياسهم الكبيرة، يركضون من رأس القطار إلى ذيله ومن الذيل إلى الرأس. وكان الأب فيودور يركض بجنون مع الجميع. ومثله مثل الآخرين، كان يتحدث مع الموظفين المرافقين بصوت باحث، ومثله مثل الجميع، كان يخشى من أن أمين الصندوق أعطاه التذكرة «الخطأ»، وبعد أن سُمح له أخيراً بالدخول إلى العربة، عاد إلى هدوئه المألوف بل وابتهج أيضاً.

صاحت القاطرة بكامل صوتها، وتحرك القطار، ناقلاً الأب فيودور إلى جهة بعيدة غير معروفة، من أجل عمل غامض، لكنه واعد، على ما يبدو، بفوائد كبيرة.

إن قطاع الغتراب أمر مثير للاهتمام. فالمواطن العادي نفسه، عندما يدخل فيه، يشعر في نفسه ببعض المتاعب، وسرعان ما يتحول إما إلى راكب، وإما إلى مستلم الشحن، وإما إلى مجرد سكيّر بلا تذكرة، يعكّر صفو حياته وعمله الوظيفي بفرق قاطعي التذاكر ومراقبي أرصفة المحطات.

منذ تلك اللحظة التي يدخل فيها المواطن قطاع الغتراب، الذي يدعوه بصورة سطحية، محطة قطار أو موقف قطار، تتغير حياته بصورة حادة. فيركض إليه على الفور الحمّالون

بمازهرهم البيضاء وشاراتهم المطلية بالنيكل على صدورهم ويلتقطون منه أمتعته بلطف. ومنذ هذه اللحظة لا يعدّ المواطن مالكا لنفسه. إنه راكب، ويبدأ بأداء جميع التزامات الراكب. وهذه الالتزامات والمسؤوليات معقدة، لكنها ممتعة.

الراكب يأكل كثيراً. البشر البسطاء العاديون لا يأكلون ليلاً، لكن المسافر يأكل في الليل أيضاً. إنه يأكل الفروج المشوي المفضل لديه، ويأكل البيض المسلوق القاسي، الضار للمعدة، والزيتون. عندما يقطع القطار السهم ويسرع في سيره تتطاير أباريق الشاي العديدة على الرفوف، وتقفز الفراريج، المقطوعة الرجلين من جذورها من قبل الراكب، والملفوفة بأكياس من أوراق الصحف.

لكن الراكب لا يلاحظون أي شيء من هذا. إنهم يحكون النكات. وتضج العربّة بأكملها كل ثلاث دقائق بانتظام من الضحك. ثم يسود الصمت، ويبدأ صوت مخملي برواية النكتة التالية.

يهودي عجوز يحتضر. هنا تقف الزوجة، والأولاد. «مونيا، هل هي هنا؟» - يسأل اليهودي بصوت ضعيف. «هنا». - «وهل جاءت العمّة برانا؟» - «جاءت». - «وأين الجدة؟ أنا لا أراها». - «ها هي واقفة». - «وإسحاق؟». - «إسحاق هنا». - «والأولاد؟» - «ها هم جميعاً هنا». - «ومن بقي في الدكان؟!».

في هذه الثانية بالذات، تبدأ أباريق الشاي بالقعقة، والفراريج تطير في الرفوف العليا، منزعة من القهقهة التي تشبه الرعد. لكن الراكب لا يلاحظون هذا. ولدى كل منهم في صدره نكتته العزيزة على قلبه، التي تستعد وتنتظر دورها. راوي جديد يدفع بكوعه جيرانه، ويصرخ متوسلاً: «لقد رووا لي!» - يستحوذ بصعوبة على الاهتمام ويبدأ:

يهودي يرجع إلى بيته وينام على السرير مع زوجته. فجأة يسمع - شخص ما يخدش تحت السرير. يُنزل اليهودي يده تحت السرير ويسأل: «هذا أنت، يا جاك؟» «فلعق جاك يده وأجاب: «هذا أنا».

يموت الراكب من الضحك، والليل المظلم يغطي الحقول، ومن مدخنة القاطرة تطير الشرارات الدائرة، وتمر إشارات المرور الرفيعة، في زجاجها الأخضر المتوهج، مرور الكرام، ناظرة من فوق القطار.

إن قطاع الاغتراب أمر مثير للاهتمام! إلى جميع أطراف البلاد تركز القطارات الطويلة الثقيلة، البعيدة المدى. الطريق مفتوحة في كل مكان. في كل مكان النور الأخضر متوهج - الطريق حرة فارغة. القطار القطبي السريع ينطلق إلى مورمنسك. ومن محطة سكة الحديد كورسك، ينطلق «القطار ك - 1» متعرجاً ودائراً أمام السهم، ممهداً الطريق إلى تفليس.

يدور قطار الشرق الأقصى البريدي حول بحيرة بايكال، مقترباً بسرعة من المحيط الهادي.

إن ربة الرحلات البعيدة تغري الإنسان. فقد اقتلعت الأب فيودور من دير البلدة الهادي ورمته في مقاطعة لا يعلمها إلا الله. حتى أن هيبوليت ماتفييفتش فوروبيانينوف، مشير النبلاء السابق، ومسجل الأحوال المدنية حالياً، ساوره قلق شديد في أعماقه وخطرت بذهنه أشياء لا يعلمها إلا الشيطان.

تنقل الناس إلى جميع أنحاء البلاد. أحدهم يعثر على بعد عشرة آلاف كيلو متر عن مكان عمله على خطيبته المشرقة. وآخر، سعيّاً وراء الثروة، يهجر مكتب البريد والبرق، ويركض مثل التلميذ نحو «ألدان» (مدينة في ياقوتيا بسيبيريا - م.). وثالث يبقى جالساً في بيته، يمسّد بحب فتقه المستفحل ويقرأ مؤلفات الكونت سالياس(4) التي اشتراها بخمسة كوبيكات بدلاً من ثمنها الحقيقي وهو روبل.

\* \* \*

في اليوم الثاني بعد الجنازة، التي أخذها على عاتقه بكل لطف معلم التوابيت بيزنشوك، توجه هيبوليت ماتفييفتش إلى دائرته، وتنفيذاً للمسؤوليات والمهام الملقاة على عاتقه، سجل بيده وقلمه، وفاة كلوديا إيفانوفنا بيتوخوفا، تسعة وخمسون عاماً، ربة منزل، غير حزبية، من سكان بلدة مقاطعة(ن)، وتنحدر من نبلاء مقاطعة ستارغورود. ثم طلب هيبوليت ماتفييفتش لنفسه الإجازة القانونية التي يستحقها لمدة أسبوعين، وحصل على واحد وأربعين روبلاً مستحقات الإجازة، وبعد أن ودع زملاءه الموظفين، توجه إلى المنزل. وفي طريقه استدار نحو الصيدلية.

كان الصيدلاني ليوبولد غريغوريفيتش، الذي يدعوه أهله وأصدقاؤه باسم «ليبا»، يقف خلف منضدة حمراء لامعة، محاطاً بعلب الحليب التي تحتوي على السم، وكان يبيع بعصبية لشقيقة زوجته، رئيسة فريق الإطفاء، «كريم أنغو، ضد الاسمرار والنمش، ويكسب الجلد بياضاً استثنائياً». لكن شقيقة زوجته رئيسة فريق الإطفاء كانت تطلب «بودرة راشيل ذات لون ذهبي، تعطي الجسم اسمراراً متكافئاً لا يمكن تحقيقه في الطبيعة». ولكن لم يكن يوجد في الصيدلية إلا كريم أنغو ضد الاسمرار، واستمر الصراع بين المنتجين العطريين المتعارضين نصف ساعة. وانتصر ليبا رغم كل شيء، الذي باع لشقيقة زوجته رئيسة فريق الإطفاء أحمر الشفاه وجهاز تبخير البق - وهو جهاز مصنوع على مبدأ السماور، ولكن له شكل القمع.

هل تروك شنغهاي. - سأل ليبا هيبوليت ماتفييفتش - لا أريد أن أكون الآن في هذه المستوطنة.

الانكليز أوغاد، - أجاب هيبوليت ماتفييفتش - هذا ما يستحقونه. كانوا دائماً يبيعون روسيا.

هز ليوبولد غريغوريفيتش كتفيه متعاطفاً، وكأنه يقول: «ومن لم يبيع روسيا؟» - وبأشرف عمله.

- ماذا تريد؟

- منتج للعناية بالشعر.

- للنمو، للقص، أو للصبغة؟

- أي نمو هناك؟ - أجاب هيبوليت ماتفييفتش - للصبغة.

للصبغة ثمة منتج رائع «تيتانيك». استلمناه من الجمارك. بضاعة مهربة. لا يزول لا بالماء البارد ولا الساخن، ولا بالصابون، ولا بالكيروسين. لون أسود ثابت. تكفي الزجاجة لمدة ستة أشهر، ثمها ثلاثة روبلات واثنا عشر كوبيكاً. أوصيك بها باعتبارك صديقاً جيداً.

قلّب هيبوليت ماتفييفتش بين يديه حنجور «تيتانيك» المربع، ونظر متنهداً إلى العلامة الملصقة ووضع النقود على الطاولة.

إنهم سيأخذون هينان (إقليم في الصين عاصمته شنغهاي - م.) كلها قريباً هؤلاء المستوطنون - قال ليبا مودعاً - أعلم أنهم أخذوا سواتو (شانتو - مدينة في الصين - م.)، أليس كذلك؟

عاد هيبوليت ماتفييفتش إلى المنزل، وأخذ يسكب «تيتانيك» على شعره وشاربيه بتقزز. وانتشرت في الشقة رائحة كريهة.

بعد الغداء، خفّت الرائحة الكريهة، وجف الشاربان، والتصق الشعر فيهما ببعضه، وكان تمشيطهما يتم بصعوبة كبيرة. وتبين أن اللون الأسود الثابت يميل إلى الاخضرار، ولكن لم يكن هناك وقت لصبغة الشعر والشاربين ثانية.

أخرج هيبوليت ماتفييفتش من صندوق حماته قائمة الجواهر التي عثر عليها في اليوم السابق، وقام من جديد بعد النقود الموجودة، وأغلق الشقة، وخبأ المفاتيح في جيبه الخلفية، ودخل إلى القطار السريع رقم 7، وسافر إلى ستارغورود.

(4) سالياس: الكونت سالياس دو تورنيمير. كاتب روسي (1840 - 1908) وروائي، كتب العديد من الروايات. م.

## الفصل الخامس ماضي مسجل الأحوال المدنية

في أسبوع المرافع عام 1913 وقع في مدينة ستارغورود حدث أثار قلق الفئات التقدمية من المجتمع المحلي.

في مساء الخميس جرى عرض برنامج فخم في مقهى «سالفى» وفي قاعات مزينة فاخرة:

### فرقة ألعاب الخفة المشهورة عالمياً:

10 من اللاعبين العرب!

ستنس – أعظم ظاهرة في القرن العشرين

غامض! لا يدرك! رهيب!!!

ستنس – الرجل الغامض!

لاعبو البهلوانات الإسبان المذهلون.

ونحن (الروس – م.)!

بريزينا – ممثلة من المسرح الباريسي فولى – بيرجير!

الأخوات درافير وعروض أخرى.

اندفعت الأخوات دارفير (وهن ثلاث أخوات) في مشهد صغير، كانت تصوّر خلفيته حديقة فرساي، وغنّين بلهجة سكان حوض الفولغا:

نحن أمامكم، مثل الطيور،

نرفرف بسهولة هنا،

والحشد يصفق لنا.

والمجتمع الراقى فرح كله بنا.

بعد أداء هذا المقطع، ارتجفت الشقيقات، وأمسكن بأيدي إحداهن الأخرى وبمصاحبة أصوات البيانو المتزايدة في الارتفاع أنشدن بقوة بصوت واحد:

نحن نطير

نحن لا نعرف الدموع

كل واحد يعرفنا -

الذكي والأحمق.

لم يترك الرقص المستमित للثلاثي درافير ولا ابتساماتهن الساحرة أي أثر على الأوساط الطليعية من مجتمع ستارغورود. فهذه الأوساط، الممثلة في المقهى بصورة رئيسة، بالمستشار العام لدوما (مجلس نواب - م.) المدينة شاروشنيكوف وابنة عمه، وتاجر النقابة أنغيلوف، الذي كان جالساً في حالة ثمالة مع ابنتي عمه في ثياب تنكرية، ومهندس المدينة المعماري، وطبيب المدينة، وثلاثة من الإقطاعيين الملاكين والكثير من الأشخاص الأقل بروزاً مع بنات عماتهم وبدونهن، ودّعوا الثلاثي درافير بتصفقات جنائزية، وانغمسوا من جديد في أفراح «العشاء العائلي الاحتفالي مع شمبانيا موم (الشريط الأخضر) بروبلين لكل شخص».

على الطاولات، وفي رفوف خاصة من المعدن الأبيض، كانت تبرز قوائم الطعام الجذابة الزرقاء، وقد دفع مضمونها التاجر أنغيلوف إلى ملل مخمور قاس، وكانت مغرية وغير عادية لشاب عمره سبعة عشر عاماً، كان يجلس بجوار خشبة المسرح مع ابنة عمه الناضجة جداً، وغير المكلفة.

قرأ الشاب قائمة الطعام والشراب مرة أخرى: «سمك مقلي. فروج مشوي. خيار مملح قليلاً. حلويات - كلاسيه جان دارك. شمبانيا موم (الشريط الأخضر). للسيدات - باقات ورد». وازنَ في عقله مبالغ يعرفها هو وحده، وطلب بخجل عشاء لشخصين. وبعد نصف ساعة أخرج النادل بطرس المتقدم في السن، الشاب الذي شرع يبيكي، وقد كشفه التاجر أنغيلوف بصوت عال، بأنه طالب مدرسة ثانوية متنكر، وابن البقال دميتري ماركيلوفيتش، مؤنباً إياه بسخط: «إذا كنت لا تملك ما يكفي من النقود، لماذا تطلب الفواكه. إنها غير واردة في القائمة. وسعرها خاص». سارت ابنة عمه، الملتفة بغنج، بوشاح من فراء القط بقوائم سوداء، وهي تميل بمؤخرتها إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى. صاح التاجر أنغيلوف بفرح في إثر طالب المدرسة الثانوية المكتشف: «راسب في صفك! للسنة الثانية! سأقول لأبيك! وستكون عندك مسرحية!»

اختفى الملل الذي جلبه عرض الأخوات درافير دون أثر. وظهرت على المسرح ببطء مدموازيل بريزينا الشهيرة، بإبطيها الحليقين ووجها السماوي. كانت الممثلة ترتدي زي النعامة. لم تكن تغني، ولم تتحدث، حتى أنها لم ترقص. كانت تدور حول خشبة المسرح، تنظر إلى الجمهور بلطف، وتصرخ بصوت مؤثر، وبهذا كانت في الوقت نفسه تسقط بمقدمة ساقها الإلهية سلك النظارة عن أنف شريكها – سيد عديم اللون ذي شاربين. خرج أنغيلاف ومهندس المدينة المعماري عن طورهما.

– اعطها كل شيء – وهو غير كاف! – صاح أنغيلاف بصوت رهيب.

لُسع المتحدث باسم دوما المدينة شاروشنيكوف في صميم قلبه من الساحرة من مسرح «فولي – بيرجير»، ونهض من مكانه عند الطاولة، ونظر إلى خشبة المسرح، وألقى بدائرة من الشريط الورقي الملفوف على المسرح. انفتح الشريط حتى منتصفه ووقع نصفه الآخر على ذقن الممثلة الجميلة. سيطر مرح أصيل على القاعة. كان الحضور يطالب بالشمبانيا. كان المهندس المعماري يبكي. ودعا الملاك الاقطاعيون طبيب المدينة إلى قريتهم.

في لحظة الفرح الأكبر ترددت أصوات عالية. صمتت الأوركسترا، والمهندس المعماري، الذي كان أول من التفت إلى المدخل، سعل أولاً ثم صفق. ودخل إلى القاعة المسرف والنسوجي المعروف، ومشير النبلاء في المدينة هيبوليت ماتفييفتش فوروبيانينوف، ممسكاً بيديه سيدتين عاريتين تماماً. وخلفه كان يسير نقيب المنطقة، متأبطاً بيده ثياباً متعددة الألوان وهي، كما يبدو أزياء رفيقتي هيبوليت ماتفييفتش العاريتين.

أسف، يا صاحب السيادة، – قال نقيب المنطقة بصوت مرتجف – هذا واجب الخدمة...

نظرت السيدتان العاريتان بفضول إلى المحيطين. وبدأ الارتباك في القاعة. أنغيلاف وحده لم يفقد السيطرة على نفسه.

حبيبي! هيبوليت ماتفييفتش! – صاح أنغيلاف – إنك نسر! دعني أقبلك.

بواجب الخدمة – قال بحزم غير متوقع نقيب المنطقة – القواعد لا تسمح!

ماذا؟ – سأل هيبوليت ماتفييفتش بصوت عال. – من أنت؟

ضابط شرطة المنطقة السادسة، قسم الحقائق، يوكين.

السيد يوكين – قال هيبوليت ماتفييفتش، – اذهب إلى رئيس الشرطة، وأبلغه أنني سئمت منك. والآن، حسب واجب الخدمة، افعل ما تريد.



وانطلق هيبوليت ماتفييفتش بفخر مع مرافقته إلى مكتب منفصل، حيث هرع النادل مذعوراً، ومالك مقهى «سالفى» نفسه، والتاجر المتوحش أنجيلوف.

هذا الحدث الذي أثار قلق الأوساط الطليعية لمجتمع ستارغورود، انتهى كما انتهت جميع الأحداث المماثلة: غرامة بخمسة وعشرين روبلاً، ومقالة صغيرة في الصحيفة الليبيرالية «الفكر الاجتماعي» تحت عنوان طائش «مغامرات مشير النبلاء». كتبت المقالة بأسلوب رفيع وبدأت على النحو التالي:

«في مدينتنا التي يحميها الله، أي حدث يقع يثير ضجة كبيرة!

وكأنه بشكل مقصود، يشارك في كل ضجة، تحديداً:

أصحاب النفوذ!!!»

المقالة التي ذكرت فيها الأحرف الأولى لهيبوليت ماتفييفتش، كانت تختتم بصورة حتمية: «كانت هناك أزمة أسوأ، ولكن لم يكن هناك أحقر». ووقعت الرسالة باسم كاتب المقالات الانتقادية المشهور في المدينة أمير الدانمرك.

في اليوم نفسه، اتصل الموظف المسؤول عن المهام الخاصة في رئاسة البلدية، بهيئة تحرير الصحيفة وطلب بلطف من أمير الدانمرك الحضور إلى ديوان حاكم المدينة في الساعة الرابعة لشرح موقفه. شعر أمير الدانمرك بالاكْتئاب على الفور ولم يستطع تكلمة المقالة التالية التي بدأها. وفي الوقت المحدد كان الصحفي المتوّج يجلس في قاعة استقبال حاكم المدينة، ويفكر، محرجاً، كيف سيشرح، وهو الذي يتأثّر لدرجة أن دورات البروفيسور فاينشتين العلاجية لم تستطع شفاؤه، لحاكم المدينة، وهو رجل شديد الغضب، لا يفقه شيئاً في فن الصحافة.

كان حاكم المدينة ينظر بسرور خاص إلى وجه أمير الدانمرك المُزرق، الذي حاول عبثاً أن يلفظ كلمات صعبة جداً بالنسبة له: «يا صاحب السمو والسعادة». انتهت المحادثة بأن نهض حاكم المدينة من على الطاولة قائلاً:

– من أجل طمأنينتك، وراحة بالك، أوصيك بأن لا تتلعثم أبداً بعد الآن عن هذه الأشياء.

بعد أن تمكن أمير الدانمارك أخيراً، خلال هذا الوقت، من نطق عبارة «يا صاحب السمو والسعادة»، هسهس بقوة خاصة، وسمح لنفسه بالابتسام، وكأنه يستخرج من داخله، أصدر من داخله الجواب:

– أأنا أت تلعث ث م دائئماً!

وقد سدد أمير الدانمرك ثمن فكاخته غالباً. فقد دفعت الصحيفة غرامة قدرها مئة روبل، ولم تعد تكتب شيئاً عن مغامرات هيبوليت ماتفييفتش التالية.

كان هيبوليت ماتفييفتش منذ طفولته يتميز بالتصرفات غير المتوقعة.

ولد هيبوليت ماتفييفتش فوروبيانينوف في عام 1875 في بلدة ستارغورود في ضيعة أبيه ماتفي ألكسندروفيتش، العاشق المحب للحمام والطيور. وبينما كان ابنه يكبر، ويعاني من أمراض الأطفال، ويشكل نظراته الأولى للحياة، كان ماتفي ألكسندروفيتش يطارده الحمام بعضا الخيزران الطويلة، وفي الأماسي يلتف بردائه ويكتب مؤلفاً عن أنواع طيوره المفضلة وعاداتها. وكانت جميع أسطح مباني العزبة مغطاة بروث الطيور الهش. أما طير ماتفي ألكسندروفيتش المفضل (فردريك) فكان يقيم مع زوجته في قن خاص مرفقه للحمام.

في التاسعة من عمره، تم تسجيل الصبي في الصف التحضيري من مدرسة النبلاء في ستارغورود، حيث عرف، إلى جانب الأشياء الجميلة واللطيفة: المقلمة، الحقيبة الجلدية الصارخة الفواحة، الصور القابلة للنقل والركوب الممتع على الدرازين المدهون لأدراج المدرسة، أن ثمة أيضاً درجات وعلامات دراسية كالواحد، والاثنان، واثان ونصف، وأقل من ثلاثة بنقطتين(5).

عرف هيبوليت أنه أفضل من غيره من الصبية في امتحان القبول بمادة الرياضيات. فعندما سئل: كم تفاحة ستبقى، إذا ما أخرجنا من الجيب الأيسر ثلاث تفاحات، ومن الجيب الأيمن تسع تفاحات، وجمعناها معاً ثم قسمناها على ثلاثة، لم يجب هيبوليت بأي شيء، لأنه لم يستطع حل هذه المسألة. كان الأستاذ الممتحن على وشك أن يسجل لهيبوليت فوروبيانينوف علامة (2)، لكن الأب الكاهن، الذي كان جالساً على طاولة الممتحنين، قال له بحسرة: «إن هذا الصبي ابن ماتفي ألكسندروفيتش. إنه صبي نشيط جداً». سجل الأستاذ الممتحن لهيبوليت فوروبيانينوف علامة (3)، وتم قبول الصبي النشيط.

كان هناك مدرستان ثانويتان (جيمنازيوم) في ستارغورود - مدرسة للنبلاء وأخرى حكومية. وكان تلاميذ مدرسة النبلاء يتربون على العداء لتلاميذ المدرسة الحكومية. وكانوا يدعونهم «أقلام رصاص» ويفخرون بقبعاتهم ذات الأشرطة الحمراء. ولهذا، حصلوا بالمقابل على لقب مسيء «الباذنجان». وقد تلقى أكثر من «قلم رصاص» واحد ضربات مؤلمة على عينه وعلى خده على أيدي التلاميذ «الباذنجان» المنتقمين. فكان «أقلام الرصاص» الحانقون يقومون بمطاردة بعض التلاميذ «الباذنجان» الفرادي ويقذفون المقاليع البعيدة المدى على النبلاء وهم يصرخون. فكان يهرب التلميذ «الباذنجان» إلى زقاق، وهو يهز حقيبته، ويجلس فترة طويلة في مدخل أحد المنازل، شاحب اللون، وقد

فقد فردة جزمته. وكانت فردة الجزمة الملتقطة تُرمى من قبل الفائزين على سطح مبنى مؤلف من ثلاثة طوابق، أعلى بناء في البلدة.

وكان يوجد في ستارغورود طلاب مدرسة حربية، كان طلاب الثانوية يدعونهم بـ «البواط». لكنهم كانوا يقيمون على بعد ميلين عن المدينة، في بنائهم الخاص، وكانوا يعيشون، برأي التلاميذ «الباذنجان» حياة غامضة بل وأسطورية.

كان هيبوليت يحسد الطلاب العسكريين، بكتّافياتهم الزرقاء المطبوع عليها بالأصفر الأحرف الأولى من اسم القيصر ألكسندر، وشاراتهم المعدنية ذات النسر المطبوعة، ولكن لحرمانه من الحصول على تربية العسكري، بناء على رغبة أبيه، تسجل في الثانوية، وحصل على درجة (3) ناقصة نقطتين، وكان يرتكب أفعالاً لم تُسمع من قبل.

في الصف الثالث، بقي هيبوليت سنة ثانية في صفه. وقد حدث قبل الامتحانات مباشرة، أثناء الفرصة الكبيرة، صعد ثلاثة طلاب إلى قاعة الاجتماعات، ومكثوا هناك طويلاً، ناظرين بفرح إلى الطاولة المغطاة بقماش أخضر لامع، والستائر الثقيلة التوتية اللون المزينة وأحواض النخيل. بصق الطالب سافيتسكي، المعروف في أوساط الثانوية بالشقي المتهور، بسرور في إناء شجيرة الفيكوس (الكاوتشوك)، أما هيبوليت والطالب الثالث بيختريف – كاكوف فكادا أن يموتا من الضحك.

– هل يمكنك رفع شجيرة الكاوتشوك؟ – سأل هيبوليت باحترام.

– يا للعجب! – أجاب القوي سافيتسكي.

– حسناً، ارفعها!

بدأ سافيتسكي على الفور في محاولة رفع الشجيرة.

– لن ترفعها! – همسا هيبوليت مع بيختريف – كاكوف.

تابع سافيتسكي بسحنته الحمراء وشعره الرطب المتعرق بذل جهده أمام شجيرة الكاوتشوك.

فجأة حدث الشيء الأفظع. ابتعد سافيتسكي عن شجيرة الكاوتشوك وهجم بظهره على عمود من الخشب الأحمر، المزين بتجاويف ذهبية وفوقه تمثال نصفي من المرمز للقيصر ألكسندر الأول المكرّم. تزعزع التمثال النصفي، ونظرت عينا القيصر العميتين للحظة إلى الطلاب الجامدين معاتباً، ووقف لثانية واحدة بزاوية قدرها خمسة وأربعون درجة، ثم هوى برأسه على الأرض، مثلما يرمي السباح نفسه في النهر. كان لسقوط الامبراطور

عواقب وخيمة. وانفصلت عن وجه القيصر قطعة من الرخام، تعرّف فيها طلاب الثانوية برعب على أنفه. شعر الرفاق الثلاثة ببرودة شديدة، ورفعوا التمثال النصفي ووضعوه في مكانه السابق. وكان بيختريف - كاكوف أول الهاربين.

- ماذا سيحدث الآن، يا فوروبيانينوف؟ - سأل سافيتسكي.

لست أنا من كسره، - أجاب هيبوليت بسرعة. وكان الثاني الذي غادر قاعة الاجتماعات. بقي سافيتسكي وحيداً، ودون أي أمل بأي شيء، حاول وضع الأنف في مكانه السابق. لكن الأنف لم يلتصق. وعندها ذهب سافيتسكي إلى دورة المياه، ورمى الأنف في الحفرة.

دخل المدير «سيزيك» في أثناء درس اللغة «اليونانية» إلى الصف الثالث. وأشار سيزيك لمدرس اللغة اليونانية بأن يبقى مكانه، وألقى الخطاب نفسه الذي كان قد ألقاه لتوه في الصفوف الخمسة الأعلى، واحداً إثر الآخر. لم يكن لدى المدير أسنان.

أيها الشادة (يقصد السادة) - قال المدير - من كسر التمثال النثفي (النصفي) للقيثر (القيصر) في قاعة الاجتماعات؟

لزم الصف الصمت.

يا للعار! - جأر المدير، ملوثاً بلعابه التلاميذ الجالسين على الصف الأول من المقاعد الدراسية.

نظر التلاميذ بتعاطف وولاء إلى عيني سيزيك. وكانت نظرتهم تعبر عن أسفهم الشديد، لأنهم لا يعرفون اسم الجاني.

يا للعار! - كرر المدير - ليكن في علمكم، أيها الشادة، إنه خلال ثاعة (ساعة)، إذا لم يعترف الجاني فإن الثف (الصف) كله سوف يرثب (يرسب) ويبقى ثنة (سنة) ثانية. والذين يعيدون الثنة (السنة) الآن سيفصلون من المدرثة (المدرسة).

لم يكن الصف الثالث يعرف أن سيزيك قال الشيء نفسه في جميع الصفوف، لهذا أثارت كلماته الخوف.

مضت نهاية الدرس بصورة مشوشة للغاية. لم يكن هناك من يصغ لكلام مدرس اللغة اليونانية. نظر هيبوليت إلى سافيتسكي.

سيزيك يكذب - قال سافيتسكي بحزن، - إنه يخيفنا. من غير الممكن إبقاء الجميع سنة ثانية.

كان بيختريف - كاكويف يبكي، واضعاً رأسه على المقعد.

- ونحن لماذا؟ - صرخ التلاميذ ناظرين بولاء إلى مدرس اللغة اليونانية.

- حسناً، يا أطفال، يا أطفال، يا أطفال! - خاطبهم مدرس اللغة اليونانية.

غير أن الذعر زاد ولم ينقص. وبدأ يعد يبكي بيختريف - كاكويف وحده. وأخذ ينوح التلاميذ «البصيمون» الذين وصلوا إلى درجة اليأس. وتردد صوت الجرس الذي أعلن نهاية الدرس وسط انفجار اليأس الشامل.

تلا التلميذ «البصيم» مورزيك الصلاة بعد الدرس: «نشكرك، أيها الخالق» - وهو يحزق من الحزن.

بعد انتهاء الدرس، ولعدم وصوله إلى أي نتيجة مع بيختريف - كاكويف، ذهب يبحث عن هيبوليت، لكن هيبوليت لم يكن موجوداً في أي مكان.

في اليوم التالي، فصل سافيتسكي من الثانوية. وحصل بيختريف - كاكويف على درجة (3) في السلوك مع تنبيه واستدعاء الوالدين. جاء والده، المالك الصغير، على زلاقة مربوطة بحصان من دون حدود، وبعد الحديث مع المدير جرّ ابنه إلى غرفة المعاطف، حيث أشبع ابنه ضرباً بصورة وحشية بعنان قماشي من الجوخ بحضور جمهرة من الفضوليين من الصفوف العليا. كان نحيب بيختريف - كاكويف مسموعاً خارج حدود المدينة.

لم يُعاقب هيبوليت، وتوافقت سنوات دراسته في الثانوية بأحداث وأشياء عادية. كان يأتي إلى الثانوية في مركبة جيار مكشوفة ذات مصابيح وحوزي سمين كان يدعوه باحترام باسمه واسم أبيه. وكانت لديه أفضل وأعلى الأربطة والمساحات المطاطية. كان يلعب بالرّيشة بسعادة، لأنهم كانوا يشترون له صناديق كاملة من الرّيش، وبمثل هذا الاحتياط كان يمكنه اللعب إلى ما لا نهاية، منافساً أعدائه في رباطة الجأش. كان يذهب إلى المنزل لتناول الإفطار. وهذا يثير الحسد، وكان يفخر بذلك.

في الصف السادس دُخّن سيجارته الأولى. مر فصل الشتاء في الاحتفالات المدرسية. كان هيبوليت يرقص المازوركا ويشرب الروم في غرفة الملابس. وفي الصف السابع كانت تعذبه المعادلات التربيعية، «درج الشيطان» (حجم الهرم)، متوازي أضلاع السرعات و«تحولات» الشاعر الروماني أوفيد. وفي الصف الثامن درس «المنطق»، و«الأخلاق المسيحية»، ومرض الزهري الخفيف.

هرم والده بشدة. وكانت قصبة الخيزران الطويلة ترتجف بين يديه، ولم يصل كتابه عن خصائص الحمام بعد إلى المنتصف. وتوفي ماتفي ألكسندرفيتش دون أن ينهي، وورث هيبوليت ماتفييفتش، بالإضافة إلى ستة عشر سرباً من الحمام، الذابلة تماماً والتي أصبحت شبيهة ببغاء فريدريك، عشرين ألفاً من الدخل السنوي ومزرعة كبيرة سيئة الإدارة.

احتفل الشاب فوروبيانينوف ببداية حياته المستقلة بوليمة سُكر عامرة مع إطلاق النار على الحمام. لم ينتسب إلى الجامعة، ولم يتوظف في دوائر الدولة. وأنقذه من الخدمة العسكرية ضعف صحته العام، المذهل في مثل هذا الشاب المتفتح المزهر، من حيث المظهر. وبقي نبيلًا من غير وظيفة، وبقي سمكة ذهبية يعيش على مزاجه، وعريساً غير مخلص، وبيروقراطياً بطبيعته. وقد أعاد بناء قصر والديه في ستارغورود على طريقته الخاصة، واقتنى خادماً مشرفاً بسالفين طويلين، وثلاثة فرّاشين، وطاهياً فرنسياً وطاقماً كبيراً من العاملين في المطبخ.

كانت تتميز الأسواق الخيرية في ستارغورود بالأبهة الكبيرة والإبداع الذي كانت تبديه سيدات النخبة، متنافسات فيما بينهن. وكانت هذه الأسواق تنظم على شكل الحانات الموسكوفية تارة، وعلى طريقة القرية القوقازية تارة أخرى، حيث كانت الشراكسيات بفساتينهن وصدرياتهن يتاجرن بالشمبانيا لصالح الأطفال الأيتام بأسعار مرتفعة للغاية.

في أحد هذه الأسواق، وبينما كان هيبوليت واقفاً أمام يافطة: «مطعم قوقازي حقيقي. لذة قوقازية طبيعية»، تعرّف على زوجة المدعي العام الجديد - يلينا ستانيسلافوفنا بوور. كان المدعي العام هرمًا، لكن زوجته، حسب تأكيد سكرتير المحكمة، كانت:

الشباب المثير ذاته...

الشباب المبتهج نفسه،

الداعية إلى القبلات،

وكلها رشاقة ولطف.

لقد ارتكب السكرتير إثماً في شعره.

كانت يلينا ستانيسلافوفنا، «الداعية إلى القبلات»، ترتدي على رأسها صفيحة من المخمل الأسود مع وردة من حرير بألوان العلم الفرنسي، ما كان يجب أن يصور الزي الكامل لفتاة شركسية شابة. وكانت زوجة المدعي العام الرشيق تحمل على كتفها جرة من الورق المقوى مغطى بالورق المذهب، يبرز منها عنق زجاجة الشمبانيا.

اسمحي لي بكأس من الشمبانيا! - قال هيبوليت ماتفييفتش، متظاهراً بأنه من سكان الجبال الحقيقيين.

ابتسمت زوجة المدعي العام بلطف وأنزلت الجرة من كتفها.

نظر هيبوليت ماتفييفتش، حابساً أنفاسه، إلى يديها العاريتين البضاوين، اللتين تفتحان الزجاجة من دون خبرة. شرب الشمبانيا حتى أنه لم يشعر بطعمها. فقد شوشت يدا لينا ستانيسلافوفنا العاريتان أفكاره كلها. فأخرج من جيب صدرته بطاقة ائتمانية بمئة روبل ووضعتها على حافة جرف من الورق المعجن البني، ونشق بصوت عال وابتعد. ابتسمت زوجة المدعي العام بلطف أكبر، وسحبت بطاقة الائتمان، وقالت بصوت موسيقي:

- لن ينسى الأطفال الفقراء كرمكم.

ضغط هيبوليت ماتفييفتش بيديه على صدره من مسافة بعيدة، وانحنى لها تحية أكبر من انحنائه عادة. وبعد أن استقام، أدرك أنه لن يستطيع العيش من دون زوجة المدعي العام، وطلب من سكرتير المحكمة أن يقدّمه إلى المدعي العام الجديد. كان المدعي العام شبيهاً بقرد ذكي. وأثناء نزهته مع هيبوليت ماتفييفتش بين قصر تامارا وجسد النسر المحشو، والممسك بمنقاره كوباً للتبرع، كان المدعي العام بوور يحكّ بسرعة خلف أذنه ويروي له آخر أخبار بطرسبورغ.

في هذه الأمسية سنحت له الفرصة للحديث عدة مرات مع يلينا ستانيسلافوفنا بخصوص الوضع البائس للأطفال الأيتام وجمال حديقة ستارغورود.

في اليوم التالي توجه هيبوليت ماتفييفتش إلى مدخل منزل آل بوور على ظهر أشرس الخيول في العالم، وأمضى نصف ساعة في محادثة لطيفة للغاية عن الوضع البائس للأطفال اليتامى، وبعد مضي شهر همس سكرتير المحكمة سراً في أذن المحقق في القضايا الهامة، أن المدعي العام «كما يبدو، بدأ يظهر عنده قرنان»، فأجاب المحقق مبتسماً: «مثل هذه القضية يجب التحقيق فيها» - وروى له حالة مثيرة للاهتمام، حدثت في مدينة أريول وانتهت بتبرئة الزوج الذي قتل زوجته - الخائنة.

في جميع أنحاء المدينة، كانت السيدات يثرثرن كالبلابل. أما الأزواج فكانوا يحسدون فوروبيانينوف على حظه. وكان الصائمون، والصاحون الذي لا يشربون والمثاليون يرسلون الخطابات والرسائل المغفلة إلى المدعي العام. وكان النائب العام يقرأها في جلسات المحكمة، وهو يحكّ بسرعة ومهارة خلف أذنه. وكان مع فوروبيانينوف أكثر لطافة من ذي قبل. فقد كان وضعه ميؤوساً منه - كان يتوقع قريباً نقله إلى العاصمة ولم يسمح لنفسه بالإساءة إلى سمعته ووظيفته بقتل عشيق زوجته.

لكن هيبوليت ماتفييفتش سمح لنفسه بتصرف خال تماماً من اللباقة: فقد أمر بصيغ عربته باللون الأبيض وتنزه مع زوجة المدعي العام الملهبة حباً في شارع بوشكين الكبير.

عبثاً كانت يلينا ستانيسلافوفنا تغطي وجهها المرمرى بخمار مطرّز بالطيور السوداء - فقد عرفها الجميع. ارتجفت البلدة من الخوف، ولكن حتى هذا التطرف الغرامي لم يترك أي أثر على المدعي العام. وأخذ الصائمون اليائسون، والصاحون الممتنعون عن الشراب، والمثاليون يمطرون وزارة العدل بالرسائل المغفلة. وذُهل مساعد الوزير من جبن المدعي العام. كان الجميع ينتظرون المباراة. لكن المدعي العام كالسابق، كان يتجاوز مخزن الأسلحة، ذاهباً كل صباح إلى مبنى المؤسسات العدلية، ناظراً بحزن إلى شخصية تيميس ربة العدل الممسكة بالميزان. كان بوور يرى بوضوح في إحدى كفتي الميزان نفسه، المدعي العام من بطرسبورغ، وفي الكفة الأخرى فوروبيانينوف الوردي والوقح.

انتهى كل شيء بصورة مفاجئة: سافر هيبوليت ماتفييفتش مصطحباً معه زوجة المدعي العام إلى باريس، أما المدعي العام فنُقل إلى مدينة سيرزان. عاش المدعي العام في سيرزان طويلاً، وحكم على ثمانمائة شخص بالأشغال الشاقة، ومات في نهاية الأمر.

عندما عاد بعد مضي عام، كانت ستارغورود مغطاة بالثلوج. مرت العربات الثقيلة في شارع بوشكين الكبير. وكانت الأشجار المتجلدة في شارع ألكسندروسكي تخيم فوقها الغربان. وحطت النجوم والصلبان الثلجية وغيرها من علامات الصقيع ببطء على أنف هيبوليت ماتفييفتش. لم يكن هناك ريح. ومن المحطة ركب هيبوليت ماتفييفتش زلاجة منخفضة، ملقياً نظرة سريعة على معالم المدينة: إلى بناء البورصة الجديد، الذي شُيد بجهود تجار ستارغورود على الطراز الآشوري - البابلي، وإلى برج المراقبة في قسم من شارع بوشكين وإلى العبوتين الدائريتين الكبيرتين المعلقتين عليه، والدالتين على اندلاع حريق في المنطقة.

- بيت من يحترق، بيت ميخائيل؟ - سأل هيبوليت ماتفييفتش الحوذي.

- لا. بيت بالاغوروف. لليوم الثاني.

ولم يتجاوزا حارتين حتى التقوا بحشد غير كبير من الناس، يقف بأسى أمام بيت بالاغوروف. كان الدخان يخرج ببطء من نوافذ الطابق الثاني. وظهر رجل الإطفاء في النافذة وصاح إلى الأسفل بكسل:

- فانيا!، اعطني السلم الفرنسي.

استمر الثلج في التساقط. في الأسفل لم يستجب أحد لطلبه. بقي رجل الإطفاء واقفاً أمام النافذة، متفكراً، تثاءب، واختفى في الدخان بلا مبالاة.



لذلك إنه سوف يبقى يحترق لمدة خمسة أيام، - قال هيبوليت ماتفييفتش ساخطاً - مثل باريس...!

انفصل فوروبيانينوف عن يلينا ستانسلافوفنا بسلام ومودة. تابع زيارتها، وكان كل شهر يرسل لها في مغلف مبلغ ثلاثمائة روبل، ولم ينزعج على الإطلاق عندما كان يجد عندها شباباً، غالبيتهم مفعمين بالحيوية والنشاط، ومن ذوي السلوك الحسن.

واصل هيبوليت ماتفييفتش العيش في قصره الواقع على شارع دينيسوفسكايا، وعاش حياة عازب خفيفة لاهية. كان يهتم كثيراً بمظهره الخارجي، ويحضر العروض الأولى في مسرح المدينة، وأصبح مدمناً ذات حين، على الأوبرا لدرجة أنه تصاحب مع صاحب الصوت الجهوري (الباريتون) أفراموف وأنشد معه جيرمونا من أوبرا «لا ترافييتا La traviata» - «لقد نسيت أرضك الحبيبة، وتخلت عن بروفانس، بلدك الأصلي». وعندما بدأوا بحفظ أنشودة «ريغوليتو»: «أيها المحظيون، أصدقاء الرذيلة، لقد ضحكتم عليّ بقسوة» - لاحظ مغني صوت الباريتون بسخط، أن هيبوليت ماتفييفتش كان ينام مع زوجته، ذات صوت السوبرانو الرفيع العالي. كان المشهد الذي أعقب ذلك فظيلاً. فقد أخذ صاحب صوت الباريتون، الغاضب حتى أعماق روحه، من فوروبيانينوف مائة وستين روبلاً وهرب إلى مدينة قازان.

لقد عززت مغامرات هيبوليت ماتفييفتش الفاحشة، وخاصة ضربه في نادي النبلاء للمحامي موروزي، سمعته كرجل شيطاني.

وحتى في عام 1905، الذي حمل معه القلق والاضطراب، لم يغادر الابتهاج بالحياة والإيمان بالأسس الراسخة للدولة الروسية هيبوليت ماتفييفتش. علاوة على ذلك، فقد مر كل شيء بسلام وهدوء في ضيعة هيبوليت ماتفييفتش، باستثناء احتراق عدة أكوام من التبغ. وقد وصف هيبوليت ماتفييفتش بانفعال الكونت فيتني (رئيس وزراء روسيا عام 1905 - م.)، الذي عقد معاهدة سلام بورتسموث، بالخائن، لكنه لم يعبر عن رأيه بالتفصيل في هذا الخصوص.

لم تغير السنوات الجديدة حياة هيبوليت ماتفييفتش. كان يزور كثيراً بطرسبورغ وموسكو، وبحب الاستماع إلى أغاني الفجر، مميزاً بدقة خلال ذلك بين غجر بطرسبورغ وغجر موسكو، وكان يزور رفاقه في الثانوية، الذين كان يعمل بعضهم في وزارة الداخلية، وبعضهم في الدوائر المالية.

كانت حياته تمضي بمرح وسرعة. ولم تعد تطارد سيدات الأعمال هيبوليت ماتفييفتش. فقد اعتبره الجميع عازباً فاسقاً بلا أخلاق. وفجأة في عام 1911 تزوج فوروبيانينوف من ابنة جاره، مالك الأرض الثري بيتوخوف. وقد حدث هذا بعد أن دخل العازب سيء السمعة إلى حوزته، فرأى أن أوضاعها متعثرة، متقلقة، وأن من المستحيل إصلاحها من دون زواج

مربح. كان أكبر مهر يمكن الحصول عليه بالزواج من ماريا بيتوخوفا، الفتاة النحيلة والوديدة. استمر هيبوليت ماتفييفتش طيلة شهرين يضع الورود البيضاء في حضان ماريا، وفي الشهر الثالث طلب يدها، وتزوج منها، وانتخب مشيراً للنبلاء في المنطقة.

حسناً، كيف هي زوجتك - الهيكل العظمي؟ - كانت يلينا ستانيسلافوفنا تسأل بلطف هيبوليت ماتفييفتش، الذي أصبح يزورها بعد زواجه أكثر من ذي قبل.

فكان هيبوليت ماتفييفتش يبتسم بمرح، منفجراً من الضحك.

لا، بصراحة، إنها لطيفة جداً، ولكن كم هي ساذجة... أما حماتي، كلوديا إيفانوفنا!... أتعرفين، إنها تدعوني «إيبوليت». يبدو لها أن اسمي هكذا يلفظ في باريس! يا للروعة!

مع مرور السنين تبدلت حياة هيبوليت ماتفييفتش بصورة ملحوظة. فقد خط الشيب شعره بصورة مبكرة وجميلة. وظهرت عنده عادات. عند استيقاظه صباحاً، كان يقول لنفسه «غوتن مورغن» (صباح الخير بالألمانية) أو «بونجور». وسيطرت عليه أهواء الأطفال. فبدأ بجمع الطوابع، وصرف على ذلك كثيراً من المال، وسرعان ما أصبح مالك أفضل مجموعة من الطوابع في روسيا وقام بمراسلات نشيطة مع الانكليزي إنفيلد، مالك المجموعة الكاملة من الطوابع الروسية. كان تفوق الانكليزي في جمع الطوابع من هذا النوع يقلق هيبوليت ماتفييفتش كثيراً. لكن منصبه كمشير للنبلاء وعلاقاته الكبيرة ساعدته في التغلب على منافسه من غلاسكو. حرّض هيبوليت ماتفييفتش رئيس مجلس البلدية على إصدار طوابع جديدة لمنطقة ستارغورود، وهذا ما لم يحدث منذ عشر سنوات. رئيس مجلس البلدية، العجوز المضحك، وبعد أن أطلعته هيبوليت ماتفييفتش على حقيقة الأمر، ضحك كثيراً ووافق على اقتراح فوروبيانينوف. صدرت الطوابع الجديدة في نسختين وأدرجت في الكتالوج لعام 1912. وكسر كليشي الطوابع فوروبيانينوف بيده بالمطرقة. بعد ثلاثة أشهر تلقى هيبوليت ماتفييفتش من إنفيلد رسالة مهذبة، يرجوه فيها الانكليزي أن يبيعه واحداً من تلك الطوابع النادرة للغاية، حسب السعر الذي يناسب مستر فوروبيانينوف.

من شدة فرح مستر فوروبيانينوف ذرفت الدموع من عينيه. فجلس على الفور ليكتب رسالة جوابية للمستر إنفيلد. في الرسالة كتب بأحرف لاتينية كلمتين فقط: «خذ البعصة!»

بعد هذا توقفت المراسلات وعلاقات العمل مع المستر إنفيلد إلى الأبد، وضعف شغف هيبوليت ماتفييفتش المشبع بالطوابع إلى حد كبير.

بحلول هذا الوقت، أخذوا يدعون فوروبيانينوف «الرجل المرح Bon Vivant». نعم فقد كان حقاً يحب العيش المرح، المبتهج. ومما أثار دهشة حماته، أنه كان يعيش من دخل عقار

زوجته. حتى أن كلوديا إيفانوفنا حاولت ذات مرة مشاركته آراءها في الحياة وواجبات الزوج المثالي، لكن الصهر انتفض فجأة ورمى السكرية على الأرض وصاح:

– يا للروعة! يعلّموني كيف أعيش! هذا رائع!

إثر ذلك، توجه الصهر الغاضب إلى موسكو لحضور مأدبة أقامها نادي الصيد على شرف الصياد الشهير السيد شارابارين، الذي قتل ألفي ذئب منذ تأسيس النادي.

تم ترتيب طاولات المأدبة على شكل هلال. في المركز وعلى مفروش سكري اللون، وبين الخنازير الصغيرة، وأطباق الهلام من اللحوم، والأباريق الراشحة الممتلئة بالفودكا والكونياك، وضع جلد الذئب الألفين المحتفى به. أما السيد شارابارين، الذي كان يرتدي بدلة سوداء وقبعة مدورة، ويشرب منذ الصباح وقد أعمته كاميرات المصورين الذين لا يحصى عددهم، فقد كان يقف ناظراً بشراسة إلى من حوله ويستمع إلى الخطب.

أعطيت الكلمة لهيبوليت ماتفييفتش في وقت متأخر، بعد أن استغرق في المرح والاستمتاع. فوضع جلد الذئب بسرعة على كتفيه، ناسياً شجونه العائلية، وقال بصورة احتفالية:

السادة الأعزاء، السادة أعضاء نادي الصيد! اسمحوا لي بأن أهنئكم باسم هواة الصيد بالسلاح في ستارغورود بهذا الحدث الهام. يسرني جداً جداً رؤية هؤلاء الهواة المحترمين للصيد بالسلاح، مثل السيد شارابارين، الذين يسعون، متكاتفين، نحو تحقيق المثل العليا الخالدة! هذا يسرني جداً جداً!

بعد أن قال كلمته هذه، رمى هيبوليت ماتفييفتش على الأرض جلد الذئب اليوبيلي، وأوقف فوقه السيد شارابارين، رغم مقاومته، وتبادل معه القبلات ثلاث مرات.

في زيارته هذه، مكث هيبوليت ماتفييفتش أسبوعين في موسكو وعاد مرحاً مبتهجاً وغاضباً. كانت حماته عابسة. وتشفى منها، أقدم هيبوليت ماتفييفتش على فعلة، قدم بها مادة دسمة للسان أمير الدانمرك الخبيث:

كان ذلك عام 1913.

قام الطيار الفرنسي براندينجون دي مولينيه برحلته الجوية الشهيرة من باريس إلى وارسو وفاز بجائزة بوميري. استقبلت السيدات في قبعات كالسلا وطلاب الصفوف العليا من الثانويات الفائز الجوي بصيحات الإعجاب. والفائز، بالرغم من تأجيل الاختبار، كان يشعر بنشاط وحيوية وشرب الفودكا الروسية عن طيب خاطر. كانت الحياة تجري على قدم وساق.

في محطة ألكسندروفسكي بموسكو كان حشد من الطالبات والحمالين، وأعضاء جمعية «الجمال الحر» يستقبل الشاعر ك. د. بالمونت الذي عاد من بولنيزيا (جزيرة في أوقيانوسيا - م.). كانت الشابة ذات الخدين السميين أول من رمى الشاعر الشهير بلحيته الرفيعة الناعمة بوردة مبللة. وانهاالت على الشاعر أزهار الربيع - زنباق الوادي. وبدأت كلمة الترحيب الأولى:

عزيزي قسطنطين، سبع سنوات غبت عن موسكو...

وبعد الخطب والكلمات، اقتحم أحد المحامين المعجبين بالشاعر، وعند تقديمه باقة من الورد له، ألقى بعض أشعاره التي حفظها غيباً:

من خلف الغيوم يبدو

شعاع الشمس -

تتألق عبقريتك.

أنت قوي

أنت شاعر صراح

أنت حي

في المساء في جمعية «الجمال الحر»، كان يعكر صفو الاحتفال بالشاعر كلمة الشاعر المستقبلي الجديد ماياكوفسكي، الذي حاول أن يكتشف أن لدى هذا الشاعر «الجوال» «هناك ما يدهش، وهو أن جميع الكلمات الترحيبية به تأتي من معارفه المقربين». وقد غطت أصوات الاستهجان والصفير خطاب المستقبل الجديد.

تعرف شابان - البارون غيسمار، البالغ من العمر عشرون عاماً، ونجل الموظف الكبير في وزارة الخارجية دالماتوف، في مدينة الملاهي على زوجة ملازم الاحتياط ماريانا تيمي وقتلاها، من أجل سرقة مجوهراتها.

في دور السينما، وعلى شاشات مجمّدة، كانت تعرض دراما قوية من ثلاثة أجزاء من الحياة الروسية: «الأميرة بوتيرسكايا»، وقائع الأحداث العالمية «المجلة السينمائية»، و«رجل البوليس الموهوب» بمشاركة بوكسون (ضحك صاخب من القلب).

من بوابة سباسكي بالكريميلين، يخرج إلى الساحة الحمراء موكب الصليب الديني، وكان الأرخبدياقون روزوف، بوزنه البالغ عشرة بود (أكثر من 160 كغ - المترجم) يقرأ بصوت

مخيف بياناً كنسياً سامياً.

في صحيفة ستارغورود «أخبار حاكم البلدة»، نُشرت أبيات شعرية مبتهجة، بقلم الرقيب المحلي بلاكسين:

قولي، يا أماه الغالية،

أي عيد عندنا اليوم، –

أبي في زي رسمي لامع

وأخي ميتنكا لا يذهب إلى المدرسة؟

الأخ ميتنكا لم يذهب إلى المدرسة فعلاً بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لحكم القياصرة آل رومانوف. والآباء فعلاً ارتدوا الأزياء الرسمية اللامعة، والقبعات الثلاثية العريضة وقادوهم في سيارات الأجرة إلى ساحة الرماية، التي تم تعيينها لعرض موكب وحدات الحامية وفيلق المدارس الحربية والثانويات الحكومية.

في مصنع الجوت وفي ورشات السكك الحديدية وُزعت على العمال بطاقات امبراطورية، من آل رومانوف، للنزهة في حديقة الرصانة، وفي المساء اختطف عدد من المدنيين من بين الحشد عاملين سكرانيين، واقتادوهم في عربة إلى إدارة الدرك. لمعت الألعاب النارية الامبراطورية في السماء المظلمة، وتقلصت ثم انتفخت في مهب الريح، ولمعت من جديد.

في الليلة ذاتها، كان هيبوليت ماتفييفتش، الذي لا تزال تفوح منه روائح العطر، يستمتع بعشاء حافل، جالساً على شرفة قصره. كان عمره فقط ثمانية وثلاثون عاماً. وكان جسده نظيفاً، ممتلئاً وجيداً. أسنانه كانت كلها سليمة في موضعها. كانت تدور في رأسه بلطف، كما يدور الطفل في رحم أمه، نكتة أرمنية. كانت تبدو له الحياة رائعة. أمكنه هزيمة حماته، وهناك الكثير من الأموال، وكان يخطط لرحلة جديدة إلى الخارج في العام القادم.

لكن هيبوليت ماتفييفتش لم يكن يعرف، أن بعد عام، في شهر أيار/مايو، ستموت زوجته، وفي تموز/يوليو ستندلع الحرب مع ألمانيا. كان يعتقد أنه ببلوغه سن الخمسين سيكون مشير المقاطعة، غير عارف أنه في العام الثامن عشر سيطرده من قصره، وأنه، وهو المعتاد على الراحة والكسل والرفاهية، سيغادر ستارغورود الهامدة، كي يهرب على متن قطار البضائع والركاب على غير هدى.

جالساً على الشرفة، كان هيبوليت ماتفييفتش يرى في خياله التمرجات الصغيرة لشاطئ أستند(مدينة في بلجيكا – م.)، وأسقف باريس، والورنيش الغامق اللون ولمعان الأزرار

النحاسية لعربة قطار النقل الدولي، ولكن لم يكن هيبوليت ماتفييفتش ليتخيل نفسه(وحتى إذا ما تخيل لما كان سيفهم) في الطوابير على الخبز، والفراش المتجمد من البرد، ومصباح الزيت «كاغانتس Kaganets»، وهذيان مرض التيفوس، وشعار «أنجرت عملك - أخرج»، ومكتب تسجيل الأحوال المدنية في بلدة المقاطعة (ن).

جالساً على الشرفة، لم يكن يعرف هيبوليت ماتفييفتش أيضاً، أنه بعد أربعة عشر عاماً، سيعود، وهو لا يزال رجلاً قوياً، إلى ستارغورود، سيدخل من جديد، من البوابة التي يجلس فوقها الآن، سيدخل كرجل غريب للبحث عن كنز حماته، الذي أخفته لغبائها في كرسي هامبز المنجد المريح الذي يجلس عليه الآن، وهو ينظر إلى الأسهم النارية الساطعة، وفي وسطها الشعار الامبراطوري، متأملاً مدى روعة الحياة.(6)

(5) نظام الدرجات المدرسية الروسي هو (5) درجات، حيث يجب أن يحصل التلميذ على درجات (3) أو (4) أو (5) كي ينجح، أما علامات (1 و 2) وكسورهما فهي علامات الرسوب. - م.

(6) ملاحظة المترجم: هذا الفصل الخامس (ماضي مسجل الأحوال المدنية) لم ينشر في جميع طبعات الرواية التي صدرت عشرات المرات في العهد السوفييتي وتم حذفه.

## الفصل السادس المحتال الكبير

دخل إلى مدينة ستارغورود، في الحادية عشر والنصف، من الشمال الغربي، من جهة قرية شماروفكا، شاب في الثامن والعشرين من عمره. ركض وراءه طفل متشرد. وصرخ بمرح: - عمي! اعطني عشرة كوبيك!

أخرج الشاب من جيبه تفاحة دافئة وأعطاهها للطفل الشريد، لكن الأخير لم ينصرف عنه. عندها توقف الشاب المترجل، ونظر إلى الصبي ساخراً وقال بهدوء: - ربما أعطيك أيضاً مفتاح شقتي، حيث يوجد المال؟

أدرك المتشرد، المتطفل بطلان دعواه، وانصرف عنه.

كذب الشاب: لم يكن عنده لا مالا، ولا شقة يمكن أن يحفظ فيها المال، ولا مفتاحاً يفتح به باب الشقة. حتى أنه لم يكن لديه معطف. دخل الشاب إلى المدينة يرتدي بدلة خضراء تغطي خصره. وكانت رقبتة الطويلة المشرببة ملفوفة بوشاح صوفي قديم، وقدماه في حذاء لامع من جلد مدبوغ بلون برتقالي. ولم يكن يرتدي جورباً تحت الحذاء. وكان الشاب يمسك بإسطرلاب في يده.

«آه، باياديرا (Bayadere - راقصة هندية - م...)... تي - ري - ريم، تي - ري - را» - أنشد الشاب مقترباً من سوق البضائع المستوردة.

هنا كان عليه الكثير أن يعمل. اندس في خط البائعين للأدوات المستعملة، ووضع في الأمام جهاز الإسطرلاب، وأخذ يصيح بصوت قوي: - من بحاجة إلى إسطرلاب؟ إسطرلاب يباع بسعر رخيص! خصم للوفود وأقسام العمل مع النساء.

لم يأت هذه العرض المفاجئ، غير المتوقع، بأي طلب، خلال فترة طويلة. فوفود ربات البيوت كانت تهتم أكثر بالبضائع النادرة وتزدحم على خيام المصانع والورشات. مرّ من أمام بائع الإسطرلاب مرتين وكيل المباحث في مقاطعة ستارغورود. ولكن بما أن الإسطرلاب لم يكن شبيهاً بالآلة الكاتبة المسروقة بالأمس من مكتب مركز الزيوت، توقف الوكيل عن التحديق بعينه في الشاب وتنويمه مغناطيسياً وابتعد.

بحلول وقت الغداء، بيع الإسطرلاب لصانع أقفال بثلاث روبلات.

- إنه يقيس بنفسه كل شيء - قال الشاب للمشتري - لو كان هناك شيء يُقاس.

بعد أن تحرر من الآلة المخادعة، تناول الشاب المرح طعام غدائه في المطعم الشعبي «ركن الطعم الطيب» وانطلق لمشاهدة المدينة. اجتاز الشارع السوفييتي، ووصل إلى شارع الجيش الأحمر(شارع بوشكين الكبير سابقاً)، وعبر الشارع التعاوني فوجد نفسه من جديد في الشارع السوفييتي. لكنه لم يكن ذلك الشارع السوفييتي الذي قطعه: فقد أصبح في المدينة شارعان سوفييتيان. اندهش كثيراً لهذه المصادفة، ووجد الشاب نفسه في شارع أحداث ليننا(شارد دينيسوفسكايا سابقاً). بالقرب من قصر جميل بطابقين رقم 28 ويحمل اليافاطة: اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية – جمهورية روسيا الاشتراكية

## الاتحادية السوفييتية

**المقر الثاني للضمان الاجتماعي (ستارغوب ستراخ)** توقف الشاب لإشعال سيجارة من البواب، الذي كان يجلس على مقعد حجري عند البوابة.

– ماذا أيها الأب – سأله الشاب بعد أن سحب نفساً من سيجارته – هل لديكم عرائس في المدينة؟

لم يتفاجأ الرجل العجوز على الإطلاق.

– قد تصلح الفرس عروساً للبعض – قال، مستجيباً بسرور للدعوة للمحادثة.

– ليس لدي المزيد من الأسئلة – قال الشاب بسرعة.

وعلى الفور طرح سؤالاً جديداً:

– وفي مثل هذا البيت لا يوجد عرائس؟

عرائسنا يبحثون عنهم منذ زمن طويل في العالم الآخر بالمصاييح – اعترض البواب – هنا عندنا مأوى حكومي للمسنين: تعيش المسنات في معاش تقاعدي كامل.

أتفهم هذا. هنّ تلك اللواتي وُلدن قبل المادية التاريخية؟

هذا صحيح. وُلدن، عندما وُلدن.

وماذا كان في هذا المنزل قبل المادية التاريخية؟

ومتى كان ذلك؟

آنذاك، في ظل النظام القديم.



في ظل النظام القديم كان يقيم سيدي.

بورجوازي؟

أنت نفسك برجوازي! قيل لك، مشير النبلاء.

إذن، بروليتاري.

أنت نفسك بروليتاري. قيل لك مشير، عميد.

كان الحديث مع البواب الذكي، الذي لا يعرف بنية المجتمع الطبقيّة سوى معرفة ضعيفة، يمكن أن يستمر ما لا يعرف إلا الله، لو لم يحسم الشاب الأمر: - إليك أيها الجد - همس الشاب - من الجيد تناول بعض النبيذ.

- حسناً، ضيّفني.

اختفى الاثنان لساعة واحدة، وعندما عادا، أصبح البواب الصديق المخلص للشاب.

- إذن، سأمضي الليلة عندك - قال الصديق الجديد.

- بالنسبة لي، عِش طيلة حياتك، طالما أنت إنسان صالح.

بعد أن حقق هدفه بسرعة، نزل الضيف بسرعة إلى غرفة البواب، وخلع حذاءه البرتقالي وتمدد على المقعد، مفكراً في خطة العمل ليوم الغد.

كان اسم هذا الشاب أستاذ بندر. كان يذكر عادة من سيرته الذاتية جانباً تفصيلياً واحداً فقط. كان يقول: «كان أبي مواطناً تركيا». وقد بدّل ابن المواطن التركي خلال حياته كثيراً من الأعمال. فحيوية شخصيته، التي منعتها من أن يكرس نفسه لعمل واحد ما، كانت تقذف به باستمرار في مختلف أنحاء البلاد، وجلبته اليوم إلى ستارغورود، من دون جوارب، من دون مفتاح، من دون شقة، ومن دون مال.

أثناء استلقائه في غرفة البواب الدافئة إلى درجة سيطرة الرائحة الكريهة، كان أستاذ بندر يصقل في ذهنه طريقتين محتملتين لعمله.

يمكن أن يصبح متعدد الزوجات، وينتقل بهدوء من مدينة إلى أخرى، حاملاً معه حقيبة جديدة بما يستولي عليه من أشياء قيمة مسروقة من عند زوجته المناوبة.

ويمكن أيضاً الذهاب غداً إلى لجنة الأطفال في ستارغورود، ودعوتها لأن تأخذ على عاتقها نشر وتوزيع لوحة لم ترسم بعد، لكننا ذات فكرة رائعة: «البلاشفة يكتبون رسالة إلى تشامبرلين»، وفق اللوحة الشهيرة للفنان ريبيّن: «أهل زابوروجيي يكتبون رسالة للسلطان». وفي حال النجاح، يمكن لهذا الخيار أن يجلب أربعمئة روبل.

كلا الخيارين قام أستاذ بندر بتصميمهما أثناء إقامته الأخيرة في موسكو. وُلد خيار تعدد الزوجات في رأسه بتأثير مانشرته الصحيفة المسائية من تقرير المحكمة، التي أشارت بوضوح، أن أحدهم حُكم عليه بعامين فقط من دون سجن انفرادي. أما الخيار الثاني فولد في رأس بندر عندما شاهد ببطاقة مجانية معرض رابطة فناني روسيا الثورية.

لكن، كان لكل من المشروعين عيوبه. فالبعد بمهنة متعدد الزوجات كان مستحيلاً من دون بدلة مدهشة رمادية، مزينة برسوم التفاح. علاوة على ذلك، كان عليه أن يمتلك على الأقل عشرة روبلات للتمثيل والإغراء. كان من الممكن بالطبع الزواج وبدلة عمل خضراء عادية، لأن قوة الرجل وجمال بندر كانا لا يقاومان بالنسبة للفتيات الريفيات الجاهزات للزواج، لكن هذا، كما قال أستاذ: «نوعية سيئة، وعمل غير نظيف». بالنسبة للوحة لم يكن كل شيء أيضاً على ما يرام: فمن المحتمل ظهور صعوبات فنية. هل من المناسب رسم الرفيق كالينين (أحد قادة روسيا بعد ثورة أكتوبر - م.) بقبعة من الفرو وعباءة بيضاء، والرفيق تشيشيرن (جورجي تشيشيرن: ثوري وسياسي روسي شغل منصب وزير الخارجية - م.) - عارياً حتى الخصر؟ عند الضرورة، من الممكن بالطبع، رسم جميع الشخصيات وبدلات عادية، ولكن هذا سيكون شيئاً آخر.

- لن يكون لها ذلك الوقع المطلوب - قال أستاذ بصوت عال.

هنا، لاحظ أن البواب بدأ يتحدث بحرارة عن شيء ما منذ مدة طويلة. واتضح أن البواب استغرق في ذكرياته عن مالك القصر السابق: جاء لعنده رئيس الشرطة، وقدم له التحية... أتى لعنده، وأهنئه فرضاً، بعيد رأس السنة، فيعطيني ثلاثة روبلات... في عيد الفصح، فرضاً، أهنئه، يعطيني ثلاثة أخرى. في يوم الملاك أيضاً، أقدم التهنئة... ومن التهاني وحدها أجمع في العام خمسة عشر روبلاً... حتى أنه وعد بتقديم ميدالية لي. فقال: «أود أن يحمل بوابي ميدالية...» وقال أيضاً: «أنت يا تيخون، اعتبر نفسك تحمل ميدالية...»

وهل أعطوك؟

انتظر... قال لي: «لا أحتاج إلى بواب من دون ميدالية». ذهب إلى سانت - بطرسبورغ من أجل الحصول على الميدالية. أقول في المرة الأولى، لم ينجح الأمر. لم يرغب السادة الموظفون الكبار. وقالوا له: «القيصر سافر إلى الخارج، الآن مستحيل». وأمرني السيد بالانتظار. وقال: «تيخون، انتظر، لن تبقى من دون ميدالية».

وماذا بالنسبة لسيدك، وهل ضربوه؟ – سأل أستاذ فجأة.

لم يضربه أحد. غادر بنفسه. وهل كان عليه أن يجلس مع جنود الحراسة... وهل يعطون ميدالية الآن لعمل البواب؟

يعطون. أستطيع الحصول لك على ميدالية.

نظر البواب باحترام إلى بندر.

– لا يمكنني أن أبقى من دون ميدالية. هذه هي خدمتي وطبيعة عملي.

– إلى أين ذهب سيدك؟

– ومن يعرف! يقال، أنه رحل إلى باريس.

– آه!... أكاسيا بيضاء، زهرة الهجرة... إذن، هو مهاجر؟

أنت نفسك مهاجر... يُقال، أنه رحل إلى باريس. وأخذوا المنزل للنساء المسنّات... ولو أنت هنا، فلن تحصل على قرش! إيه! كان هنا سيدا!...

في هذه اللحظة، ارتعش صوت الجرس الصدى فوق الباب. انطلق البواب، وهو يئن، واقترب من الباب، وفتحه ثم تراجع مرتبكاً جداً.

كان يقف على الدرجة العليا هيبوليت ماتفييفتش فوروبيانينوف، بشارب وشعر أسودين. وكانت عيناه تتألقان تحت النظارة، كما قبل الحرب.

– السيد! – صرخ تيوخوف بشغف – من باريس!

شعر هيبوليت ماتفييفتش بالارتباك من وجود غريب في غرفة البواب، حيث شاهد لتوه أقدامه البنفسجية العارية من خلف حافة الطاولة. وارتبك وكان يريد أن يهرب، لكن أستاذ بندر نهض بحيوية وانحنى باحترام أمام هيبوليت ماتفييفتش.

رغم أن عندنا ليست باريس، ولكن أهلاً وسهلاً بك في كوينا.

مرحباً، تيوخون، – اضطر هيبوليت ماتفييفتش للقول – أنا لست من باريس على الإطلاق. ما الذي أوصل هذه الفكرة إلى رأسك؟

لكن أستاب بندر، ذا الأنف النبيل الطويل الذي شم بوضوح رائحة مشوي، لم يسمح للبواب للنطق ببنت شفة.

ممتاز، - قال غامزاً بعينه، - أنت لم تأت من باريس. بالطبع، جئت من كونوتوب (مدينة في أوكرانيا - م.) لزيارة جدتك الراحلة.

قال هذا، وعانق بحنان البواب المخبول، وأخرجه من الباب، قبل أن يدرك البواب ما حدث، وعندما أدرك، لم يستطع أن يدرك سوى أن السيد جاء من باريس، وأنه هو، تيوخون، تم إبعاده من غرفة البواب، وأنه يشد بيده اليسرى على روبل ورقي.

عندما نظر إلى الروبل، تأثر البواب للغاية، لدرجة أنه توجه إلى حانة البيرة، وطلب لنفسه طاستين من البيرة.

بعد أن أقفل الباب بحذر خلف البواب، التفت بندر إلى فوروبيانينوف الذي كان لا يزال واقفاً في وسط الغرفة، وقال: اهدأ، كل شيء على ما يرام. اسمي بندر! ربما سمعت به!

لم أسمع به! - أجاب هيبوليت ماتفييفتش بعصبية.

حسناً، ومن أين يمكن أن يُعرف في باريس اسمي أوستاب بندر؟ هل الجو دافئ الآن في باريس؟ مدينة جيدة. ابنة عمي متزوجة هناك. أرسلت لي مؤخراً وشاحاً حريرياً في طرد مسجل...

ما هذا الهراء! صاح هيبوليت ماتفييفتش - أية أوشحة؟ أنا لم آت من باريس، بل من...

رائع، رائع من مورشانسك (مدينة روسية - م.).

لم يتعامل هيبوليت ماتفييفتش سابقاً مع مثل هذا الشاب المتحمس، مثل بندر، وشعر بنفسه في وضع سيء.

- أتعرف، سوف أذهب - قال.

إلى أين ستذهب؟ ليس لديك ما تُسرِع إليه. ГПУ - لجنة الدولة السياسية (التابعة لوزارة الداخلية - م.) ستأتي لعندك بنفسها.

لم يجد هيبوليت ماتفييفتش جواباً، فك أزرار معطفه بياقته المخملية المتهالكة، وجلس على المقعد، ناظراً إلى بندر نظرة غير ودية.

- أنا لا أفهمك - قال بصوت منهار.

هذا ليس مخيفاً. سوف تفهم الآن. دقيقة واحدة.

ارتدى أوستاب جزمته البرتقالية على قدميه العاريتين، وجال في الغرفة ثم بدأ: عن طريق أي حدود عبرت؟ الحدود البولندية؟ الفنلندية؟ الرومانية؟ يجب أن تكون متعة مكلفة. أحد معارفي عبر الحدود مؤخراً، إنه يعيش في سلافوتا (مدينة في غرب أوكرانيا - م.)، من جانبنا، أما والدا زوجته فيعيشان في الجانب الآخر. اختلف مع زوجته على شأن عائلي، وهي من أسرة سريعة التأثير. بصقت في وجهه، وطردته عبر الحدود نحو أهله. جلس صاحبي ثلاثة أيام وهو يرى أن الأمور سيئة - لا غداء، الغرفة قذرة، وقرر المصالحة. غادر ليلاً وذهب عبر الحدود إلى والد زوجته. هنا أخذه حرس الحدود، وألبسوه قضية، وسجنوه ستة أشهر، ثم طردوه من النقابة. والآن، يقال، أن الزوجة الغبية قد عادت، أما الزوج فيجلس في المهجع. وهي تحمل له الطرود والطعام... أنت أيضاً عبرت الحدود البولندية؟

كلمة شرف - تفوه هيبوليت ماتفييفتش، مدرراً تبعيته المفاجئة لهذا الشاب الثرثار، الذي ظهر على طريق مجوهراته - كلمة شرف، أنا مواطن جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية. وفي النهاية، يمكنني أن أظهر جواز سفري.

مع التطور الحديث للطباعة في الغرب، فمن أسهل الأمور طباعة جواز سفر سوفيتي، بحيث من المضحك الحديث عنه... أحد معارفي وصل إلى درجة طباعة الدولارات. وأنت تعرف مدى صعوبة تزوير الدولارات الأمريكية!؟ فالورق فيها، كما تعرف، مزود بشعر متعدد الألوان. ولا بد من الكثير من المعرفة التقنية. وقد صهرها بشكل ناجح في بورصة موسكو السوداء؛ ولكن اتضح فيما بعد، أن جده تاجر عملة معروف، اشتراها في كييف وأفلس نهائياً، لأن الدولارات كانت مزيفة. وهكذا، يمكنك أن تخطئ أيضاً بجواز سفرك.

لم يجرؤ هيبوليت ماتفييفتش، المزعوج من أنه بدلاً من البحث الجاد عن المجوهرات، يجلس في غرفة البواب القميئة ويصغي إلى ثرثرة شاب وقح عن الأعمال المريبة لمعارفه، على الخروج. فقد شعر بتوجس شديد من فكرة أن يقوم شاب مجهول وينشر في أنحاء المدينة خبر قدوم مشير النبلاء السابق. وعندها تحل نهاية كل شيء، وقد يُساق إلى السجن أيضاً.

قال هيبوليت ماتفييفتش للشاب متوسلاً:

- على أية حال، لا تخبر أحداً أنك رأيتني، فقد يظنون فعلاً أنني مهاجر.

هنا، هنا بالذات! هذا ملائم! بادئ ذي بدء، الإيجابي: ثمة مهاجر، عاد إلى مسقط رأسه. السلبي: إنه يخشى أن تعتقله لجنة الدولة السياسية.

لقد أخبرتك ألف مرة أنني لست مهاجراً.

ومن أنت؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟

حسناً، جئت من مدينة (ن) بقضية.

بأي قضية.

بقضية شخصية.

وبعد هذا تقول، أنك لست مهاجراً؟... أحد معارفي أيضاً قد جاء...

هنا وصل هيبوليت ماتفييفتش إلى درجة اليأس من قصص بندر عن معارفه، ولرؤيته بعدم قدرته على إخضاعه، خضع هو بنفسه له. وقال له: - حسناً، سأشرح لك كل شيء.

«فكر هيبوليت ماتفييفتش - في نهاية الأمر، لا بد من مُساعد، وهذا محتال كبير، كما يبدو. ويمكن أن يكون مفيداً».

## الفصل السابع دخان الماس

خلع هيبوليت ماتفييفتش من رأسه القبعة المرقطة، ومَشَطَ شاربيه، حيث صدر منهما عند تماسهما بالمشط، سرب من الشرارات الكهربائية، وبعد أن سعل بحزم، روى لأستاب بندر، المحتال الأول الذي قابله، كل ما يعرفه عن الماس من كلمات حماته المتوفاة.

استمراراً للقصة، نهض أستاب عدة مرات، ملتفتاً إلى المقعد الحديدي، وهو يصيح بحماس: - تحطم الجليد، أيها السادة المحلفون! لقد تحطم الجليد...

وبعد ساعة، جلس الاثنان خلف طاولة متقلقلة، موجهاً كل منهما رأسه نحو الآخر، وقرأ قائمة المجوهرات الطويلة، التي كانت في يوم ما تزيّن أصابع الحماة، ورقبتها، وأذنيها، وشعرها. كان هيبوليت ماتفييفتش يعدّل كل دقيقة النظارة المتقلقلة على أنفه، وينطق مركزاً: ثلاثة أطواق من اللآلئ... أذكر جيداً. اثنان بأربعين خرزة، والثالث كبير - مائة وعشر خرزات. قلادة من اللؤلؤ... كانت تقول كلوديا إيفانوفنا، إن سعرها أربعة آلاف، فهي من المجوهرات القديمة...

ثم كانت هناك الخواتم: ليس خواتم زواج، سميكة، فضة، ورخيصة، بل رقيقة، خفيفة، لحمت عليها ماسات نظيفة مصقولة؛ حلقتان معلقتان ثقيلتان، تعكسان على الأذنين النسائيتين الصغيرتين ناراً متعددة الألوان؛ أساور على شكل ثعبان مع غطاء من الزمرد؛ مشبك بلغ ثمنه محصولاً من خمسمائة هكتار؛ عقد من اللؤلؤ لم يكن يوجد مثله سوى لدى مغنية الأوبريت الشهيرة؛ ويتوج هذا كله إكليل بأربعين ألفاً مرصعاً بالجواهر.

التفت هيبوليت ماتفييفتش، اندلع في الزوايا المظلمة من غرفة البواب الموبوءة ضوء ربيعي من الزمرد وارتجف. وخيم دخان الماس تحت السقف. تدرجت حبات اللؤلؤ على الطاولة وقفزت على الأرض. كان يهز سراب المجوهرات الغرفة.

- اختيار جيد. أحجار، منتقاة، كما أرى بذوق. كم تكلفة هذه الموسيقى كلها؟

- سبعون، خمسة وسبعون ألفاً.

- إذن، هي تكلف الآن، مائة وخمسين ألفاً.

- هل حقاً بهذا القدر. - سأل فوروبيانينوف فرحاً.

ليس أقل من ذلك. ولكن، أنت فقط، أيها الرفيق العزيز، القادم من باريس، ابصق على هذا كله.

كيف أبصق؟

لعاباً، - أجاب أستاب - كما كانوا يبصقون قبل عصر المادية التاريخية. لا ينتج شيء منها.

وكيف ذلك؟

هكذا. كم كان عدد الكراسي؟

درّينة. طقم غرفة الضيوف.

منذ أمد طويل، احترق غالباً، طقم غرفة ضيوفك في الموقد.

شعر فوروبيانينوف بخوف شديد، لدرجة أنه نهض من مكانه.

- اهدأ، اهدأ. أنا أتولى القضية. اجتماعنا يستمر. بالمناسبة، علينا توقيع عقد صغير.

تنفس هيبوليت ماتفييفتش بصعوبة، وبإيماءة من رأسه عبر عن موافقته. عندها بدأ  
أستاب بندر بوضع الشروط.

في حال بيع الكنز، أنا بصفتي مشاركاً مباشراً في الامتياز ومديراً فنياً للعمل، أحصل على  
ستين بالمائة، وليس عليك أن تدفع لي التأمين الاجتماعي. فهذا لا يهمني.

اصطبغ هيبوليت ماتفييفتش بلون رمادي.

- هذه سرقة في وضح النهار.

- وكم فكرت بأن تقدم لي؟

حسناً، خمسة بالمائة، طيب عشرة، كحد أخير. افهم، هذا مبلغ قدره خمسة عشر ألف روبل!

ألا تريد إعطائي شيئاً آخر؟

لا.

أو ربما تريدني أن أعمل مجاناً، وأن أعطيك مفتاح الشقة، حيث توجد الأموال؟

في هذه الحالة أنا آسف - قال فوروبيانينوف مغمغماً - لدي كل الأسس للاعتقاد بأنني  
سأنجح بعلمي بمفردي.



آه! في هذه الحالة، معذرة - اعترض أستاذ الرائع - لدي أسس ليست أقل، كما قال إندي تاكر (Andy Tucker) - شخصية أدبية للكاتب الأمريكي و. هنري في رواياته عن المحتالين - م. للاعتقاد بأنني وحدي أستطيع النجاح في قضيتك.

مخادع! - صاح هيبوليت ماتفييفتش، مرتجفاً.

بقي أستاذ بارد الأعصاب.

اسمع، أيها السيد من باريس، وهل تعرف أن مجوهراتك في جيبي تقريباً! وأنت تهمني فقط، لأنني أريد تأمينك في هذه السن المتقدمة.

وهنا أدرك هيبوليت ماتفييفتش، أي كفين حديدين أمسكا به من عنقه.

- عشرون بالمائة - قال مغموماً.

- وطعامي ومصروفي؟ - قال أستاذ ساخراً.

- خمسة وعشرون.

- ومفتاح الشقة؟

- إنها سبعة وثلاثون ألف ونصف!

- وعلام هذه الدقة؟ حسناً، فليكن - خمسون بالمائة. نصف لك، ونصف لي.

استمرت المساومة. تنازل أستاذ ثانية. واحتراماً لشخصية فوروبيانينوف، وافق على العمل بأربعين بالمائة.

- ستون ألفاً! - صاح فوروبيانينوف؟

- أنت رجل سوقي إلى حد ما، - اعترض بندر - تحب المال أكثر مما يجب.

- وأنت، ألا تحب المال؟ - صرخ هيبوليت ماتفييفتش بصوت الفلوت (الناي).

- لا أحب.

ولماذا تحتاج إلى ستين ألفاً؟

قضية مبدأ.

التقط هيبوليت ماتفييفتش أنفاسه.

– ماذا، تحطم الجليد؟ – أضاف أستاذ.

انتفخ فوروبيانينوف وقال بخضوع:

تحطم.

حسناً، اتفقنا، يا مشير مقاطعة كومانتش الهندية، أيها السادة المحلفون المجتمعون! لقد انكسر الجليد!

بعد أن استاء هيبوليت ماتفييفتش من لقب «مشير مقاطعة كوماتش»، طالب بالاعتذار، وبعد أن ألقى أستاذ خطاب اعتذار، أطلق عليه اسم المشير، وبدأ بصياغة خطة العمل.

خلال هذا الوقت، كان تيوخون قد شرب في حانة «فازيس» من البيرة بروبل، وقع في يده بأعجوبة. كان خمسة عازفين عميان على الأكورديون، يلتصق أحدهم بالآخر، جالسين على دفة خشبية، جافلين من رذاذ البيرة الذي وصل إليهم. تأثر البواب من أعماق روحه بظهور السيد مع ثلاث زجاجات من البيرة في الفناء. بدا له كل شيء رائعاً: فالسيد، والبيرة، وحتى المصق التحذيري: «رجاء، عدم نطق العبارات غير المحتشمة». وقد انثزعت كلمة «عدم» من جانب شقيّ مرح. وهذه الخاصة أزعجت البواب تيوخون كثيراً. لوى البواب رأسه، وتمتم: يا لهم من شياطين، ماذا اختلقوا!

بعد أن ضحك بما فيه الكفاية، أخذ تيوخون الزجاجاة الأخيرة وذهب إلى الطاولة المجاورة، التي جلس عليها شباب لا يعرفهم إطلاقاً.

ماذا، أيها الجنود، – سأل تيوخون جالساً بقربهم – صحيح ما يقال بأن الأرض سيعيدونها للملاك؟

ضحك الشباب بشدة. وسأله أحدهم:

– وأنت ستكون من الملاكين؟

نحن، من البوابين – أجاب تيوخون – وسأقول، فرَضاً، مالك أرض عاد. وهل سيعيدون له الأرض؟

واضح، أنك أحمق، لن يعطوا.

تفاجأ تيخون كثيراً، وأكمل شرب البيرة، وثلث أكثر، وبدأ يتحدث بأشياء سخيفة عن السيد النبيل العائد. أنزله الشباب بقوة من طاولته.

– السيد – قال تيخون مثرثراً – سيعطيني ميدالية. وصل سيدي.

– يا له من أحمق! – لخص الشباب الوضع – بواب من هذا؟

بيت الأرملة. بيت فوروبيانينوف سابقاً.

كيف سيعود إلى هنا! وضعه في الخارج جيد.

وربما، عاد – يريد أن يصبح اختصاصياً.

في منتصف الليل، كان البواب تيخون، مسكاً بيديه بكل شيء، مروراً بالحدائق الأمامية، متكئاً على الأعمدة طويلاً، زحف إلى قبو منزله. ولكن لسوء حظه، كان القمر هلالاً صغيراً.

آه!، بروليتاري العمل العقلي! العامل يكس! – صاح أستاذ، ممسكاً بالبواب المكور كالدولاب.

كان البواب يخور بصوت منخفض منفعّل، مثلما يبدأ أحياناً فجأة بالتذمر بحرارة في منتصف الليل حوض المرحاض.

هذه عبقرية – قال أستاذ لهيبوليت ماتفييفتش، – إن بوابك شخص فاسق للغاية. هل من الممكن أن يسكر بروبل هكذا؟

ممكن – قال تيخون فجأة.

اسمع، يا تيخون، – بدأ هيبوليت ماتفييفتش، – ألا تعرف، يا صديقي، ماذا حل بأثافي؟

كان أستاذ يمسك بعناية، بتيخون، كي يخرج الكلام بحرية من فمه المفتوح على مصراعيه. وكان هيبوليت ينتظر بتوتر. ولكن من فم البواب، الذي لا تنمو فيه الأسنان منتظمة على التوالي، بل عبر سن وسن، انطلق صراخ يصم الأذان: – كانت هناك أيام سعي...ددة...

امتلأت غرفة البواب بالرعد والضجيج. وأنشد البواب بجد ومثابرة أغنية، لم ينقص منها كلمة واحدة. كان يطوف متنقلاً في الغرفة، ليغوص تحت الطاولة بلا شعور تارة، أو ليضرب بالسدارة على ثقالة ساعة الحائط النحاسية، أو ليقف على ركبة واحدة تارة أخرى. كان يشعر بمرح شديد.

فقد هيبوليت ماتفييفتش زمام مبادرته كاملاً.

– علينا تأجيل استجواب الشهود إلى الغد، – قال أستاذ – سوف نذهب إلى النوم.

تم حمل البواب، الثقيل في نومه، كالخزانة ذات الأدراج، ووُضع على المقعد.

قرر فوروبيانينوف وأستاذ الاستلقاء معاً في سرير الحراسة. كان أستاذ يرتدي تحت الجاكيت قميص «كاوبوي» بمربعات سوداء وحمراء. ولم يكن يرتدي شيئاً تحت قميص «الكاوبوي». أما هيبوليت ماتفييفتش، فتحت الصدرية البيضاء التي يعرفها القارئ، كانت هناك صدرية أخرى، جاروس، سماوية لامعة.

الصدرية مناسبة للبيع، – قال بندر بحسد – إنها مناسبة لقياسي تماماً. يعني الصدرية.

كان من غير المناسب لهيبوليت ماتفييفتش أن يرفض طلب شريكه الجديد، والمشارك المباشر في الامتياز.

بعد أن تغضن وزم شفتيه، وافق على بيع الصدرية بثمنها – ثمانية روبلات.

– سأدفع المال بعد بيعنا الكنز – قال بندر، وأخذ من فوروبيانينوف السترة الدافئة.

لا، لا أستطيع فعل ذلك – قال هيبوليت ماتفييفتش، وقد احمر وجهه، – اسمح بإعادة الصدرية لي.

غضب أستاذ بطبيعته الحساسة. وصاح:

هذه تجارة دكان! نبدأ بعمل بألف ونصف والاختلاف من أجل ثمانية روبلات! تعلم العيش ببخوذة!

احمر وجه هيبوليت ماتفييفتش أكثر، وأخرج دفترًا صغيراً، وكتب في المفكرة: 25/5 – عام 27.

سُلمت للرفيق بندر.

8 روبلات.

نظر أستاذ في المفكرة

رائع! إذا ما فتحت لي حساباً شخصياً، فسجله على الأقل بشكل صحيح. ابدأ الخصم، سجل الائتمان. لا تنسى أن تدخل في الرصيد ستين ألف روبل، وهو المبلغ الذي أنت مدين لي فيه، أما في الائتمان - صدرية. الرصيد لصالحى - تسعة وخمسون ألف روبل، وتسعمائة وأثنين وتسعين روبلا. يمكن العيش بها.

بعد ذلك، نام أستاب صامتاً كالطفل. أما هيبوليت ماتفييفتش، فخلع ثيابه الصوفية وحذاء البارون، وبعد أن بقي في ثياب جايجر الداخلية الكتّانية، زحف تحت البطانية وهو يشخر. كان غير مرتاح للغاية. من الناحية الخارجية، حيث لم تكن البطانية كافية، كان الجو بارداً، ومن ناحية أخرى، كان يحرقه جسد المحتال الكبير، المليء بالأفكار المرتعشة.

الثلاثة كانت لديهم أحلامهم.

حلم فوروبيانينوف بمنامات سوداء: ميكروبات، محقق جنائي، بلوزات مخملية ومعلم التواييت بيزنشوك في بدلة رسمية، لكنه غير حليق.

رأى أستاب في منامه بركان فوجي ياما، ورئيس شركة الزيوت، وتاراس بولبا (بطل شعبي أوكراني - م.) يبيع بطاقات بريدية عليها صور دنيبروستروي (شركة بناء روسية - م.).

أما البواب، فحلم بأن الجياد هربت من الاسطبل. كان يبحث عنها في الليل حتى الصباح، ولما لم يعثر عليها، استيقظ مُكسراً مكفهاً. كان ينظر باستغراب إلى الشخصين النائمين في سريره. لم يفهم شيئاً، فأخذ المكينة وتوجه إلى الشارع لأداء مسؤولياته المباشرة: التقاط تفاح (روث - م.) الجياد والصراخ عليها.

## الفصل الثامن آثار «تيتانيك»

استيقظ هيبوليت ماتفييفتش، كعادته، في الساعة والنصف، وتنبأ لنفسه بـ«غوتن مورغن»، وتوجه إلى المغسلة. كان يغسل وجهه بسرور: بصق عدة مرات، وناح، وهز رأسه، كي يتخلص من الماء الداخل إلى الأذنين. كان من المريح له أن يتجفف، ولكن عندما رفع المنشفة من على وجهه، رأى أنه ملطخ بذلك اللون الأسود الراديكالي، الذي صبغ به منذ أمس الأول شاربیه الأفقيين. انطفا قلب هيبوليت ماتفييفتش. وهرع إلى مرآة الجيب الصغيرة. انعكس في المرآة أنف كبير وشارب يساري أخضر، كعشبة صغيرة. حرك هيبوليت ماتفييفتش المرآة إلى اليسار بسرعة. كان الشارب اليميني أيضاً بلون بشع. وبعد أن حنى رأسه، وكأنه يريد تضليل المرآة، رأى المسكين، أن اللون الأسود لا يزال مسيطراً في وسط المربع، لكن الأطراف كانت مغلقة بالحدود العشبية ذاتها.

أصدر كيان هيبوليت ماتفييفتش كله أنيناً عالياً جداً، لدرجة أن بندر فتح عينيه.

– لقد فقدت عقلك! – صاح بندر وأغلق على الفور رموشه النائمة.

– الرفيق بندر – همست الضحية «تيتانيك» متوسلة.

استيقظ أستاذ بعد عديد من الدفعات ومحاولات الإقناع. نظر باهتمام إلى هيبوليت ماتفييفتش وضحك بجذل. أشاح القائد العام والمدير الفني عن المدير – مؤسس الامتياز، وأمسك بظهر السرير، وأخذ يصيح: «لا أستطيع!» – وهاج من جديد.

– هذا ليس جيداً، من طرفك، أيها الرفيق بندر، – قال هيبوليت ماتفييفتش، محركاً بارتجاف شاربیه الأخضرين.

أعطى هذا قوة جديدة لأستاذ الذي كان منهكاً. استمر ضحكه البريء الصادق عشر دقائق أخرى. وبعد أن التقط أنفاسه، أصبح على الفور في منتهى الجدية.

– لماذا تنظر إليّ بهاتين العينين الشريرتين، كما ينظر الجندي إلى قملة؟ انظر إلى نفسك!

– غير أن الصيدلي قال لي أن لونهما سيكون أسود قانياً. لا يمكن غسل الصبغة لا بالماء البارد، ولا بالماء الساخن، ولا برغوة الصابون، ولا بالكايروسين... بضاعة مهربة.

– مهربة؟ التهريب كله يُصنع في أوديسا، في شارع مالايا أرناؤوتسكايا. أرني الحنجور... ثم انظر. هل قرأت هذا؟

– قرأت.

– وهذا – بأحرف صغيرة؟ هنا كُتِبَ بوضوح، بعد الغسيل بالماء الساخن والبارد أو رغوة الصابون والكيروسين، يجب عدم مسح الشعر، بل تجفيفه على أشعة الشمس أو على وابلور الكاز... لماذا لم تجففه؟ إلى أين ستذهب الآن «بغصن اليزفون» الأخضر هذا؟

شعر هيبوليت ماتفييفتش بالاكتئاب. دخل تيوخون. عندما رأى السيد في شاربين أخضرين، رسم علامة الصليب، وطالب بالصحة من السكر.

– اعط روبلاً لبطل العمل – اقترح أستاذ، – ورجاء، لا تسجله على حسابي. هذه علاقتك الحميمة مع موظفك... انتظر، أيها الأب، لا تتعد، ثمة عمل.

أدار أستاذ حديثاً مع البواب حول الأثاث، وبعد خمسة دقائق، عرف صاحب الامتياز كل شيء. تم نقل الأثاث بكامله في عام 1919 إلى قسم الإسكان، باستثناء كرسي واحد من غرفة الضيوف، بقي أولاً في حيازة تيوخون، ثم أخذه منه مدير مؤسسة البيت الثاني للضمان الاجتماعي.

– إذن، هو هنا، في هذا المنزل؟

– هنا، ها هو موجود.

– أخبرني، يا صديقي – سأل فوروبيانينوف متسماً – عندما كان الكرسي لديك، هل قمت بتصليحه...؟

– من المستحيل تصليحه. في الزمن الماضي كان العمل جيداً. مثل هذا الكرسي يمكن أن يعيش ثلاثين عاماً أخرى.

– حسناً، اذهب يا صديقي، خذ روبلاً آخر، ولكن لا تقل أبداً بأنني جئت.

– أنا صامت كالقبر، أيها المواطن فوروبيانينوف.

بعد أن أمسك بالبواب، وصرخ: «الجليد تكسر»، توجه أستاذ بنذر من جديد إلى شاربي هيبوليت ماتفييفتش:

– لا بد من صبغهما من جديد. اعطني نقوداً – سأذهب إلى الصيدلية. صبغت «تيتانيك» غير صالحة على الإطلاق. يمكن صبغ الكلاب بها فقط... في الأيام الخوالي كانت هناك صبغة!.. حدثني أحد أساتذة سباق الخيل بقصة مؤثرة. هل أنت مهتم بالسباق؟ لا؟ للأسف. قصة مثيرة. إليك القصة... كان هناك محتال شهير، الكونت دروتسكي. خسر في السباق

خمسمائة ألف. إنه ملك الخسارة! وعندما لم يبق لديه أي شيء، سوى الديون، وفكر بالانتحار، قدم له رجل – حشرة نصيحة رائعة مقابل خمسين روبلاً. غادر الكونت وعاد بعد سنة على ظهر جواد من أرلوف عمره ثلاث سنوات. وبعد هذا لم يستعد الكونت نقوده فحسب، بل وربح أيضاً ألفاً وثلاثمائة. فقد كان جواده ماكلر من أرلوف، بشهادته الممتازة، يحتل المركز الأول دائماً. وفي سباق الخيل (الدربي) تجاوز حصان مكماهون بجناح كامل. إنه كالرعد!... ولكن يشير كوروشكين هنا (هل سمعت به؟) أن جميع جياد أرلوف تبدأ بتغيير ألوانها – باستثناء ماكلير لوحده، مثل المرأة الساحرة دوسيا، لا يغير لونه. كانت فضيحة لم يسبق لها مثيل! حكم على الكونت بثلاث سنوات. اتضح أن ماكلر ليس جواداً من أرلوف، بل هجين مصبوغ، والجياد الهجينة أسرع من جياد أرلوف، ولا يسمح لها بالاقتراب منها ولا لمسافة ميل. أرايت؟ هذه صبغة!... وليس صبغة شاربيك!...

– ولكن الشهادة؟ كان لديه شهادة ممتازة، أليس كذلك؟

– إنها شهادة – ملصق، مثل الملصق في صبغتك «تيتانيك»، مزيفة! اعطني نقوداً للصبغة.

عاد أستاذ بحنجور جديد من الصبغة.

– «نايادا». ربما تكون أفضل من صبغتك «تيتانيك». اخلع الجاكيث!

بدأت عملية إعادة الطلاء. لكن «اللون الكستنائي، المذهل، الذي يكسب الشعر نعومة وطرارة»، بعد أن امتزج بصبغة «تيتانيك»، صبغ فجأة شعر هيبوليت ماتفييفتش وشاربيه بألوان الطيف الشمسي.

كان فوروبيانينوف، الذي لم يأكل شيئاً منذ الصباح، يشتم بغضب، جميع معامل العطور، الحكومية، والسرية، الموجودة في أوديسا في شارع مالايا أرناؤوتسكايا.

– مثل هذين الشاربين يجب أن لا يكونا موجودين، حتى لدى أريستيد بريان (مغني أوبرا فرنسي – م)، – لاحظ أستاذ بمرح – لكن لا ينصح بالعيش في روسيا السوفييتية بمثل هذا الشعر فوق البنفسجي. عليك أن تحلقهما.

– لا يمكنني ذلك – أجاب هيبوليت ماتفييفتش بحزن – هذا مستحيل.

– ماذا، وهل الشاربان عزيزان عليك كذكرى؟

– لا يمكنني ذلك – كرر فوروبيانينوف، منزلاً رأسه.



- عندها، اجلس على طول في غرفة البواب، وأنا سأذهب للبحث عن الكراسي. بالمناسبة، الكرسي الأول فوق رأسك.

- احلق الشاربين!

بعد أن بحث عن المقص، أمسك بندر شاربیه على الفور، فسقطا بهدوء على الأرض. وبعد أن انتهى من الحلاقة، أخرج المدير الفني من جيبه شفرة «جيليت صفراء»، ومن الجزدان - شفرة احتياط وأخذ يحلق هيبوليت ماتفييفتش الذي يكاد أن يبكي.

- الشفرة الأخيرة أستخدمها من أجلك. لا تنس أن تسجل في رصيدي روبلين لقاء الشفرة والحلاقة.

سأل هيبوليت ماتفييفتش مرتجفاً من الحزن:

- ولماذا غالية لهذه الدرجة؟ في كل مكان سعرها أربعين كوبيكاً.

- بسبب الطابع التأمري - أجال بندر بسرعة.

كانت معاناة الرجل الذي يُحلق له شعره بشفرة آمنة لا تطاق. وهذا ما أدركه هيبوليت ماتفييفتش منذ بداية العملية.

لكن النهاية التي تحل دوماً لكل شيء، قد حلت الآن.

- كل شيء جاهز. الاجتماع يستمر! الرجاء من المعصّين عدم النظر! أنت الآن تشبه بوبوريكين، فنان المنوعات المشهور.

نفذ هيبوليت ماتفييفتش عن كاهله البقايا السيئة، التي كانت للتو شعراً شائباً جميلاً، واغتسل، ولشعوره برأسه كله بحرق قوي، حدّق إلى نفسه في المرآة للمرة المائة اليوم. كان ينظر إليه وجهه، مشوه بالمعاناة، لكنه وجه شاب فنان من دون دعوة.

## الفصل التاسع اللص الأزرق

كان مدير مؤسسة البيت الثاني للضمان الاجتماعي لصاً خجولاً. فكل كينونته كانت تحتج على السرقة، لكنه لم يستطع أن لا يسرق. كان يسرق، وكان يشعر بالخجل. كان يسرق باستمرار، ويخجل باستمرار، ولهذا فإن خديه الحليقين جيداً كانا دوماً يتوهجان بحمرة الحرج، والخجل، والحياء، والارتباك. كان اسم مدير المؤسسة ألكسندر ياكوفليفتش، واسم زوجته – ألكسندر ياكوفليفنا. كان يدعوها ساشخين، وكانت تدعوه – ألخين. الدنيا كلها لم تر لصاً أزرق مثل ألكسندر ياكوفليفتش.

لم يكن مدير مؤسسة فحسب، بل كان مديراً عاماً. المدير السابق، بسبب معاملته القاسية للنزلاء عزلوه من منصبه، وعينوه قائد الأوركسترا السيمفونية. ألخين لم يكن يشبه رئيسه سيء الأدب. وبحسب نظام العمل المكثف، أخذ على عاتقه إدارة البيت وكان يتعامل مع المتقاعداً باحترام، مجرياً في البيت إصلاحات ومشاريع جديدة.

سحب أستاذ بندر باب البلوط الثقيل لقصر روبانينوف ووجد نفسه في الردهة. هنا فاحت رائحة عصيدة ساخنة. ومن الغرف العلوية اندفعت أصوات متنافرة، شبيهة بهتاف استحسان بعيد «مرحى» مقيدة. لم يكن هناك أحد، ولم يحضر أحد. كان يقود إلى الأعلى درج من شجر البلوط بدرجات كانت مطلية. أما الآن فكانت تظهر فيها دوائر، ولم تكن هناك القضبان النحاسية التي كانت تضغط سجادة الدرج.

«كان زعيم الكوماتش يعيش في رفاهية مبتذلة» – فكر أستاذ وهو يصعد إلى الأعلى.

في الغرفة الأولى، المشرقة والواسعة، كان يجلس على شكل دائرة عشرة ونيف من العجائز المسنات، بشعورهن الشائبة، في أثواب رخيصة من الكتان بلون الفأر. كنّ يمددن رقابهن بتوتر وينظرن إلى الرجل المتفتح الجالس في المنتصف. وينشدن: تُسمع جلجة الدفوف من بعيد.

إنها المسار المألوف للترويك

وبعيداً امتد على مسافة واسعة

ثلج متلألأ كالفضة الأبيض!...

كان قائد الجوقة، في قميص رمادي من نوع السراويل نفسه وفي سروال من الكتان نفسه، يوجه الجوقة بكتا يديه، ويستدر ويصرخ: – صوت ثلاثي، بصوت متخفص! كوكوشكينا، بصوت أضعف!

لقد رأى أستاذ، لكنه كان عاجزاً عن وقف يديه عن الحركة، فنظر إلى الشخص القادم نظرة غير لطيفة وتابع إدارة الجوقة. رعدت الجوقة بقوة خامدة، كما لو من خلال وسادة: تا تا تا، تا تا تا، تا تا تا،

ترووم، ترووم، ترووم...

– قل لي، أين يمكنني هنا رؤية مدير المؤسسة؟ – قال أستاذ، مقتحماً عند الوقفة الأولى

– ما الأمر، أيها الرفيق؟

مد أستاذ يده بود لقائد الجوقة وسأل:

– أغاني شعبية؟ ممتعة جداً. أنا مفتش إدارة الإطفاء.

شعر المدير بالخجل.

– نعم، نعم – قال محرجاً – هذا بالذات ما هو مطلوب. حتى أنني نويت أن أكتب تقريراً بهذا الخصوص.

– لا داع للقلق – قال أستاذ بشهامة – سأكتب التقرير بنفسني. حسناً. دعنا نشاهد البناء.

– فض آخين الجوقة بحركة من يده، وابتعدت العجائز بخطوات صغيرة بهيعة.

– تفضل ورائي. – دعاه المدير. قبل الانطلاق إلى مكان أبعد، حدّق أستاذ بأثاث الغرفة الأولى. كان هناك في الغرفة: طاولة، مقعدين كبيرين من مقاعد الحدائق بأرجل حديدية (كان محفوراً على ظهر إحداها بعمق اسم «كوليا»)، وأرغن أحمر.

– في هذه الغرفة ألا يشعلون بabor الكاز؟ والمواعد المؤقتة وما شابهها؟

– لا، لا. هنا لدينا دروس الحلقات والأنشطة: كورس، الدراما المسرحية، والفنون الجميلة، والموسيقا...

عند وصوله إلى كلمة «الموسيقا»، احمر ألكسندر ياكوفليفيتش خجلاً. احمرت ذقنه أولاً، ثم جبينه وخديه. كان آخين يشعر بالخجل الشديد. فقد باع منذ زمن طويل جميع أدوات الموسيقى النفخية الكنسية. فالرئات الضعيفة للعجائز لم يكن يصدر عنها على أية حال أكثر من صرير جرو. وقد كان من المضحك رؤية هذه الآلة الموسيقية المعدنية الكبيرة في وضع بلا حول ولا قوة. لم يستطع آخين أن لا يسرق جوقة الترتيل. والآن كان يشعر بالخجل الشديد.

على الجدار الممتد من النافذة إلى النافذة، كان قد علق شعار، مكتوب بأحرف بيضاء على قطعة حجر بلون الفأر: «الأوركسترا الهوائية – طريق إلى الإبداع التعاوني»

– جيد جداً – قال أستاذ – غرفة الأنشطة والحلقات لا تشكل أي خطر، بالنسبة لقسم الإطفاء. لنتحرك إلى الأقسام الأخرى.

بعد اجتياز الغرف الأمامية لقصر فوروبيانينوف بخطى سريعة، لم يلاحظ أستاذ أي كرسي مصنوع من خشب الجوز بأرجل منحنية، منجد بقماش انكليزي فاتح محلى بالزهور. على جدران المرمر المصقول كانت ملصقة طلبات البيت الثاني للضمان الاجتماعي. كان أستاذ يقرأها، متسائلاً من حين لآخر: «المدخن يتم تنظيفها بصورة دورية؟ المواعد والأفران على ما يرام؟» وبعد أن يحصل على إجابات شاملة، يتحرك إلى الأمام.

كان مفتش الحماية من الحريق يفتش بعناية في البيت عن زاوية واحدة على الأقل تشكل خطراً من حيث الحريق، ولكن كل شيء كان بأمان من هذه الناحية. لكن عمليات البحث كانت غير ناجحة. دخل أستاذ إلى غرف النوم. نهضت العجائز عند ظهوره، وانحنين باحترام. كانت هناك أسرة، مغطاة ببطانيات ذات وبر، مثل شعر الكلب، وقد نسجت من قبل المصنع على أحد أطرافها كلمة «أرجل». وتحت الأسرة، كانت هناك صناديق بارزة إلى ثلثها، بمبادرة من ألكسندر ياكوفليفتش، الذي يحب الترتيب العسكري.

كل شيء في البيت رقم 2 كان يذهل العين بتواضعه المفرط: المفروشات، التي تكوّن من مقاعد الحديقة حصراً، وتم إحضارها من حديقة ألكسندر، المعروفة الآن باسم حديقة السبوتات البروليتارية، ومن البولفار؛ ومصابيح الكيوسين التجارية؛ والبطانيات ذاتها التي تحمل كلمات «أرجل» المخيفة. بيد أن شيئاً واحداً كان في المنزل قوياً وفاخراً، وهو نوابض الأبواب.

كان تركيب الأبواب شغف ألكسندر ياكوفليفتش. فقام بأعمال كبيرة، وجهاز جميع الأبواب دون استثناء بنوابض من مختلف الأنواع والأنظمة. هنا كانت نوابض بسيطة على شكل قضبان حديدية. وكانت هناك نوابض مضغوطة ذات مضخات أسطوانية نحاسية. وكانت هناك أجهزة بعلب ذات أكياس تسديد تنازلية ثقيلة. كما كانت هناك نوابض ذات هياكل معقدة بحيث أن صانع أقفال قسم التأمينات كان يهز رأسه عجباً. وجميع هذه الأسطوانات والنوابض وذات الثقل الموازن كان تتمتع بقوة جبارة. كانت الأبواب تُغلق باندفاع قوي مثل بوابات مصائد الفئران. فكان المنزل كله يرتجف من عمل آليات الإغلاق. وكانت النساء المسنات يهربن بصريز حزين من الأبواب الهاجمة عليهن، لكن لم يستطعن دوماً الفرار منها. فكانت الأبواب تدفع الهاربات وتضربهن على ظهورهن، ومن الأعلى كان يتناقص الثقل الموازن بصريز خامد، قافزاً عبر الصدغ كالنواة.

عندما كان بندر ومدير المؤسسة يتنقلان في البيت كانت الأبواب تحييها بضربات رهيبة.

وخلف هذه الروعة الحصينة كلها لم يكن يختبئ شيء - لم يكن هناك كرسي. وبحثاً عن أخطار الحريق، دخل المفتش إلى المطبخ. كانت هناك عصيدة تغلي في قدر كبير، شم المحتال رائحتها منذ أن كان في الردهة. لوى أستاذ أنفه وقال: - ما هذا تطبخون العصيدة بزيت معدني؟

- قسماً بالله بزبدة بقرية! - قال آخين، وقد احمر حتى كاد أن يذرف الدمع - نشتريها من المزرعة.

كان يشعر بخجل شديد.

- على كل، إنها لا تشكل أي خطر من حيث الحريق - لاحظ بندر.

في المطبخ أيضاً لم يكن هناك كرسي. كان هناك كرسي خشبي بلا مسند، كان يجلس عليه الطباخ في مريوله وقبعته من الكتان.

- لماذا جميع الملابس عندكم من لون رمادي، ومن نوع الشاش، بحيث لا تصلح إلا لمسح النوافذ؟

أطرق آخين الخجول بنظره إلى الأسفل أكثر.

- لا يصرفون الاعتمادات الكافية.

كان هو نفسه يشعر بالقرع من نفسه.

نظر أستاذ بريية إليه وقال:

- هذا لا يتعلق بفريق الإطفاء الذي أمثله في هذه اللحظة.

شعر آخين بالخوف.

- ضد الحريق - قال - اتخذنا جميع التدابير. حتى أنه عندنا جهاز إطفاء الحريق بالرغوة «إكلير».

عندما كان المفتش ينظر في طريقه خزائن المؤونة، تابع النظر على مضض إلى مطفأة الحريق. ورغم أن هذا المخروط الصلب الأحمر كان الوحيد في المنزل المتعلق بإطفاء الحريق، فقد أثار في المفتش انزعاجاً خاصاً.

– اشتريته من سوق السلع المستعملة؟

ودون انتظار الإجابة من ألكسندر ياكفليفيتش، المذهول كما لو أصابه الرعد، انتزع أستاذ «إكلير» من المسمار الصدئ المعلق عليه، وكسر الكبسولة دون سابق إنذار ووجه المخروط بسرعة إلى الأعلى. ولكن بدلاً من رذاذ الرغوة المتوقعة، انبعثت من المخروط قرقرة خافتة، تذكر بالحن القديم: «إننا نمجد ربنا في صهيون».

– بالطبع من سوق السلع المستعملة – أكد أستاذ رأيه الأول وعلق مطفأة الحريق التي تابعت القرقرة في مكانها السابق.

بعد أن ودعا القرقرة، توجهوا إلى المكان التالي.

«أين يمكن أن يكون؟ – فكر أستاذ – لم يعد هذا يروقني». وقرر عدم مغادرة قصر قماش الكتان إلى أن يعرف كل شيء.

خلال هذا الوقت، وحيثما تسلق المفتش ومدير المؤسسة في السقائف، فاحصين جميع تفاصيل الحماية من الحريق ومواقع المداخل، كان البيت الثاني من الضمان الاجتماعي يعيش حياته العادية.

أصبح الغداء جاهزاً. واشتدت راحة العصيدة الساخنة بوضوح وغطت على جميع الروائح الحمضية الأخرى المستقرة في المنزل. وبدأ الهمس والوشوشة في الممرات. كانت العجائز اللواتي يحملن بأيديهن أوعية من الصفيح ممتلئة بالعصيدة، يخرجن بحذر من المطبخ ويجلسن لتناول طعام الغداء على طاولة مشتركة، محاولات عدم النظر إلى الشعارات المعلقة في غرفة الطعام، التي أبدعها ألكسندر ياكفليفيتش ورسمها شخصياً. وكان من تلك الشعارات:

- «الغذاء – مصدر الصحة»
- «البيضة الواحدة تحتوي على مقدار من الدهون يعادل
- «رطل ونصف من اللحم»
- «عندما تمضغ الطعام بعناية، فأنت تساعد المجتمع»
- «اللحوم ضارة»

كانت جميع هذه الكلمات المقدسة توقظ في النساء العجائز الذكريات عن أسنانهن التي اختفت قبل الثورة، عن البيض الذي اختفى تقريباً في تلك الفترة، عن اللحوم التي هي أقل درجة من البيض من حيث الدهون، وربما، عن المجتمع الذين حُرِم من مساعدته، بمضغهن الطعام مضغاً جيداً.

وكان الوضع الأسوأ من نصيب العجوز كوكوشكينا، التي كانت تجلس مقابل رسم هندسي كبير بالألوان المائية المضاءة لبقرة. وقد تبرع بهذه اللوحة جمعية التنظيم العلمي الجديد للحياة اليومية. كانت البقرة الجميلة النازرة من اللوحة بعين إسبانية قاتمة، مقسمة إلى أجزاء بحرفية، وتشبه المخطط العام للبيت التعاوني الجديد، مع اختلاف واحد فقط، أنه في تلك الأماكن التي كانت في المخطط العام موسومة باسم المراحيض، والمطابخ، والممرات، والسلالم الخلفية، كانت تظهر في مخطط البقرة باسماء: فيليه، ستيك، أطراف، الأنواع الأول والثاني والثالث.

كانت كوكوشكيتا تأكل عصيدها، دون أن ترفع رأسها. فالبقرة المذهلة كانت تثير سيلان لعابها وتوقف قلبها عن الخفقان. لم يكن يُقدم اللحم في وجبات الغداء في البيت الثاني من الضمان الاجتماعي.

بالإضافة إلى النساء العجائز، جلس إلى مائدة الطعام إيسيدور ياكفليفيتش، أفاناسي ياكفليفيتش، كيريل ياكفليفيتش، أوليغ ياكفليفيتش، وباشا إيميليفتش. هؤلاء الشباب لم يتوافقوا مع مهام الضمان الاجتماعي، لا من حيث العمر ولا من حيث الجنس، ولكن كان هؤلاء (آل ياكفليفيتش) الأربعة إخوة آخين الصغار، أما باشا إيميليفتش - فهو ابن عم ألكسندرا ياكوفليفنا. لم يعتبر هؤلاء الشباب، وكان أكبرهم باشا إيميليفيتش في الثانية والثلاثين من عمره، حياتهم في منزل الضمان الاجتماعي شيئاً غير طبيعي. كانوا يعيشون في المنزل بحقوق النساء العجائز، وكانت لديهم أيضاً أسرة حكومية مع بطانيات، كتب في طرفها «أرجل»، وكانوا يرتدون مثل العجائز، ألبسة من الكتان، ولكن بفضل شبابهم وقوتهم كانوا يتغذون أفضل من العجائز. كانوا يسرقون من المنزل كل ما لم يستطع سرقة آخين. باشا إيميليفيتش كان يمكنه أن يجلس وحده ويلتهم كيلوغرامين من السمك، وهذا ما فعله ذات مرة، وترك سكان المنزل دون غداء.

لم تلحق النساء المسنات تذوق العصيدة حتى كان الشباب الأربعة (آل ياكفليفيتش) مع إيميليفيتش يتجشؤون، بعد أن يتلعوا حصصهم، ويتوجهون إلى المطبخ بحثاً عن شيء ما سهل الهضم.

استمر الغداء. وتذمرت العجائز:

- الآن سيسكرون، وسيبدؤون في ترديد الأغاني.

أما باشا إيميليفيتش فقد باع اليوم كرسيّاً من غرفة الاجتماعات. أخرجته للسماح من الباب الخلفي.

انظروا، سيأتي اليوم ثملاً...

في هذه اللحظة، انقطع حديث العجائز بعطس مكبر الصوت الذي طغى حتى على تنفيس مطفأة الحريق، وبدأ كصوت البقرة: ... اختراع...

تابعت المسنات العجائز، المنحنيات اللواتي لم يلتفتن إلى مكبر الصوت الموضوع على الأرضية المغسولة، تناول طعامهن، على أمل أن هذا لا يتعلق بهن. لكن مكبر الصوت كان يتابع بنشاط: كركركر فيدوسوب... اختراع قيم. الرفيق سوكوتسكي، معلم سكة حديد مورمانسك - ساماري، أريول، كليوباترا، أوستينيا، تساريتسين، كليمينتي، إيفيغينيا، يورك - سو كو تسكي...

ابتلع مكبر الصوت الهواء بهدير وبصوت مزكوم تابع إرساله: اختراع ضوء الانذار على عربات تنظيف الثلج. وافق على الاختراع مكتب السكك الحديدية للاختراع والتطوير: داريا، أونيفا، رايموند...

انسحبت المسنات العجائز كالبطات الرمادية إلى غرفهن. كان مكبر الصوت، قافزاً من قوته الكبيرة، يتابع الصخب في الغرفة الفارغة: والآن، استمعوا إلى أغاني شعبية من نوفغورود...

بعيداً - بعيداً، في مركز روسيا، حرك أحدهم أوتار البالاياكا (آلة وترية روسية - م). فأنشد باتيستيني الروسي (ماتيا باتيسيتيني: مغني أوبرا إيطالي شهير - م)، ابن التربة السوداء: كان البق حاطاً على الجدار

يحدق في الشمس،

فشاهد المفتش المالي

وتخبط ونفق على الفور...

كانت هذه الأغاني الشعبية في وسط روسيا تثير نشاطاً عاصفاً. كانت تُسمع في مكبر الصوت قعقة رهيبة. إما كان تصفيقاً مدوياً، وإما بدأت تنشط البراكين تحت الأرض.

في غضون ذلك، نزل مفتش فريق الإطفاء المكفهر بعكس الاتجاه على درج العلية، فوجد نفسه مرة ثانية في المطبخ، ورأى خمسة مواطنين يستخرجون بأيديهم مباشرة من البرميل مخلل الملفوف ويلتهمونه. كانوا يأكلونه صامتين. باشا إيميليفيتش وحده على طريقة الذواقة، يلوي رأسه وهو ينزع الطحالب من شوارب الملفوف ويقول بصعوبة: من الخطأ أكل مثل هذا الملفوف الرائع من دون فودكا.

دفعة جديدة من المسنات العجائز - سأل أستاذ.



هؤلاء يتامى – أجااب آآخين؁ دافعاً بكتفه المفتش من المطبخ ومهدداً؁ بصورة خفية؁ اليتامى بقبضته.

أطفال من منطقة الفولغا؟

تردد آآخين.

– التركة القاسية للنظام القيصري؟

حرك آآخين يديه: وكأنه يقول؁ لا يمكن فعل أي شيء؁ تلك هي التركة.

– التربية المختلطة للجنسين حسب الطريقة التركيبية؟

وهنا؁ دون أي تأخير؁ دعا ألكسندر ياكفليفيتش مفتش الإطفاء لتناول الغداء بما أرسله الله.

في هذا اليوم أرسل الله لألكسندر ياكفليفيتش على طعام الغداء زجاجة فودكا(زوبروفكا)؁ وفطر منزلي الصنع؁ وطبق مفروم من سمك الرنكة؁ وحساء البورش بالطريقة الأوكرانية باللحم من الصنف الأول؁ ودجاج مع الأرز وشراب من التفاح المجفف.

– ساشخن – قال ألكسندر ياكفليفيتش – تعرّفي على الرفيق من فريق إطفاء المدينة.

انحنى أستاذ بطريقة فنية لسيدة المنزل ووجه لها مجاملة طويلة ومزدوجة المعنى؁ بحيث أنه لم يستطع النطق بها حتى النهاية. ضحكت ساشخن – وهي سيدة طويلة شوه جاذبيتها سالفان طويلان يشبهان سالفى القيصر نيقولاى؁ بهدوء؁ وشربت الفودكا مع الرجال.

– أشرب نخب مؤسستك التعاونية! – صاح أستاذ.

كان الغداء ممتعاً؁ مرحاً؁ وأثناء تناول شراب التفاح فقط تذكر أستاذ هدف زيارته. فسأل: – لماذا في قسم منتجات الحليب عندكم لا تتوفر سوى منتجات قليلة؟

– كيف – قلق آآخين – والهارمونيوم؟

– أعرف؁ أعرف؁ Vox Humanum (الصوت البشرى). لكن الجلوس عندكم بأريحية غير ممكن على الإطلاق. لا توجد سوى مقاعد الحديقة الحديدية.

– في قاعة الاجتماعات ثمة كرسي منجد – غضب آخين – كرسي انكليزي. يقال إنه بقي من الأثاث القديم.

– بالمناسبة، أنا لم أر قاعة الاجتماعات عندكم. وكيف هي من حيث الحماية من خطر الحريق؟ ألا تُخيب؟ لا بد من رؤيتها.

– أهلاً بك في القاعة.

شكر أستاذ سيدة المنزل على الغداء وانطلق.

في قاعة الاجتماعات لم يكن هناك بوابير للكُيُروسين، ولم تكن هناك مواقد مؤقتة، وكانت المداخل في حالة جيدة، وتنظف بصورة دورية؛ ولكن، لشدة دهشة آخين، لم يكن هناك كرسي. وهرعوا في البحث عن الكرسي. كانوا ينظرون تحت الأسرة وتحت المقاعد الطويلة، وحركوا الهارمونيوم من مكانه لسبب ما، وحاولوا الاستعلام لدى المسنات العجائز، اللواتي كن ينظرن بحذر إلى باشا إيميليفيتش، ولم يعثروا على الكرسي. وأبدى باشا إيميليفيتش حماسة كبيرة في البحث عن الكرسي. وكان قد هدأ الجميع، أما إيميليفيتش فكان لا يزال يتنقل بين الغرف، ناظراً تحت الأواني، محركاً أكواب الشاي المعدنية وهو يتمتم: – أين يمكن أن يكون؟ كان اليوم هنا، ورأيتُه بعيني الاثنين! إنه أمر مثير للضحك.

– إنه أمر محزن أيتها الفتيات – قال أستاذ بصوت جليدي.

– هذا مضحك بكل بساطة! – كرر باشا إيميليفيتش بوقاحة.

ولكن، هنا مطفأة الحريق الرغوية «إكلير» التي كانت تغني طيلة الوقت، أطلقت صوتها الأعلى «فا»، وهذا ما لا يستطيع فعله سوى نيجدانوفا فنانة الشعب في الجمهورية، صمتت لثانية واحدة، وأطلقت بصراخ تيار رغوتها الأول الذي غمر السقف وأصاب قبعة الطباخ الكتانية على رأسه. إثر التيار الأول من الرغبة أطلقت مطفأة الحريق تياراً ثانياً بلون كَتَّاني أطاح بالقاصر إيسيدور ياكفليفيتش. وبعد هذا أصبح عمل مطفأة الحريق «إكلير» منتظماً دون انقطاع.

هرع إلى مكان الحادث باشا إيميليفيتش آخين، وجميع من بقي سالماً من آل ياكفليفيتش.

– عمل نظيف! – قال أستاذ – حيلة غبية!

أما العجائز اللواتي بقين مع أستاذ من دون المسؤولين، بدأن على الفور بتقديم اعتراضاتهن: - لقد أنزل في البيت إخوته وأقربائه. إنهم يلتهمون كل شيء.

- يطعمون الحليب للخنازير، ويقدمون لنا العصيدة.

- أخرجوا وسرقوا كل شيء من البيت.

- بهدوء، أيتها النساء، - قال أستاذ، متراجعاً - سوف يأتون إليك من مفتشية العمل. لم يعطيني مجلس الشيوخ الصلاحية.

لم تصغ العجائز إليه.

- أما باشا ميلينتيفيتش، فاليوم أخذ هذا الكرسي وباعه. رأيتته بعيني.

- لم باعه؟ - صرخ أستاذ.

- باعه، وانتهى الأمر. أراد أن يبيع بطانيتي.

في الممر كان يجري صراع ضار مع مطفاة الحريق. وأخيراً انتصرت العبقرية البشرية، وأطلقت مطفاة الحريق التي كانت تدوسه أقدام باشا إيميليفيتش الحديدية تيارها الذابل الأخير وسكتت نهائياً.

أرسلوا النساء العجائز لغسل الأرضية. ثنى مفتش قسم الإطفاء رأسه، وهز وركيه قليلاً، واقترب من باشا إيميليفيتش: - أحد معارفي - قال أستاذ بحجة دامغة - كذلك باع أثاث الدولة. وقد ترهب الآن ودخل إلى الدير. وهو يخضع للتحقيق السياسي الاجتماعي.

- اتهاماتك الباطلة لي غريبة - أشار باشا إيميليفيتش الذي تنبعث منه رائحة الرغوة القوية.

- أنت لمن بعت الكرسي؟ - سأله أستاذ هامساً.

هنا أدرك باشا إيميليفيتش ذو الحاسة الخارقة، أنهم سيضربونه الآن وربما سيركلونه بالأرجل.

- لسمسار - أجاب باشا.

- ما هو عنوانه؟

– هذه أول مرة أراه في حياتي.

– أول مرة في حياتك؟

– قسماً بالله.

– كنت سأكسر أنفك – أخبره أستاذ حالماً – لكن زرادشت لا يسمح بذلك. اذهب إلى الشيطان.

ابتسم باشا إيميليفيتش بحثاً عن مهرب، وبدأ يبتعد.

– هيه! أنت، ضحية الإجهاض – قال أستاذ بتعالٍ – استسلم، لا تبتعد. ما هو لون هذا السمسار، أشقر، أسمر؟

بدأ باشا إيميليفيتش يشرح بالتفصيل. أصغى إليه أستاذ باهتمام، وانهى الحديث معه بالعبارات التالية: – هذا بالطبع، لا يتعلق بالوقاية من الحريق.

اقترب آخين الخجول من بندر في الممر عند خروجه، وأعطاه عشرة روبلات.

– هذه هي المادة المئة والرابعة عشرة من قانون العقوبات – قال أستاذ – إعطاء الرشوة لشخص مسؤول أثناء أدائه لواجباته في الخدمة.

لكنه أخذ النقود وتوجه إلى المخرج، دون أن يودع ألكسندر ياكوفليفيتش. صفق الباب المزود بجهاز جبار، أثناء انفتاحه، أسفل مؤخرة أستاذ بدفعة تعادل بوزنها طناً ونصف.

– حدثت الضربة – قال أستاذ، ماسحاً مكان الكدمة – ويستمر الاجتماع.

## الفصل العاشر أين خصلات شعرك؟

بينما كان أستاذ يتفحص المنزل الثاني للضمان الاجتماعي، خرج هيبوليت ماتفييفتش من غرفة الحراسة وشعر بالبرد برأسه الحليق، فانطلق متوجهاً إلى شوارع مدينته.

كانت مياه الينابيع الربيعية الخفيفة تجري على قارعة الطريق. وكانت تحدث قعقة وطققة مستمرة من سقوط قطرات الماء الماسية. وكانت العصافير تقنص الروث. والشمس تغطي جميع الأسطح. وكانت أحصنة الجر الذهبية تضرب حوافرها بقوة على قارعة الطريق العارية، وكانت تحني آذانها مستمعة بسرور إلى ضرباتها. وعلى أعمدة البرق الرطبة ألصقت إعلانات رطبة بأحرف سال حبرها: «أدرب على العزف على الغيتار بالنظام الرقمي»، «أعطي دروساً في علم الاجتماع للمتقدمين إلى الكونسرفتوار الشعبي». كانت فصيلة من الجيش الأحمر في خوذاتهم الشتوية تعبر البركة التي تبدأ عند متجر «ستاغريكو» وتمتد حتى بناء لجنة تخطيط المقاطعة الذي كانت واجهته متوجة بنمور وانتصارات وأفاعي الكوبرا من الجبس.

كان هيبوليت ماتفييفتش يسير، ناظراً باهتمام إلى المارة القادمين والعارضين. هو، الذي عاش في روسيا طيلة حياته، وعاش الثورة، كان يرى كيف تحطمت ظروف الحياة وتغيرت وجوهها وتبدلت. كان معتاداً على هذا، ولكن اتضح أنه كان معتاداً على طريقة الحياة في نقطة واحدة من الكرة الأرضية - في بلدة مقاطعة (ن). وعندما وصل إلى بلده، مسقط رأسه، رأى أنه لا يفهم شيئاً. كان يشعر بالحرج والغربة، كما لو أنه كان مهاجراً فعلاً، وجاء لتوّه من باريس. في الزمن الغابر، عندما كان يتنقل في المدينة على عربته، كان يلتقي بالتأكيد معارفه أو أشخاصاً يعرفهم من وجوههم. أما الآن فقد اجتاز أربع حارات من شارع أحداث لينا، ولم يلتق أحداً من معارفه. لقد اختفوا، أو ربما تقدموا في السن، بحيث لا يمكن معرفتهم، أو أصبحوا غير معروفين لأنهم ارتدوا ثياباً أخرى وقبعات مغايرة. وربما غيروا طريقة مشيهم. على أية حال، لم يكن لهم وجود.

كان هيبوليت ماتفييفتش يمشي شاحباً، بارداً، متعرقاً. ونسي تماماً أن عليه البحث عن قسم الإسكان. كان يعبر من رصيف إلى رصيف، ويدخل في الأزقة والجادات، حيث كانت أحصنة الجر الشاردة تضرب الأرض عن قصد بحوافرها. في الأزقة كانت علامات الشتاء أكثر، وكان يظهر في بعض الأماكن الجليد الموحد. المدينة كلها كانت بلون مختلف. البيوت الزرقاء أصبحت خضراء، والصفراء أصبحت رمادية، واختفت القنابل من برج الإطفاء، ولم يعد يمشي رجل الإطفاء فيه، وكانت الشوارع أكثر ضجيجاً مما يذكر هيبوليت ماتفييفتش.

فاجأت هيبوليت ماتفييفتش في شارع بوشكينسكايا الكبير قضبان وأعمدة الترام مع الأسلاك، التي لم تكن أبداً في ستارغورود. لم يكن هيبوليت ماتفييفتش يقرأ الصحف ولم يعرف أنه بحلول الأول من أيار ينوون افتتاح خطين من خطوط الترام: خط المحطة وخط النقل. كان يبدو لهيبوليت ماتفييفتش تارة أنه لم يغادر ستارغورود أبداً، وتارة أخرى أنه لا يعرف ستارغورود أبداً.

بمثل هذه الأفكار وصل إلى شارع ماركس وإنغلز. في هذا المكان عاد إليه شعور الطفولة، بأنه الآن من خلف المنزل ذي الطابقين والشرقة الطويلة سيظهر له بالضرورة أحد معارفه. حتى أن هيبوليت ماتفييفتش توقف بانتظاره. ولكن لم يخرج أحد من معارفه. خرج من خلف الزاوية أولاً بائع زجاج بصندوق من زجاج بوهيميا ورغيف من المعجون بلون نحاسي. كما خرج من الزاوية غندور متأنق بقبعة مخملية، ذات حافة جلدية صفراء. وركض من خلفه أطفال وتلاميذ المرحلة الابتدائية مع كتبهم بأشرطتها.

شعر هيبوليت ماتفييفتش فجأة بحرارة في كفيه وبرودة في بطنه. كان يسير نحوه مباشرة مواطن لا يعرفه، ذو وجه لطيف، يحمل بيده كرسيًا، كما يحمل آلة التشيلو. تعرّف هيبوليت ماتفييفتش، الذي سيطرت عليه الحازوقة فجأة، على كرسيه على الفور.

نعم! كان كرسي هامبز، منجّداً بالقماش الانكليزي، الذي أصبح قاتماً بسبب العواصف الثورية، بالأزهار، إنه كرسي من خشب الجوز بأرجل منحنية. شعر هيبوليت ماتفييفتش بنفسه وكأنه أصيب برصاصة في أذنه.

– شحذ السكاكين، والمقصات، وشفرات الحلاقة – صاح بالقرب منه صوت كصوت الباريتون.

وعلى الفور وصل إليه صدى خفيف.

– تلحيم، تصليح!...

– الصحيفة الموسكوفية «إزفستيا»، مجلة «سميخاتش» (الضحك)، «النيفا الحمراء»!...

من مكان ما في الأعلى خُلع الزجاج بقرقعة. عبرت شاحنة شركة البناء «ميلستروي»، وقد هزت المدينة هزاً. صَفَر الشرطي. كانت الحياة تغلي وتفور من حافتها. لم يكن هناك من وقت لإضاعته.

اقترب هيبوليت ماتفييفتش بقفزة نمر من الشخص الغريب الشائن وسحب منه الكرسي. فاستعاد الغريب الكرسي إليه. وعندها أمسك هيبوليت ماتفييفتش برجل الكرسي بيده اليسرى وأخذ بقوة يبعد أصابع الغريب السميكة عن الكرسي.

- يسرقونني، - قال الغريب همساً، وتمسك بالكرسي بقوة أكبر.

- اسمح لي، اسمح لي - تتمم هيبوليت ماتفييفتش، متابعاً نزع أصابع الغريب من الكرسي.

بدأ يجتمع حشد من الناس. كان هناك ثلاثة أشخاص واقفين بالقرب منهما، يتابعون باهتمام كبير تطور النزاع.

عندئذ نظر الاثنان حولهما بقلق، ودون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، ولكن دون أن يتركا الكرسي من أيديهما القوية، سارا بسرعة إلى الأمام، وكأن شيئاً لم يحدث.

«ما هذا؟» - كان هيبوليت يفكر يائساً.

كان من المستحيل فهم ما كان يفكر به الغريب، لكن مشيته كانت حاسمة جداً.

سارا بخطوات متسارعة، وعندما شاهدا في زقاق خلفي أرضاً قاحلة، مغطاة بالركام ومواد البناء، انتقلا إليه، كما لو أنه بأمر صادر إليهما. هنا تضاعفت قوة هيبوليت ماتفييفتش أربع مرات.

- اسمح لي أخيراً! - صرخ دون خجل.

- أيها الحارس! - نادى الغريب بصوت خافت.

وبما أن أيدي الاثنين كانت مشغولة بالكرسي، أخذ ايركلان أحدهما الآخر بالأرجل. كانت جزمة الغريب بحدوتين، وأصبح هيبوليت ماتفييفتش في البداية بوضع سيء. لكنه سرعان ما تكيف، فأخذ يقفز إلى اليسار تارة وإلى اليمين تارة أخرى، متجنباً ضربات خصمه وحاول ضرب عدوه في بطنه. لم يتمكن من الوصول إلى بطنه لأن الكرسي كان يعترض طريقه، لكنه تمكن من ضرب عدوه في كأس ركبته، وبعدها لم يستطع عدوه الركل إلا بقدمه اليسرى.

- آه، يا إلهي - همس الغريب.

وهنا رأى هيبوليت ماتفييفتش أن الغريب الذي سرق كرسيه بأبشع طريقة ليس أحداً آخر سوى كاهن كنيسة الشهيدين فلور ولاور - الأب فيودور فوستريكوف.

ارتبك هيبوليت ماتفييفتش.

- أبتي! - صرخ، ولدهشته رفع يديه عن الكرسي.

احمر وجه الأب فوستريكوف وفتح أصابعه أخيراً. وسقط الكرسي الذي لم يعد يمسك به أحد على الطوب المكسر.

– أين شاربليك أيها المحترم هيبوليت ماتفييفتش؟ – سألت الشخصية الروحية بقدر كبير من السخرية والتهكم.

– وأين خصلات شعرك؟ كانت لديك خصلات من الشعر، أليس كذلك؟

تردد احتقار كبير في كلمات هيبوليت ماتفييفتش. فألقى نظرة من النبل غير العادي على الأب فيودور، أخذ الكرسي تحت إبطه، واستدار كي يغادر. بيد أن الأب فيودور بعد أن صحن من هذا الارتباك، لم يسمح لفورويانينوف بمثل هذا النصر السهل. قال صارخاً: «لا، أرجوك» – وأمسك بالكرسي من جديد. وتمت العودة إلى الوضع الأول. وقف الخصمان، متمسكاً أحدهما برجلي الآخر، مثل قطّين أو ملاكمين، وقاس أحدهما الآخر بنظراته، متنقلين من جانب إلى جانب آخر.

استمر صمت يقطع القلب دقيقة كاملة.

– هذا أنت أيها الأب القديس – قال هيبوليت ماتفييفتش – تسرق ممتلكاتي؟

ومع هذه الكلمات ركل هيبوليت ماتفييفتش قداسة الأب برجله في فخذه.

انتهز الأب فيودور الفرصة وركل مشير النبلاء في وركه بشراسة، لدرجة أن ذاك انحنى من قوة الركلة.

– هذا ليس من ممتلكاتك.

– لمن هذا؟

– ليس لك.

– لمن هو؟

– ليس لك، ليس لك.

– لمن هو إذن؟

– ليس لك.



ومع فحیحهما على هذا النحو، كانا يتبادلان الركل بعنف.

– لمن هذه الممتلكات؟ – صرخ المشير راکلاً برجله بطن قداسة الأب.

بعد أن تغلب على ألمه، قال قداسة الأب بحزم:

– إنها ممتلكات مؤمنة.

– مؤمنة؟

– نعم، نعم، مؤمنة.

كانا يتحدثان بسرعة كبيرة بحيث أن الكلمات كانت تندمج ببعضها.

– من قام بتأميمها؟

– السلطة السوفييتية! السلطة السوفييتية!

– أية سلطة؟

– سلطة العمال.

– آآ آه!... – قال هيوليت ماتفييفتش متجمداً – سلطة العمال والفلاحين؟

– نعم، نعم!

– آها!... إذن، ربما أنت حزبي، يا قداسة الأب؟

– نعم، ربما!

هنا، لم يستطع هيوليت ماتفييفتش المقاومة، وبصرخة «ربما؟» بصق بحماسة في الوجه الطيب للأب فيودور. وبسرعة بصق الأب فيودور في وجه هيوليت ماتفييفتش وأصابه في وجهه. لم يكن لديه إمكانية لمسح البصاق: كانت يداه ممسكتين بالكروسي. أصدر هيوليت ماتفييفتش صوت باب ينفتح، وبكل قوته دفع خصمه بالكروسي. فسقط الخصم ساحباً معه فورويانيوف المختنق. واستمر الصراع في الساحة.

فجأة سُمعت طقطقة، انكسرت رجلا الكرسي الأماميتان دفعة واحدة. نسي الخصمان أحدهما الآخر، وشرعا في تمزيق تنجيد كروسي الجوز. ومع صرخة طائر النورس الحزينة

تمزق القماش الانكليزي بأزهاره. فطار الظهر الذي رمته عاصفة قوية. أما الباحثان عن الكنز فمزقا قماش المقعد مع الأزرار النحاسية، ومع جرح أصابعهما بالنوابض، أدخلوا أصابعهما في حشوة الكرسي الصوفية. وبعد خمس دقائق أصبح الكرسي هيكلاً عظيماً. وبقي منه مسند ورجلان. وتدحرجت النوابض في جميع الاتجاهات. وحمل الريح الصوف العفن على الأرض القاحلة. وسقطت الأرجل المنحنية في الحفرة. ولم يكن هناك أي ماس أو مجوهرات.

– حسناً، هل وجدت شيئاً؟ – سأله هيبوليت ماتفييفتش، وهو يكاد يختنق.

عبس الأب فيودور، المغطى بنتف الصوف، ولم يقل شيئاً.

– أنت نصاب! – صاح هيبوليت ماتفييفتش – سأضربك على سحتك، أيها الأب فيودور!

– يداك قصيرتان – أجاب الأب.

– إلى أين ستذهب وجسمك كله مغطى بالزغب؟

– وما شأنك بي؟

– إنه شيء معيب، أيها الأب! أنت مجرد لص!

– أنا لم أسرق منك شيئاً.

– وكيف عرفت بهذا؟ استخدمت سر الاعتراف لمصلحتك؟ حسن جداً! جميل جداً!

غادر هيبوليت ماتفييفتش الأرض القاحلة غاضباً «تفوه»، ماسحاً أثناء سيره أكمام معطفه وتوجه إلى منزله. عند ناصية شارع أحداث لينا وجادة يروفيسكي، رأى فوروبيانينوف شريكه. كان المدير الفني والمدير العام للامتياز يقف، ملتفتاً نصف التفاتة، رافعاً ساقه اليسرى – كانوا ينظفون له الجزء العلوي الجلدي المدبوغ من حذائه بكريم الكناري. ركض إليه هيبوليت ماتفييفتش. شخر المدير بلا مبالاة مردداً «شيممي»: سابقاً هكذا كانت تفعل الإبل،

سابقاً هكذا كانوا يرقصون باتاكودي،

أما الآن فعالم كامل يرقص شيممي...

– حسناً، كيف هو قسم الإسكان؟ – سأل بصورة عملية وأضاف على الفور – انتظر، لا تقل شيئاً، أنت متحمس جداً، اهدأ.

بعد أن أعطى منظف الأحذية سبعة كوبيك، أمسك أستاذ بذراع فوروبيانينوف وقاده في الشارع. استمع أستاذ باهتمام كبير إلى كل ما رواه هيبوليت ماتفييفتش المضطرب.

– أيوه! لحية سوداء صغيرة؟ صحيح! معطف مع قبة من جلد الخروف؟ أفهم هذا. هذا الكرسي من دار الفقراء. تم شراؤه اليوم بثلاثة روبلات.

– ولكن، انتظر...

وأبلغ هيبوليت ماتفييفتش رئيس الامتياز بكامل حقارة الأب فيودور. اكفهر أستاذ. وقال: – قضية كئيبة. مثل كهف ليشتفيس Leichtweißhöhle (كهف في ألمانيا بالقرب من مدينة فيسبادن، واسم كتاب مغامرات. م.). خصم غامض. يجب أن نسبقه أولاً، وسنجد الوقت دوماً لضربه على سحنته.

بينما كان الصديقان يأكلان في حانة البيرة «ستينكا رازين»، علم أستاذ في أي منزل كان سابقاً قسم الإسكان، وما هي المؤسسة التي تشغله الآن، انتهى اليوم.

أصبحت أحصنة الجر الذهبية بنية اللون. وبردت القطرات الماسية الثلجية أثناء طيرانها وتساقطت على الأرض. ارتفع سعر البيرة في حانات البيرة وفي مطعم «فينيكس»: لقد حل المساء. وأضيئت المصابيح الكهربائية في شارع بوشكين الكبير، وعبرت مفرزة الطلائع عائدة إلى بيوتها بعد أول مسيرة ربيعية مع قرع الطبول.

وأضاءت بصورة ساحرة تماثيل النمر والانتصارات وأفاعي الكوبرا على بناء مجلس إدارة المدينة بدخول القمر إلى المدينة.

في طريق عودته إلى المنزل مع صديقه أستاذ الصامت فجأة، نظر هيبوليت ماتفييفتش إلى تماثيل النمر وأفاعي الكوبرا في بناء مجلس المدينة. في زمنه، هنا مجلس بلدية المقاطعة، وكان المواطنون يفتخرون بالكوبرا، معتبرين إياها من معالم ستارغورود.

– «سأجده» – فكر هيبوليت ماتفييفتش وهو ينظر إلى تمثال النصر المصنوع من الجبس.

كانت النمر تلوح بذيولها بلطف، وأفاعي الكوبرا تتقلص بفرح، وامتلات روح هيبوليت ماتفييفتش بالثقة.

## الفصل الحادي عشر الميكانيكي والبغاء والعرافة

لم يكن المنزل رقم 7 في جادة بيريلشنسكي من أفضل أبنية ستارغورود. فهذا المنزل بطابقيه، المبنين على طراز الامبراطورية الثانية، كانا مزينين بسحناات أسود مكسورة، تشبه إلى حد كبير وجه الكاتب أرتسيباشيف، الشهير في ذلك الزمان. كانت وجوه أرتسيباشيف ثمانية بالضبط، بعدد النوافذ المطلة على الجادة. وقد وضعت وجوه الأسود هذه على مغاليق النوافذ.

وكانت في المنزل زخرفتان أخريان، لكنهما كانتا ذات طابع تجاري بحت. فقد عُلفت من جانب يافطة لازوردية: **تعاونية أوديسا للكعك**

### كعك موسكو

وقد صور على اليافطة شاب يرتدي ربطة عنق وسروالاً فرنسياً قصيراً. وكان يمسك في يده الملتوية قرن الوفرة الأسطوري، تتناثر منه كالسيل كعكات موسكو اللذيذة، المشابهة نظراً للحاجة لكعكات أوديسا. وخلال ذلك كان الشاب يبتسم بفرح. ومن الجانب الآخر، أعلنت شركة التعبئة «**التعبئة السريعة**» عن نفسها للمواطنين – الزبائن بيافطة بأحرف مستديرة ذهبية.

على الرغم من الاختلاف الكبير في اليافطتين ومقدار رأس المال المتداول، كانت كلا هاتين الشركتين المتباينتين تمارس عملاً واحداً: تتاجر بالسوق السوداء بجميع أنواع الأقمشة – الصوفية الخشنة، الصوفية الناعمة، القطنية، والحريرية إذا ما وجدت منتجات حريرية بألوان ورسومات جيدة.

عند اجتياز البوابة الممتلئة بالظلام الدامس والماء، والانعطاف إلى اليمين، يمكن من الفناء ذي السطح الاسمنتي رؤية بابين من دون شرفتين تطلان على أحجار الفناء الحادة. علقت على الباب الأيمن لوحة صغيرة من النحاس الباهت حُفر عليها بأحرف كتابية اسم: **ف. م. بوليسوف**

وعُلفت على الباب الأيسر قطعة معدنية بيضاء من القصدير كُتب عليها: **أزياء وقبعات**

هذا كان أيضاً مجرد مظهر خارجي.

داخل ورشة القبعات والأزياء لم يكن فيها لا زخارف ولا تزيين ولا مانيكينات أزياء بلا رؤوس بمظهر الضباط، ولا قوالب رأسية لقبعات السيدات الأنيقة. وبدلاً من هذه البهرجة كلها كانت تعيش في شقة تتألف من ثلاث غرف ببغاء بيضاء في كيلوت قصير أحمر.

سيطرت البراغيث على البغاء لكنها لم تستطع أن تشتكي لأحد لأنها لم تكن تتكلم بصوت بشري. كانت البغاء طيلة أيامها تقضم البزر وترمي قشوره على السجادة من خلال قضبان القفص. كانت تنقصها فقط هارمونيكا وحذاء مطاطي جديد يصدر صفيراً، كي تشبه حرفياً مخموراً وحيداً. كانت تتمايل على النوافذ ستائر بنية داكنة مزينة برسومات. وكانت تسود في الشقة الألوان البنية الداكنة. وقد علقت فوق البيانو لوحة منسوخة للفنان بيكسين «جزيرة الموتى» في إطار خيالي من خشب البلوط الأخضر الغامض المصقول مغطى بالزجاج. وقد سقطت منذ زمن زاوية من الزجاج وكان هذا الجزء العاري من اللوحة مغطى بالذباب بطريقة مندمجة تماماً مع الإطار. وكان من المستحيل معرفة ما حدث في هذا الجزء من جزيرة الموتى.

في غرفة النوم كانت تجلس ربة المنزل نفسها على السرير، وباتكائها بكوعها على طريزة مثمرة الأضلاع، مغطاة بسماط غير نظيف، كانت تقلب أوراق الشدة. وكانت تجلس أمامها الأرملة غريتساتسويفا بشال منفوش.

– يجب أن أنبهك، يا سيدة، أنني لقاء الجلسة لا آخذ أقل من خمسين كوبيكاً – قالت ربة المنزل.

الأرملة التي لم تعرف العوائق في سعيها للعثور على زوج جديد، وافقت على دفع الثمن المحدد.

– ولكن، رجاء، اقرئي لي المستقبل أيضاً – طلبت منها الأرملة بحزن.

– يجب أن أقرأ حظك في البنت الإسباتي؟

اعترضت الأرملة:

– كنت دوماً البنت الكبة.

وافقت المضيفة بلامبالاة، وبدأت بترتيب الورق. بعد بضعة دقائق أعطي التعريف التقريبي لمصير الأرملة. كانت تنتظر الأرملة مشاكل كبيرة وصغيرة، ولكن قلبها كان معلقاً بشاب اسباتي كان يرتبط بصداقة مع بنت ديناري.

وقد قرأت لها كفها بصورة نهائية. كانت خطوط كف غريتساتسويفا نظيفة، قوية، لا تشوبها شائبة. وقد امتد خط الحياة طويلاً بحيث وصلت نهايته إلى النبض، وإذا كان هذا الخط يتنبأ بالحقيقة، فقد كان على الأرملة أن تعيش حتى قيام الساعة. أما خط العقل والفن فأعطيا الحق بالأمل بأن تترك الأرملة تجارة البقالة وتهدي البشرية روائع لا مثيل لها في أي

مجال من مجالات الفن والعلم أو العلوم الاجتماعية. أما رواي فينيرا لدى الأرملة فكانت تشبه تلال منشوريا وكشفت عن احتياطات رائعة من الحب والحنان.

كل هذا شرحته العرافة، مستخدمة الكلمات والمصطلحات المعتمدة في علم الخطوط وقارئ الكف وتجار الخيول.

شكرا لك يا سيدتي - قالت الأرملة - الآن، أصبحت أعرف من هو الشاب الإسباني. والبنت الكبة أيضاً أعرفها جيداً. أما الشاب فهل هو متزوج؟

متزوج، يا سيدة.

سارت الأرملة مبتهجة إلى منزلها. أما العرافة فرمت ورق الشدة في الدرج، وتشاءبت، مظهرة من فمها أنها في الخمسين من عمرها، وذهبت إلى المطبخ. وهناك اهتمت بطعام الغداء، وقامت بتسخينه على موقد الكيروسين، ومسحت يديها بمئزرها على طريقة الطباخين، وأخذت دلواً انتزع غطاء المينا في بعض الأماكن منه، وخرجت إلى الفناء لتعبئة الماء.

سارت في الفناء، متحركة بصعوبة على الدرجات المصقولة. كان نصفها العلوي المتداعي يقفز بفتور في بلوزتها المصبوغة. وقد نمت على رأسها مكنسة من الشعر الشائب. كانت متقدمة في السن، متسخة المظهر، تنظر إلى الجميع بشك وريبة، وتحب الحلويات. لو رآها هيبوليت ماتيفييتش الآن لما عرف أنها يلينا بوير، حبيبته القديمة، التي كان كاتب المحكمة قد قال عنها شعراً بأنها «تستدعي القبلات، وهي كلها محلقة». عند البئر، استقبلت مدام بوير بالترحاب من جانب جارها فيكتور ميخائيلوفيتش بوليسوف، البراء، الميكانيكي - المثقف الذي كان يعبئ الماء في صفيحة بلاستيكية كانت تستعمل للبنزين. كان وجه بوليسوف مثل وجه شيطان أوبرالي، تم تلطيخه بعناية بالسخام قبل إطلاقه على خشبة المسرح.

بعد تبادل التحية، تطرق الجاران في حديثهما إلى الحالة التي شغلت مدينة ستارغورود كلها.

عشنا ورأينا - قال بوليسوف ساخراً - البارحة دُرت المدينة كلها، ولم أستطع الحصول على شفرات الفرز ثلاثة على ثمانية بوصة. لا يوجد، لا يوجد! وينوون افتتاح خطوط الترام.

تعاطفت معه يلينا ستانيسلافوفنا التي تعرف عن شفرات الفرز ثلاثة على ثمانية بوصة مثلما تعرف طالبة الرقص في دورات ليوناردو دافنشي عن الزراعة، والتي تعتقد أن الجبن يستخرج من الزلاية: وأية محلات تجارية الآن! الآن هناك طوابير، ولا وجود للمحلات التجارية. وأسماء هذه المحلات مرعبة للغاية. ستارغيكو! (تعاونية ستارغورود - م.).

لا، أتعرفين، يلينا ستانيسلافوفنا، هذا ليس شيئاً يذكر! بقي لديهم أربعة محركات من «شركة الكهرباء العامة». وهذه تمشي كيفما اتفق، رغم أن هياكلها مثل القمامة!... وزجاجها من دون مطاط. رأيت هذا بنفسى. سوف تفرقع وتهتز... كابوس! أما باقي المحركات فمصنوعة في خاركوف. صناعة مصانع الدولة المعدنية. لا تسير عدة أميال. لقد شاهدتها...

صمت البراد - الميكانيكي بانزاج. كان وجهه الأسود يلمع في الشمس. وكان بياض عينيه مضفراً. بين حرفيي المحركات التي اشتهرت بهم ستارغورود، كان فيكتور ميخائيلوفيتش بوليسوف الأكثر ذكاء والذي تنطلي عليه الحيلة أكثر من الآخرين. وكان سبب هذا طبيعته الحماسية المفرطة. لقد كان كسولاً متحمساً. كان يرغى ويزبد باستمرار. كان من المستحيل العثور عليه في ورشته الواقعة في الفناء الثاني للمنزل رقم 7 في جادة بيريليشنسكي. ففرن الصهر المنطفئ المنقول كان يقف وحيداً وسط سقيفة من الحجارة، وقد تكدست في أطرافها أجهزة مثقوبة، إطارات ممزقة، أقفال حمراء ضخمة جداً بحيث يمكن بها إغلاق مدينة كاملة، - خزانات لينة للوقود كُتب عليها «Indian» و«Wanderer»، وسرير أطفال بنوابض، ودينامو محترق، وأحزمة عفنة من الجلد الخام، ونسالة قنب للزيت، وورق صنفرة متآكل، وحرية نمساوية، وكثير من القمامة المضغوطة والممزقة والمثنية. لم يكن الزبائن يعثرون على فيكتور ميخائيلوفيتش. فقد كان يصدر الأوامر في مكان ما. لم يكن لديه وقت للعمل. لم يكن باستطاعته أن يرى بهدوء حوزي بحمله يدخل ساحة منزله أو ساحة المنزل المجاور. فقد كان بوليسوف يخرج إلى الساحة على الفور، واضعاً يديه وراء ظهره، وناظراً باحتقار إلى تصرفات الحوزي. وأخيراً، لم يكن قلبه يستطيع احتمال ذلك: من يدخل هكذا إلى هنا؟ - كان يصرخ بشكل مرعب - ارجع!

فيستدير الحوزي الخائف ويرجع.

إلى أين تستدير بسحتك؟ - كان يتألم فيكتور ميخائيلوفيتش، مهاجماً الحصان - لو صفعوك على وجهك، كما في الزمن القديم، لاستدردت كما يجب.

وبعد أن أعطى أوامره لمدة نصف ساعة، وهمّ بوليسوف بالعودة إلى ورشته، حيث كان ينتظره منفاخ دراجة لم يتم إصلاحه، لكن حياة المدينة الهادئة تضطرب على الفور بسوء تفاهم أو خطأ ما. فيحصل أن تتشابك عربتا جر من محوريهما في الشارع، وكان فيكتور ميخائيلوفيتش يشير كيف يجب فصلهما بأفضل وأسرع شكل، أو أن يقوموا بتبديل عمود البرق فكان بوليسوف يتحقق من استقامته بصورة عمودية على الأرض بشاقوله الخاص الذي يحضره من ورشته، وإما أخيراً، أن تمر قافلة الإطفاء، فكان بوليسوف، القلق من صوت بوق الإطفاء وما يطلقه من نار القلق، يركض وراء القافلة.

بيد أن فيكتور ميخائيلوفيتش كانت تسيطر عليه أحياناً عفوية العمل الحقيقي. فكان يختفي في الورشة لبضعة أيام ويعمل بصمت. وكان الأطفال يركضون بحرية في الساحة

ويصيحون كما يريدون، ويرسم الحوذيون منحنيات مختلفة في الفناء، وتتوقف عربات الجر عن التشابك فيما بينها، ومركبات الإطفاء وعربات الموتى تتوالى لوحدها إلى الحريق – وكان فيكتور ميخائيلوفيتش يعمل في ورشته. ذات يوم، بعد يوم واحد من هذا العمل المتواصل، أُخرج إلى الساحة، كما يخرج الكباش من قرنيه، موتوسيكل (دراجة نارية) مرگباً من قطع من السيارات، ومطافئ الحريق، والدراجات، والآلات الكاتبة. كان محركه بقوة حصان ونصف ماركة واندروف، وعجلاته من شركة دافيدسون، أما بقية قطعه الأساسية فلم تعرف شركتها منذ زمن. وكان معلقاً على سرجه ملصق كرتوني «تجربة». اجتمع حشد من الناس. دون أن ينظر إلى أحد، أدار فيكتور ميخائيلوفيتش الدواسة بيده. لم تظهر أي شرارة لمدة عشر دقائق. ثم سُمع صوت طقطقة حديدية، وارتجفت الآلة وأطلقت دخاناً قذراً. قفز فيكتور ميخائيلوفيتش إلى السرج، وانطلق الموتوسيكل بسرعة جنونية فحملة عبر النفق إلى منتصف الرصيف، وتوقف على الفور، كما لو أطلقت عليه زخة من الرصاص. كان فيكتور ميخائيلوفيتش على وشك النزول والتغلب على دراجته السحرية، لكن الدراجة تراجعت إلى الخلف فجأة، حاملة صانعها عبر النفق نفسه إلى مكان انطلاقها – وسط الساحة، وشهقت بضجة ثم انفجرت. لم يصب فيكتور ميخائيلوفيتش بأذى وبقي سليماً بأعجوبة، ومن حطام الموتوسيكل صنع محركاً ثابتاً، شبيهاً بالمحرك الحقيقي، لكنه لم يعمل.

أما تاج النشاط الأكاديمي للميكانيكي المثقف فكانت مَلحمة بوابة المنزل المجاور رقم 5. وقعت لجنة سكان هذا البناء مع فيكتور ميخائيلوفيتش عقداً، التزم فيه بموجبه بوليسوف بتجهيز بوابة المنزل الحديدية وتشغيلها، ودهنها بلون اقتصادي مناسب، حسب ما يريته. ومن الجانب الآخر، التزمت لجنة السكان بأن تدفع لبوليسوف بعد استلام لجنة خاصة للبوابة واحداً وعشرين روبلاً وخمسة وسبعين كوبيكاً. أما الطوايع المالية فيسددها منفذ العمل.

جرّ فيكتور ميخائيلوفيتش البوابة مثل شمشوم. وباشر العمل بحماس في ورشته. استغرق تفكيك البوابة يومين. وقد تم تفكيكها إلى أجزائها ومكوناتها. كانت خصل الحديد الزهر في عربة الأطفال؛ والقضبان الحديدية والمزاريق مكدسة تحت السقالة. وانقضت بضعة أيام أخرى على فحص الضرر والتلف. ثم حدثت مشكلة كبيرة في المدينة: فقد انفجر في شارع دروفيانايا أنبوب المياه الرئيسي، وأمضى فيكتور ميخائيلوفيتش بقية الأسبوع في مكان الحادث، مبتسماً بسخرية، وصارخاً على العمال وهو ينظر كل دقيقة إلى فشلهم.

عندما فترت حماسة فيكتور ميخائيلوفيتش التنظيمية، وعاد من جديد لعمل البوابة، كان قد فات الأوان: فقد كان أطفال الفناء يلعبون بخصل حديد الزهر والقضبان الحديدية لبوابة المنزل رقم 5. وعندما رأوا الميكانيكي المستشيط غضباً رموا ألعابهم وهربوا من



الخوف. وقد فقد نصف الخصل الحديدية، ولم يتمكن من العثور عليها. بعد هذا فترت همة فيكتور ميخائيلوفيتش نهائياً تجاه البوابة.

أما في المنزل رقم 5، المفتوح على مصراعيه، فقد جرت أحداث مروعة. فقد سرقوا من السقائف الغسيل المنشور الرطب، وذات مساء سرقوا السماور الذي كان يغلي. وقد شارك فيكتور ميخائيلوفيتش شخصياً في مطاردة السارق، لكن السارق، ورغم أنه كان يحمل بيديه السماور الذي يغلي، والذي كانت تظهر شعلة النار من أنبويه الصلب، ركض بخفة كبيرة، واستدار مرة أخرى، وشمتم فيكتور ميخائيلوفيتش الذي كان في مقدمة المطاردين بكلمات بذيئة. لكن بواب المنزل رقم 5 كان أكثر المعانين. فقد خسر أرباحه الليلية: لم تكن هناك بوابة، ولم يكن ما يجب فتحه، ولم يكن هناك ما يستدعي السكان الساهرين لدفع القروش له. كان البواب في البداية يتردد للسؤال، متى سيتم تجهيز البوابة، ثم أخذ يصلي للمسيح – الإله، وأخيراً أخذ ينطق بتهديدات مبهمه. أما لجنة البناء فأرسلت لفكتور ميخائيلوفيتش تذكيراً كتابياً. وبدأت تلوح القضية في المحكمة. وازداد الوضع توتراً شيئاً فشيئاً. ولدى وقوفهما عند البئر تابع الميكانيكي – المتحمس والعرافة حديثهما.

في حال عدم توفر عوارض مشرّبة – كان يصيح فيكتور ميخائيلوفيتش في الساحة كلها – فهذه لن تكون ترام بل مصيبة!

متى سينتهي كل هذا – قالت يلينا ستانيسلافوفنا – نعيش كالمتوحشين.

لا نهاية لهذا... نعم! أتعرفين من رأيت اليوم؟ فوروبيانينوف.

اتكأت يلينا ستانيسلافوفنا على البئر مدهوشة، وتابعت حمل الدلو المليء بالماء.

– ذهبت إلى الإدارة المحلية لتجديد عقد إيجار الورشة، أمشي في الممر. فجأة يقترب مني شخصان. أنظر إليهما – وجه مألوف. وكأنه وجه فوروبيانينوف. يسألاني: «قل لنا، ما هي المؤسسة التي كانت في هذا البناء سابقاً؟». أقول، هنا كانت ثانوية للبنات، ثم قسم الإسكان. وأسألهما: «ولماذا يهتمكما؟». فقالا «شكراً» وتابعا سيرهما. وهنا رأيت بوضوح، أنه كان فوروبيانينوف نفسه، ولكن من دون شاربين. من أين أتى إلى هنا؟ والشخص الآخر، الذي كان معه، رجل وسيم. واضح، أنه ضابط سابق. وهنا فكرت...

في هذه اللحظة لاحظ فيكتور ميخائيلوفيتش شيئاً مزعجاً. فقطع حديثه وأمسك بصفيحته البلاستيكية، واختبأ بسرعة خلف صندوق القمامة. دخل إلى الفناء بواب المنزل رقم 5 وتوقف بالقرب من البئر وأخذ يتأمل مباني الفناء. وعندما لم يجد أي أثر لفكتور ميخائيلوفيتش، أصيب بالحزن.

من جديد، فيتكا(فيكتور) – الميكانيكي غير موجود؟ – سأل يلينا ستانيسلافوفنا.

آه، أنا لا أعرف شيئاً – قالت العرافة – أنا لا أعرف شيئاً.

وباضطراب غير عادي، أسرع إلى بيتها وهي تطرح الماء من الدلو.

ربت البواب على حافة البئر الاسمنتية وذهب إلى الورشة. بعد خطوتين من لافتة: **الدخول إلى الورشة**

ظهرت لافتة أخرى:

**ورشة ميكانيك وتصليح مواقد الكيروسين**

وقد عُلق على بابها قفل ثقيل. ضرب البواب القفل برجله وقال بحقد:

يا للغنغرينا!

وقف البواب أمام الورشة ثلاث دقائق أخرى، وهو يرغب في ويزبد بالمشاعر السامة، ثم نزع بعنف وضجيج اللافتة وحملها إلى منتصف الفناء، بالقرب من البئر، وبعد أن داسها بقدميه الاثنتين بدأ يصب شتائمه الفضائحية صارخاً: لصوص يعيشون عندكم في المنزل رقم 7! منظف شوارع! أفعى سامة! وأنهى تعليمه الثانوي! لن أراعي تعليمه الثانوي... غنغرينا ملعون!...

خلال هذا الوقت، كان «الأفعى السامة» بتعليمه الثانوي، يجلس خلف صندوق القمامة على صفيحة الماء مكتئباً.

فُتحت إطارات النوافذ بقرقرة، وأطل السكان المبتهجون من النوافذ. ودخل الفضوليون والمتطفلون على مهل من الشارع إلى الفناء. وقد احتد البواب أكثر عند رؤيته للجمهور.

برآد – ميكانيكي! – صاح البواب – أرستقراطي ابن الكلب!

كان يمزج البواب بثناء التعابير البرلمانية بالكلمات البذيئة التي يفضلها. كانت الطبقة النسائية الضعيفة المتشبهة بكثافة على إطارات النوافذ غاضبة من البواب، لكنها لم تبتعد عن النوافذ.

سأمزق سحتته! – احتد البواب – هذا المتعلم!

عندما بلغت الفضيحة ذروتها، ظهر شرطي وأخذ يجر مفتعل الفضيحة إلى قسم المنطقة. وساعد الشرطي شباب من مؤسسة «التعبئة السريعة».

عانق البواب الشرطي من رقبته بخضوع وبكى.

وانتهى الخطر.

عندئذ قفز من خلف صندوق القمامة فيكتور ميخائيلوفيتش المنهك. فضج الجمهور.

يا للوقح – صاح فيكتور ميخائيلوفيتش بعد الموكب – يا للوقح! سأريك، يا ابن الحرام!

لم يسمع البواب الذي كان يبكي بمرارة، شيئاً من هذا القبيل. فقد حملوه على أيديهم إلى قسم الشرطة. وأخذوا معهم إلى هناك، كدليل مادي، لافتة «ورشة ميكانيك وتصليح مواقد الكيروسين»

طاف فيكتور ميخائيلوفيتش في الساحة طويلاً، ثم قال متوجهاً إلى المتفرجين: أولاد الكلبة! معجبون بأنفسهم، وقحون!

سيكون لك ضيافة – صاحت من النافذة يلينا ستانيسلافوفنا – تفضل لعندي لدقيقة.

وضعت أمام فيكتور ميخائيلوفيتش صحناً من الكومبوت (شراب التفاح)، وأخذت تسير في الغرفة، طارحة عليه الأسئلة.

نعم، أقول لك، إنه هو، من دون شاربين، لكنه هو – صرخ فيكتور ميخائيلوفيتش كعادته – أنا أعرفه تماماً! فوروبيانينوف، كما هو، صورة طبق الأصل!

بصوت خافت، يا إلهي! ولماذا رجع، ما رأيك؟

ارتسمت على وجه فيكتور ميخائيلوفيتش الأسود ابتسامة ساخرة.

– وأنت، ما رأيك؟

وضحك بسخرية أكبر.

على أية حال، ليس من أجل توقيع اتفاق مع البلاشفة.

هل تعتقدين أنه في خطر؟

كان احتياط السخرية المتراكم لدى فيكتور ميخائيلوفيتش خلال عشر سنوات من الثورة، لا ينضب. وظهرت على وجهه سلسلة من الابتسامات متفاوتة القوة والارتياب.

من في روسيا السوفييتية لا يتعرض للخطر، لا سيما رجل في هذا الوضع مثل فوروبيانينوف؟ الشوارب لا يحلقونها عبثاً، يلينا ستانيسلافوفنا.

هل هو مبعوث من الخارج؟ - سألت يلينا ستانيسلافوفنا، وهي تكاد تختنق.

بلا شك، - أجاب الميكانيكي العبقرى.

ولأى هدف هو هنا؟

لا تكونى طفلة.

مهما يكن، يجب أن أراه.

وهل تعرفين، بم تخاطرين؟

أوه، مهما يكن! بعد عشر سنوات من الانفصال، لا يمكنني أن لا أرى هيبوليت ماتفييفتش.

بدا لها حقاً، أن القدر هو الذي فرق بينهما في تلك الفترة عندما كانا يحبان أحدهما الآخر.

أتوسل إليك، ابحث عنه! استعلم، أين هو؟ أنت تتواجد في كل مكان! لن يكون الأمر صعباً عليك! أبلغه أنني أريد رؤيته. أسمع؟

خاف الببغاء الأحمر الذي كان يغفو على القصة من الحديث الصاخب، فقلب رأسه على عقب وجمد في هذه الوضعية.

يلينا ستانيسلافوفنا - قال البراد - الميكانيكى، رافعاً يديه وضاغطاً بهما على صدره - سأجده، وأتصل به.

ربما تريد المزيد من الكومبوت؟ - سألتها العرافة.

شرب فيكتور ميخائيلوفيتش الكومبوت، وقرأ عليها محاضرة غاضبة عن الترتيب الخاطى لقفس الببغاء وودع يلينا ستانيسلافوفنا، موصياً إياها بإبقاء حديثهما في سرية تامة.

## الفصل الثاني عشر ألفبائية «مرآة الحياة»

في اليوم الثاني اقتنع الشريكان أنه أصبح من المزعج جداً العيش في غرفة البواب. كان تيخون، الذي أصيب بالذهول بعد أن رأى سيده بشاريين أسودين أولاً ثم أخضرين ثم بلا شوارب نهائياً، يتذمر. لم يكن هناك أسرة للنوم. وكانت تفوح في غرفة البواب رائحة السماد المتعفن، التي تنشرها جزمة تيخون اللبّادية الجديدة. أما جزمته القديمة فكانت في الزاوية تفوح أيضاً برائحة العفن.

– أعتبر أمسية الذكريات منتهية – قال أستاذ – ويجب الانتقال إلى فندق.

ارتجف هيبوليت ماتفييفتش:

– هذا غير ممكن.

– لماذا؟

– هناك علينا تسجيل هوياتنا.

– أليس جواز سفرك على ما يرام؟

– لا، جواز سفري على ما يرام، لكن اسم عائلتي معروف جداً في المدينة. ستنطلق الشائعات.

التزم صاحب الامتياز بالصمت، مفكرين.

– وهل تروك كنية ميكلسون – سأله أستاذ الرائع فجأة.

– أي ميكلسون؟ السيناتور؟

– لا، عضو اتحاد المسؤولين التجاريين.

– لا أفهمك.

– هذا بسبب نقص المهارات الفنية. لا تكن مدلاً.

وأخرج بندر من جاكيتته الأخضر بطاقة نقابية وأعطاها لهيبوليت ماتفييفتش.

– كونراد كارلوفيتش ميكلسون، ثمانية وأربعون عاماً، غير حزبي، أعزب، عضو في النقابة منذ عام ألف وتسعمائة وواحد وعشرين، شخصية أخلاقية عالية المستوى، أحد معارفي الجيدين صديق للأطفال، كما أظن... ولكن قد لا تكون صديقاً للأطفال: فالشرطة لن تطالبك بذلك.

احمر وجه هيبوليت ماتفييفتش خجلاً.

– وهل هذا مناسب؟

– مقارنة باستثمارنا، هذا العمل، ورغم أنه وارد بالقانون الجنائي، لكنه مع ذلك شكل بريء من لعبة الأطفال بالفار.

بقي فوروبيانينوف رغم ذلك متردداً.

– أنت مثالي، كونراد كارلوفيتش. وأنت سعيد الحظ، تصوّر، لو اضطررت أن تصبح فجأة البابا كريستوزوبولو أو زلوفونوف (شخصيتان خياليتان ساخرتان من اختراع المؤلفين – م).

وتمت الموافقة السريعة، وتوجه الشريكان دون وداع تيخون إلى الشارع.

\* \* \*

نزلا في غرف فندق «السوربون» المفروشة. أثار أستاذ ضجة لدى موظفي الفندق القليلين. شاهد في البداية الغرف ذات السعر سبع روبلات، لكنه كان غير راض عن فرشها. وأعجبه أكثر فرش غرف الخمسة روبلات، لكن السجاد فيها كان مهترئاً ورائحته سيئة. في غرف الثلاثة روبلات كان كل شيء جيد باستثناء اللوحات.

– لا يمكنني العيش في غرفة علقت فيها مناظر طبيعية – قال أستاذ.

واستقرا أخيراً في غرفة مقابل روبل وثمانين كوبيكاً. لم يكن فيها لوحات، ولا سجاد، واقتصروا الفرش على سريرين، وطاولة صغيرة.

– إنه طراز العصر الحجري – لاحظ أستاذ راضياً – ولكن ألا تعيش حشرات ما قبل التاريخ في المفارش؟

– حسب الموسم – أجاب عامل الممر الماكر – فإذا ما كان هناك مؤتمر للمقاطعة، على سبيل المثال، فلا يوجد بالطبع، لأنه يكون هناك نزلاء كثيرون وتجري عملية تنظيف كبيرة قبل

حضورهم. أما في أوقات أخرى، فيحدث حقاً أن تأتي. من الغرف المجاورة لفندق «ليفاديا».

في اليوم نفسه، زار صاحب الامتياز إدارة ستارغورود المحلية، حيث حصل على جميع المعلومات الضرورية. واتضح أن قسم الإسكان تم حله في عام 1921، وأن أرشيفه الواسع قد اندمج مع أرشيف إدارة ستارغورود المحلية.

شرع المحتال الكبير بالعمل. وبحلول المساء عرف الشريكان عنوان منزل مدير الأرشيف فارفولومي كوروبينيكوف، المسؤول السابق في ديوان رئاسة المحافظة، الموظف حالياً في مكتب العمل.

ارتدى أستاذ صدرية صوفية، ونفض الجاكيت على ظهر السرير من الغبار، وطالب هيبوليت ماتفييفتش بروبل وعشرين كوبيكاً لقيامه بمهمة تمثيل الامتياز وتوجه بزيارة لمدير الأرشيف. بقي هيبوليت ماتفييفتش في فندق «السوربون» ونتيجة لقلقه أخذ يمشي جيئةً وذهاباً في الممر بين السريرين. في هذه الأمسية، الخضراء والباردة، كان يتقرر مصير الشركة كلها. فإذا ما أمكن الحصول على نسخة من الأوامر التي تم بموجبها توزيع الأثاث المستولى عليه من قصر فوروبيانينوف، يمكن القول أن القضية نجحت بمقدار النصف. وثمة لاحقاً صعوبات كبيرة، لا يمكن تخيلها، لكن طرف الخيط يكون قد تم الإمساك به.

– لو كان بالإمكان الحصول على أوامر التوزيع – كان يردد هيبوليت ماتفييفتش مستلقياً على سريريه – لو بالإمكان الحصول على الأوامر...

كانت نوابض المفروش تلدغه كالبراغيث. لكنه لم يكن يشعر بها. فهو لم يكن يتصور بوضوح، ماذا سيتبع الحصول على نسخ من الأوامر، لكنه كان واثقاً، بأن كل شيء سيسير آنذاك مثل الزبدة: والزبدة – لسبب ما كانت تدور في رأسه – لا تفسد العصيدة».

في حين أن العصيدة التي كانت تُطهى كبيرة. كان هيبوليت ماتفييفتش، المرتجف بحلمه الوردي، يتقلب على السرير من جنب إلى جنب آخر. كانت النوابض تصرّ من تحته.

اضطر أستاذ إلى اجتياز المدينة كلها. فقد كان كوروبينيكوف يعيش في غوسيشي – ضاحية ستارغورود.

كان هناك يعيش في الغالب، عمال السكك الحديدية. في بعض الأحيان، كانت تمر قاطرة بخارية في الاتجاه المعاكس فوق المنازل على جسر مسور بجدران رقيقة من الخرسانة. فكانت تضاء سطوح المنازل لثانية بنار فرن القاطرة. وأحياناً كانت تمر عربات فارغة،

وأحيانا كانت تنفجر مواسير معبأة بالبارود. وبين الأكوخ والثكنات المؤقتة كانت تمتد مباني طويلة من الطوب للمنازل التعاونية الرمادية.

مر أستاذ بالجزيرة المتوهجة - نادي السكك الحديدية، وتأكد من العنوان على الورقة، وتوقف أمام منزل مدير الأرشيف. وبرم الجرس عند الحروف «البارزة» يرجى البرم.

بعد استجواب مطوّل، «ل عند» من «و» لماذا» فتحوا له الباب، ووجد نفسه في غرفة أمامية مظلمة، مليئة بالخزائن. كان في الظلام شخص يتنفس في وجه أستاذ لكنه لم يقل له شيئاً.

- أين هنا المواطن كوروبينيكوف؟ - سأل بندر.

أمسك بيد أستاذ الشخص المتنفس واقتاده إلى غرفة الطعام المضاءة بمصباح كيروسين معلق. رأى أستاذ أمامه رجلاً عجوزاً، صغير البنية، نظيفاً، بظهر مرن بشكل غير عادي. لم يكن هناك أي شك، بأن هذا العجوز هو نفسه المواطن كوروبينيكوف. سحب أستاذ كرسيّاً، دون دعوة، وجلس.

نظر الرجل العجوز إلى الشاب الجريء والتزم الصمت. بادر أستاذ إلى الحديث بلطف: - جئت إليك بموضوع. أنت تعمل في أرشيف إدارة ستارغورود المحلية.

تحرك ظهر العجوز وتقوس مؤكداً.

- ومن قبل كنت تعمل في قسم الإسكان؟

- لقد خدمت في كل مكان - قال العجوز بمرح.

- حتى في ديوان رئاسة المحافظة؟

قال هذا أستاذ وابتسم برشاقة. تلوى ظهر العجوز طويلاً، واستقر أخيراً في وضع دلّ على أن خدمته في ديوان رئاسة المحافظة - مسألة قديمة، ومن المستحيل أن يتذكر كل شيء.

- ولكن، اسمح لي أن أعرف، ما هو المطلوب مني؟ - سأل صاحب البيت ناظراً إلى الضيف.

- سأسمح لك - أجاب الضيف - أنا ابن فوروبيانينوف.

- ابن من؟ ابن المشير؟

- ابنه.



- وهل هو على قيد الحياة؟
- مات، أيها المواطن كورويينيكوف، توفي.
- نعم – قال العجوز من دون حزن شديد – ولكن، يبدو لي أنه لم يكن لديه أولاد؟
- لم يكن لديه أولاد – أكد أستاذ بلطف.
- فكيف إذن؟...
- أنا ابنه من زواج مرغنطي (زواج غير شرعي، تُحرم فيه الزوجة والأولاد من الوراثة – م.)
- أولست ابن يلينا ستانيسلافوفنا؟
- نعم. بالضبط.
- وكيف صحتها؟
- ماما في القبر منذ مدة طويلة.
- أوه، كم هذا محزن!
- وبقي العجوز ينظر طويلاً إلى أستاذ بدموع التعاطف، رغم أنه رآها اليوم في البازار، في قسم اللحوم.
- الجميع مصيرهم الموت – قال العجوز – مع ذلك، اسمح لي أيها المحترم، أن أعرف قضيتك، أنا اسمك لا أعرفه.
- فولديمار – قال أستاذ بسرعة.
- فلاديمير هيبوليتوفيتش؟ حسن جداً، إذن، أنا أصغي إليك، يا فلاديمير هيبوليتوفيتش.
- جلس الرجل العجوز على مقربة من الطاولة المغطاة بمشمع منقوش، وسدد نظره إلى عيني أستاذ.
- أعرب أستاذ بكلمات منتقاة عن حزنه على والديه. وأبدى أسفه الشديد لأنه دخل في وقت متأخر إلى مسكن مدير الأرشف المحترم وأزعجه بزيارته، لكنه يأمل بأن مدير الأرشف المحترم سيسامحه عندما يعرف الشعور الذي دفعه إلى ذلك.

وأنهى أستاذ حديثه بقوله بحب ابن لا يوصف:

– كان بودي العثور على شيء من أثاث أبي، كي أحتفظ به للذكرى. ألا تعرف لمن سُلّم أثاث منزل أبي؟

– إنها مسألة معقدة – قال العجوز مفكراً – هذه لا يقدر عليها إلا رجل ذو باع طويل... وأنت، عفواً، ما هو عملك؟

– مهنة حرة. لديّ مسلخ خاص لتبريد اللحوم في تعاونية بسمارى.

نظر الرجل العجوز بريية إلى الدرع الأخضر للشاب فوروبيانينوف، لكنه لم يعترض.

«إنه شاب مستعجل» – فكر في نفسه.

أما أستاذ، الذي أنهى في هذه اللحظة مراقبته لكوروبينيكوف، فقد قرر أن «العجوز – وغد نموذجي».

– إذن، كيف – قال أستاذ.

– إذن – قال مدير الأرشيف – مسألة صعبة، لكنها ممكنة.

– تتطلب مصاريف؟ – ساعده مالك مسلخ تبريد اللحوم.

– مبلغاً غير كبير...

– أقرب إلى الجسد، كما يقول موباسان. سيتم تسديد ثمن المعلومات.

– حسناً، ضع سبعين روبلاً.

– ولماذا هذا المبلغ الكبير؟ وهل الشوفان غالي الثمن الآن؟

خشخش العجوز قليلاً، وهو يهز عموده الفقري.

– اسمح لي بأن أمزح...

– موافق، يا أبتى. المال مقابل الأوامر. متى يمكنني أن آتي إليك؟

– هل تحمل النقود معك؟

– ربت أستاب على جيبه، مبدياً استعداداه.

– في هذه الحالة، تفضل، ولو الآن، – قال كورويينيكوف باحتفاء.

أشعل شمعة، واقتاد أستاب إلى الغرفة المجاورة. هناك، بالإضافة إلى السرير الذي كان ينام عليه صاحب المنزل، كان هناك مكتب مغطى بدفاتر الحسابات، وخزانة ملفات طويلة ذات رفوف مفتوحة. وقد ألصقت على حواف الرفوف أحرف هجائية: أ، ب، ت حتى حرف ي. ووضعت على الرفوف حزم الأوامر والمذكرات، مربوطة بخيوط جديدة.

– رائع! – قال أستاب معجباً – أرشيف كامل في المنزل!

– مكتمل تماماً – قال مدير الأرشيف بتواضع – أنت تعرف، دائرة الإسكان ليست بحاجة إليه، وأنا، قد يلزمي مع تقديمي في السن... نحن نعيش، كما تعلم، كما لو كنا في فوهة بركان... يمكن أن يحدث كل شيء... وسيسعى الناس آنذاك للبحث عن أثاثهم، وأين الأثاث؟ إنه هنا! في الخزانة. ومن احتفظ به، ومن حافظ عليه؟ كورويينيكوف. هنا، السادة سيشكرون العجوز، وسيساعدونه في شيخوخته... ولست بحاجة إلى الكثير – يعطوني عشرة روبلات مقابل الأمر الواحد – وشكراً لهم... وإلا، اذهب، وحاول، ابحث عن الريح في الميدان. لن يعثروا على شيء بدوني!

نظر أستاب إلى العجوز بإعجاب، وقال:

– مكتب رائع، مكتمل التنظيم والترتيب. أنت بصراحة، بطل العمل!

بدأ مدير الأرشيف الذي راقه الإطاراء، يطالع ضيفه على تفاصيل عمله المحبوب. وفتح الدفاتر السميكة للإحصاء والتوزيع. وقال: – هنا، مدينة ستارغورود كلها! الأثاث كله! من عند من صدر، لمن ومتى أعطي. وهذا سجل هجائي، مرآة الحياة! أي أثاث يهمل؟ أثاث التاجر أنجيلوف من النقابة الأولى؟ تفضل. انظر إلى الحرف أ، أب، أت، أث... أنغلوف... ما هو الرقم؟ إليك الرقم 742 82. ولنأخذ الآن دفتر الجرد: الصفحة 142. أين أنجيلوف؟ ها هو أنجيلوف. صدر في 18 كانون أول/ديسمبر عام 1918 من أنجيلوف: بيان كبير من ماركة «بيكر» رقم 97012، كرسي ناعم صغير للبيانو، مكتب عدد 2، خزانة عدد 4 (اثنتان من الخشب الأحمر)، خزانة ملابس واحدة، وإلخ... ولمن أعطيت؟... ننظر في دفتر التوزيع. في الرقم نفسه 742 82... خزانة الملابس – أعطيت للجنة المدينة العسكرية، ثلاث خزائن – أعطيت لمدرسة الأطفال الداخلية «القبة»... وخزانة ملابس أخرى – تحت تصرف سكرتير لجنة محافظة ستارغورود التموينية. أما البيانو الكبير فإلى أين ذهب؟ إلى الضمان الاجتماعي، في المنزل رقم 2. ولا يزال موجوداً هناك...

«لم أر هناك مثل هذا البيانو» – فكر أستاب، متذكراً وجه آخين الخجول.

– أو، على سبيل المثال، لدى حاكم مكتب بلدية المدينة مورين... في حرف م يجب البحث عنه. هنا كل شيء. المدينة كلها. هناك يوجد بيانو أكثر من واحد، وأنواع من الأرائك الطويلة، ومنضدة الزينة، وكنبات، وأرائك، وكراسي صغيرة منفوخة، وثريات... حتى أنه يوجد طقوم سفرة...

– حسناً – قال أستاذ – يجب وضع نصب تذكاري لك. ولكن، لنقترب من موضوعنا. حرف ف، على سبيل المثال.

– حرف ف موجود – قال كوروبينيكوف عن طيب خاطر – الآن. فم، فن، فوريتسكي، صاحب الرقم 238 48 هو فوروبيانينوف، هيبوليت ماتفييفتش، والدك المرحوم، كان رجلاً كبير المقام... عنده بيانو كبير ماركة «بيكر»، رقم 809 54، مزهريات صينية، ذات علامة تجارية، عددها 4 من إنتاج المعمل الفرنسي «سيفرس»، سجاد أوبيوسون – ثمانية، بقياسات مختلفة، لوحة قماشية «الراعية»، لوحة قماشية «الراعي»، سجاد تكين – عدد 2، وسجادة واحدة صنع خراسان، دب محشي مع الطبق عدد 1، غرفة نوم – اثنا عشر قطعة، غرفة طعام – 14 قطعة، مصنوع من خشب الجوز، من صنع المعلم هامبز.

– وعلى من وُزع؟ – سأل أستاذ بفارغ من الصبر.

هذا ما سنراه الآن – الدب المحشي مع الطبق – إلى المنطقة الثانية من الشرطة. اللوحة القماشية «الراعي» – أعطيت إلى معهد القيم الفنية. وأعطى سجاد أوبيسون وتكين وخراسان إلى مفوضية الشعب للتجارة الخارجية. وأعطيت غرفة النوم إلى اتحاد الصيادين، وطقم غرفة الطعام أعطي إلى قسم مدينة ستارغورود لتجارة الشاي. طقم غرفة الضيوف المصنوع من خشب الجوز تم تجزئته وتوزيعه: مائدة مستديرة وكرسي واحد إلى المنزل رقم 2 من الضمان الاجتماعي، الأريكة ذات المسند المنحني وضع تحت تصرف دائرة الإسكان (لا يزال موجوداً في الردهة، وقد وسخ الأوغاد فرشته كله بالزيوت)؛ وكرسي آخر للرفيق غريغوريسايف، باعتباره مُقعداً من الحرب الإمبريالية، وبناءً على طلبه وقرار رئيس قسم الإسكان ت. بوركين. عشرة كراسي أرسلت إلى موسكو، إلى متحف الأثاث الفاخر، بناءً على الرسالة الدورية لمفوضية الشعب للتعليم... المزهريات الصينية، ذات العلامة التجارية...

– أثني عليك – قال أستاذ مغتبطاً – هذا رائع! من الجيد أن ألقى نظرة على الأمر.

– الآن، الآن، سنصل إلى الأوامر. للرقم 238 48، الحرف ف.

اقترب مدير الأرشيف من الخزانة، وبعد أن ارتفع على أصابع قدميه، أخرج الرزمة اللازمة.

– هنا، يا سيدي. كل أثاث والدك هنا. أنت بحاجة إلى جميع الأوامر؟

– وما حاجتي إلى جميع الأوامر... ذكريات الطفولة – طقم غرفة الضيوف... أذكر، كنت ألعب في غرفة الضيوف على سجادة خراسان، وأنا أنظر إلى اللوحة القماشية «الراعية»... كان زمناً رائعاً، طفولة ذهبية! لذلك، يا أبتى، سنقتصر على طقم غرفة الضيوف.

أخذ مدير الأرشيف بشغف يقوم رزمة الأرومات الخضراء، وشرع بالبحث عن الأمر المطلوب. اختار كوروبينيكوف خمسة أوراق. أمر لعشرة كراسي، وأمران بكرسي لكل منهما، وأمر للمائدة المستديرة، وأمر للوحة القماشية «الراعي».

– اذا سمحت، انظر. كل شيء على ما يرام. ماذا وأين يوجد – كل شيء معروف. وعلى الأرومات كتبت جميع العناوين، وتوقيع المستلم بخط يده. ولهذا، فلا يمكن لأحد أن يتملص. ربما تريد طقم أثاث زوجة الجنرال بوبوف؟ إنه رائع جداً. أيضاً من صناعة هامبز.

لكن أستاذ، الذي يحركه حصراً حبه لوالديه، أمسك بالأوامر، ودسها في قاع جيبه الجانبي، وتخلّى عن طقم زوجة الجنرال.

– هل يمكن كتابة وصل استلام – سأل مدير الأرشيف، مقوساً ظهره ببراعة.

– يمكنك – قال بندر بلطف – اكتب، أيها المناضل من أجل الفكرة.

– ها أنا ذا أكتب.

– فصل كما تريد.

انتقلا إلى الغرفة الأولى. كتب كوروبينيكوف بخط أنيق وصل استلام، وسلمه للضيف مبتسماً. أخذ المستثمر الكبير الورقة باحترام شديد بأصابع يده اليمنى ووضعها في الجيب نفسه، حيث وضع الأوامر الثمينة.

– حسناً، وداعاً – قال مضيقاً عينيه – لقد أزعجتك كثيراً. لن أجرؤ بعد الآن بإرهاقك بوجودي. اعطني يدك، يا حاكم الديوان.

هز مدير الأرشيف المذهول اليد الممدودة إليه.

– وداعاً – كرر أستاذ.

وتحرك نحو المخرج.

لم يفهم كوروبينيكوف شيئاً. حتى أنه نظر إلى الطاولة، ليرى ما إذا كان الضيف قد وضع النقود عليها، ولكن لم تكن هناك نقود. عندها سأل أمين الأرشيف بهدوء: – والنقود؟

– أية نقود – قال أستاب، وهو يفتح الباب – أظن أنك طلبت بعض المال؟

– نعم، بالطبع! لقاء الأثاث! لقاء الأوامر!

– يا حبيبي – غنى أستاب – أقسم بالله، أقسم بشرف أبي المرحوم. من قلبي كان بودي، ولكن لا يوجد معي الآن، نسيت أن آخذ من الحساب الجاري.

ارتجف الرجل العجوز ودفع إلى الأمام يده الضعيفة، راغباً الإمساك بزائره الليلي.

– اصمت، أيها الأحمق – قال أستاب مهدداً – قيل لك باللغة الروسية، غداً، يعني، غداً. والآن، إلى اللقاء! راسلني!...

أغلق الباب بقوة. فتح كوروبينيكوف الباب من جديد وركض إلى الشارع، لكن أستاب كان قد اختفى. فقد مشى بسرعة عبر الجسر. وقد ألقت عليه القاطرة التي مرت عبر الجسر بأنوارها وغمرته بدخانها.

– لقد تحطم الجليد! – صاح أستاب مخاطباً سائق القاطرة – تحطم الجليد، أيها السادة المحلفون.

لم يسمع سائق القاطرة شيئاً، فلوح بيده، وقرعت عجلات القاطرة الأكواع الفولاذية لذراع التدوير، وانطلقت القاطرة بعيداً.

وقف كوروبينيكوف دقيقتين في الريح الجليدية، وبعد أن شتم بكلام بذيء، عاد إلى بيته. استولت عليه مرارة لا تطاق. فوقف في منتصف الغرفة، وأخذ يضرب غاضباً الطاولة برجله. فتراقصت منفضة السجائر، المصنوعة على شكل قالوش بنقش أحمر «مثلث»، وقرع الكأس إبريق الماء.

لم يُخدع فارفولوميو كوروبينيكوف بهذا الشكل الحقيقير أبداً من قبل. كان يمكنه أن يُخدع أي شخص، ولكنه خُدع هنا بهذه البساطة البارة، لدرجة أنه بقي بعدها واقفاً طويلاً، يطرق بأرجله السميكة مائدة الطعام.

كان كوروبينيكوف يدعى في منطقة غوسيشي باسم فارفولوميتش. وكانوا لا يقصدونه إلا في حال الضرورة القصوى. كان فارفولوميتش يأخذ أشياء رهناً ويفرض على مودعيها نسبة مخيفة. وقد مارس هذا العمل منذ عدة سنوات، ولم يتم القبض عليه. أما الآن فقد احترق في أفضل مشروعاته التجارية، التي كان ينتظر منها أرباحاً كبيرة وشيخوخة آمنة.

هذا الفشل كان يمكن مقارنته بحالة واحدة حدثت في حياة فارفولوميتش.

منذ حوالي ثلاث سنوات، عندما ظهر للمرة الأولى بعد الثورة أشخاص موسرون قبلوا بالتأمين على حياتهم، قرر فارفولوميتش الإثراء على حساب تأمين الدولة. فأمن على حياة جدته، البالغة من العمر مائة وعامان، وهي سيدة محترمة تفتخر بعمرها منطقة غوسيشي كلها، بمبلغ ألف روبل. كانت المرأة العجوز مصابة بكثير من أمراض الشيخوخة. ولهذا اضطر فارفولوميتش إلى دفع أقساط تأمين عالية. وكانت حسابات فارفولوميتش بسيطة وصحيحة. لا يمكن للمرأة العجوز أن تعيش طويلاً. وكانت تدل حسابات فارفولوميتش أنها لن تعيش عاماً واحداً. وخلال هذا العام كان عليه أن يدفع ستين روبلاً أقساطاً للتأمين، ويتبقى لديه 940 روبلاً ربحاً مضموناً على الغالب.

لكن المرأة العجوز لم تمت. وعاشت عامها الثالث بعد المئة براحة تامة. واضطر فارفولوميتش الساخط إلى تجديد التأمين للعام الثاني. في العام الرابع بعد المئة تحسنت صحة المرأة العجوز: فقد ظهرت عندها الشهية للطعام، واستقامت السبابة في يدها اليمنى، بعد أن كانت ملتوية لمدة عشر سنوات بسبب إصابتها بالنقرس. اقتنع فارفولوميتش بخوف من أنه رغم صرفه مائة وعشرين روبلاً على جدته، لكنه لم يحصل على قرش واحد من الفائدة على رأس المال. فالجدة لم تكن تريد أن تموت، وكانت متقلبة المزاج، وتطالب بالقهوة، حتى أنها ذات يوم صيِّف، خرجت إلى ساحة كومونة باريس لتسمع إلى الراديو - موضة العصر آنذاك - الموسيقى الإذاعية. أمل فارفولوميتش أن الرحلة الموسيقية ستقضي على المرأة العجوز، التي مرضت وبقيت في الفراش بالفعل ثلاثة أيام، وهي تعطس كل دقيقة. لكن جسمها انتصر على المرض. ونهضت العجوز وطلبت الكيسيل (السحلب المصنوع من الفواكه والنشاء - م.). واضطر إلى دفع أموال التأمين للمرة الثالثة. وأصبح الوضع لا يطاق. كان من المفروض أن تموت العجوز لكنها لم تمت. وذاب سراب الألف روبل، وانتهت جميع المواعد النهائية، وأصبح لا بد من تجديد التأمين. فاستولى الشك على فارفولوميتش. فالعجوز الملعونة قد تعيش عشرين عاماً أخرى. ومهما جامل وكيل التأمين فارفولوميتش، ومهما حاول إقناعه، راسماً له تشييع العجوز وجنازتها المغرية، لا سمح الله، كان فارفولوميتش صامداً كالطود. ولم يجدد التأمين.

لقد قرر أن من الأفضل أن يخسر مائة وثمانين روبلاً من أن يخسر مائتين وأربعين، ثلاثمائة، ثلاثمائة وستين، أربعمائة وعشرين أو ربما، حتى أربعمائة وثمانين، ناهيك عن فائدة رأس المال.

وحتى الآن، وهو يركل الطاولة بقدمه، لا يزال فارفولوميتش، كالعادة، يستمع إلى شخير جدته، رغم أنه لم يعد يستطيع تحقيق أية منافع تجارية من هذا الشخير.

- هل هذا مزاح؟! - صرخ، متذكراً الأوامر الضائعة. - اعتباراً من الآن دفع المال مقدماً. وكيف حصل هذا، كيف أخطأت هكذا؟ بيديَّ هاتين أعطيت أثاث غرفة الضيوف المصنوع من خشب الجوز... اللوحة القماشية «الراعي» وحدها لا تقدر بثمن! إنها نسيج يدوي!...

كان جرس «يرجى البرم» قد لوته يد شخص ما غير واثقة، ولم يلحق فارفولوميتش أن يتذكر أن الباب بقي مفتوحاً، حتي سُمع في المدخل دوي شديد وصوت شخص ضاع في متاهة الخزائن، ونادى: - من أين أدخل هنا؟

خرج فارفولوميتش إلى المدخل، ووضع على كتفيه معطف شخص ما من الجوخ السميك واقتاد إلى غرفة الطعام الأب فيودور.

- أعتذر أشد الاعتذار - قال الأب فيودور. وبعد عشرة دقائق من الحيل والتحفظات المتبادلة، اتضح أن المواطن كوروبينيكوف لديه معلومات ما عن أثاث فوروبيانينوف، وأن الأب فيودور لا يرفض دفع المال مقابل هذه المعلومات. علاوة على ذلك، ومما أثار متعة مدير الأرشيف الشديدة، أن الزائر هو شقيق المشير السابق وكان يرغب بشدة بالاحتفاظ بذكرى عنه، باقتنائه أثاث غرفة الضيوف المصنوع من خشب الجوز. فقد كانت ذكريات مراهقة شقيق فوروبيانينوف الدافئة مرتبطة بهذا الأثاث. طلب فارفولوميتش مائة روبل. بينما قدر الزائر ذكرى أخيه بمبلغ أقل بكثير، بثلاثين روبلاً. واتفقا على خمسين روبلاً.

- أطلب المال مقدماً - قال مدير الأرشيف - هذه قاعدتي.

- ألا تمنع بأن أدفع بالعشرات الذهبية؟ - أسرع الأب فيودور، ومزق بطانة سترته.

- سأخذها حسب سعر البورصة اليوم. بتسعة ونصف. هذا هو سعر اليوم.

هز فوستريكوف كيس النقود الذي يشبه السجق واستخرج منه خمس قطع ذهبية من فئة العشر روبلات كان قد خبأها فيه، وأضاف إليها روبلين ونصف من الفضة وقدمها كلها لأمين الأرشيف. أعاد فارفولوميتش مرتين حساب القطع النقدية المعدنية، ومسحها بيده، وطلب من الضيف أن ينتظر دقيقة وذهب لإحضار الأوامر. لم يفكر فارفولوميتش طويلاً أمام مكتبه السري، فتح السجل الهجائي - مرآة الحياة على حرف ب، ووجد بسرعة الرقم المطلوب وأخذ من الرف رزمة أوامر زوجة الجنرال بوبوفا. وبعد أن فتح الرزمة، اختار منها أمراً واحداً أعطي للرفيق برونس، المقيم في شارع فينوغراندنويا، رقم المنزل 34 بموجبه اثنا عشر كرسيّاً من خشب الجوز، من صنع هامبز. ابتسم أمين الأرشيف، مندهشاً من فطنته وقدرته على المراوغة، ابتسامة عريضة، وأعطى الأوامر للمشتري.

- كل شيء في مكان واحد؟ - صاح المشتري.

- في مكان واحد لواحد بمفرده. كل شيء هناك. طقم أثاث رائع. ستعلق أصابعك. وماذا علي أن أشرح لك! أنت تعرف كل شيء!



هز الأب فيودور يد مدير الأرشف طويلاً، وهو يصافحه بحرارة، وبعد أن اصطدم بالخزائن عدداً لا يحصى من المرات في المدخل، هرب في ظلام الليل.

ضحك فارفولوميتش طويلاً على المشتري المخدوع. ووضع العملات الذهبية في صف واحد على الطاولة، وجلس طويلاً، ينظر بنعاس إلى القطع الذهبية الخمس المشرقة. وفكر في نفسه: «وما الذي جذبهم إلى أثاث فوروبيانينوف؟ لقد أصيبوا بالجنون».

وخلع ثيابه، وصلى لله دون اكتراث، واستلقى على سرير بناتي ضيق وغفا مهموماً.

## الفصل الثالث عشر المرأة الحامية – حلم الشاعر

خلال ليلة واحدة اختفى البرد نهائياً. وأصبح الجو دافئاً لدرجة أن المارة المبكرين شعروا بالألم في أقدامهم. وزقزقت العصافير على هواها. حتى أن الدجاجة التي خرجت من المطبخ إلى ساحة الفندق، شعرت بطفرة من القوة وحاولت الطيران. كانت السماء مغطاة بغيوم صغيرة متفرقة، ومن صندوق القمامة فاحت رائحة البنفسج وشورية «بيزان». كانت الهواء يتحرك تحت طنف السقف. وتمددت القطط على السطح، وهي تنظر بتشامخ وعيون شبه مغلقة إلى الفناء، الذي ركض منه خادم الفندق ألكسندر حاملاً حزمة من الغسيل الوسخ.

كانت الضجة تسود في أروقة فندق «السوربون». فقد توافد مندوبو المقاطعات لحضور افتتاح الترام. وبلغ عددهم حشداً كاملاً نزلوا من خط الفندق مع لافتة «السوربون». كانت الشمس حامية الوطيس. وأقلعت إلى الأعلى الستائر الحديدية المموجة للمحلات التجارية. واختنق العاملون الذين جاؤوا إلى أعمالهم بمعاطفهم القطنية السميقة، ففتحوا أزرارها، شاعرين بعبء الربيع.

في الشارع التعاوني (كوبيراتيفنايا) انفجر نابض شاحنة شركة «ميلستروي» للبناء المحملة فوق طاقتها، وكان فيكتور ميخائيلوفيتش بوليسوف الذي حضر إلى مكان الحادث يعطي نصائحه.

في الغرفة المؤثثة برفاهية متواضعة (سريران وطاولة صغيرة)، سُمع شخير وصهيل حصان. كان هيبوليت ماتفييفتش يغتسل بمرح وينظف أنفه. أما المحتال الكبير فكان مستلقياً في سريره، متفحصاً عطب حذائه. ثم قال: – بالمناسبة، أرجو منك تسديد الدين.

أخرج هيبوليت ماتفييفتش وجهه من المنشفة ونظر إلى شريكه بعينين منتفختين، من دون نظارة.

– لماذا تنظر إلي، كما ينظر الجندي إلى قملة؟ ما الذي أدهشك؟ الدين؟ نعم! أنت مدين لي بالمال. نسيت البارحة أن أقول لك، إنني دفعت لقاء الأوامر، بحسب تفويضك لي، سبعين روبلاً. وهاك إيصالاً بها. احسم منها خمسة وثلاثين روبلاً. آمل بأن صاحبي الاستثمار يتشارك في النفقات بصورة متكافئة؟ وضع هيبوليت ماتفييفتش نظارته على أنفه، وقرأ الإيصال، وبعد تحسّر، أعطى النقود. لكن هذا لم يطغ على فرحته. فالثروة كانت في متناول يده. فذرة غبار الثلاثين روبلاً اختفت أمام بريق جبل الماس.

ابتسم هيبوليت ماتفييفتش متألّفاً، وخرج إلى الرواق وأخذ يتمشى. كانت خطط الحياة الجديدة، المبنية على أساس ثمين تواسيه وتعزيه. وقال ساخراً في ذهنه: «وقداسة الأب؟ الأحق يبقى أحمقاً. لن يرى الكراسي بعينيه، مثل لحيته».

استدار فورويانينوف عند وصوله إلى نهاية الرواق. فقد انفتح الباب المشقق الأبيض للغرفة ذات الرقم 13، وخرج منه، قبالة تماماً، الأب فيودور بردائه الأزرق، المشدود بحزام أسود باهت من الدانتيل مع شراية كبيرة. كان وجهه الطيب يسيل من السعادة. وقد خرج هو أيضاً إلى الرواق للفسحة. التقى الخصمان عدة مرات، حيث كان أحدهما ينظر إلى الآخر بظفر، ثم يتابع سيره. وفي نهايتي الرواق استدار الاثنان في آن واحد، واقترب أحدهما من الآخر... كان صدر هيبوليت ماتفييفتش يغلي من البهجة. وكان الشعور نفسه يسيطر على الأب فيودور. فالشعور بالأسف على الخصم المهزوم كان يستولي عليهما معاً. وأخيراً، وفي الدورة الخامسة في الرواق، لم يستطع هيبوليت ماتفييفتش الصبر، فقال بسرور غير ظاهر: - مرحباً، أيها الأب.

جمع الأب فيودور كامل السخرية التي أودعها الله فيه، وأجاب: - صباح الخير، هيبوليت ماتفييفتش.

وافترق الخصمان. حين التقى مسارهما من جديد، تنازل فورويانينوف وقال: - ألم أسبب لك الأذى أثناء لقاءنا الأخير؟

- لا، ولماذا، كان لقاءنا لطيفاً جداً - أجب الأب فيودور مبتهجاً.

ثم افترقا من جديد. فسحنة الأب فيودور أخذت تثير استياء هيبوليت ماتفييفتش.

- ألم تعد تقيم القداس هناك؟ - سأله في لقاءهما التالي.

- وأين أقيم القداس! لقد انتشر أبناء الرعية في أنحاء المدن، يبحثون عن الكنوز.

- لاحظ - عن كنوزهم! كنوزهم هم!

- أنا أعرف لمن الكنوز، لكنهم يبحثون.

أراد هيبوليت ماتفييفتش أن يقول شيئاً قبيحاً، حتى أنه فتح فمه لهذا الغرض، لكنه لم يستطع اختراع أي شيء، ومضى غاضباً إلى غرفته. بعد دقيقة خرج من الغرفة نفسها النجل التركي - أستاذ بندر في صدرية زرقاء، وتوجه نحو فوستريكوف، وهو يدوس على أشرطة حذائه. ذبلت الورود على خدي الأب فيودور وتحولت إلى رماد.

– هل تشتري أشياء قديمة؟ – سأله أستاذ مهدداً – كراسي؟ أحشاء طيور؟ صناديق تلميع أحذية؟

– ماذا تريد؟ – همس الأب فيودور.

– أود أن أبيعك سروالاً قديماً.

تجمد الكاهن وابتعد.

– لماذا أنت صامت، مثل أسقف في حفل استقبال؟

توجه الأب فيودور ببطء نحو غرفته.

– نشترى الأشياء القديمة، ونسرق الأشياء الجديدة – صرخ أستاذ في إثره.

سحب فوستريكوف رأسه وتوقف أمام باب غرفته. وتابع أستاذ سخريته: ماذا بالنسبة للسروال، يا خادم العقيدة المحترم؟ هل ستشتريه؟ وثمة أكمام من الصدرية، وطوق من الكعكة، وأذنان من حمار فاطس. وإذا رغبت بها جملة، فالبيع أرخص. وهي لست مخفية في الكراسي، ولا داع للبحث عنها؟!

دخل خادم العقيدة غرفته وأغلق الباب خلفه.

صفع أستاذ أربطة حذائه بالسجادة راضياً، وعاد ببطء إلى الخلف. وعندما أصبح جسمه الكبير بعيداً بما فيه الكفاية، مدّ الأب فيودور رأسه من الباب بسرعة، وصرخ بسخط قمعه طويلاً: – أنت الأحمق!

– ماذا؟ – صرخ أستاذ وأسرع للخلف، لكن الباب كان قد أقفل، وسمع صوت القفل أثناء دورانه.

انحنى أستاذ إلى ثقب المفتاح، ووضع يده عليه كبوق، وصرخ قائلاً: – ما هو سعر الأفيون للشعب؟

ساد الصمت من خلف الباب.

– أبتي، أنت رجل خسيس – صاح أستاذ.

في هذه اللحظة، برز وتحرك من ثقب المفتاح قلم رصاص، حاول الأب فيودور برأسه الحاد أن يلدغ عدوه. لكن صاحب الامتياز تراجع في الوقت المناسب وأمسك بقلم الرصاص. بدأ

الخصمان اللذان يفصل الباب بينهما بشد قلم الرصاص كل منهما لجهته. وانتصر الشباب، وبدأ قلم الرصاص الذي استعصى كشظية بالخروج من الثقب. وبفوزه هذا عاد أستاذ إلى غرفته. وابتهج الشريك أكثر.

غنى أستاذ: - العدو يركض، ويركض، ويركض.

وحفر على حافة قلم الرصاص كلمة مهينة بمدية، وركض إلى الممر، وأدخل قلم الرصاص في ثقب المفتاح، وعاد على الفور.

أخرج الصديقان الأرومات الخضراء للأوامر إلى النور وشرعا بدراستها بعناية.

قال هيبوليت ماتفييفتش حالماً:

- أمر اللوحة القماشية «الراعية». لقد اشتريت هذه اللوحة من مخزن التحف الأثرية في بطرسبورغ.

- فلتذهب الراعية إلى الجحيم! - صاح أستاذ، ومزق الأمر إلى قطع صغيرة.

- طاولة مستديرة... كما يبدو من طقم الأثاث...

- اعطني أمر الطاولة. اللعنة على الطاولة!

بقي أمران - مذكرتان: إحداهما - بعشرة كراسي، معطاة لمتحف الأثاث في موسكو، والثاني - بكرسي واحد، معطى للرفيق غريغوريتسوف، في ستارغورود، شارع بليخانوف، رقم المنزل 15.

- جهّز النقود، ربما نضطر للسفر إلى موسكو - قال أستاذ.

- ولكن، هنا ثمة كرسي أيضاً؟

- فرصة واحدة من عشرة. إنها رياضيات بحتة. هذا إذا لم يكن المواطن قد أشعل به المدفأة الحديدية.

- لا تمزح مثل هذا المزاح، لا داع.

- لا بأس، لا بأس، أيها الأخ الحر كونراد كارلوفيتش ميخلسون، سنعثر عليه! هذا عمل مقدس! سوف نلبس الجوارب الكتانية الناعمة، ونأكل كريم مارغو.

- يبدو لي، لسبب ما - قال هيبوليت ماتفييفتش - أن المجوهرات في هذا الكرسي بالذات.

- آه! يبدو لك؟ وماذا يبدو لك أيضاً؟ لا شيء؟ حسناً، سنعمل بطريقة ماركسية. سندع السماء للطيور، وسنتوجه نحن نحو الكراسي. لقد مزقتني الرغبة لأن أرى بأسرع وقت الرجل المعاق في الحرب الامبريالية، المواطن غريتساتسوف، شارع بليخانوف، رقم المنزل خمسة عشرة. لا تتخلف عن الركب، كونراد كارلوفيتش. أما الخطة فسنضعها في الطريق.

عند مرورهما أمام باب الأب فيودور، ركل النجل التركي المحب للانتقام الباب برجله. وسمع من الغرفة زئير خافت للخصم المطارد.

- على أن لا يتبعنا! - قال هيبوليت ماتفييفتش خائفاً.

- بعد لقاء «الوزيرين اليوم على اليخت» لا يمكن حدوث أي تقارب. إنه يخاف مني.

\* \* \*

عاد الصديقان بحلول المساء. كان هيبوليت ماتفييفتش مهموماً. أما أستاذ فكان مشرقاً متألّفاً. كان يرتدي حذاءً قرمزيًا جديداً، مشدوداً على كعبين مطاطين مستديرين، وجوارب على شكل رقعة شطرنج باللونين الأخضر والأسود، وقبعة بلون عاجي، ووشاح شبه حريري من موديل روماني.

قال هيبوليت ماتفييفتش متذكراً زيارتهما للأرملة غريتساتسويفا: - إنه موجود هناك. ولكن كيف يمكن الحصول على هذا الكرسي؟ أو شراؤه؟

- كيف - أجاب أستاذ - ناهيك عن المصروف غير اللازم، سيثير هذا الشائعات. لماذا كرسي واحد؟ ولماذا هذا الكرسي بالذات؟...

- فما العمل؟

نظر أستاذ بإعجاب إلى كعبي الحذاء الجديد. وقال:

- شيك مودرن أليس كذلك؟ ما العمل؟ لا تقلق، أيها الرئيس، أنا أتولى العملية. أمام هذا الحذاء الجميل لن يستطيع الوقوف أي كرسي.

- لا، أتعرف - تحمس هيبوليت ماتفييفتش - عندما كنت تتحدث مع السيدة غريتساتسويفا عن الفيضان، جلست أنا على كرسيّنا، وبشرقي، شعرت تحتني بشيء ما، صلب. المجوهرات هناك، والله، هناك، أنا أشعر بهذا.

– لا تقلق، أيها المواطن ميخلسون.

– يجب سرقة في الليل! أقسم بالله، يجب سرقة!

– ولكن، بالنسبة لك، كمشير للنبل، لديك مقاييس محدودة جداً. وهل تعرف تقنية هذا العمل؟ ربما تكون قد أخفيت في حقيبتك طقم مفاتيح لفتح مختلف الأقفال؟ انزع هذه الأفكار من رأسك! فسرقة أرملة فقيرة غباء نموذجي.

عاد هيبوليت ماتفييفتش إلى رشده. وقال متوسلاً:

– كم أود أن نفعل هذا عاجلاً.

– القبط وحدها تولد عاجلاً – قال أستاذ موجهاً – سوف أتزوجها.

– تتزوج من؟

– مدام غراتساتسويفا.

– ولماذا؟

– من أجل التنقيب، بهدوء، ودون ضجيج، في الكرسي.

– لكنك بهذا تقيّد نفسك مدى الحياة!

– كل ما يمكن فعله من أجل مصلحة الاستثمار!

– مدى الحياة! – همس هيبوليت ماتفييفتش.

لوح هيبوليت ماتفييفتش من شدة دهشته. وكشر عن وجهه الأبرشي الحليق. وبدأ له أسنانه الزرقاء بأنها متسخة ولم تقربها فرشاة من يوم مغادرته مدينة (ن). همس هيبوليت ماتفييفتش: – مدى الحياة! إنها تضحية كبيرة.

– حياة! – قال أستاذ – تضحية! ماذا تعرف عن الحياة والتضحية؟ هل تظن بأنه إذا تم إجلاؤك عن القصر، فأنت تعرف الحياة؟ وإذا ما صادروا لك مزهرية صينية مزيفة فهذه تضحية؟ الحياة، أيها السادة المحلفون، هي لعبة مركبة صعبة. لكن هذه اللعبة، أيها السادة المحلفين، يمكن فتحها كالصندوق. وعلى المرء أن يعرف كيف يفتحها. ومن لا يعرف فتحها سيضيع. هل سمعت بالهوسار(الخيال) – الراهب؟

هيبوليت ماتفييفتش لم يسمع به.

– الهوسار بولانوف؟ بطل بطرسبورغ الأرستقراطية؟ الآن ستسمع.

وروى أستاذ بندير لهيبوليت ماتفييفتش القصة التي أذهلت بدايتها مجتمع بطرسبورغ الراقي كله، والأشد دهشة أن نهايتها ضاعت وذهبت دون أن يسمع بها أحد في السنوات الأخيرة.

### قصة الهوسار(الخيال) – الراهب

هوسار(خيال) لامع، الكونت ألكسي بولانوف، وكما ذكر بندير بشكل صحيح، كان فعلاً بطل بطرسبورغ الأرستقراطية. فاسم هذا الفارس، الخيال الرائع، والنديم الثري لم يكن يغيب عن أفواه سكان القصور على الكورنيش الانكليزي وعن أعمدة يوميات العاصمة. وكثيراً ما كانت تظهر على صفحات المجلات المصورة صورة فوتوغرافية للخيال الوسيم (الهوسار) – في سترة مطرزة بالعلامة التجارية وبحواشي فرو أسترخان، وبصدغين عاليين أملسين، وأنف قصير أشم.

كانت تلاحق الكونت بولانوف شهرة المشارك في العديد من المبارزات السرية، ذات النهايات الحاسمة القاتلة، والقصاص الغرامية الصريحة مع أجمل سيدات المجتمع الأرستقراطي اللواتي لا يمكن الاقتراب منهن، والطرائف الخفيفة والمجنونة ضد الأشخاص المحترمين في المجتمع، وولائم السكر الصاخبة، التي تنتهي حتماً بضرب الكتبة وصغار الموظفين.

كان الكونت وسيماً، شاباً، غنياً، سعيداً في حبه، وفي مقامراته بالورق، وفي ميراثه. كان أقاربه يموتون كثيراً، وكانت تركاتهم تزيد من ثروة الهوسار الكبيرة.

كان وقحاً وجريئاً. كان يساعد الحبشي نيجوس مينليك في حربه ضد الإيطاليين. كان يجلس تحت النجوم الحبشية الكبيرة، متدثراً ببرنس أبيض، وعيناه تنظران إلى خريطة كبيرة للمنطقة. وكان ضوء المشاعل يرمي بظلاله المتأرجحة على صدغي الكونت الناعمين. وكان يجلس عند قدميه صديق جديد هو الفتى الحبشي فاسكا. بعد هزيمته لقوات الملك الإيطالي، عاد الكونت إلى بطرسبورغ مع الحبشي فاسكا. استقبلت بطرسبورغ البطل بالورود والشمبانيا. وانغمس الكونت ألكسي بولانوف من جديد في هاوية الملذات اللامبالية، كما يقال في روايات المجتمع الراقي. وواصلوا الحديث عنه بإعجاب مضاعف، فتسمت النساء بسببه، وحسده الرجال. وكان يقف دائماً خلف عربة الكونت التي تعبر شارع مليونايا(شارع الملايين) الحبشي، مثيراً بشرته السوداء وقوامه الرفيع إعجاب المارة.



وفجأة انتهى كل شيء. واختفى الكونت ألكسي بولانوف. ولم تعرف أميرة البلطيق البيلاروسية، شغف الكونت الأخير، طعاماً للعزاء. وسبب اختفاء الكونت ضجة كبيرة. وكانت الصحف تغص بالتخمينات. وانسدت الطرق أمام المحققين. لكن ذلك كله كان عبثاً. ولم يعثر للكونت على أثر.

وعندما هدأت الضجة تماماً، وردت رسالة من دير أفيركييف شرحت كل شيء. فالكونت المتألق، بطل بطرسبورغ الأرستقراطية، بالتازار (شيطان - م.) القرن التاسع عشر - أصبح راهباً وتنسك. وتناقلوا تفاصيل مرعبة. وقالوا بأن الكونت - الراهب يرتدي سلاسل وزنها عدة أرتال، وأنه، وهو المعتاد على المطبخ الفرنسي اللطيف، يتغذى الآن على قشور البطاطا. وظهرت زوبعة من الفرضيات. فقالوا بأن الكونت رأى في الحلم أمه الميتة. وبكته النساء. ووقف رتل من العربات أمام مدخل أميرة البلطيق البيلاروسية. وكانت الأميرة وزوجها يتقبلان التعازي. وظهرت شائعات جديدة. وانتظروا عودة الكونت من جديد. وقالوا بأن هذا جنون مؤقت بخلفية دينية. وكانوا يؤكدون بأن الكونت هرب من الديون. وقالوا إن السبب في كل شيء قصة حب مؤسفة.

أما في الحقيقة، فقد ترهب الخيال وذهب إلى الدير، من أجل فهم الحياة. ولم يعد بعدها إلى مدينته. ونسوه شيئاً فشيئاً. أما أميرة البلطيق فتعرفت على مغنٍّ إيطالي، وأما الحبشي فاسكا فعاد إلى وطنه.

في الدير، تسمى الكونت ألكسي بولانوف باسم إيبيلوس. وكان يرهق نفسه بالأعمال العظيمة. كان يرتدي السلاسل حقاً، لكن هذا بدا له غير كاف لمعرفة الحياة. فاخترع لنفسه بدلة خاصة للرهبة: قلنسوة مع غطاء واقٍ يغلق الوجه، وعربة تقيّد الحركات. وبمباركة رئيس الدير بدأ يرتدي هذا الزي الرسمي. ولكن حتى هذا بدا له غير كافٍ. فبعد أن استولت عليه الغطرسة والكبرياء، نأى بنفسه إلى ملجأ في الغابة وأخذ يعيش في تابوت من خشب البلوط.

لقد ملأت معجزة الراهب الناسك إيبيلوس الدير بالدهشة. كان يأكل الخبز المجفف وحده، الذي كانوا يجدونه له مرة كل ثلاثة أشهر.

وهكذا مضت عشرون عاماً على هذا النحو. كان إيبيلوس يعتبر حياته حكيمة، صحيحة، وأنها الحياة الحقيقية الوحيدة. وأصبحت الحياة بالنسبة له سهلة بصورة غير عادية، وكانت أفكاره شفافة كالكريستال. لقد أدرك الحياة وفهم أن من المستحيل العيش بطريقة أخرى.

ذات يوم، تفاجأ إنه لم يعثر على الخبز الجاف، في المكان الذي اعتاد أن يجده فيه طيلة عشرين عاماً، ولم يجد أي شيء. ولم يأكل أي شيء طيلة أربعة أيام. في اليوم الخامس جاءه رجل عجوز لا يعرفه، بحذاء من الجبال، وقال له إن البلاشفة طردوا الرهبان وأنشأوا

في مكان الدير سوفخوز(مزرعة حكومية). وبعد أن ترك قليلاً من الخبز الجاف، غادر العجوز وهو يبكي. لم يفهم الراهب الناسك ما قاله العجوز. كان يرقد في التابوت منيراً، هادئاً، مبتهجاً بمعرفة الحياة. وواصل الفلاح العجوز جلب الخبز الجاف له.

وانقضت على هذا النحو سنوات عدة لم يقلقه فيها أحد.

ذات مرة، ما إن فُتح باب الملجأ حتى دخل عدة أشخاص محنيي الرؤوس إلى الملجأ. اقتربوا من التابوت، وأخذوا بصمت يتأملون الراهب العجوز. كانوا أشخاصاً طويلي القامة، يرتدون جزمات بمهاميز، وسراويل الخيالة العريضة، يحملون مسدسات الماوزر في علب خشبية مصقولة. كان العجوز راقداً في التابوت، ممدود الذراعين، ينظر إلى القادمين نظرة متألقة. وكانت لحيته الطويلة والشائبة تغطي نصف التابوت. رنَّ الغرباء بمهاميزهم، وهزوا أكتافهم وانسحبوا، بعد أن أغلقوا الباب من خلفهم بتأنٍ.

مع مرور الوقت، كانت الحياة تنكشف أمام الراهب الناسك بكل امتلائها وعذوبتها. في الليل الذي حل بعد ذلك اليوم، عندما أدرك الراهب الناسك بصورة نهائية، أن كل شيء في معرفته مضيء، استيقظ فجأة. وهذا ما أدهشه. فهو لم يكن يستيقظ أبداً في الليل. وفي تفكيره حول ما أيقظه، استسلم للنوم من جديد، واستيقظ ثانية، شاعراً بوهج شديد في ظهره. وفي سعيه لفهم سبب هذا الوهج، سعى لأن ينام لكنه لم يستطع. وكأن شيئاً ما كان يعيقه. ولم ينم حتى الصباح. وفي الليلة التالية أيقظه من جديد شيء ما. بقي يتقلب حتى الصباح، وكان يحكُّ يديه دون أن يلاحظ ذلك. وفي النهار، وبعد أن وقف قليلاً ألقى بالصدفة نظرة إلى التابوت. عندها فهم كل شيء: كان يركض بسرعة في زوايا سريره المظلم بق الكرز. شعر الراهب الناسك بالقرص.

في هذا اليوم جاءه العجوز مع الخبز الجاف. وهنا نطق الراهب الذي صمت طيلة خمسة وعشرين عاماً. وطلب منه أن يحضر له قليلاً من الكيروسين. تفاجأ الفلاح العجوز بسماعه صوت الصامت الزاهد الكبير. ولكن، ومع خجله وإخفائه للزجاجة، أحضر الكيروسين. وما إن غادر العجوز، دهن الناسك بيد مرتجفة أخايد التابوت وشقوقه. ولأول مرة خلال ثلاثة أيام نام إيبيلوس بهدوء. لم يكن يزعجه أي شيء. ودهن التابوت بالكيروسين في الأيام التالية. لكنه أدرك بعد شهرين، أن من غير الممكن طرد البق بالكيروسين. في الليالي كان يتقلب بسرعة ويصلي بصوت عال، لكن صلواته لم تسعفه وكان أثرها أقل من الكيروسين.

مرت ستة أشهر في عذاب لا يوصف، قبل أن يتوجه الناسك بطلب جديد إلى الرجل العجوز. وقد أذهل الطلب الثاني العجوز أكثر. فقد طلب الناسك أن يحضر له من المدينة مسحوق «آراغاس» ضد البق. لكن «آراغاس» لم يساعده أيضاً. فقد كان البق يتكاثر بسرعة غير عادية. وصحة الناسك الجبارة التي لم تستطع تحطيمها خمسة وعشرين سنة من الصوم، بدأت تسوء بشكل ملحوظ. وبدأت حياة قاتمة يائسة. وأخذ يبدو التابوت للناسك

إبيلوس مقرفاً وغير مريح. وبناء على نصيحة الفلاح العجوز، أحرق البق بشعلة النار. كان البق يموت، لكنه لم يستسلم.

تمت تجربة الوسيلة الأخيرة: منتجات شركة غليك – سائل وردي اللون برائحة الخوخ المسموم واسمه «كلوبين». لكن هذا لم يساعد أيضاً. وازداد الوضع سوءاً. وبعد عامين من بداية صراعه الطويل، أدرك الناسك بالصدفة أنه لم يعد يفكر أبداً بمعنى الحياة، لأنه كان يعمل أياماً بلياليها في تسميم البق.

وعندها أدرك أنه أخطأ. فالحياة هي نفسها، كما كانت قبل خمسة وعشرين عاماً، قائمة وغامضة. ولم يتمكن من الابتعاد عن القلق الدنيوي. واتضح أنه من المستحيل العيش بجسده على الأرض وبروحه في السماء.

عندها نهض الناسك العجوز وخرج بسرعة من الملجأ. ووقف وسط الغابة الخضراء الداكنة. كان الجو خريفاً مبكراً، جافاً. وعند الملجأ نفسه ظهرت من باطن الأرض عائلة كاملة من الفطر الأبيض السمين. وكان طائر مجهول يجلس على غصن شجرة ويغرد منفرداً. وسمع ضجيج القطارات العابرة. وذهب الناسك العجوز إلى الأمام، دون النظر إلى الخلف.

وهو الآن يعمل حوزياً في مركز خيول تابع لمرافق مدينة موسكو.

\* \* \*

بعد أن روى لهيبوليت ماتفييفتش هذه القصة البليغة الإرشادية، نظف أستاب بكم سترته حذاءه القرمزي، وعزف مقطوعة موسيقية بشفتيه وانصرف. وبحلول الصباح اقتحم غرفة الفندق، وخلع حذاءه، ووضع حذاءه القرمزي الجميل في الخزانة الصغيرة، وأخذ يمسد بيده جلدته اللامعة، مردداً بلطف وحب: – يا صديقي الصغير.

– أين كنت – سأله هيبوليت ماتفييفتش وهو نائم.

– عند الأرملة – أجاب أستاب بصوت خافت.

– وماذا ستعمل؟

اتكأ هيبوليت ماتفييفتش على مرفقه:

– وستتزوجها؟

لمعت عينا أستاب وقال:

– الآن، باعتباري رجلاً شريفاً، عليّ أن أتزوجها.

شخر هيبوليت ماتفييفتش بارتباك.

– المرأة الحامية حلم الشاعر – قال أستاذ – الشفافية الريفية. لم يعد لها وجود منذ زمن طويل في وسط هذه المناطق شبه الاستوائية، لكنها لا تزال تتواجد في الأرياف والأطراف.

– ومتى العرس؟

– بعد غد. غداً مستحيل: الأول من أيار(مايو) – جميع المحلات مغلقة.

– وكيف سيكون الأمر بالنسبة لقضيتنا؟ أنت ستتزوج... وقد نضطر للسفر إلى موسكو.

– حسناً، وماذا بك تقلق؟ الاجتماع يستمر.

– وزوجتك؟

– زوجتي؟ الأرملة الماسية؟ هذا هو السؤال الأخير! سفر مفاجئ بطلب من العاصمة. تقرير صغير في المجلس المصغر لمفوضي الشعب. مشهد الوداع، وفروج للطريق. سنسافر مع توفر وسائل الراحة والرفاهية. نم. غداً عندنا يوم إجازة.

## الفصل الرابع عشر تنفّس بعمق – أنت متحمّس!

في صباح الأول من أيار/مايو، قفز فيكتور ميخائيلوفيتش بوليسوف، يدفعه تعطشه المعتاد على النشاط، إلى الشارع واندفع إلى مركز المدينة. في البداية لم تجد مواهبه المتنوعة مجالاً لاستخدامها بشكل لائق، لأن عدد الناس كان لا يزال قليلاً ومنصات الاحتفال التي تحرسها الشرطة الخيالة كانت فارغة. ولكن بحلول الساعة التاسعة، بدأت الفرق الموسيقية تقرر، وتغني، وتعزف في مختلف أنحاء المدينة. وتراكضت ربات المنازل من البوابات.

اندس موكب العاملين الموسيقيين بياقاتهم الطرية المقلوبة، على نحو ما، في موكب عمال السكك الحديدية، فسبب الضيق والإزعاج للجميع.

وكانت الشاحنة التي تمت تغطيتها بقاطرة بخارية خضراء من الخشب من نوع «ش» تصطدم باستمرار من الخلف بالعاملين الموسيقيين. وخلال ذلك كانت تتوالى الصرخات على عازفي المزمارة والفلوت من بطن القاطرة:

– أين مسؤولكم؟ وهل طريقكم في شارع كراسنارميسكايا (الجيش الأحمر)؟! ألا ترون، اندسستم وشكلتم اختناقاً مرورياً!

وهنا، ولمصيبة العاملين الموسيقيين، تدخل في القضية فيكتور ميخائيلوفيتش.

– بالطبع، أنتم هنا، إلى طريق مسدود، عليكم أن تنعطفوا! – صاح بوليسوف بأعلى صوته – حتى العيد والاحتفال لا يمكنهم تنظيمه. إلى هنا! إلى هنا! شناعة مذهلة!

كانت شاحنات مؤسسة ستارغورود للخدمات العامة ومؤسسة البناء ميلستروي تنقلان الأطفال. كان الأطفال الأصغر سناً يقفون على أطراف الشاحنة، والأطول في المنتصف. كان المحاربون الصغار يلوحون بالأعلام الورقية ويمرحون كثيراً.

كانت طبول الطلائعيين تقرر. وكان الفتیان ما قبل سن التجنيد يقوسون صدورهم ويحاولون مواكبة الركب. كان الجو مزدحماً، ساخباً، حاراً. وكان كل دقيقة يتشكل انسداد وازدحام ويتم استيعابهما كل دقيقة. ومن أجل تقليص الوقت في الزحام، كانوا يقذفون الشيوخ والنشطاء على أيديهم إلى الأعلى. فكان الشيوخ ينوحون بأصوات كأصوات النساء. أما النشطاء فكانوا يطيطون صامتين، بوجوه جادة. وفي أحد المواقب المرحّة اعتبروا فيكتور ميخائيلوفيتش الذي كان يشق طريقه في الجانب الآخر، مشرفاً وأخذوا يقذفونه إلى الأعلى. فكان بوليسوف يسحب رجله كالمهرج.

وحملوا فزاعة بصورة الوزير الانكليزي تشامبرلان الذي كان يضربه عامل ذو عضلات بارزة منتفخة بمطرقة أسطوانية من الكرتون. واجتاز الموكب على ظهر سيارة ثلاثة من منظمة الشبيبة (الكومسومول) يرتدون المعاطف والكفوف البيضاء. كانوا ينظرون بارتباك إلى الحشد.

– فاسكا! – صاحوا من الرصيف – برجوازي! اعطني حمالة السروال (الشيال).

وكانت الفتيات تغنين. وفي حشد العاملين في التأمين الاجتماعي كان يسير آخين، وهو «ينوي» مستغرقاً في التفكير، وقد عقد شريطة حمراء كبيرة على صدره:

### من غابات التايغا إلى البحار البريطانية

#### الجيش الأحمر هو الأقوى على الإطلاق...

وكان الرياضيون يصيحون، بأمر، بشكل منفصل، بشيء غير واضح.

ذهب كل شيء، ومشى وسار نحو مرآب الترام الجديد، الذي يجب أن ينطلق منه في الساعة الواحدة نهاراً بالضبط أول قاطرة من الترام الكهربائي في ستارغورود.

لا أحد يعرف متى بدأوا بالضبط ببناء خط الترام في ستارغورود.

في حوالي العام العشرين، عندما بدأت أيام العمل الطوعية في أيام السبت، انطلق عمال المرآب وعمال التمديدات السلكية مع الموسيقى إلى منطقة غوسيشي، وطيلة اليوم كانوا يحفرون حفراً.

وقد حفروا كثيراً من الحفر العميقة والكبيرة.

وكان يركض بين العمال رفيق في قبعة المهندسين. ويتبعه رؤساء الفرق العمالية بأعمدة متعددة الألوان. وفي يوم السبت التالي كانوا يعملون في الموقع نفسه. وقد اضطروا إلى ردم الحفرتين المحفورتين في المكان الخطأ. وتهجم الرفيق المهندس على رؤساء الفرق العمالية وطالبهم بتفسير سبب ذلك. وقد حفروا حفرتين جديدتين أعمق وأعرض.

ثم جلبوا الطوب، وظهر عمال البناء الحقيقيون. وبدأوا بوضع الأساس. ثم هدأ كل شيء. كان الرفيق المهندس يحضر أحياناً إلى منشأة البناء الفارغة ويسير طويلاً في الحفرة المبطنة بالطوب، وهو يتمتم:

– التمويل الذاتي.

ربت على الأساس بعصا وركض إلى بيته، في المدينة، مغطياً بكفيه أذنيه المتجمدتين.

كانت كنية المهندس تريوخوف.

إن محطة الترام، التي تجمدت عند مرحلة الأساس، كان قد صممها تريوخوف منذ فترة طويلة

، منذ عام 1912، لكن إدارة المدينة رفضت هذا المشروع. بعد عامين، استأنف تريوخوف هجومه على إدارة المدينة، لكن الحرب أعاقته ذلك. وبعد الحرب، أعاقته الثورة المشروع. والآن أعاق المشروع سياسة «النيب» (السياسة الاقتصادية الجديدة) والتمويل الذاتي، والاكتفاء الذاتي. كانت تنمو الأزهار على الأساس صيفاً، وجعل منه الأطفال منزلقات جليدية شتاءً.

كان يحلم تريوخوف بعمل كبير. كان يشعر بالملل من العمل في قسم تطوير المرافق العامة في بلدية ستارغورود، وتصليح جوانب الأرصفة ووضع التقديرات لتركيب اللوحات الإعلانية. ولم يكن هناك عمل كبير. أما مشروع الترام، الذي طُرح على بساط البحث من جديد، فقد تعثر في أعلى سلطات المقاطعة، وتمت الموافقة عليه، ورُفض، ثم تم تحويله للتصديق من العاصمة، ولكن بصرف النظر عن الموافقة أو الرفض، بقي يعلوه الغبار، لأنه لم تكن تُخصص له الأموال اللازمة في الحاليتين.

– هذه بربرية! – صرخ تريوخوف مخاطباً زوجته – لا يوجد أموال؟ ولكن هناك أموال للدفع زيادة عن الأجور لعمال النقل وعلى توصيل البضائع إلى المحطة بحيوانات الجر؟ إن سائقي عربات ستارغورود يبلصون الأموال من الأحياء والأموال! بالطبع، إنه احتكار اللصوص! حاول أن تمشي مع حوائجك مسافة خمسة كيلومترات إلى المحطة!... إن الترام سيغطي كافة مصاريفه خلال ست سنوات!

كان شارباه الذابلان يتدليان. ووجهه بأنفه الأفطس يترجرج. أخرج من درج الطاولة الرسوم المطبوعة على أوراق زرقاء، وعرضها بغضب على زوجته للمرة الألف. كانت هنا مخططات المحطة، والمرآب، واثنى عشر خطأ من خطوط الترام.

– فلتذهب إلى الجحيم، الخطوط الاثنا عشرة. لكن ثلاثة، ثلاثة خطوط! بدونها ستختنق ستارغورود.

شخر تريوخوف ساخطاً وذهب إلى المطبخ ليقطع الحطب. كان يقوم هو نفسه بجميع الأعمال المنزلية. فقد صمم وبنى بنفسه سريراً للطفل وغسالة. وفي الفترة الأولى كان يغسل الغسيل بنفسه، شارحاً لزوجته كيفية التعامل مع الغسالة. كان ما لا يقل عن خمس راتبه يصرفه على الاشتراك في الكتب والمجلات الأجنبية.

ومن أجل تغطية نفقاته توقف عن التدخين.

أخذ مشروعه إلى مدير بلدية ستارغورود الجديد غافريلين، الذي نقلوه إلى ستارغورود من سمرقند. استمع المدير الجديد، المُسمَّر بشمس تركستان، طويلاً إلى تريوخوف، ولكن من دون اهتمام خاص، وراجع جميع المخططات، دون تركيز، وقال في النهاية:

– أما في سمرقند، فليست هناك حاجة للترام. الجميع هناك يركبون على البغال. البغل سعره ثلاثة روبلات – سعر رخيص. ويحمل عشرة بود (البود الواحد = 16 كغ)!... بغل صغير، إنه مذهل!

– تلك هي آسيا – قال تريوخوف غاضباً – البغل سعره ثلاثة روبلات، لكن علفه في العام يكلف ثلاثين روبلاً.

– وعلى عربة الترام التي تقترحها كم مرة ستركب بثلاثين روبلاً؟ ثلاثمئة مرة. حتى أنه أقل من مرة كل يوم.

– حسناً، اشتر لنفسك بغالك! – صرخ تريوخوف وأسرع خارجاً من المكتب، صافقاً الباب خلفه.

منذ ذلك الحين، اعتاد المدير الجديد، عند لقائه تريوخوف، أن يطرح عليه أسئلة ساخرة:

– ماذا سنعمل، سنشتري البغال أم سنبنّي الترام؟

كان وجه المدير غافريلين شبيهاً بحبة لفت ملساء. لكن عينيه ماكرتان.

بعد شهرين، استدعى غافريلين إلى مكتبه المهندس وقال له جاداً:

– لدي هنا خطة. ثمة أمر واضح بالنسبة لي، وهو أنه لا وجود للمال، والترام وليس البغل – لا يمكن شراؤه بثلاثة روبلات. هنا لا بد من تجهيز القاعدة المادية. فما هو الحل العملي؟ شركة مساهمة! وأي شركة؟ بالقروض! وبالفائدة. بعد كم سنة يجب أن تغطي الترام تكاليفها؟

– بعد ست سنوات، من يوم بدء استثمار ثلاثة خطوط المرحلة الأولى.

– حسناً، ولنحسب بعد عشر سنوات. الآن – الشركة المساهمة. من سيدخل فيها؟ شركة الصناعات الغذائية، مركز الزيوت. الترام بحاجة إلى التمديدات السلكية؟ بحاجة! سوف نرسل عربات الشحن إلى المحطة. إذن، معمل التمديدات! ربما تقدم مفوضية الشعب للمواصلات الكثير. اللجنة التنفيذية للمقاطعة في مجلس نواب العمال ستعطي. وهذا



ضروري. وبمجرد أن نبداً سيقدم المصرف الحكومي والمصرف التجاري القروض. هذه هي خطتي. في يوم الجمعة سيدور الحديث حول هذا الموضوع في رئاسة اللجنة التنفيذية. وإذا ما قررنا - فالمحطة تصبح مسؤوليتك.

كان تريوخوف حتى وقت متأخر من الليل، يغسل الغسيل ويشرح لزوجته مزايا النقل بالترام على النقل بالعربات التي تجرها الخيول.

في يوم الجمعة تقرر الخطة بشكل إيجابي. وبدأت الآلام. لم تتشكل الشركة المساهمة إلا بعد جهد جهيد. مفوضية الشعب للمواصلات انضمت تارة ولم تنضم تارة أخرى إلى عداد المساهمين. شركة الصناعات الغذائية حاولت بمختلف السبل الاشتراك بـ 10 بدل 15% من الأسهم. وأخيراً تم توزيع كتلة الأسهم كلها، دون أن يخلو ذلك من الصدام. وقد استُدعي غافريلين بسبب ضغطه إلى لجنة أمن الدولة في المقاطعة. ومع ذلك سار كل شيء على ما يرام. بقي أن يبدؤوا العمل.

حسناً، أيها الرفيق تريوخوف - قال غافريلين - ابدأ. أتشعر بأنك تستطيع البناء؟ هذا بناء وليس شراء بغل.

غرق تريوخوف في العمل. حان وقت العمل الكبير الذي حلم به سنوات طويلة. كُتبت التقارير، تم وضع خطة البناء، تم إنجاز الطلبات والتوصيات. كانت تنشأ الصعوبات في المواضيع الأقل توقعاً. تبين أنه لا يوجد في المدينة متخصصون في الخرسانة، واضطروا إلى جلبهم من لينينغراد. كان غافريلين يحثهم، لكن المصانع وعدت بتقديم سيارات الخرسانة بعد عام ونصف. بينما كانوا بحاجة ماسة إليها، بعد عام على أبعد تقدير. ولم يؤثر عليهم إلا التهديد بجلب سيارات من الخارج. ثم ظهرت مشكلات أصغر. فمرة، كان من غير الممكن الحصول على الحديد المطلوب بالمقاييس الضرورية، ومرة أخرى كانوا يعرضون عوارض غير مشرّبة بدلا من العوارض المشرّبة. وأخيراً أعطوا العوارض المطلوبة، لكن تريوخوف الذي ذهب بنفسه إلى معمل تشريب العوارض ورفض استلام 60% من العوارض. كانت هناك أصداف في أجزاء الحديد الزهر. كانت العوارض الخشبية رطبة. والقضبان كانت جيدة، لكنها تأخرت لمدة شهر. كان غافريلين يزور كثيراً في سيارته «فيات» القديمة مكان بناء المحطة. وهنا كانت تندلع المشاجرات بينه وبين تريوخوف.

كما حلّت الأزمة المالية. واقتطع المصرف الحكومي 40% من القرض. لم يكن هناك شيء يمكن البناء عليه. وأصبح الوضع على نحو بحيث أنه بعد أسبوعين لن يعطوا النقود، وليس هناك ما يمكن دفعه للحوالات المالية. في الفترة الأخيرة كان تريوخوف يمضي الليل في مكتب البناء. وكان يتواصل مع منزله بالهاتف، ولا يأتي إليه إلا في يومي السبت والأحد. في أمسية الأزمة المالية جاء غافريلين بسيارته «فيات» المتهالكة إلى مكتب البناء وأخذ يصرخ:

– لنذهب، أيها المهندس، إلى المركز لتنسيق المسألة، وإلا فإن المصرف لن يقدم لنا أي شيء.

بالكاد تمكن تريوخوف من الاتصال بالمنزل. واستحث غافريلين للركوب بالقطار السريع. مكثا في موسكو خمسة أيام. وتمت هزيمة المركز. وتمت استعادة القرض بحجمه السابق. بينما كانوا يبنون ويركبون محطة الترام ومرآبها، كان سكان ستارغورود يطلقون النكات. حتى أن المونولوجيست فيديا كليتشاتي تجرأ على السخرية في مطعم «فينيكس» من منشأة بناء الترام في مقطعه الغنائي:

جاء الخطّابون ليخطبوني،

وطلبوا مهراً،

ووعدهم أبي

بترام أصهب...

ولكن عندما بدأوا بمد القضبان الحديدية وتعليق الأسلاك لتدوير صواري الترام، اضطر حتى هذا المتشائم فيديا كليتشاتي إلى تبديل جبهته، وأخذ يغني بطريقة أخرى:

حصاني الكهربائي

أفضل من الفرس.

سأركب الترام،

ومعي حبيبتي...

في صحيفة «البرافدا» المحلية في ستارغورود تولى الأمير الدانماركي، كاتب المقالات الساخرة المشهور، الذي يكتب الآن باسم «ماخوفيك(الدولاب)» المستعار، مسألة الترام. كان «ماخوفيك» يكتب ثلاث مرات في الأسبوع على الأقل مقالاً يومياً كبيراً عن سير البناء. والصفحة الثالثة من الصحيفة، الممتلئة بزوايا بعناوين متشائمة: «لا تفوح منه رائحة النادي»، «حسب نقاط الضعف»، «التفتيش مطلوب، ولكن ما علاقة البريق والذبول الطويلة»، «جيد و... سيء»، «ما يسعدنا، وما لا يسرنا»، «فلنشد آذان مخربي التنوير»، «حان وقت وضع حد لبحور الأوراق والبيروقراطية» – بدأت تمنح القراء عناوين مشرقة

ونشيطة لزوايا «ماخوفيك» ومقالاته: «كيف نبني، كيف نعيش»، «العلاق سيبدأ العمل قريباً»، «البناء المتواضع» وغيرها، وما شابه ذلك.

كان تريوخوف يقلّب الصحيفة بقشعريرة، ولشعوره بالاشمئزاز من الإخوة الكتّاب، كان يقرأ عن مشروعه أسطراً مفعمة بالحيوية.

«... أتسلق العوارض الخشبية. تضج الرياح في أذني. وفي الأعلى – أجده هو، البناء البسيط المتواضع لمحطة الترام الكبيرة عندنا، هذا الرجل النحيف من حيث المظهر، الأفطس الأنف، بقبعته الرثة ومطارقه.

أتذكر: «على ضفة أمواج الصحراء، كان يقف، ممتلئاً بالأفكار الكبيرة».

أقترب. لا وجود لأي ريح. العوارض الخشبية لا تتحرك.

أسأله:

– كيف يتم تنفيذ المهام؟

يشرق وجه البناء الدميم، المهندس تريوخوف...

يصافح يدي. ويقول:

– تم إنجاز سبعين بالمائة من البناء...

ويختتم المقال على النحو التالي:

«يصافحني عند الوداع... ومن خلفي تطنّ العوارض الخشبية.

يندفع العمال هنا وهناك.

من يمكنه أن ينسى غليان ورشة البناء، وهذه الهيئة التي لا تثير الإعجاب للبناء المهندس؟

ماخوفيك»

كان ينقذ تريوخوف فقط أنه لم يكن لديه وقت دوماً لقراءة الصحيفة وأحياناً كان لا يقرأ مقالات الرفيق ماخوفيك.

ذات مرة، لم يستطع تريوخوف المقاومة، وكتب تفنيدياً لاذعاً مدعماً بالبراهين ومكتوباً بعناية. وكتب في رده:

«بالطبع، يمكن تسمية البراغي الملولة علبة نقل الحركة، لكن هذا يفعله أشخاص لا يدركون شيئاً في أعمال البناء. كما أود أن ألفت نظر الرفيق ماخوفيك إلى أن العوارض الخشبية تظن عندما يكون المبنى على وشك الانهيار. ومثل هذا الحديث عن العوارض الخشبية مثل من يؤكد أن الفيولونسيل يلد أطفالاً. خذ في اعتبارك هذا، وما شابه ذلك».

بعد هذا لم يعد الأمير القلق يظهر في ورشة البناء، لكن المقالات والزوايا اليومية بقيت تزين الصفحة الثالثة، كما في السابق، بارزة بصورة حادة على خلفية الزوايا والمقالات العادية: «15000 روبل مصيرها الصدا»، «الكتل السكنية»، «مواد البناء تبكي»، «عجائب ودموع».

اقتربت أعمال البناء من الانتهاء. كانوا يلحمون القضبان بلحام الترميت، وكانوا يمدونها دون ترك فجوات من المحطة نفسها إلى المسالخ ومن أسواق الاستيراد إلى المقبرة.

كان من المفترض في البداية أن يتم افتتاح الترام في الذكرى التاسعة لثورة أكتوبر، لكن معمل بناء عربات الترام، بسبب التجهيزات، لم يسلم العربات في الموعد المحدد. واضطروا إلى تأجيل الافتتاح حتى الأول من أيار/مايو. وبحلول هذا اليوم كان كل شيء جاهزاً بالتأكيد.

وصل صاحب الامتياز المتنزهان مع المشاركين في المسيرة إلى غوسيشي. وهناك اجتمعت مدينة ستارغورود كلها. تمت إحاطة مبنى المستودع الجديد بأقواس من خشب الصنوبر، وكانت الأعلام ترفرف، والريح تصفق بين الشعارات. هجم شرطي خيال بفرسه على أول بائع بوطة، لا يعلم إلا الله كيف دخل ضمن الدائرة المحاطة بعربات الترام. وبين بوابتي المستودع وضعت منصة سائلة لا تزال فارغة مع ميكروفون - ومكبر صوت. كان المندوبون يقتربون من المنصة. وكانت الأوركسترا الموحدة لعمال المرافق العامة والترام ينفخون بآلاتهم الموسيقية. كان الطبل مسطحاً على الأرض.

في الصالة المضاءة للمرآب، الذي وقفت فيه عشر عربات ترام خضراء فاتحة اللون، تحمل الأرقام من 701 إلى 710، كان يتجول مراسل صحفي موسكوفي بقبعة مكسوة بالشعر. وقد علقت على صدره مرآة صغيرة كان ينظر إليها في أحيان كثيرة بقلق. كان المراسل يبحث عن كبير المهندسين، كي يطرح عليه بضعة أسئلة حول موضوع الترام. ورغم أنه كان لديه في رأسه نبذة جاهزة عن افتتاح الترام مع مضمون ملخص الخطب التي لم تلقى بعد، لكن المراسل تابع بحثه بضمير حي، رغم عثوره على عيب وحيد وهو عدم وجود بوفيه. كان الحشد يغني، ويصرخ، ويقشر البذور، منتظراً انطلاق الترام.

صعدت إلى المنصة هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية للمدينة. وكان الأمير الدانماركي المتلثم يتبادل العبارات مع زميله في المهنة. كانا ينتظران قدوم رجال السينما الإخبارية من موسكو.

– أيها الرفاق – قال غافريلين – اسمحوا لي بالإعلان عن بدء الاحتفال الجماهيري بمناسبة افتتاح ترام ستارغورود.

تحركت الأبواق النحاسية، وتنهدت ثم عزفت ثلاث مرات نشيد «الأممية».

– الكلمة الآن لتقرير الرفيق غافريلين – صاح غافريلين.

كتب الأمير الدانماركي – ماخوفيك (الدولاب) والضيف الموسكوفي، دون أي تواطؤ مسبق، في مذكرتيهما:

«افتتح الاجتماع الاحتفالي بتقرير رئيس بلدية ستارغورود الرفيق غافريلين. تحول الحشد إلى أذان صاغية».

كان المراسلان شخصين مختلفين تماماً. الضيف الموسكوفي كان عازباً وشاباً. أما الأمير – ماخوفيك، المرهق بعائلة كبيرة، فقد تجاوز منذ مدة طويلة العقد الرابع من عمره. الأول كان يعيش دوماً في موسكو، والثاني لم يكن في موسكو أبداً. الموسكوفي كان يحب البيرة، أما ماخوفيك الدانماركي فلم يدخل إلى فمه شيئاً من المشروبات سوى الفودكا. ولكن وعلى الرغم من هذا الاختلاف في الطباع، والعمر، والعادات، والتربية، انصبت انطباعات الصحفيين في الجمل البالية المستعملة، المغبرة ذاتها. فقد كتبوا بقلميهما الرصاصين وظهرت في مذكرتيهما مدونة جديدة: «في يوم الاحتفال بدت شوارع ستارغورود وكأنها أكثر اتساعاً...»

بدأ غافريلين خطبته بشكل جيد وبسيط. فقال:

– إن بناء الترام ليس مثل شراء البغل.

سُمعت وسط الحشد فجأة ضحكة أستاذ بندر العالية. فقد قدر هذه العبارة. تشجع غافريلين من هذه الطريقة، ودون أن يدري نفسه السبب، انتقل فجأة إلى الوضع الدولي. حاول عدة مرات أن يكيّف خطبته على سكة الترام، لكنه كان يلاحظ برعب أنه غير قادر على ذلك. فكلما ته ذاتها، ضد إرادة الخطيب، كانت تظهر كلمات دولية. وبعد تشامبرلان، الذي خصص له غافريلين نصف ساعة، ظهر على الساحة الدولية السيناتور الأمريكي بورا.

تراخى الحشد وبدأ يعرج. كتب المراسلان الصحفيان على الفور: «رسم الخطيب في تعابير تصويرية الوضع الدولي لاتحادنا...». وتحدث غافريلين المتحمس بشكل سيء عن البويار(الاقطاعيين) الرومان، وانتقل إلى موسولينى. فقط بحلول نهاية الخطبة، قاوم طبيعته الدولية الثانية ونطق بكلمات جيدة حول العمل:

– وأعتقد، أيها الرفاق، أن هذا الترام الذي سيخرج الآن من المرآب، بفضل من أنجز؟ بالطبع، أيها الرفاق، بفضلكم أنتم، بفضل جميع العمال الذين عملوا لا بدافع الخوف، يا رفاق، بل بدافع الضمير. وكذلك، أيها الرفاق، بفضل الاختصاصي السوفييتي الشريف، كبير المهندسين تريوخوف. له شكرنا أيضاً...

بدأوا البحث عن تريوخوف، ولم يعثروا عليه. شق ممثل مركز الزيوت، الذي كان يتحرق شوقاً للحديث، طريقه إلى درابزين المنصة، ولوح بيده، وتحدث بصوت عالٍ عن الوضع الدولي. وبانتهاء خطابه، استمع المراسلان إلى التصفیقات القليلة الفاترة، وكتبنا بسرعة: «تصفیق صاحب يتحول إلى عاصفة من التصفیق...» ثم فكروا بأن عبارة «يتحول إلى عاصفة...» ستكون ربما أكثر من اللازم. فقرر الموسكوفي شطب كلمة العاصفة. أما ماخوفيك فتنهد وتركها.

كانت الشمس تنحدر بسرعة على المستوى المائل. أطلقت التحيات وعبارات الترحيب من المنصة. عزفت الأوركسترا سلاماً موسيقياً لمدة دقيقة. تحول ضوء النهار إلى اللون الأزرق الفاتح بحلول المساء، ولا يزال الاحتفال مستمراً. وشعر المتكلمون والمستمعون على حد سواء، منذ زمن، بحدوث خطأ ما، فقد استمر الاحتفال طويلاً، وأصبح من الضروري أن ينطلق الترام بأسرع وقت. لكن الجميع اعتادوا هكذا الكلام بحيث لم يتمكنوا من التوقف.

أخيراً تم العصور على تريوخوف. كان متسخ الوجه واليدين، وقبل أن يصعد إلى المنصة، غسل طويلاً وجهه ويديه.

– الكلمة الآن لكبير المهندسين، الرفیق تريوخوف، – أعلن غافريلين بفرح، وأضاف بصوت خافت – تحدث أنت الآن، فما قلته ليس أبداً ما هو مطلوب.

أراد تريوخوف أن يقول الكثير. عن أيام السبت الطوعية، وعن العمل الجاد، الصعب، وعن كل ما أنجز وما كان من الممكن إنجازه أكثر. وكان من الممكن فعل الكثير: كان من الممكن تخليص المدينة من السوق المستوردة الموبوءة، تشييد أبنية زجاجية مسقوفة، وكان من الممكن بناء جسر دائم بدلاً من الجسر المؤقت الذي يجرفه الجليد سنوياً، ويمكن أخيراً، بناء مشروع مسلخ كبير للحوم.

فتح تريوخوف فمه وقال متلعثماً:

– أيها الرفاق، إن الموقف الدولي لدولتنا...

ثم نطق بتلك الحقائق البديهية الشائعة، بحيث أن الحشد الذي استمع إلى ست خطب عن الموقف الدولي، شعر بالفتور. وما إن انتهى، أدرك تريوخوف أنه لم يقل كلمة واحدة عن الترام. وفكر في نفسه قائلاً: «مؤسف حقاً، أننا لا نعرف إطلاقاً كيف نتحدث، إطلاقاً».

وتذكر خطاب الشيوعي الفرنسي الذي ألقى إليه في اجتماع بموسكو. كان الفرنسي يتحدث عن الصحافة البرجوازية. كان يقول متعجباً: «بهلوانات القلم هؤلاء، مبدعو المهازل، أبناء آوى آلات الطباعة...» كان الفرنسي ينطق الجزء الأول من الخطاب في طبقة صوت «لا»، والجزء الثاني في طبقة «دو»، والجزء الأخير، الحماسي في طبقة «مي». وكانت إيماءاته وحركاته معتدلة وجميلة.

وقرر تريوخوف في نفسه: «أما نحن، فنذيب الثمالة العكرة فقط، والأفضل أن لا نتحدث أبداً».

وكان الجو قد أصبح مظلماً حقاً، عندما قص رئيس اللجنة التنفيذية للمقاطعة الشريط الحريري الأحمر، إيذاناً بخروج الترام من المرآب. وبدأ العمال وممثلو المنظمات الاجتماعية يجلسون بصخب في عربات الترام. قُرعت أجراس ناعمة، وخرجت عربة الترام الأولى التي كان يقودها تريوخوف نفسه، من المرآب، وسط صرخات الحشد القوية وعزف الأوركسترا. وبدأت العربات المضاءة أكثر إبهاراً مما هي في النهار. وكلها كانت تسير بقيادة العربة الأولى على طول غوسيشي، وبعد مرورها تحت جسر السكة الحديدية، صعدت بسهولة إلى المدينة، وانعطفت إلى شارع بوشكين الكبير. كانت الأوركسترا تجلس في العربة الثانية، وتخرج آلاتها من النوافذ وتعزف مارش القائد بوديوني.

كان غافريلين، وقد ارتدى سترة الجابي وعلق حقيبته فوق كتفه، يتسم برفق، وهو يقفز من عربة لأخرى، ويصدر أصواتاً بلا مناسبة، ويوزع على الركاب بطاقات الدعوة لـ:

الأول من أيار/مايو في الساعة 9 مساءً

## أمسية احتفالية

على المدعو الحضور إلى نادي المرافق العامة

بحسب البرنامج التالي:

1. كلمة الرفيق موسين.

2.2. تسليم الشهادات من قبل اتحاد عمال المرافق العامة.

3. الجزء غير الرسمي.

4. حفلة موسيقية كبيرة وعشاء عائلي مع البوفيه.

على أرضية العربة الأخيرة كان يقف فيكتور ميخائيلوفيتش، دون أن يُعرف كيف ظهر وسط ضيوف الشرف. أخذ يشم المحرك. ولدهشة بوليسوف الكبيرة، كان المحرك يبدو رائعاً ويعمل، كما يبدو، بشكل صحيح. الزجاج لم يكن يصدر أي خشخشة. وبعد فحصه بالتفصيل، اقتنع فيكتور ميخائيلوفيتش بأنها تستند إلى أطر مطاطية. وكان قد أبدى بضعة ملاحظات لسائق العربة، وأخذ ينظر إليه الجمهور على أنه خبير بأعمال الترام في الغرب.

قال بوليسوف، وهو يلقي نظرة الفوز إلى الركاب:

– الفرامل الهوائية لا تعمل بشكل جيد. لا تمتص.

– لم يسألك أحد – قال سائق العربة – ربما ستمتص.

بعد أن قامت بجولة احتفالية في المدينة، عادت عربات الترام إلى المرآب، حيث كان ينتظرها الحشد. وقد قذفوا بتريخوف إلى الهواء مع التألق الكامل للمصابيح الكهربائية. كما قذفوا بغافريلين إلى الهواء، ولكن بما أن وزنه كان ثقيلًا، ولم يحلق عاليًا، سرعان ما تركوه. كما قذفوا إلى الهواء الرفيق موسين، والفنيين والعمال. وقذفوا للمرة الثانية فيكتور ميخائيلوفيتش. ولكن الآن لم يعد يسحب قدميه، بل كان يصعد ويحلق، ناظرًا بصرامة وجدية إلى السماء المرصعة بالنجوم. وبعد أن خطط في المرة الأخيرة، لاحظ بوليسوف أن من يمسك برجله ويضحك ضحكة خبيثة لم يكن أحداً آخر سوى المشير السابق هيبوليت ماتفييفتش فورويانينوف. تحرر بوليسوف باحترام من الأيدي، وابتعد قليلاً إلى الطرف، لكنه لم يدع المشير بعيداً عن أنظاره. وعندما لاحظ أن هيبوليت ماتفييفتش يبتعد مع شاب غريب، يبدو واضحاً أنه ضابط سابق، تابعهما فيكتور ميخائيلوفيتش بحذر.

عندما انتهى كل شيء وكان غافريلين ينتظر في سيارته الـ «فيات» البنفسجية تريخوف الذي أعطى أوامره الأخيرة، لكي يذهب معه إلى النادي، اقتربت من بوابة المرآب سيارة بيك أب من نوع فورد حاملة مصوري نشرة الأخبار السينمائية.

أول من قفز بمهارة من السيارة كان رجلاً يرتدي نظارات لها اثني عشر زاوية وصدرية جلدية أنيقة من دون أكمام. وكانت لحيته طويلة حادة وكأنها تنمو من تفاحة آدم. أما



الرجل الثاني فكان يحمل كاميرا سينمائية، مشتبكاً بوشاح طويل من الموديل نفسه الذي كان يسميه أستاذ بندر «شيك – مودرن». ثم نزل من السيارة المساعدون والكشافون والفتيات.

هرعت المجموعة بأكملها إلى المرآب بصرخاتها.

– انتباه! – صاح لابس الصدرية الملتحي – كوليا! ضع الكشاف في المكان المناسب!

تورّد لون تريوخوف واتجه نحو الزوّار الليليين. وسألهم:

– هل أنتم من السينما؟ لماذا لم تأتوا خلال النهار؟

– وما هو موعد افتتاح الترام.

– الترام تم افتتاحه.

– نعم، نعم، لقد تأخرنا قليلاً. التقينا صدفة بشخصية لطيفة. أعمال كثيرة. غروب الشمس! مع ذلك سوف ننجح. كوليا! اعطني الضوء! العجلة الدوارة! مقاس كبير! لودا! عزيزتي! امشي! كوليا! بدأنا! بدأنا. تعال، تعال، تعال... يكفي. شكراً. سوف نصوّر البناء الآن. الرفيق تريوخوف! من فضلك، الرفيق تريوخوف. لا، ليس هكذا. في ثلاثة أرباع... هكذا، بشكل أكثر أصالة وجمالاً، على خلفية الترام... كوليا! بدأنا! قل شيئاً ما!...

– حسناً، حقاً، لا أشعر بالارتياح هكذا!...

– رائع!.. جيد!.. تحدث أيضاً!.. والآن تحدث مع الراكبة الأولى في الترام... لودا! ادخلي في الإطار. هكذا. تنفّس بعمق: أنت متحمس!.. كوليا! صوّر القدمين بمقاس كبير!.. بدأنا!.. هكذا، هكذا... شكراً جزيلاً... ستوب(قف)!..

نزل غافريلين من سيارة «فيات» التي تهدر بصعوبة منذ مدة لينادي صديقه الذي تأخر. فأشرق وجه المخرج ذو اللحية النابتة من تفاحة آدم.

– كوليا! إلى هنا! نموذج رائع. عامل! راكب الترام! تنفّس بعمق أكبر. أنت متشوق. أنت لم تركب سابقاً أبداً بالترام. بدأنا! تنفّس!

تنفّس غافريلين مخرخراً بكراهية.

– عظيم!... عزيزتي!... تعالي إلى هنا! تحية من الكومسومول!... تنفّسي بعمق. أنت متحمسة... هكذا... روعة. كوليا. انتهينا.

– ألن تصور الترام. – سأل تريوخوف بخجل.

– أترى – تتمم المخرج ذو الصدرية الجلدية – ظروف الإنارة لا تسمح. سنضطر إلى تكلمة التصوير في موسكو. أقبلك!

واختفى التصوير السينمائي الإخباري بسرعة البرق.

– حسناً، دعنا نذهب أيها الصديق لرتاح. – قال غافريلين – هل دُخنت سيجارة؟

– دُخنت – اعترف تريوخوف – لم أستطع المقاومة.

في الأمسية العائلية، شرب تريوخوف المدخن، الجائع ثلاثة أقداح من الفودكا، وثمل تماماً. قَبْلَ الجميع، وقَبْلَ الجميع. أراد أن يقول كلاماً لطيفاً لزوجته، لكنه ضحك فقط. ثم صافح غافريلين وهز يده طويلاً وقال:

– أنت غريب الأطوار! عليك أن تتعلم تصميم جسور السكك الحديدية! إنه علم رائع! والأهم إنه بسيط للغاية. الجسر عبر نهر هرسون...

بعد نصف ساعة فقد وعيه تماماً، وأخذ ينطق بعبارات قارصة موجهة ضد الصحافة البرجوازية صائحاً:

– بهلوانيو المهزلة هؤلاء، ضِباع القلم! الحاذقون المهرة في آلات الطباعة.

أخذته زوجته إلى البيت في عربة أجرة.

– أريد أن أركب الترام – كان يقول لزوجته – كيف لا تفهمين هذا؟ طالما يوجد ترام، يجب إذن، ركوبه!... لماذا؟ أولاً، هذا مربح...

سار بوليسوف إثر صاحبي الامتياز طويلاً، وانتظر إلى أن لم يبق أحد في الجوار، فاقترب من فوروبيانينوف. وقال باحترام:

– مساء الخير، سيد هيبوليت ماتفييفتش.

شعر فوروبيانينوف بعدم الارتياح، وتتمم قائلاً

– لا أتشرف.

قدم أستاذ كتفه الأيمن إلى الأمام واقترب من الميكانيكي – المثقف. وقال:

– حسناً، حسناً، ماذا تريد القول لصديقي؟

– لا داعٍ لأن تقلق – همس بوليسوف، ناظراً من حوله – أنا من طرف يلينا ستانيسلافوفنا...

– كيف؟ هي هنا؟

– هنا. وترغب كثيراً برؤيتك.

– لماذا؟ – سأل أستاذ – ومن أنت؟

– أنا... أنت، هيبوليت ماتفييفتش، لا تظن بي السوء أبداً. أنت لا تعرفني. لكنني أذكرك جيداً

– كان بودي الذهاب إلى يلينا ستانيسلافوفنا – قال فوروبيانينوف متردداً.

– لقد توسلت كثيراً كي تأتي عندها.

– نعم، ولكن كيف عرفت؟...

– أنا التقيتك في ردهة البلدية، وفكرت طويلاً: إنه وجه مألوف. ثم تذكرت. أنت، هيبوليت ماتفييفتش، لا تقلق أبداً! كل شيء سيكون سريراً للغاية.

– امرأة من معارفك؟ – سأل أستاذ بطريقة عملية.

– نعم، من معارفي القدامى.

– إذن، ربما نذهب لتناول طعام العشاء عند صديقتك القديمة؟ أنا، مثلاً، جائع بشكل جنوني، وجميع المحلات مغلقة.

– ممكن.

– إذن، فلنذهب. قدنا أيها الغريب الغامض.

وقاد فيكتور ميخائيلوفيتش الشريكين بين المنازل، وعبر فناءاتها، وهو ينظر إلى الورااء كل لحظة، إلى بيت العرافة، في جادة بيريليشنسكي.

## الفصل الخامس عشر اتحاد السيف والمحراث

عندما تتقدم المرأة في العمر، قد تتعرض لمتاعب عديدة: فقد تتساقط أسنانها، ويشيب ويقل شعرها، ويضيق تنفسها، وتصيبها البدانة، أو النحافة الشديدة؛ لكن صوتها لن يتغير. وسيبقى كما كان عندما كانت طالبة في الثانوية، أو عروساً، أو عشيقة شاب طائش.

لهذا عندما قرع بوليسوف باب يلينا ستانيسلافوفنا، وسألت: «من الطارق؟» - شعر فوروبيانينوف برجفة. فصوت عشيقته كان هو نفسه، كما كان في العام التاسع والتسعين، قبل افتتاح معرض باريس. ولكن عندما دخل إلى الغرفة، وضغط جفنيه من النور، رأى هيبوليت ماتفييفتش أنه لم يبق أي أثر من جمالها السابق. وقال بصورة لا إرادية: - كيف تغيرت!

ارتمت العجوز على رقبته، وقالت:

- شكراً لك، أعرف أنك خاطرت بالمجيئ إليّ. أنت الفارس الكريم ذاته لم تتغير. لا أسألك لماذا جئت من باريس. كما ترى، أنا لست فضولية.

- لكنني لم آت من باريس إطلاقاً - قال فوروبيانينوف بارتباك.

- أنا وزميلي جئنا من برلين - صحح أستاذ، ضاغطاً على مرفق هيبوليت ماتفييفتش - ولكن لا يُنصح بالحديث عن هذا بصوت عال.

- آه، كم أنا سعيدة برؤيتكما! - بكت العرافة - ادخلا إلى هنا، في هذه الغرفة... وأنت فيكتور ميخائيلوفيتش، اعذرني، ألا يمكنك الحضور لعندي بعد نصف ساعة.

- أوه! - لاحظ أستاذ - الموعد الأول! دقائق صعبة! اسمحا لي بالمغادرة أيضاً. أسمح بأن أرافقك يا عزيزي فيكتور ميخائيلوفيتش؟

ارتجف الميكانيكي من الفرحة. ذهب الاثنان إلى شقة بوليسوف، حيث جلس أستاذ على بقايا بوابة المنزل رقم 5 من جادة بيرليشنسكي، وبدأ أمام العامل الحرفي المذهول الوحيد مع محركه، بتطوير أفكار خيالية تتعلق بإنقاذ الوطن.

عادا بعد ساعة، ووجدا العجوزين محبطين تماماً.

- يلينا ستانيسلافوفنا، هل تذكرين؟ - قال هيبوليت ماتفييفتش.

– هيبوليت ماتفييفتش، هل تذكر؟ – قالت يلينا ستانيسلافوفنا.

فكر أستاذ في نفسه «يبدو، أنه حانت اللحظة السيكلوجية للعشاء». وقاطع هيبوليت ماتفييفتش، الذي استدعى إلى ذاكرته انتخابات حكومة المدينة، وقال: – في برلين عادة غريبة جداً: إنهم يأكلون هناك بوقت متأخر جداً، بحيث يصعب عليك فهم، هل هذا عشاء مبكر أم غداء متأخر.

– ارتعشت يلينا ستانيسلافوفنا، وأبعدت نظرتها «الأرنبية» عن فوروبيانينوف وجرت نفسها إلى المطبخ.

– والآن، علينا العمل، والعمل، ثم العمل! – قال أستاذ، خافضاً صوته إلى درجة السرية التامة.

أمسك بيد بوليسوف وقال:

– ألا نخذلنا المرأة العجوز؟ هي امرأة موثوقة؟

طوى بوليسوف ساعديه بابتهاال، علامة الترجي.

– ما هي عقيدتك السياسية؟

– جاهز دوماً! – أجاب بوليسوف بحماس.

– آمل أنك روسي قيصري أصيل؟

– نعم سيدي.

شد بوليسوف قامته ووقف باستعداد.

– روسيا لن تنسأ! زأر أستاذ. كان هيبوليت ماتفييفتش يصغي بارتباك إلى أستاذ، ماسكاً بيده فطيرة حلوة، ولكن كان من المستحيل إيقافه. لقد انطلق. كان المحتال الكبير يشعر بإلهام، بحالة من النشوة قبيل عملية ابتزاز فوق المتوسط. فتجول في أنحاء الغرفة كالنمر.

في هذه الحالة المثيرة وجدته يلينا ستانيسلافوفنا عندما دخلت الغرفة، حاملة بصعوبة معها السماور من المطبخ. فقفز إليها أستاذ بأناقة، وأمسك بالسماور بسرعة ووضعه على الطاولة. صفر السماور. وقرر أستاذ العمل. فقال: – مدام، نحن سعداء أن نرى في وجهك...

لم يكن يعرف من رأى في وجه يلينا ستانيسلافوفنا وجعله سعيداً. وكان عليه أن يبدأ من جديد. ومن بين جميع التعابير الفخمة للنظام القيصري كان لا يدور في رأسه إلا «بعطف سمح سيادته»، لكن هذا لم يكن في محله. لذا بدأ بطريقة عملية: - سري للغاية! سر من أسرار الدولة!

وأشار أستاذ بيده إلى فوروبيانينوف:

- من، برأيك، هذا العجوز القوي؟ لا تقولي إنك لا تعرفين. إنه عملاق الفكر، أب الديمقراطية الروسية، وشخصية مقربة من الامبراطور.

وقف هيبوليت ماتفييفتش بقامته الطويلة الرائعة ونظر من حوله بارتباك. لم يكن يفهم شيئاً، لكنه لا بالصمت، لعلمه أن أستاذ بندر لا يتكلم أبداً عن عبث. وقد أحدث كل ما يجري الارتعاش في بوليسوف. فكان يقف، رافعاً ذقنه إلى السقف، في وضعية شخص يستعد للمرور في مسيرة احتفالية. وجلست يلينا ستانيسلافوفنا على الكرسي، ناظرة بخوف إلى أستاذ.

- رجالنا في المدينة كثيرون؟ - سأل أستاذ مباشرة - وماهي حالتهم المزاجية؟

- في حال غياب... - قال فيكتور ميخائيلوفيتش وبدأ بشكل محير شرح مشكلاته. وتطرق حديثه إلى بواب المنزل رقم 5 الذي يعتبر نفسه وقحاً جريئاً، واللقمات اللولبية بثلاثة أثمان البوصة، والترام، وغيرها.

- حسناً - صاح أستاذ. - يلينا ستانيسلافوفنا! بمساعدتك، نود الاتصال مع أفضل الأشخاص في المدينة، الذين قادهم المصير السيء إلى العمل السري. من يمكن دعوته إليك؟

- من يمكن دعوته. يمكن دعوة مكسيم بتروفيتش مع زوجته؟

- من دون زوجته - صحح أستاذ - من دون زوجة! أنتِ ستكونين الاستثناء الوحيد اللطيف. ومن أيضاً؟

في المناقشة التي انضم إليها فيكتور ميخائيلوفيتش بنشاط، تبين أنه يمكن توجيه الدعوة إلى مكسيم بتروفيتش شاروشنيكوف نفسه، وهو نائب مجلس المدينة سابقاً، والمشارك الحالي بصورة رائعة في فئة زملاء العمل، ودياديف صاحب شركة «بيستروأوباك» (التعبئة السريعة)، وكيسليارسكي رئيس «شركة أوديسا للكعك» - «كعكات موسكو»، وشابين من دون ذكر كنيتهما، لكنهما موثوقين للغاية.

- في هذه الحالة، أرجو دعوتهم الآن إلى اجتماع صغير. وبصورة سرية للغاية.
- فقال بوليسوف: سأعدو لدعوة مكسيم بتروفيتش، ونيكيشيا، وفلاديا، وأنت، يلينا ستانيسلافوفنا، اذهبي إلى «شركة التعبئة السريعة» وإلى كيسليارسكي.
- انطلق بوليسوف. ونظرت العرافة باحترام إلى هيبوليت ماتفييفتش وذهبت أيضاً.
- ماذا يعني هذا؟ – سأل هيبوليت ماتفييفتش.
- هذا يعني – أجب أستاذ – أنك إنسان متخلف.
- لماذا؟
- لهذا! اعذرني على السؤال المبتذل: كم لديك من النقود؟
- أية نقود؟
- جميع النقود. بما فيها الفضة والنحاس.
- خمسة وثلاثون روبلاً.
- وبهذه النقود نويت تغطية جميع نفقات أعمالنا؟
- لاذ هيبوليت ماتفييفتش بالصمت.
- إليك، يا عزيزي الراعي. يبدو لي أنك تفهمني. عليك أن تبقى لساعة من الزمن عملاق الفكر، والشخصية المقربة من الامبراطور.
- لماذا؟
- لأننا بحاجة إلى رأسمال متداول. غداً حفل زفافي. أنا لست متسولاً. أريد أن أعمل وليمة وأحتفل في هذا اليوم المشهود.
- وماذا عليّ أن أفعل؟ – تأوه هيبوليت ماتفييفتش.
- عليك أن تصمت. أحياناً، من أجل انطباع الأهمية، انفخ خديك.
- لكن هذا... خداع.

– من يقول هذا؟ هل يقول هذا الكونت تولستوي؟ أو داروين؟ لا. أسمع هذا الكلام من فوه الرجل الذي أراد بالأمس أن يتسلق ليلاً إلى شقة غريستاسويفا ويسرق الأثاث من الأرملة المسكينة. لا تفكر كثيراً. كن هادئاً. ولا تنسى أن تنفخ خديك.

– علام التورط في مثل هذا العمل الخطير؟ فمن المحتمل أن يشوا بنا.

– لا تقلق بشأن ذلك. أنا لا أبحث عن الاحتمالات السيئة. سيتم التعامل مع هذه المسألة بحيث لن يفهم أحد شيئاً. لنشرب الشاي.

بينما كان صاحباً الامتياز يشربان ويأكلان، والبغاء يزقزق ويرمي قذائف عباد الشمس، دخل الضيوف إلى الشقة.

جاء نيكيشيا وفلاديا مع بوليسوف. لم يجرؤ فيكتور ميخائيلوفيتش تقديم الشابين إلى عملاق الفكر. فجلسا في الزاوية وأخذا يراقبان كيف يأكل أب الديمقراطية الروسية لحم العجل البارد. كان نيكيشيا وفلاديا أخرقين ناضجين. كان عمر كل منهما تحت الثلاثين سنة. ويبدو أنهما أعجبا كثيراً بدعوتهما للاجتماع.

أما شاروشنيكوف، النائب في مجلس المدينة سابقاً، فهو عجوز سمين، صافح يد هيبوليت ماتفييفتش وهزها طويلاً، ونظر إليه في عينيه. وتحت مراقبة أستاذ، أخذ ابنا المدينة القديمان يتبادلان الذكريات. وبعد أن سمح لهما بالحديث، التفت أستاذ إلى شاروشنيكوف قائلاً: – في أي فوج خدمت؟

انتفخت أوداج شاروشنيكوف:

– أنا...أنا، كيف يمكن القول، لم أخدم على الإطلاق، فباعتباري موضع ثقة المجتمع، فزت بالانتخابات.

– أنت نبيل؟

– نعم. كنت.

– آمل، أنك لا تزال نبيلاً حتى الآن؟ شدّ عزيمتك. نحتاج إلى مساعدتك. هل أخبرك بوليسوف؟ الخارج سيساعدنا. المسألة تتوقف على الرأي العام. منظمة سرية كاملة. انتباه!

أبعد أستاذ بوليسوف عن نيكيشيا وفلادي، وسأل بصرامة حقيقية: – في أي فوج خدمتما؟ يجب أن تخدم الوطن. أنتما نبيلان؟ جيد جداً. الغرب سيساعدنا. شدّا همتيكما. سرية الودائع التامة، أي سرية التنظيم. انتباه.



وانطلق أستاب. يبدو وكأن القضية تسير على ما يرام. أما صاحب شركة «بيستروأباكوفكا» (التعبئة السريعة) الذي قدمته يلينا ستانيسلافوفنا، فقد أخذه أستاب جانباً، وعرض عليه أن يشدّ همته، واستفسر منه في أي فوج خدم، ووعد بمساعدة الخارج وبتنظيم سري تام. كان الشعور الأول الذي سيطر على مالك شركة «التعبئة السريعة» هو الهروب بأسرع وقت من شقة التآمر. فقد كان يعتبر شركته قوية ومحترمة بحيث لا حاجة لتحمل المخاطر. ولكن عندما نظر إلى هيئة أستاب الحاذقة تردد وبدأ يفكر: «ماذا لو!... على أية حال، كل شيء يتوقف على كيف سيتمثل كل هذا في الواقع».

انتعش الحوار الودي على طاولة الشاي. وحفظ المؤتمنون السر بقدسية وبدأوا الحديث عن أخبار المدينة.

وكان آخر من حضر المواطن كيسليارسكي، وباعتباره ليس نبيلاً ولم يخدم أبداً في أفواج الحرس القيصري، ومن حديث قصير مع أستاب، أدرك بنفسه مباشرة وضع الأمور. قال له أستاب: - شد! همتك!

وعد كيسليارسكي بذلك.

- أنت، باعتبارك ممثل رأس المال الخاص، لا يمكنك أن تكون أصماً تجاه تأوهات الشعب.

حزن كيسليارسكي متعاطفاً.

- أتعرف من يجلس هنا؟ - سأله أستاب مشيراً إلى هيبوليت ماتفييفتش.

- وكيف لا - أجاب كيسليارسكي - إنه السيد فوروبيانينوف.

- إنه - قال أستاب - عملاق الفكر، أب الديمقراطية الروسية، الشخصية المقربة من الامبراطور.

فكر كيسليارسكي في نفسه: «في أفضل تقدير، سنتين سجن مع العزلة التامة. لماذا جئت إلى هنا» وبدأ يرتجف.

- الاتحاد السري للسيف والمحراث! - همس أستاب بصوت متوعد.

«سجن عشر سنوات» - خطرت الفكرة في ذهن كيسليارسكي.

- على أية حال، يمكنك المغادرة، ولكن أحذرك، أذرعنا طويلة!

فكر أستاب في نفسه: «سأريك، يا ابن العاهرة، لن أسمح لك بالخروج قبل أن تدفع ما لا يقل عن مائة روبل».

أصبح وجه كيسليارسكي كالرخام من الخوف. فاليوم بالذات، تناول غداء لذيذاً وهادئاً، أكل سرر الدجاج، وحساء مع المكسرات، ولم يعرف شيئاً عن «اتحاد السيف والمحراث» الرهيب. وبقي في الغرفة، فعبارة «أذرعنا طويلة» أحدثت في نفسه انطباعاً سيئاً.

– أيها المواطنون! – قال أستاب مفتتحاً الاجتماع – الحياة تملي قوانينها، وتفرض قوانينها القاسية. لن أحدثكم عن هدف اجتماعنا – فهو معروف لديكم. الهدف مقدس. من جميع أنحاء بلادنا الواسعة يصرخون طلباً للمساعدة. علينا أن نقدم يد العون، ونحن سنقدمها. بعضكم يعمل ويأكل الخبز بالزبدة، وبعضكم الآخر يمارس الصيد الموسمي ويتناول السندويشات مع الكافيار. وهؤلاء وأولئك ينامون في أسرّتهم ويتدثرون ببطانياتهم الدافئة. ما عدا الأطفال الصغار، أطفال الشوارع، إنهم مشردون. إنهم أزهار الشوارع، أو كما يقول المفكرون البروليتاريون، أزهار الأرصفة، إنهم يستحقون مصيراً أفضل. ونحن، أيها السادة المجتمعون، سنساعدكم.

أثار خطاب المحتال العظيم مشاعر مختلفة بين المستمعين.

لم يفهم بوليسوف صديقه الجديد – الحارس الشاب. وفكر في نفسه: «أي أطفال؟ ولماذا الأطفال؟»

أما هيبوليت ماتفييفتش فلم يحاول أن يفهم شيئاً. فقد تولى منذ زمن عن كل شيء وجلس صامتاً، نافخاً خديّه.

أصيبت يلينا ستانيسلافوفنا بالحزن.

نظر نيكيشا وفلاديا بتفان إلى صدرية أستاب الزرقاء.

كان صاحب شركة «التعبئة السريعة» راضياً للغاية. وقرر في نفسه: «مصاغة بصورة جميلة. على هذا النحو يمكن تقديم المال. ففي حال التوفيق النجاح – ألاقي الاحترام والتقدير! وإذا لم تنجح – فليست لي أية علاقة. أنا كنت أساعد الأطفال، وهذا كل ما في الأمر».

تبادل شاروشنيكوف نظرة ذات شأن مع ديايدف، ومع احترامه لبراعة المتحدث السرية الخفية، تابع تحريك كرات صغيرة من الخبز على الطاولة.

كان كيسليارسكي في السماء السابعة.

– أيها الرفاق! – تابع أستاب – نحن بحاجة إلى مساعدة سريعة. علينا انتزاع الأطفال من براثن الشارع العنيدة، ونحن سننتزعهم من هناك. سنساعد الأطفال. وسنتذكر، أن الأطفال هم أزهار الحياة. أدعوكم الآن لتقديم مساهماتكم ومساعدة الأطفال، للأطفال حصراً ولا أحد غيرهم. هل تفهمونني؟

أخرج أستاب من جيبه الجانبي دفتر إيصالات.

– أرجو التبرع. وهيبوليت ماتفييفتش يؤكد صلاحياتي.

انتفخ هيبوليت ماتفييفتش وأحنى رأسه. وهنا، حتى نيكيشا وفلاديا، بطيئاً الفهم، والميكانيكي المجتهد نفسه أدركوا الجوهر السري لقصة أستاب الرمزية.

– حسب ترتيب الأكبر في العمر، أيها السادة – قال أستاب – نبدأ بالسيد المحترم مكسيم بتروفيتش. تملل مكسيم بتروفيتش وأعطى ثلاثين روبلاً لا أكثر. وصرح قائلاً: – في الأوقات الأفضل سأعطي أكثر.

– الأوقات الأفضل ستحل قريباً – قال أستاب – على أية حال، هذا لا ينطبق على الأطفال المشردين الذين أمثلهم الآن. نيكيشا وفلاديا أعطيا ثمانية روبلات.

– قليل، أيها الشابان.

احمر وجها الشابين خجلاً.

ركض بوليسوف إلى بيته وأحضر خمسين روبلاً.

– أحسنت، أيها الفارس! بالنسبة لفارس وحيد مع محركه هذا يكفي للمرة الأولى. وماذا يقول التجار؟

ساوم ديادييف وكيسليارسكي طويلاً واشتكيًا من الموازنة. لكن أستاب لم يرحم.

– بحضور هيبوليت ماتفييفتش بذاته، اعتبر هذه الأحاديث لا لزوم لها.

أحنى هيبوليت ماتفييفتش رأسه علامة الموافقة. تبرع التاجران لصالح الأطفال بمئتي روبل لكل منهما.

– المجموع – أعلن أستاب – أربعمائة وثمانية وثمانون روبلاً. آه! بحاجة إلى اثني عشر روبلاً لاكتمال الحساب.

ذهبت يلينا ستانيسلافوفنا، التي صمدت طويلاً، إلى غرفة نومها وجلبت حقيبتها النسائية الصغيرة وفيها المبلغ المطلوب.

كان القسم المتبقي من الاجتماع ملبلاً، وبعيداً عن الطابع الاحتفالي. بدأ يمرح أستاب. وتراخت يلينا ستانيسلافوفنا نهائياً. وذهب الضيوف بالتدريج، مودعين المنظمين باحترام.

قال أستاب عند الوداع: سيتم إعلامكم عن يوم الاجتماع القادم على نحو خاص، سري للغاية. قضية مساعدة الأطفال يجب أن تبقى سراً... وهذا، بالمناسبة، لمصلحتكم الشخصية.

عند سماعه هذه الكلمات، كان بود كيسليارسكي أن يعطي خمسين روبلاً أخرى، بشرط أن لا يحضر بعد الآن أية اجتماعات أخرى. وكبح نفسه بصعوبة عن القيام بهذه الخطوة.

– حسناً – قال أستاب – سوف نتحرك إلى الأمام. وأنت، هيبوليت ماتفييفتش، آمل بأنك ستستفيد من حسن ضيافة يلينا ستانيسلافوفنا وستمضي الليل عندها. وبالمناسبة، من أجل التمويه والسرية من المناسب لنا أن نفترق لفترة محدودة. أنا ذاهب.

غمز هيبوليت ماتفييفتش بعينه أستاب يائساً، لكن الأخير تظاهر بأنه لم يلاحظ ذلك، وخرج إلى الشارع.

بعد أن اجتاز حارة، تذكر أستاب أن في جيبه خمسمائة روبل، اكتسبها بعرق جبينه، فصاح: – أيها الحوزي! خذني إلى «فينيكس»

– هذا ممكن – قال الحوزي.

نقل الحوزي أستاب على مهل إلى مطعم مغلق.

– ما هذا؟ مُغلق؟

– بمناسبة الأول من أيار/مايو.

أوه، فليذهبوا إلى! مال كثير، ولا مكان للترويج عن النفس! حسناً، خذني إلى شارع بليخانوف. أتعرفه؟

قرر أستاب الذهاب إلى خطيبته.

– ما اسم هذا الشارع سابقاً؟ – سأله الحوزي

– لا أعرف.

– أين سنذهب؟ وأنا أيضاً لا أعرفه.

مع ذلك، أمره أستاب بالذهاب والبحث.

تجولا بالعربة ساعة ونصف في المدينة الفارغة ليلاً، يسألان الحراس الليليين ورجال الشرطة. أحد رجال الشرطة نفخ أوداجه وأخبرهما أخيراً أن شارع بليخانوف هو شارع غوبرناتسكايا (المقاطعة) سابقاً.

– حسناً، شارع غوبرناتسكايا! أنا أعرفه جيداً. أقود عربتي منذ خمسة وعشرين عاماً في شارع غوبرناتسكايا.

– حسناً، فلنذهب!

وصلا إلى شارع غوبرناتسكايا، ولكن تبين أن اسمه الحالي شارع كارل ماركس وليس بليخانوف.

تابع أستاب المهموم البحث عن شارع بليخانوف الضائع. لكنه لم يعثر عليه.

أضاء الفجر بشكل شاحب وجه المتألم الغني، الذي لم يتمكن من الحصول على المتعة.

– خذني إلى فندق «السوربون»! – صاح أستاب – أي حوذي أنت! لا تعرف بليخانوف!

\* \* \*

كان قصر الأرملة غرييتساتسويفا متلاًئلاً. وعلى رأس مائدة الزفاف كان يجلس ابن الجنسية التركية. كان أنيقاً واثماً. وكان الضيوف يصخبون.

العروسة الشابة لم تعد شابة. كان عمرها لا يقل عن خمسة وثلاثين عاماً. وقد وهبتها الطبيعة بسخاء. هنا كان عندها كل شيء: ثديان كبطيختين، أنف معقوف، وجنتان مطليتان، قذال كبير. كانت تحب زوجها الجديد وتخاف منه كثيراً. لهذا لم تكن تدعوه باسمه، ولا حتى باسم أبيه الذي لم تعرفه أبداً، بل بكنيته: الرفيق بندر.

جلس هيبوليت ماتفييفتش من جديد على كرسيه العزيز المألوف. طيلة عشاء الزفاف، كان يقفز عليه كي يشعر بصلابته. كان أحياناً ينجح في ذلك. عندئذ كان يروق له جميع الحاضرين، وعندها كان يصرخ بجنون «غوركا» (مرة – طلباً للقبلة – م.).

كان أستاذ طيلة الوقت يلقي الكلمات، والخطب القصيرة، ويرفع الأنخاب. شربوا نخب التعليم العام والري في أوزبكستان. بعد ذلك بدأ الضيوف يغادرون. تأخر هيبوليت ماتفييفتش في الردهة قليلاً وهمس في أذن بندر: - أنت، لا تتأخر، إنهم هناك.

- أنت - أيها الجشع - أجاب أستاذ الثمل - انتظرنني في الفندق. لا تغادر إلى أي مكان. يمكنني القدوم في كل دقيقة. ادفع الحساب للفندق. بحيث يكون كل شيء جاهزاً. أديو (بالفرنسية - إلى اللقاء - م.)، أيها المارشال. تمنّ لي ليلة سعيدة.

تمنّ له هيبوليت ماتفييفتش ذلك وذهب إلى فندق «السوربون» قلقاً.

جاء أستاذ في الساعة الخامسة صباحاً، حاملاً الكرسي. اهتزت مشاعر هيبوليت ماتفييفتش. وضع أستاذ الكرسي في وسط الغرفة وجلس.

- كيف أمكنك ذلك؟ - نطق أخيراً فوروبيانينوف.

- بكل بساطة. على الطريقة العائلية. الأرملة نائمة وترى حلمًا. لم أوقظها شفقة عليها. «لا توقظها عند الفجر». للأسف! كنت مضطراً لترك رسالة صغيرة لحبيبتي: «أسافر إلى نوفوخوبرسك لإلقاء محاضرة. لا تنتظريني على الغداء. حبيبك». أما الكرسي فأخذه من غرفة الطعام. في ساعات الصباح الباكرة لا تسير عربات الترام - كنت أستريح على الكرسي على طول الطريق.

هجم هيبوليت ماتفييفتش على الكرسي هادراً.

- بهدوء - قال أستاذ - علينا العمل من دون ضجيج.

أخرج من جيبه زردية، وبدأ العمل السريع.

- هل أغلقت الباب؟ - سأله أستاذ.

دفع أستاذ قليلاً فوروبيانينوف المتلهف، وبدأ يفتح الكرسي بعناية، باذلاً جهده كي لا يضرّ القماش الانكليزي المحلى بالزهور.

- مثل هذا القماش لا وجود له الآن، يجب المحافظة عليه.

جوع تجاري. لا يمكن فعل أي شيء.

كل هذا جعل هيبوليت ماتفييفتش يصل إلى أقصى حدود الاضطراب.

- جاهز - قال أستاذ بهدوء.

رفع أغطية الكرسي وأخذ بكلتا يديه يتحسس ما بين نوابض الكرسي. ارتسمت على جبهته عروقه الوريدية.

- وماذا؟ - كرر هيبوليت ماتفييفتش بأصوات مختلفة - وماذا؟ وماذا؟

- وماذا وماذا - أجب أستاذ بانفعال - فرصة واحدة مقابل إحدى عشرة. وهذه الفرصة...

فتش أستاذ جيداً في عمق الكرسي وقال:

- وهذه الفرصة ليست لنا بعد.

نهض على طوله وبدأ بتنظيف ركبتيه. ارتدى هيبوليت ماتفييفتش على الكرسي.

لم يكن هناك ماس في الكرسي. تهدلت يدا هيبوليت ماتفييفتش. أما أستاذ فبقي نشيطاً، حيوياً كالسابق.

- الآن زادت فرصنا.

وأخذ يتجول في الغرفة.

- لا بأس! هذا الكرسي كلف الأرملة غالياً أكثر مما كلفنا.

أخرج أستاذ من جيبه الجانبي بروشاً ذهبياً محلىً بالزجاج، وسواراً من الذهب المنفوخ، ونصف دزينة من الملاعق الذهبية ومصفاة شاي.

لم يتصور هيبوليت ماتفييفتش في حزنه، لم يتصور أنه أصبح شريكاً في سرقة عادية.

- عمل دنيء - قال أستاذ - ولكن، ألا توافقني أنني لم أستطع مغادرة امرأتي الحبيبة دون أن أحتفظ منها بأي شيء للذكرى. مع ذلك، لا حاجة لإضاعة الوقت. هذه ليست سوى البداية. النهاية في موسكو. ومتحف الآثار - لن يكون بالنسبة لنا كالأرملة، هناك سيكون الوضع أصعب.

وضع الشريكان بقايا حاشية الكرسي تحت السرير، وحسباً ما لديهما من نقود (بلغ المجموع بما فيه التبرعات لصالح الأطفال خمسمائة وخمسة وثلاثون روبلاً)، وانطلقا إلى المحطة نحو قطار موسكو.

اضطرا إلى عبور المدينة كلها في عربة أجرة.

في شارع كويبيراتيافنايا(الشارع التعاوني) شاهدا بوليسوف يركض على الرصيف كظبي خجول. ويطارده بواب المنزل رقم 5 من جادة بيرليشنسكي. ومع انعطافهما على الزاوية تمكن صاحب الامتياز من رؤية أن البواب قد أدرك فيكتور ميخائيلوفيتش وبدأ يضربه بعنف. كان بوليسوف يصرخ «النجدة!» و«همجي!».

بالقرب من المحطة نفسها، كان عليهما انتظار مرور موكب الجنازة. فعلى رصيف الشحن كانت تسير عربة التابوت وكان يتبعها من الخلف فارفولوميتش منهكاً تماماً. فقد ماتت جدته الماكرة في ذلك العام بالذات الذي توقف فيه عن دفع أقساط التأمين.

قبل انطلاق القطار جلسا في المرحاض خوفاً من لقاء المرأة الحبيبة.

نقل القطار الصديقين إلى مركز المدينة الصاخب. فاتكأ الصديقان على نافذة عربة القطار. اندفعت عربات القطار فوق غوسيشي.

فجأة صرخ أستاب وأمسك فوروبيانينوف من ساعديه.

– انظر، انظر – صاح أستاب – بسرعة، آخين، ابن الكلبة!...

نظر هيبوليت ماتفييفتش إلى الأسفل. تحت الجسر كان شاب قوي البنية ذو شاربين يجر عربة تحمل هارمونيوم(نوع من الأرغن – م.) وخمسة أطر للنوافذ. وكان يدفع العربة مواطن خجول المظهر يرتدي صدرية سميكة من دون أكمام.

اخترقت أشعة الشمس الغيوم. تلالأت صلبان الكنائس.

مد أستاب جسمه من النافذة ضاحكاً، وصاح:

– باشكا(بافل)! أنت ذاهب لبيعها!

رفع باشا(بافل) إيميلوفيتش رأسه، لكنه رأى فقط عازل الصدمات للعربة الأخيرة من القطار وأسرع الخطى بقدميه أكثر.

– هل رأيته – سأل أستاب بفرح – يا للجمال! هاك كيف الناس ترتزق!

ربت أستاب على كتف فوروبيانينوف الحزين.



– لا داع، يا أبتى! لا تثبّط عزيمة! الاجتماع يستمر. غداً مساء سنكون في موسكو!

## الجزء الثاني

في موسكو

## الفصل السادس عشر ونشط محيط من الكراسي

يعرف الإحصاء كل شيء. فقد تم بدقة إحصاء الأراضي المزروعة في الاتحاد السوفييتي مع تقسيمها إلى تربة سوداء، وتربة رملية طينية، وغابات. وجميع المواطنين من الجنسين مسجلين في سجلات سميكة نظيفة، يعرفها جيداً هيبوليت ماتفييفتش فوروبيانينوف باسم سجلات الأحوال المدنية. ومن المعروف أيضاً كم، وماذا يأكل المواطن بالمتوسط سنوياً في الجمهورية. ومعروف أيضاً كم يشرب هذا المواطن العادي بالمتوسط من الفودكا مع إشارة تقريبية إلى المازة والوجبات الخفيفة المستهلكة. ومعروف أيضاً كم في البلاد من الصيادين، وراقصي الباليه، والمسدسات، والكلاب من جميع الأجناس، والدراجات الهوائية، والنصب التذكارية، والفتيات، والمنارات، وآلات الخياطة.

كيف تنظر إلينا الحياة المليئة بالحرارة، والعواطف، والأفكار من خلال السجلات الاحصائية!

من هو، هذا الشخص، المتورد الخدين، الجالس والمنديل على صدره يلتهم بشهية وجبة الطعام اللذيذة الساخنة؟ وحوله قطيع من الثيران الصغار. وقد تجمعت الخنازير السمينة في زاوية السجل. وفي حوض إحصائي خاص تسبح أعداد لا حصر لها من سمك الزجر والبربوت والقُد. ويجلس الدجاج على كتفي هذا الشخص وذراعيه ورأسه. وفي السُّحب الرقيقة يطير الإوز والبط والديوك الرومية. وتحت الطاولة يختبئ أرنبان. وفي الأفق ترتفع أهرامات وأبراج بابلية من الخبز المحمص. وحصن صغير من المربي يغسله نهر من الحليب. وخيارا، بحجم برج بيزا، تظهر واقفة في الأفق. وخلف أعمدة الحصن المصنوعة من الملح والفلفل يتدفق بشكل نصف دائري النبيذ والفودكا والليكور. وفي المؤخرة تصطف مجموعة يرثى لها من المشروبات غير الكحولية: مياه نارزان المعدنية، والليمونادة، ودوارق المشروبات الغازية في شبكات سلكية.

من هو هذا الشخص، المتورد الخدين، الشره، السكران، عاشق الحلويات؟ هل هو غارغانتوا، ملك الظامئين؟ فوس الجبار الأسطوري؟ الجندي الأسطوري ياشكا بقميصه الأحمر، لوكولوس؟ (Z)

إنه ليس لوكولوس. إنه إيفان إيفانوفيتش سيدوروف أو سيدور سيدوروفيتش إيفانوف؛ مواطن عادي، يأكل بالمتوسط خلال حياته كل الطعام المصور في السجل. إنه مستهلك عادي للسعرات الحرارية والفيتامينات، أعزب هادئ بلغ من العمر أربعين عاماً، يعمل في المخزن الحكومي للوازم الخياطة والمنسوجات.

لا يمكنك الاختباء من الاحصائيات في أي مكان. لديها معطيات دقيقة ليس فقط عن أعداد أطباء الأسنان، والنقانق، والحُقن، والبوابين، والمخرجين السينمائيين، والبغايا، وأسقف القش، والأرامل، والحدويين، والأجراس، بل وتعرف أيضاً عدد الإحصائيين في البلاد.

لكن الاحصائيات لا تعرف شيئاً واحداً.

إنها لا تعرف عدد الكراسي في الاتحاد السوفييتي.

الكراسي كثيرة جداً. وقد حدد الإحصاء الأخير عدد سكان الجمهوريات الاتحادية بمائة وثلاثة وأربعين مليون نسمة. وإذا ما طرحنا من هذا العدد تسعين مليوناً من الفلاحين الذين يفضلون على الكراسي الوثيرة المقاعد الخشبية الطويلة، والمضاجع الخشبية، والمصاطب، وفي الشرق يفضلون عليها السجاد والبسط البالية، فيبقى مع ذلك خمسون مليون شخص يعتبرون الكراسي عناصر ضرورية في حياتهم المنزلية. وإذا ما أخذنا في الاعتبار الحسابات الخاطئة الممكنة وعادة بعض المواطنين في الاتحاد بالجلوس على كرسيين، فيمكن تقليص هذا العدد إلى النصف، وبالتالي، يجب أن يكون في بلادنا ما لا يقل عن ستة وعشرين مليوناً ونصف المليون من الكراسي. ومن أجل الصواب سنتخلى عن ستة ملايين ونصف المليون كرسي. فإن العشرين مليون كرسي المتبقي سيكون الحد الأدنى.

وسط هذا المحيط من الكراسي، المصنوعة من خشب الجوز والبلوط والمران والخشب الأحمر والبتولا الكاريلية، وبين كراسي خشب الشوح والصنوبر يجب على بطلي الرواية أن يبحث عن كرسي الجوز، من صنع هامبز، بقوائم منحنية، يخفي في باطنه المنجد بالقماش الانكليزي الفاخر ثروة مدام بيتوخوفا.

كان لا يزال شريكا الامتياز مستلقيين على السريرين العلويين، وكانا نائمين، عندما عبر القطار بحذر نهر أوكا، ثم أسرع سيره، وبدأ يقترب من موسكو.

(Z) (غارغانتوا: الجبار - بطل رواية الكاتب الفرنسي رابليه؛ ملك الظامئين - لقب بانتاغرويل ابن غارغانتوا؛ فوس: إيميل فوس بطل شره أسطوري ورد في قصة الكاتب الروسي كاتاييف، ياشا بقميصه الأحمر: جندي قوي أسطوري من الأدب الشعبي الروسي؛ لوكولوس: قائد روماني وقنصل ثري اشتهر بمنادمته وإدمانه على المشروبات - م)

## الفصل السابع عشر داخلية الراهب برتولد شوارتز

كانت سماء موسكو القاتمة محاطة بالغيوم المتراكمة.

وكانت عربات الترام تصرّ عند المنعطفات، بصورة طبيعية، وكأن من يصرّ لم تكن العربية نفسها بل الجابي الملتصق بلوحة «يمنع التدخين والبصق». كان من المحظور التدخين والبصق، لكن يبدو أنه لم يكن محظوراً دفش الجابي، قاطع التذاكر، من قبل العمال والنواب السوفييت، في بطنه، والتنفس في أذنه، وانتقاده دون أي مبرر. وهؤلاء كانوا يسرعون لاستغلال ذلك. كانت ساعة الذروة. وكانت المخلوقات الأرضية وغير الأرضية تسرع إلى العمل.

كان طائر صغير يخفق بجناحيه، مغطى بغبار الأول من أيار/مايو، ويعربد فوق الأشجار.

كانت عربات الترام تنزل المواطنين أمام «دار الثقافة» وتنطلق بارتياح إلى الأمام.

كان الموظفون يقتربون من «دار الثقافة» من ثلاث جهات ويختفون في ثلاثة مداخل. كان البناء مربعاً كبيراً أبيض اللون، مؤلفاً من خمسة طوابق، تخترقه آلاف النوافذ. كانت تدوس على أرضيات الطوابق والممرات أقدام الأمناء وضاربات الآلة الكاتبة، والمدراء ووكلاء الشحن مع حمولاتهم، والمراسلين والسعاة والشعراء. وكان جميع العاملين والموظفين يؤدون أعمالهم العادية والضرورية، ما عدا الشعراء الذين حملوا قصائدهم وأشعارهم إلى هيئات تحرير المجلات الحكومية.

كان «دار الثقافة» غاصّة بالمؤسسات والموظفين. فالمؤسسات فيه كانت أكثر مما في الناحية الرئيسية من المنازل. وكانت هيئة تحرير ومكاتب صحيفة «ستانوك» (الماكينة - م). اليومية الكبيرة تشغل أكثر من ألف متر من رواق الطابق الثاني.

كانت نوافذ هيئة التحرير تطل على الفناء الداخلي للبناء، حيث كان يركض رياضي قصير الشعر في سروال رياضي أزرق وبوط رياضي ناعم حول الملعب الرياضي، متمرنًا على الجري. وكانت رجلاه البيضاء اللتان لم تلوحهما الشمس بعد تومضان بين الأشجار.

كانت تحدث مشادات قصيرة بين العاملين في غرف هيئة التحرير. حيث كانوا يستوضحون تراتبية بداية الإجازات السنوية. ومع صيحات «الموسم المخملي» عبر جميع العاملين بالإجماع عن رغبتهم في أخذ إجازاتهم في شهر آب/أغسطس حصراً.

عندما وصل رئيس اللجنة المحلية إلى درجة الإعياء من الشكاوى والادعاءات، انفصل المراسل برسيتسكي بأسف عن الهاتف، حيث كان يتابع منجزات شركة «ميرينوس»

المساهمة، وأعلن: - أنا لن أذهب للإجازة في شهر آب/أغسطس. سجلوا اسمي على شهر حزيران/يونيو. في شهر آب/أغسطس تنتشر الملاريا.

- حسناً، هذا جيد - قال رئيس اللجنة المحلية.

وهنا نقل جميع العاملين رغباتهم إلى شهر حزيران/يونيو.

رمى الرئيس القائمة منزعجاً وخرج.

وصل في عربة أجرة إلى مبنى «دار الثقافة» الكاتب الشائع ذو الشعبية أغافون شاخوف. ورغم أن مقياس درجة الحرارة الكحولي المعلق على الحائط كان يؤشر إلى ثماني عشر درجة حرارة مئوية لكن شاخوف كان يرتدي معطفاً ربيعياً موبراً، ولفحة بيضاء، وقبعة من فرو أسترخان بلونها الرمادي، وجزمة مطاطية - كان أغافون يراعي صحته بعناية.

وكانت اللحية على شكل كستليته أفضل زينة لوجه أغافون شاخوف. فالخدّان الممتلئان بلون سمك السلمون كانا رائعين. كانت عيناه تنظران بما يشبه الحكمة. كان الكاتب في الأربعينيات من عمره. بدأ الكاتب بالنشر منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره، لكن الشهرة الكبيرة لم تأت إلا في العام قبل الفائت. وقد بدأت شهرته عندما أخذ أغافون شاخوف يكتب روايات من علم النفس ويطرح على القارئ مشاكل مختلفة. فكانت في رواياته تومض أمام القراء، وبصورة رئيسة أمام القارئات، مشاكل في أغلفة جميلة مع تكريس صفحة خاصة لـ«الشبيبة السوفييتية»، «إهداء إلى طلاب موسكو الجامعيين»، «إلى الفتيات الشابات». أما المشاكل المطروحة فكانت مثل: الجنس والزواج، الزواج والحب، الحب والجنس، الجنس والغيرة، الغيرة والحب، الزواج والغيرة. وباعتبارها لا تحتوي إلا القليل من الإيديولوجيا السوفييتية، كانت رواياته تباع على نطاق واسع. ومنذ تلك الأثناء، بدأ شاخوف يردد كثيراً أن الطلاب يحبونه. ولكن اتضح أن الطرح الأبدي الدائم للزواج والغيرة أمراً صعباً. فقد أخذ النقد يخذ الكاتب ويلفت انتباهه إلى ضيق موضوعاته. فخاف شاخوف. وانغمس في الصحف. ومن خوفه، جلس يكتب رواية عن تخفيض المصروفات الإضافية، حتى أنه كتب ثمانين صفحة في ثلاثة أيام. ولكن في ورطة الحب التي نشأت بين موظف مسؤول وثلاثة سيدات لم يستطع قول كلمة واحدة عن خفض المصروفات الإضافية. فاضطر إلى تركها. لكنه كان يشعر بالأسى على رمي ثمانين صفحة، وانتقل شاخوف بسرعة إلى مشكلة الهدر والمصاريف. وحول الموظف المسؤول إلى أمين صندوق، وشطب السيدات. وعمل شاخوف بجد على شخصية أمين الصندوق وأهداه أهواء الامبراطور والخطيب الروماني نيرون.

كتب الرواية في أسبوعين ونصف وبعد شهر ونصف طُبعت وظهرت في المكتبات.

عند نزوله من عربة الأجرة أمام «دار الثقافة»، تحسس شاخوف بحب في جيبه الكتاب الجديد وولج إلى مدخل البناء. أثناء سيره كان ينظر دائماً إلى كعبي جزمته، هل اهترأ أم لا. اقترب من قفص المصعد وبدأ ينتظر. كان عليه أن يصعد إلى الطابق الثاني فقط، لكنه كان يهتم بصحته، كما أن ركوب المصعد في «دار الثقافة» كان مجانياً.

دخل شاخوف إلى قسم المبيعات من هيئة تحرير صحيفة «ستانوك» (الماكينة) حيث كان ينشر كتاباته في أحيان كثيرة، وسأل دون أن يلقي السلام على أحد: - هل تدفعون اليوم؟ حسناً. ألم يبدد «صاحب السيادة» أمواله؟

كانوا يدعون أمين الصندوق آسوكين بـ«صاحب السيادة» في هيئة التحرير والمكتب. فقد أخذ عنه شاخوف بطله، وكانت هيئة التحرير كلها تعرف هذا بمن فيها أمين الصندوق.

هز الموظفون رؤوسهم سلباً. وذهب شاخوف إلى الصندوق لاستلام أجره عن القصة.

- مرحباً يا «صاحب السيادة» - قال الكاتب - سمعت أن تعطي المال اليوم.

- نعم أعطي، أغافون شاخوف.

قدم أمين الصندوق له من خلال النافذة بياناً وقلماً كيميائياً.

- سمعت، أنك كتبت عملاً جديداً؟ حدثوني الشباب.

- نعم، كتبت.

- ويقولون أنك وصفتني فيه؟

- أنت فيه البطل الرئيس.

فرح أمين الصندوق، وقال:

- دعني أقرأه على الأقل، فأنت وصفتني على أية حال.

أخرج شاخوف من جيبه كتاباً جديداً، وبالقلم ذاته الذي وقع فيه البيان كتب الإهداء التالي على صفحة الغلاف: «إلى الرفيق آسوكين. مع المودة. أغافون شاخوف».

- خذ، اقرأ. التيراج (عدد النسخ المطبوعة) عشرة آلاف. روسيا كلها سوف تعرفك.

قبل أمين الصندوق باحترام الكتاب الهدية ووضعه في خزانة مقاومة للحريق في مغلف فئة العشر روبلات. (ملاحظة المترجم – هذا القسم بكامله من هذا الفصل لم ينشر سابقاً في الطبعات السوفييتية للرواية).

\* \* \*

كان هيبوليت ماتفييفتش وأستاب يقفان متدافعين أمام النافذة المفتوحة لعربة القطار القاسية (من الدرجة الثالثة – م.) ينظران إلى الأبقار التي تنزل ببطء من سكة الحديد، وإلى أشجار الصنوبر، وإلى البيوت الخشبية الصغيرة بالقرب من رصيف المحطة.

لقد سردوا جميع نكات الطريق وطرائفه. وقرأوا عدد يوم الثلاثاء لصحيفة برافدا ستارغورود المحلية كلها بما فيها الإعلانات وتمت تغطيتها ببقع الزبدة. وأكلا جميع الكتاكيت والبيض والزيتون.

وبقي الجزء الأكثر إزعاجاً من الطريق – الساعة الأخيرة قبل الوصول إلى موسكو.

كانت تبرز بين الغابات والأجمات النادرة بيوت ريفية مريحة. وكانت بينها قصور خشبية تغص بالشرفات الزجاجية والأسطح الحديدية المطلية بالدهان حديثاً. وكانت بينها أكواخ خشبية بسيطة ذات نوافذ مربعة صغيرة، وأقنان حقيقية للمصطافين.

لاحت مناطق أودلنايا ثم مالخوفكا ثم توارت عن الأنظار كراسكوفو. صاح أستاب: – فوروبيانينوف، انظروا! أترى، منزل ريفي من طابقين. هذا المنزل الريفي للأطباء والعاملين في الجهاز الصحي.

– نعم. أرى. إنه منزل ريفي جيد.

– لقد أقمت فيه في الموسم الماضي.

– وهل أنت طبيب؟ – سأل فوروبيانينوف شارداً

– من أجل أن تقيم في مثل هذا البيت الريفي، لا حاجة لأن تكون طبيباً.

رضي هيبوليت ماتفييفتش بهذا التفسير الغريب. فقد كان قلقاً.

في الوقت الذي كان فيه الركاب ينظرون إلى الأفق نظرة العارفين، منقبين ما بقي في ذاكرتهم من ذكريات حول المعركة التي جرت بالقرب من كالكا، ويحدث أحدهم الآخر عن ماضي موسكو وحاضرها، كان هيبوليت ماتفييفتش يحاول بإصرار تخيل متحف الآثار. كان يتصور متحف الآثار على شكل رواق طويل جداً، علقت على طول جدرانها الكراسي



بتعريشات. وتخيل فوروبيانينوف نفسه يسير بسرعة بينها. وقال بقلق: – من غير المعروف كيف سيكون الأمر في متحف الأثاث، وكم سيكلف؟

– أنت، أيها المشير، حان وقت علاجك بالكهرباء. لا تقم بنوبات هستيرية قبل الأوان. إذا كنت غير قادر أن لا تضطرب، فاضطرب صامتاً.

قفز القطار متجاوزاً الأسهم. فنظرت إليه الإشارات الضوئية وفتحت أفواهها. تكاثرت المسارات والطرق. كان هناك شعور بالاقتراب من عقدة ضخمة من السكك الحديدية. واختفى التراب ليحل محله الخبث والنفايات. وصفرت قاطرات المناورة. وصرخ محوّلو السير في السكك الحديدية. وفجأة تعاظم الهدير. وولج القطار في الفراغ بين قطارات الشحن الفارغة، وبعد أن قرقع كحاجز دوار أخذ يجتاز العربات والقاطرات: – عربة بيضاء متساوية الحرارة، قاطرة طشقند، قاطرة عودة سريعة، قاطرة مناسبة للأسماء واللحوم، قاطرة مزودة بخطافات.

– عربة من البلوط الداكن، بكسوة من الخارج، نوابض ناعمة، قاطرة للنوم بطريق مباشر.

– دزينة من السلع التجارية على طريق ريازان – أورال. معلّمة بعلامات الطباشير.

– خزانات النفط. عودة سريعة إلى باكو.

– ياعمال جميع البلدان، اتحدوا. قاطرة – نادي نقابة عمال السكك الحديدية على طريق موسكو – قازان.

– واحد، اثنان، ثلاثة... ثمانية... عشرة أرصفة محملة بالأخشاب.

وفجأة، في الجانب، عربة منسية – مهترئة مهملة، عربة مختلطة كُتب عليها عبارة «جبهة دينيكين».

تضاعفت الطرق والمسارات.

خرج القطار من ممر القاطرات. ووجهت الشمس أشعتها إليه. وكانت تتوالى بسرعة أضواء الأسهم المنخفضة القريبة من الأرض، والشبيهة بالفؤوس. وانتشر الدخان. فالقطار البخاري أثناء لهاته، أصدر دخاناً يشبه السوائل الناصعة البياض. وعند سطح الدوار كانت تصدر صرخة. وقاد عمال المرآب القطار إلى موقفه المخصص.

وبسبب الفرملة الحادة قرقرعت عربات القطار. وزعق كل شيء، وبدأ لهيبوليت ماتفييفتش أنه وقع في مملكة ألم الأسنان. ورسا القطار إلى رصيف المحطة الأسفلتي.

هذه كانت موسكو. هذه كانت محطة ريازانسكي - المحطة الأحدث والأجد من جميع محطات موسكو.

لا يوجد في أي من محطات موسكو الثمانية الأخرى للسكك الحديدية مثل هذه المباني الواسعة والعالية كما في محطة ريازانسكي. فمحطة ياروسلافسكي كلها، بما فيها من مجاذيف روسية مزيفة وزخارف النبالة، يمكن وضعها كلها في المطعم - البوفيه الكبير لمحطة ريازانسكي.

إن محطات السكك الحديدية في موسكو - هي بوابات المدينة. يومياً يدخلها ويخرج منها ثلاثون ألف راكب. عبر محطة ألكسندروفسكي يدخل الأجنبي إلى موسكو بنعال من الكاوتشوك وبطقم الجولف (سروال وجوارب صوفية سميكة من الخارج). ومن محطة كورسك يصل إلى موسكو القوقازي بقبعته ذات اللون البني المصنوعة من جلد الخروف والمزودة بفتحات للتهوية، وابن حوض الفولغا الفارع القامة بلحيته الدائرية. ومن محطة أكتوبر يفد العامل شبه المسؤول بحقيبته المصنوعة من جلد الخنزير الرائع. فقد جاء من لينينغراد من أجل أمور الربط والتنسيق والإحاطة الدقيقة. أما أبناء كييف وأوديسا فيدخلون إلى العاصمة عبر محطة بريانسك. وعند وصولهم إلى موقف منسك تيخونوف يبدأ أبناء كييف بالابتسام بازدراء. فهم يعرفون جيداً أن شارع كريشاتيك في كييف هو الشارع الأفضل على وجه الأرض. ويحمل أبناء أوديسا معهم سلالاً وصناديق مسطحة من سمك الأسقمري المدخن. وهم أيضاً يعرفون أفضل شارع على وجه الأرض. لكنه بالطبع ليس شارع كريشاتيك، إنه شارع لاسال، ديرباسوفسكايا سابقاً. ويصل إلى موسكو من محطة بافليتسكي أبناء ساراتوف، وأتكارسك، وتامبوف، وريتشيف، وكوزلوف. وأقل عدد من الركاب يصل إلى موسكو من محطة سافيلوفسكي. وهم الحذاؤون من تالدوم، وسكان مدينة دميتروف، وعمال مصنع ياخروم أو المقيم الكئيب صيفا وشتاء في بيت ريفي في محطة خليبنيكوفو. والسفر إلى موسكو من هنا ليس طويلاً. فأبعد مسافة على هذا الخط لا تزيد كثيراً عن مائة وثلاثين كيلومتراً. ويصل إلى العاصمة من محطة ياروسلافل أناس قادمون من فلاديفوستوك، ومن خباروفسك، ومن المدن البعيدة والكبيرة في منطقة تشيتا.

يبد أن الركاب الأكثر غرابة يفدون إلى موسكو عبر محطة ريازانسكي. وهم الأوزبك في عمامتهم البيضاء وأثوابهن المزينة بالزهور، والطاجيك بلحاهم الحمراء، والتركمان، والخيفينيون، والبخاريون، التي تشرق فوق جمهورياتهم الشمس الأبدية.

شق صاحب الامتياز طريقهما بصعوبة إلى المخرج ووجدا نفسيهما في ساحة كالانشيفسكايا. كانت ترتفع على يمينهما دجاجات النبالة وزخارفها في محطة ياروسلافسكايا. وكانت تومض مقابلهما بشكل خافت محطة أكتوبر المطلية بطلاء زيتي بلونين. وكانت الساعة فوقها تشير إلى العاشرة وخمس دقائق. بينما كانت تشير الساعة

المعلقة في محطة ياروسلافسكايا إلى العاشرة تماماً. وعندما نظر المسافران إلى قرص الساعة الأزرق المزخرف في محطة ريزانسكايا وجدا أن عقاربها تشير إلى التاسعة وخمس وخمسين دقيقة.

– مناسب جداً للموعد الغرامي! – قال أستاب – لديك دوماً عشر دقائق.

– إلى أين الآن؟ إلى الفندق؟ – سأل فوروبيانينوف بعد أن نزل من رواق المحطة وأخذ ينظر بجبن من حوله.

– في الفنادق هنا – قال أستاب – يعيش فقط المواطنون القادمون بمهمات عمل، أما نحن، أيها الرفيق العزيز، فتجار قطاع خاص، ولا نحب المصروفات الإضافية.

اقترب أستاب من سائق عربة، وجلس فيها بصمت داعياً بإيماءة هيبوليت ماتفييفتش، وقال: – إلى سيفتسيف فراجيك (جادة في حي أربات بموسكو – م). – قال أستاب – ثمانية غريفنيا (عملة قديمة تعادل 10 كوبيك – م). أصيب الحوذي بالذهول. ودار نقاش ممل تكرر فيه ذكر أسعار الشوفان ومفتاح الشقة، حيث يوجد المال.

أصدر الحوذي بشفتيه صوت قبلة. وسارت العربة تحت الجسر، وظهرت أمام الراكبين بانوراما مهيبة للعاصمة.

بالقرب من البوابات الحمراء التي تم ترميمها بشق الأنفس لبناء الإدارة العامة للمؤسسات العلمية والمتاحف والفنون كان يتواجد الدهانون بثيابهم الملطخة بالدهان وبفراشهم الطويلة، والنجارون بمناشيرهم، وعمال التجصيص وعمال البناء. كانوا يغطون بكثافة زاوية سادوفي – سباسكي.

– قصر بديل احتياطي – لاحظ هيبوليت ماتفييفتش وهو ينظر إلى المبنى الطويل المدهون بالأبيض والأخضر الواقع على شارع نوفايا باسمانيا.

– أنا عملت في هذا القصر – قال أستاب – بالمناسبة، هو ليس قصراً بل مفوضية الشعب للمواصلات. يحمل الموظفون هناك حتى الآن غالباً الشارات الصدرية الزجاجية التي اخترعتها أنا ونشرتها. وها هو شارع مياسنيتسكايا. شارع رائع. هنا يمكنك أن تموت من الجوع. فأنت لن تأكل كصحن أول محامل الكريات وحجر الطاحون كصحن ثان. هنا لا يُباع أي شيء آخر.

– هنا في السابق كان الأمر كذلك. أذكر جيداً. كنت قد أوصيت في شارع مياسنيتسكايا على موانع صواعق لمنزلي في ستارغورود.

عندما اجتازا ساحة لوبيانكا شعر هيبوليت ماتفييفتش بالقلق. وسأل:

– ولكن، إلى أين نحن ذاهبون؟

– إلى ناس طيبين – أجاب أستاذ – وهم كثر في موسكو. وكلهم معارفي وأصدقائي.

– هذا نُزل جماعي، داخلية. إذا لم نجد مكاناً عند أحدهم فسنجد دوماً مكاناً عند آخر.

في الحديقة الصغيرة المقابلة لمسرح البولشوي كانت تنتصب نخلة، لتعلن بأن الصيف قد بدأ وأن على الراغبين باستنشاق هواء نقي أن يغادروا إلى مسافة لا تقل عن ألفي كيلومتر.

كان الشتاء لا يزال محتدماً في المسارح الأكاديمية. فقد كان موسم الشتاء في ذروته. وكانت الملصقات تعلن عن العرض الأول لأوبرا «حُبّ البرتقالات الثلاث»، وعن «الحفلة الموسيقية الأخيرة لمغني التينور الشهير دميتري سميرنوف قبل سفره إلى الخارج»، وعن الكابتن العالمي الشهير بتماسيحه الستين في السيرك الحكومي الأول.

في صف أوخوتني التجاري كان هناك ارتباك. كان الباعة المتجولون غير المرخصين يركضون كالإوز، في كافة الاتجاهات، وبضاعتهم فوق رؤوسهم. وكان الشرطي يركض بكسل وراءهم. وكان الأطفال المتشردون يجلسون بالقرب من الحوض الاسمنتي يستنشقون بلذة رائحة الراتينج المغلي.

وعند زاوية شارع تفيرسكايا كانت حركة العربات، سواء منها السيارات الميكانيكية أو العربات التي تجرها الأحصنة، عاصفة جداً. وكان عمال النظافة يشطفون الشوارع والأرصفة بخراطيم رفيعة مثل سحق كراكوف. ومن جهة شارع ماخوفايا سارت عربة يجرها حصان، محملة بصناديق خشبية تحوي سجائر «ناشا ماركا» (ماركتنا).

– أيها المحترم! – صاح مخاطباً عامل النظافة – حَمِّمِ الحصان!

وافق عامل النظافة بلطف ووجه تيار الماء إلى حصان الجر الأحمر. ارتكز الحصان الأحمر بثبات على قائمته الأماميتين، سامحاً بتحميمه. وتحول لونه من أحمر إلى أسود وأصبح شبيهاً بنصب تذكاري لحصان. توقفت حركة العربات الميكانيكية وعربات الخيول. فالحصان الأحمر المستحم وقف في مكان غير مناسب. وخفت السيارات والعربات في شارع تفيرسكايا، وفي صف أوخوتني، وفي ماخوفايا، وحتى في ساحة تياترانايا من سرعتها وأخذت تتوقف. وأحاط بمكان الحادث من جميع الجهات طوابير الباصات. كان السائقون يتنفسون البنزين الساخن والغضب. وفُتحت أبواب حجراتها الزجاجية، وانبعث منها الصراخ: – ماذا حدث؟

– دح الحصان يستحم – زمجر الحوذي مكشراً عن أنياه.

– امش وافتح الطريق، يقولون لك، أيها الغراب!

تشكل اختناق مروري كبير، لدرجة أن الحركة توقف حتى في ساحة لوبيانكا. توقف عامل النظافة منذ فترة طويلة عن رش الحصان، ونشف جلد الحصان الأحمر وتغطي بالغبار، لكن الاختناق المروري كان يزداد باستمرار. لم يستطع الحوذي التخلص من هذا المأزق، وبقي الحصان الأحمر واقفاً في عرض الشارع.

كان يقف صاحب الامتياز في وسط الجلبة. كان أستاذ يقف في وسط عربة الأجرة، ومثل شرطي راكض إلى الحريق، كان يصدر تصريحات ساخرة ويتململ برجليه بعصبية.

بعد نصف ساعة تمت تسوية حركة المرور، ووصل المسافران إلى ساحة أربات، وبعد أن اجتازا بولفار بيريشيستنسكي، وانعطفا إلى اليمين، توقفا أمام سيفتسيف فراجيك.

– ما هذا المنزل – سأل هيبوليت ماتفييفتش.

نظر أستاذ إلى المنزل الوردي ذي العلية وأجاب:

– إنه داخلية الراهب بيرتولد شفارتز لطلاب الكيمياء.

– هل هو حقاً راهب؟

– حسناً، لقد مزحت، مزحت. داخلية سيماشكو.

وكما يليق بداخلية طلابية عادية، كان يقيم في داخلية طلاب الكيمياء منذ زمن أشخاص ليست لهم علاقة قريبة بالكيمياء. فقد تفرق الطلاب. فقسم منهم تخرج من الدراسة وتوجهوا إلى أماكن توظيفهم، وقسم آخر طرد لفشلهم الدراسي الأكاديمي. وهذا القسم بالذات، الذي كان يزداد عاماً بعد عام، شكل في المنزل الوردي جماعة وسيطة بين رفاق السكن والقرية الإقطاعية. وعبثاً كان يحاول طلاب الكيمياء الجدد اقتحام الداخلية والإقامة فيها. فالكيميائيون السابقون اتضح أنهم مبدعون بصورة غير عادية، وصدوا جميع الهجمات. فلوحوا بأيديهم لهذا المنزل وأهملوه. وأصبح يُعتبر وحشياً، برياً، واختفى من جميع خطط إدارة موسكو للعقارات. وكأنه لم يكن قائماً. في حين أنه كان موجوداً وقائماً، وكان أناس يعيشون فيه.

صعد صاحب الامتياز على الدرج إلى الطابق الثاني، وانعطفا إلى ممر مظلم تماماً.

– ضوء وهواء – قال أستاذ.

فجأة في الظلام، عند مرفق هيبوليت ماتفييفتش تماماً، استنشق أحدهم الهواء بصوت عال.

– لا تخف – قال أستاذ ملاحظاً – هذا ليس في الكريدور. إن خشب المعاكس، كما هو معروف من الفيزياء، أفضل ناقل للصوت. كن حذراً! تمسك بي! هنا، يجب أن تكون موجودة في مكان ما خزانة مقاومة للحريق.

أظهرت الصرخة التي أطلقها فوروبيانينوف على الفور، عندما ضرب صدره بزاوية حادة حديدية، أنه كانت هنا خزانة بالفعل.

– ماذا، مؤلمة؟ – استفسر أستاذ – هذا لا شيء. هذا عذاب جسدي. ولكن من الرهيب أن أتذكر كم كان هنا من العذاب المعنوي. هنا، على مقربة يوجد هيكل عظمي، ملك للطالب إيفانوبولو. لقد اشتراه في سوخاريفكا، لكنه خاف من الاحتفاظ به في غرفته. لهذا كان الزوار يصطدمون أولاً بالخزينة الحديدية، ثم يسقط عليهم الهيكل العظمي. كانت النساء الحوامل ساخطات جداً.

صعد الشريكان إلى العلية على السلم الدائري. كانت غرفة العلية الكبيرة مقطعة بقواطع من خشب المعاكس إلى قطع طويلة عرض كل منها ذراعان. وكانت الغرف تشبه علب الأقلام، والاختلاف الوحيد بينها أن هذه الغرف كانت تحوي بالإضافة إلى أقلام الرصاص والحبر أشخاصاً ومواقد.

توقف أستاذ عند الباب الرئيس وسأل بلطف: – كوليا، أنت في البيت؟

جواباً على ذلك، صدرت حركة من جميع القواطع ونظروا إليهما.

– في البيت – أجابوا من خلف الأبواب.

– مرة أخرى جاء إلى هذا الأحقق ضيوف في وقت مبكر! – همس صوت أنثوي من القاطع الأخير على اليسار.

– اسمحوا للرجل بأن ينام! – قال القاطع الثاني متذمراً.

في القاطع الثالث سُمع أزيز بفرح:

– جاؤوا إلى كوكا(كوليا – م.) من الشرطة. بسبب الزجاج أمس.

في القاطع الخامس لاذوا بالصمت. كان موقد الكاز(البريموس) يهدر، وسمع صوت تبادل القبلات.

دفع أستاذ الباب بقدمه. فاهتزت القواطع الخشبية كلها، واندفع صاحب الامتياز إلى فجوة كوكا. كانت الصورة التي ظهرت أمام عين أستاذ، رغم كامل براءته الخارجية، مريعة. فقد كان في الغرفة من الأثاث فراش واحد فقط بخط أحمر يرتكز على أربع طوبات. بيد أن هذا ليس ما سبب قلق أستاذ. فأثاث كوليا يعرفه منذ زمن. ولم يدهشه كوليا نفسه الذي كان جالساً على الفراش ماداً ساقيه. ولكن كانت تجلس إلى جانبه مخلوقة سماوية لدرجة أن أستاذ تجهم على الفور. فمثل هذه الفتيات لسن أبداً من صاحبات الأعمال – فمن أجل هذا لديهن عيون زرقاء وأعناق نظيفة. إنهن عشيقات، أو أسوأ، إنهن زوجات – زوجات محبوبات. وبالفعل، كان كوليا يدعو هذه المخلوقة باسم ليزا، ويخاطبها من دون تكلف بصيغة المفرد، ويسخر منها.

خلع هيبوليت ماتفييفتش قبعته ذات لون زيت الخروع.

دعا أستاذ كوليا إلى الممر. وتبادلا الهمس هناك فترة طويلة.

– صباح جميل سيدتي – قال هيبوليت ماتفييفتش.

ضحكت السيدة ذات العينين الزرقاوين ودون أي ارتباط بحديث هيبوليت ماتفييفتش، بدأت الحديث عن الحمقى الذين يعيشون في القاطع المجاور.

– إنهما يشعلان الموقد عمداً كي لا تُسمع قبلاتهما. ولكنك تفهم، أن هذا غباء. فنحن نسمع كل شيء. هما وحدهما بالذات لا يسمعان شيئاً بسبب صوت «البريموس». هل تريد أن أريك الآن؟ استمع!

وقالت زوجة كوليا التي أدركت جميع أسرار موقد «البريموس» بصوت عال:

– حمقى وحوش!

وسُمع من خلف الجدار صوت الموقد البريموس، وصوت القبلات.

– هل رأيت؟ إنهما لا يسمعان شيئاً. حمقى وحوش، بلهاء، مختلون عقلياً. رأيت!..

– نعم – قال هيبوليت ماتفييفتش.

– أما نحن فلا نحتفظ بالموقد (بريموس). ولم؟ نحن نتناول طعام الغداء في المطعم النباتي، رغم أنني ضد المطعم النباتي. ولكن عندما تزوجنا أنا وكوليا، كان يحلم بأننا سوف نذهب معاً إلى المطعم النباتي. وها نحن نذهب. أنا أحب اللحم كثيراً. وهناك يصنعون الكفتة من المعكرونة. ولكن، أرجوك، لا تخبر كوليا بأي شيء.

في هذا الوقت عاد كوليا مع أستاذ.

– حسناً، طالما أنه من المستحيل النزول عندك، فسوف نذهب إلى بانتيلي.

– صحيح، أيها الشباب – صاح كوليا – اذهبوا إلى إيفانوبولو. إنه صديقنا.

– زورونا – قالت زوجة كوليا – سنكون أنا وزوجي سعيدين بزيارتكما.

– من جديد يدعون الضيوف – عبروا عن سخطهم في القاطع الأخير – ألا يكفيهم ضيوفهم!

– وأنتم حمقى، أغبياء، مختلون عقلياً – قالت زوجة كوليا بصوت خافت – هذا ليس من شأنكم.

– سمعت، يا إيفان أندرييفتش – صاحوا مضطربين في القاطع الأخير – زوجتك تهيننا وأنت صامت.

وسمعت أصوات معلقين آخرين غير مرئيين من قواطع أخرى. وتعاضم التقاذف الكلامي. ونزل الشريكان إلى الأسفل، إلى إيفانوبولو.

لم يكن الطالب في غرفته. أشعل هيبوليت ماتفييفتش عود ثقاب. علقت على بابه ورقة: «سأكون في البيت في الساعة التاسعة. بانتيلي».

– ليست مشكلة – قال أستاذ – أنا أعرف أين المفتاح.

وتلمس بيده تحت الخزانة الحديدية المقاومة للاحتراق، وعثر على المفتاح وفتح الباب.

كانت غرفة الطالب إيفانوبولو بمقاييس غرفة كوليا نفسها، بيد أنها كانت ركنية. وكان أحد جدرانها حجرياً، وهذا ما كان يفخر به الطالب كثيراً. ولاحظ هيبوليت ماتفييفتش بحزن، أن الطالب ليس لديه حتى الفراش.

– سنرتب أمورنا بصورة ممتازة – قال أستاذ – سعة تكعيبية جيدة بالنسبة لموسكو. إذا ما نمنا نحن الثلاثة على الأرض معاً، فستبقى أيضاً مساحة صغيرة. أما بانتيلي، ابن الكلبة! يهمني أن أعرف أين وضع الفراش؟

كانت النافذة تطل على الجادة. وكان يتواجد فيها شرطي. وفي المقابل، في البناء المشيد بأسلوب البرج القوطي، كانت تقع سفارة دولة صغيرة. وخلف السور الحديدي كانوا يلعبون بالتنس. كانت الكرة تطير. وتسمع صيحات قصيرة.



– آوت – قال أستاذ – مستوى اللعب منخفض. ولكن، تعال لنستريح.

مدّ صاحب الامتياز على الأرض عدة صحف. وأخرج هيبوليت ماتفييفتش وسادته الصغيرة التي جلبها معه.

لم يمر الوقت الكافي للاستلقاء كما يجب والاطلاع على البرقيات وأخبار الحياة المسرحية حتى سمع من الغرفة المجاورة ضجيج من النافذة المفتوحة، وصاح جار بانتيلي بلاعبي التنس متحدياً: – عاشت الجمهورية السوفييتية! فليسقط همجيو الامبريالية!

تكررت هذه الصرخات عشر دقائق. دُهِش أستاذ ونهض من على الأرض.

– من هذا الهاوي الذي يجمع الهمجيين؟

بعد أن مد رأسه من رف النافذة، ونظر إلى اليمين شاهد أستاذ شابّين عند النافذة المجاورة. ولاحظ على الفور، أنهم يصرخون عن الهمجيين عندما يقترب من نافذتهم الشرطي من موقعه عند السفارة. كان الشرطي ينظر بقلق إلى الشباب تارة، وإلى ما خلف السور الحديدي، حيث كانوا يلعبون بالتنس، تارة أخرى. كان وضعه صعباً. وكانت الصرخات عن الهمجيين مستمرة، ولم يعرف ما عليه أن يفعل. فمن ناحية، هذه الصيحات كانت طبيعية للغاية، ولم تتضمن أي شيء معيب. ولكن من ناحية أخرى، فإن هؤلاء الهمجيين في سراويلهم البيضاء، الذين كانوا يلعبون بالتنس خلف السور الحديدي، كان من الممكن أن يعتبروها موجهة إليهم ويشعرون بالإهانة. ولعدم قدرته على التحليل في هذا الوضع الناشئ، نظر الشرطي بتوسل إلى الشباب وانتهى بأن أمرهم بالابتعاد والتوقف. وأخيراً انتهى الإحراج الدبلوماسي. فقد جاء ضيوف إلى الشباب، وانشغلوا بالحل العلني الجمهوري للعبة الشطرنج.

انهار أستاذ على الصحيفة ببرقياتها ونام. أما هيبوليت ماتفييفتش فكان قد غفل منذ مدة طويلة.

## الفصل الثامن عشر أيها المواطنون، احترموا المفارش!

- ليذا، تعالي نذهب لتناول طعام الغداء!.

- لا أريد. لقد تناولت طعام الغداء بالأمس.

- أنا لا أفهمك.

- لن أذهب لأكل أرنباً مزيفاً.

- هذا غباء!

- لا يمكنني التغذي بالمرتديلا النباتية.

- اليوم ستأكلين حلوى «شارلوتكا» من الخبز والتفاح والكريما.

- ليست لدي رغبة.

- تحدثي بصوت خافت. كل شيء مسموع.

- وانتقل الزوجان الشابان إلى الهمس الدرامي.

بعد دقيقتين، أدرك كوليا للمرة الأولى خلال ثلاثة أشهر من الحياة الزوجية، أن زوجته الحبيبة تحب نقانق الجزر والبطاطا والبازلاء أقل بكثير مما يحبها هو.

- إذن، أنت تفضلين طعام الكلاب على طعام الحمية الصحي؟ - صاح كوليا، دون أن يأخذ في اعتباره جيرانه الذين يسترقون السمع.

- تحدث بصوت خافت - صرخت ليذا بصوت عال - ثم إنك تعاملني معاملة سيئة. نعم، أنا أحب اللحم أحياناً. وما هو الخطأ في هذا.

صمت كوليا مذهولاً. فهذا المنعطف كان غير متوقع بالنسبة له. فاللحم يشكل فجوة كبيرة في ميزانية كوليا يصعب تغطيتها. كان الزوج الشاب يتنقل على طول الفراش، بعد أن لفته ليذا المتوردة الخدين على شكل عقدة وجلست عليه، ويجري حسابات يائسة.

كان العمل في النسخ على الورق الشفاف في مكتب «تكنو سيلا» للرسم الهندسي يعطي كوليا كولاشوف في الأشهر الأكثر نجاحاً ما لا يزيد على أربعين روبلاً. لم يكن يدفع كوليا

آجار الشقة. ففي قريته المتخلفة لم يكن هناك بلدية، وكان مفهوم آجار الشقة هناك مفهوماً تجريبياً. وكان يصرف عشر روبلات على تدريب ليذا على التفصيل والخياطة مع شهادة المدرسة الهندسية للبناء. وكانت وجبة غداء واحدة لشخصين (في الصحن الأول - حساء البورش التقشفي، وفي الصحن الثاني - أرنب مزيف أو شعيرية حقيقية) كانا يقتسمانها معاً في المطعم النباتي المسمى «لا تسرق»، تستهلك من ميزانية الزوجين ثلاثة عشر روبلاً في الشهر. أما بقية النقود فكانت تطير وتصرف ولا يعرفان كيف. وهذا أكثر ما كان يُذهل كوليّا. «أين تذهب النقود؟» - كان يفكر، ساحباً بقلم الرسم على ورقة شفافة سماوية اللون خطأ طويلاً رقيقاً. في مثل هذه الظروف، كان الانتقال إلى تناول اللحوم يعني الهلاك. ولهذا قال كوليّا بحماس: - أنت فكري، التهام جثث الحيوانات المذبوحة! إنه مثل أكل لحوم البشر تحت قناع الثقافة! جميع الأمراض تأتي من اللحوم.

- بالطبع - قالت ليذا بسخرية خجولة - مثل التهاب اللوزتين.

- نعم، نعم، والتهاب اللوزتين أيضاً! وما رأيك؟ فالجسم الذي أضعفه استهلاك اللحوم الدائم، عاجز عن مقاومة العدوى.

- يا للغباء!

- هذا ليس غباءً. الغبي هو يسعى إلى ملء معدته، دون الاهتمام بكمية الفيتامينات.

- أنت تريد القول بأنني حمقاء؟

- هذا غباء.

- حمقاء غبية؟

- دعي هذا من فضلك، ما هذا، بالفعل؟

صمت كوليّا فجأة. ومع حجب المتزايد لخلفية المعكرونة الصلبة والطرية، والعصيدة، ووجبات البطاطا المختلفة، برزت أمام عين كوليّا الداخلية شريحة كبيرة مصنوعة من لحم الخنزير. وكما يظهر فقد خرجت للتو من المقلاة. كانت لا تزال تفرقع، وتبقق وتصدر دخان التوابل. وكان العظم ظاهراً على الشريحة مثل مسدس المبارزة.

- حاولي أن تفهمي - صاح كوليّا - شريحة ما من لحم الخنزير يمكنها أن تأخذ أسبوعاً من عمر الإنسان!

- فلتأخذ! - قالت ليزا - إن الأرنب المزيف يقضم نصف عام من عمره. البارحة، عندما أكلنا صحن الجزر المشوي، كنت أشعر بأنني أحتضر. لكنني لم أكن أريد أن أخبرك.

- ولماذا لم تريدي أن تقولي؟

- لم يكن لدي ما يكفي من القوة. كنت أخشى من أن أبكي.

- والآن لا تخافي؟

- الآن لم أعد أهتم.

وبكت ليزا.

- ليف تولستوي - قال كوليا بصوت مرتجف - لم يكن يأكل اللحم.

- نعم م... - أجابت ليزا وهي تحوزق بدموعها - كان الكونت يأكل الهليون.

- الهليون ليس لحماً.

- وعندما كتب رواية «الحرب والسلام» كان يأكل اللحم! كان يأكل، ويأكل! وعندما كتب «أنا كارينينا» كان يلتهم اللحم، يلتهم، ويلتهم.

- اسكتي!

- كان يلتهم، ويلتهم، ويلتهم.

- وعندما كتب «لحن كرويتز» هل كان يلتهم اللحم أيضاً؟ - سأل كوليا بصورة لاذعة.

- «لحن كرويتز» رواية صغيرة. كان عليه أن يحاول كتابة رواية «الحرب والسلام»، بطعام يقتصر على السجق النباتي!

- ماذا بك أخيراً، تشبثت لي بكاتبك تولستوي؟

- أنا تشبثت لك بتولستوي؟ أنا؟ أنا تشبثت لكم بتولستوي؟

تحول كوليا أيضاً إلى صيغة الجمع «أنتم». كانوا في القواطع يهللون مبتهجين. سحبت ليزا على عجل قبعة الصوف الزرقاء من نقرتها وغطت بها رأسها.

– إلى أين تذهبين؟

– دعني بهدوء لوحدي. أنا ذاهبة لعمل ما.

– وهربت ليزا.

– «إلى أين يمكنها أن تذهب» – فكر كوليا. وأخذ يسمع: – كثير من الحرية أعطيت للأنتى في عهد السلطة السوفييتية – قالوا في القاطع الأخير على اليسار.

– يمكنها أن تغرق فيها! – قرروا في القاطع الثالث.

أما القاطع الخامس فأشعل موقد «البريموس» واهتم بتبادل القبلات المعتادة.

كانت ليزا تركض في الشوارع مضطربة.

\*\*\*

كانت تلك الساعة من يوم الأحد عندما كان المحظوظون ينقلون المفارش في شارع أرباب من السوق.

إن المتزوجين حديثاً ومتوسطي الحال السوفييت هم المشترون الرئيسون للمفارش ذات النوابض. كانوا ينقلونها في وضع عمودي ويحضنونها بأيديهم الاثنتين. وكيف لا يحضنون أساس سعادتهم السماوي بزهوره اللامعة!

أيها المواطنون! احترموا المفرش ذو النوابض بأزهاره الزرقاء! إنه موطن العائلة، وبداية ونهاية الأثاث، والأساس العام والكامل للراحة المنزلية، وقاعدة الحب، وأب «البريموس» (وابور الكاز)! كم هو لذيذ النوم على الأنغام الديمقراطية لنوابضه! وأية أحلام رائعة يراها النائم على قماشه الخشن السماوي! وأي احترام كبير يتمتع به كل من يمتلك مفرشاً.

الإنسان المحروم من المفرش مثير للشفقة. إنه بلا وجود. فهو لا يدفع ضرائب، ولا يملك زوجة، ومعارفه لا يقرضونه المال «يعدونه دوماً: حتى يوم الأربعاء»، وسائقو سيارات الأجرة يلحقونه بكلمات مهينة، والفتيات يضحكن عليه، فهن لا يحببن المثاليين.

الإنسان المحروم من المفرش يكتب الشعر في الغالب: تحت الرنين الناعم لساعات العاصفة

جميل الارتخاء في مفرش هزاز.

ورقائق الثلج تتساقط في الفناء

وكالأحلام تطير الغربان.

إنه يعمل خلف المكتب العالي للتلغراف، مؤخراً أعمال أصحاب المفارش، الذين جاؤوا لإرسال البرقيات.

إن المفرش يحطم حياة الإنسان. وثمة قوة ما جذابة، ولم تدرس بعد، كامنة في تنجيده ونوابضه. فالناس والأشياء يتقاطرون على صرير نوابضه غير المطلوب. يحضر الوكيل المالي والفتيات. يطلبون صداقة أصحاب المفارش. يفعل الوكيل المالي هذا لأغراض مالية تصب في مصلحة الدولة، أما الفتيات فيستجنبن براءة لقوانين الطبيعة.

يبدأ ازدهار الشباب. بعد أن يجمع الوكيل المالي الضرائب، كما تجمع النحلة رشوة الربيع، يطير بهدير بهيج إلى شرطة منطقته من خلية النحل. أما الفتيات المختفيات فتحل محلهن الزوجة وموقد بريموس ماركة «يوفيل رقم 1».

المفرش لا يعرف الشبع. إنه يتطلب تقديم القرايين. في الليالي يصدر صوت الكرة المتساقطة. إنه بحاجة إلى منضدة. إنه بحاجة إلى طاولة بقواعد غبية. وبإثارته الصخب بنوابضه، يطالب بالاستائر للنوافذ والأبواب وبأواني المطبخ. إنه يدفع الإنسان ويقول له: - اذهب واشترِ دفة ومرقاق للغسيل!

- إنني أخجل من وضعك يا رجل، حتى الآن لا توجد سجادة لديك!

- اعمل، اشتغل! سأنجب لك الأطفال قريباً! أنت بحاجة للمال، لشراء الحفاضات وعربة الأطفال.

المفرش يتذكر كل شيء ويعمل كل شيء على طريقته الخاصة.

حتى الشاعر لا يمكنه الهرب من المصير المشترك. وها هو يحمل من السوق مفرشاً، متشبثاً برعب ببطنه الناعم. يخاطبه المفرش قائلاً: - سأكسر عنادك، أيها الشاعر! لن تكون بحاجة للركض إلى مكتب التلغراف وكتابة الأشعار. وعموماً، هل هناك ما يستحق كتابتها؟ قل! والربح سيكون دوماً لصالحك. فكر بالزوجة والأولاد.

- ليست لدي زوجة! - يصرخ الشاعر، مبتعداً عن المعلم ذي النوابض.

- ستكون لديك زوجة. ولا أضمن أنها ستكون أجمل فتاة على وجه الأرض. حتى أنني لا أعرف، هل ستكون لطيفة طيبة. استعد لكل شيء. سيولد لديك أطفال.

- أنا لا أحب الأطفال.

– ستحبهم!

– لا تخيفني، أيها المواطن المفرش!

– اسكت، أيها الأحمق! أنت لا تعرف أشياء كثيرة. أنت ستأخذ قرضاً من اتحاد الصناعات الخشبية في مقاطعة موسكو لشراء الأثاث والموبيليا.

– سأقتلك، أيها المفرش!

– أيها الجرو، إذا تجرأت على القيام بذلك، فسيشي بك الجيران إلى البلدية.

وهكذا فكل يوم أحد، وعلى وقع صرير المفارش السعيد يتجول السعداء في أنحاء موسكو.

ولكن يوم الأحد في موسكو رائع، ليس لهذا وحده بالطبع. إن يوم الأحد هو يوم المتاحف.

ثمة فئة خاصة من الناس في موسكو. إنها لا تفهم شيئاً في الفن التشكيلي، ولا تهتم بالهندسة المعمارية، ولا تحب الآثار القديمة. وهذه الفئة تزور المتاحف حرصاً لأن المتاحف تقع في أبنية رائعة. يتمشى هؤلاء الناس في قاعات مبهرة، ويتأملون بحسد السقوف المنقوشة المطلوبة، ويلمسون بأيديهم ما يحظر لمسه، وتردد بلا انقطاع: – إيه! هكذا كان الناس يعيشون!

ولا يهمهم أن الجدران رسمها الفنان الفرنسي بوفي دو شافان. يهمهم أن يعرفوا كم كلفت هذه النقوش صاحب القصر السابق. يصعدون على أدراج بمنحوتات رخامية في الردهات ويتخيلون كم كان عدد الخدم الواقفين هنا، وكم كان يحصل كل خادم على راتب وعلى إكراميات. المدفأة الجدارية (الشومينييه) مغطاة بالخزف، ودون الانتباه إلى الخزف، يقررون بأن المدفأة – قطعة أثاث غير مناسبة: فهي تلتهم الكثير من الحطب. غرفة الطعام المغطاة بلوحات البلوط المطرزة، هم لا يلقون نظرة إلى نقوشها الرائعة. تُقلقهم فكرة واحدة: ماذا كان يأكل هنا التاجر، المالك السابق للقصر، وكم كان سيكلفه في ظل الغلاء الشديد الآن؟

يمكنك أن تجد مثل هؤلاء الناس في أي متحف. في الوقت الذي كانت فيه مجموعات الزوار تنتقل بنشاط من تحفة فنية لأخرى، كان أحد هؤلاء الناس واقفاً في منتصف القاعة، ودون النظر إلى أي شيء، يدمدم بحنين: – إيه! كان الناس يعيشون ويتمتعون!

كانت ليذا تركض في الشارع، مبتلعة دموعها. وكانت أفكارها تقودها. كانت تفكر بحياتها البائسة والسعيدة.

«ها، لو كان لدينا طاولة أخرى وكرسیان. لكان وضعنا جيداً جداً. ومن الضروري، في نهاية الأمر، اقتناء موقد «بريموس». يجب أن نرتب وضعنا بطريقة من الطرق».

أخذت تبطئ في سيرها، لأنها تذكرت فجأة خلافها مع كوليا. شعرت برغبة شديدة لتناول الطعام. واندلعت الكراهية في نفسها نحو زوجها فجأة.

– إنها وصمة عار ببساطة! – قالت بصوت عالٍ.

وشعرت برغبة أكبر لتناول شيء من الطعام.

– حسناً، حسناً. أنا نفسي أعرف ماذا أفعل.

واشتريت ليزا، وهي خجلة، شطيرة من السجق المسلوق من عند البائعة. ومهما كانت جائعة، بدا لها أن من غير اللائق أن تأكل الشطيرة في الشارع. فمهما كان الأمر. كانت هي مالكة مفروش وتعرف الحياة بشكل مرهف. ألقت نظرة وولجت إلى مدخل قصر من طابقين. ولشعورها هناك بمسرة كبيرة، تناولت شطيرتها وبدأت تأكلها. فالسجق المسلوق المصنوع من لحم الكلاب كان مغرياً. دخلت جماعة كبيرة من الزوار إلى المدخل. ومر الزوار أما ليزا الواقفة فأخذوا يلقون عليها نظراتهم.

– «فليروني!» – قررت ليزا في نفسها بمرارة.



## الفصل التاسع عشر متحف الآثار

مسحت ليزا فمها بمنديل ونفضت الفُتات من بلوزتها. وشعرت بشيء من المرح. كانت تقف أمام يافطة: **متحف فن الآثار**

كانت عودتها إلى بيتها غير لائقة. ولم يكن هناك من تذهب إليه. وكانت تحمل في جيبها عشرين كوبيكاً. وقررت ليزا بدء حياتها المستقلة بزيارة المتحف. وبعد أن تحققت من وجود النقود، ذهبت ليزا إلى الردهة.

التقت هناك على الفور رجلاً بلحية مهمة، كان يلقي نظرة مؤلمة على عمود من الملكية وكان يتكلم من بين شاربيه: - كان الناس يعيشون بثراء.

نظرت ليزا إلى العمود باحترام وصعدت إلى الأعلى.

تجولت ليزا عشر دقائق في غرف مربعة صغيرة، ذات سقوف منخفضة، بحيث كل شخص يدخل إليها كان يبدو عملاقاً.

كانت هذه الغرف مفروشة بأثاث من طراز الأمير بافلوف، بخشب الماهوجني والبتولا الكاريلية - كان الأثاث محافظاً ورائعاً ومتيناً. خزانتان مربعتان بأبوابهما الزجاجية المتقاطعة بالرماح كانتا مقابل طاولة المكتب. وكانت طاولة المكتب غاصة بالتحف. فكان الجلوس خلفها أشبه بالجلوس خلف ساحة تياترانايا (ساحة المسارح - م.)، علاوة على ذلك كان المحبرة عليها مثل مسرح البولشوي بأعمدته وبخيوله الأربعة البرونزية التي تجر أبولو لحضور العرض الأول لباليه «الخشخاش الأحمر». أو هكذا بدت على الأقل لليزا، التي تربت على الجزر مثل أرنب بري. وفي الزوايا كانت هناك كُتبات ذات ظهور مرتفعة منحنية في أعلاها مثل قرون الكبش. وكانت الشمس تغطي تنجيد الكراسي بلونه الخوخي.

كان بודהا الجلوس على هذه الكنبه، لكن الجلوس على الكنبات كان محظوراً.

كان ليزا تقارن في ذهنها كيف يمكن أن تبدو كنبه ثمينة من طراز الأمير بافل إلى جانب فراشها بخطوطه الحمراء. ونتج معها - لا بأس. فقد قرأت على الجدار لوحة حول الأساس العلمي والأيدولوجي للأمير بافل، وشعرت بخيبة الأمل لأنه ليس لديها هي وكوليا غرفة في هذا القصر، وخرجت إلى رواق غير متوقع.

على اليسار من الأرضية نفسها كانت هناك نوافذ منخفضة نصف دائرية. ومن خلالها، وتحت قدميها قاعة ضخمة بيضاء بلونين ذات أعمدة. وكانت القاعة تغص بالمفروشات ويتجول فيها الزوار. توقفت ليزا. فهي لم يسبق لها أن رأت في بلدتها قاعة تحت قدميها.

كانت تنظر إلى الأسفل، مندهشة ومبتهجة. وفجأة رأت هناك ينتقل من الكنبات إلى المكتب ضيفاهما اللذان حضرا اليوم عندهما - بندر ورفيقه رجل وجيه متقدم في السن، حليق الرأس.

- هذا أمر حسن! - قالت ليذا - لن أشعر بالملل.

شعرت بكثير من الفرح، وركضت إلى الأسفل وتاهت على الفور. فقد وجدت نفسها في غرفة ضيوف حمراء، كان فيها حوالي أربعون قطعة من المفروشات. لقد كانت موبيليا من خشب الجوز بقوائم محنية. واضطرت للركض إلى الورا عبر غرفة مستديرة بإنارة علوية، مفروشة، كما كان يبدو بوسائد منقوشة بالأزهار.

كانت تركض أمام كنبات من الديباج من عصر النهضة الإيطالية، وخزائن هولندية، أمام سرير غوطي كبير مغطى برداء فضفاض يقف على أربعة أعمدة سوداء مبرومة. وإذا ما استلقى شخص على مثل هذا السرير فلن يبدو أكبر من جوزة.

كانت القاعة في مكان ما تحت قدميها، ربما إلى اليمين، ولكن كان من المستحيل الوصول إليها.

أخيراً، سمعت ليذا أصوات الزوار، الذين يصغون دون انتباه إلى دليل المجموعة، الذي استنكر النوايا الامبريالية للإمبراطورة كاترين الثانية بخصوص محبة الامبراطورة الفقيدة للأثاث من طراز لويس.

كانت هذه قاعة كبيرة بلونين وأعمدة. مشت ليذا إلى الطرف الآخر، حيث كان الرفيق بندر الذي تعرفه يتبادل حواراً حامياً مع رفيقه حليق الشعر.

وعند اقترابها سمعت ليذا صوتاً رناناً:

- الأثاث أنيق وحديث. لكن هذا، كما يبدو، ليس ما يلزمنا.

- نعم، ولكن هنا، من الواضح، أنه ثمة قاعات أخرى. وعلينا أن نتفحص كل شيء بصورة منهجية.

- مرحباً - قالت ليذا.

استدار الاثنان وتجهما وجههما على الفور.

- مرحباً، أيها الرفيق بندر. حسناً أنني وجدتكما. فقد كنت أشعر وحدي بالملل. تعالاً لنشاهد كل شيء معاً.

نظر صاحب الامتياز أحدهما إلى الآخر. انحنى هيبوليت ماتفييفتش مرحباً، رغم عدم سروره من أن ليزا يمكن أن تؤخرهما في قضيتهما الهامة، وهي البحث عن الماس في الكراسي.

– نحن من أبناء الأقاليم – قال بندر بفارغ الصبر – ولكن، ما الذي جاء بك إلى هنا وأنت الموسكوفية؟

– جئت بمحض الصدفة. تشاجرت مع كوليا.

– وكيف؟ – أشار هيبوليت ماتفييفتش.

– حسناً، فلنغادر هذه القاعة – قال بندر.

– أنا لم أشاهدها بعد. إنها جميلة جداً.

– ها قد بدأت! – همس أستاب في أذن هيبوليت ماتفييفتش. وأضاف، مخاطباً ليزا – هنا لا يوجد أي شيء يستحق المشاهدة. إنه أسلوب الانحطاط. من عصر كيرينسكي (ألكسندر كيرنسكي رئيس وزراء الحكومة المؤقتة في روسيا بعد ثورة شباط/فبراير عام 1917. م.) – هنا، قيل لي ثمة أثاث وموبيليا من صنع المعلم هامبز – قال هيبوليت ماتفييفتش – فلنتوجه إلى هناك من فضلكم.

وافقت ليزا، وأمسكت بيد فوروبيانينوف (بدا لها ممثلاً لطيفاً لرجال العلم) وتوجهت إلى المخرج. وبالرغم من جدية الوضع وحلول اللحظة الحاسمة في البحث عن الثروة، سار بندر خلف الثنائي متشابكي الأيدي، وهو يضحك ساخراً. فقد أضحكه مشير «الكومانش» في دور الفارس المعجب.

كانت ليزا محرجة جداً من صاحبي الامتياز. وبينما كانا يحددان بنظرة واحدة أن الأثاث المطلوب غير موجود في هذه الغرفة، ويتجهان بصورة لا إرادية إلى الغرفة التالية، كانت ليزا تمكث طويلاً في كل قسم. كانت تقرأ بصوت عال جميع الانتقادات المطبوعة للأثاث، وتدلي بتصريحات حادة تجاه الزوار وتمكث طويلاً أمام كل معروض. وبصورة لا إرادية، ودون أن تلاحظ هي نفسها، كانت تقيس الموبيليا التي تراها مع غرفتها وحاجاتها. فالسرير القوطي لم يرق لها على الإطلاق. فهو كبير جداً. وحتى إذا ما تمكن كوليا بأعجوبة من الحصول على غرفة بثلاثة أذرع مربعة، فإن سرير القرون الوسطى هذا لن يسع فيها. بيد أن ليزا تجولت طويلاً حول السرير، وقاست بخطوات قدمها مساحته الحقيقية. كانت تشعر ليزا بكثير من المرح. ولم تكن تلاحظ سحنتي رفيقيها العكرتين، اللذين لم تسمح لهما أخلاق الفرسان بتركها والاندفاع إلى غرفة أثاث المعلم هامبز.

– سنصبر – همس أستاذ – الأثاث لن يهرب؛ وأنت، أيها المشير، لا تعصر الفتاة. أنا أغار.

ابتسم فوروبيانينوف راضياً عن نفسه.

كانت القاعات تمتد طويلاً والحركة بينها بطيئة. وبدأ وكأنها بلا نهاية. فأثاث عصر ألكسندر كان ممثلاً بطقوم عديدة. وقد حازت حجوماً غير الكبيرة نسبياً على إعجاب ليذا الكبير.

– انظر، انظر! – صرخت ليذا بثقة، وهي تشد فوروبيانينوف من كمه – أترى هذا المكتب؟ إنه مناسب جداً لغرفتنا. صحيح؟

– موبيليا رائعة – قال أستاذ بسخط – لكنها من عصر الانحطاط.

لم يترك الأثاث في نفس هيوليت ماتفييفتش الانطباع الذي يستحقه. في حين أنه كان رائعاً. وكان اكتمال أشكاله يذهل العين.

قالت ليذا حالمة:

– ربما كان بوشكين يجلس على هذه الكنبه.

– من تقولين؟ بوشكين؟ – سأل أستاذ – الآن سأستعلم.

قرفص أستاذ على ركبتيه ونظر إلى تحت الكنبه.

– كان يجلس عليه (أو هنري) عندما كان متواجداً في السجن الأمريكي سينغ – سينغ. هل أنت راضية؟ والآن يمكننا بجرأة الانتقال إلى قاعة أخرى.

شاهد صاحب الامتياز مجموعة كبيرة من الأرائك، ومنصات الكتابة، وخزائن الواجهات الزجاجية، والخزائن، من جميع الأنماط وجميع العصور وجميع الأزمنة، وكانت لا تزال القاعات الصغيرة تمتد وتستطيل.

وعند دخولهم غرفة الضيوف الحمراء، قالت ليذا: – لقد كنت هنا، أعتقد أنها لا تستحق التوقف.

ولدهشتها، جمد رفيقاها غير المباشرين بالأثاث عند باب الغرفة، كحارسين.

– لماذا توقفتما؟ هيا بنا! لقد تعبنا.

– انتظري – قال هيوليت ماتفييفتش بعد أن أفلت يدها – دقيقة واحدة.

كانت غرفة الضيوف الكبيرة مكتظة بالأثاث. وكانت كراسي هامبز مصفوفة على طول الجدار وحول الطاولة. كما كانت الأريكة الموجودة بالزاوية محاطة بالكراسي. وكانت أرجلها المحنية وظهورها المريحة معروفة لهيبوليت ماتفييفتش. نظر أستاذ إليه نظرة فاحصة. احمر وجه هيبوليت ماتفييفتش. قال أستاذ ليزا: - أنت متعبة، أيتها الشابة، اجلسي هنا، واستريحي. ونحن سنسير قليلاً. هذه قاعة مثيرة للاهتمام، كما يبدو.

أجلسا ليزا. وانسحب صاحب الامتياز نحو النافذة.

- هل الكراسي ذاتها - سأل أستاذ.

- كأنها هي. يجب فحصها بدقة أكبر.

- جميع الكراسي هنا؟

- الآن سأعدها. انتظر، انتظر... وأخذ فوروبيانينوف ينقل عينيه من كرسي لآخر.

- أرجو المَعذرة - قال أخيراً - عشرون كرسيًا. هذا غير ممكن. يجب أن يكون عددها الإجمالي عشرة فقط.

- أنت انظر بانتباه أكثر. ربما هذه ليست تلك الكراسي.

وأخذا يسيران بين الكراسي.

- ماذا وجدت؟ - حثه أستاذ.

- الظهر في هذه الكراسي وكأنه ليس كظهر كراسينا.

- إذن، ليست هي؟

- ليست هي.

- يبدو لي، عبثاً ارتبطت بك.

كان هيبوليت ماتفييفتش مكتئباً للغاية.

- حسناً - قال أستاذ - يستمر الاجتماع. الكرسي ليس بإبرة. سنعثر عليها. اعطني أمر التوزيع. لا بد من الدخول في تواصل غير سار مع إدارة المتحف. اجلس إلى جانب الفتاة. سأتي قريباً.

– لماذا أنت حزين إلى هذه الدرجة؟ – قالت له ليزا – هل أنت مرهق؟

التزم هيبوليت ماتفييفتش الصمت.

– هل تعاني من صداع في الرأس؟

– نعم، قليلاً. الهموم، وكما تعرفين. انعدام الحنان النسائي يؤثر على نمط الحياة.

أصيب ليزا بالدهشة في بادئ الأمر، ثم بعد أن ألقت نظرة على محاورها حليق الرأس، شعرت فعلاً بالشفقة نحوه. كانت عينا فوروبيانينوف تنطقان بالمعاناة. ولم تكن النظارة تخفي الانتفاخات الظاهرة بصورة حادة حول عينيه. فالانتقال السريع من الحياة الهادئة لمدير مكتب الأحوال المدنية في المقاطعة إلى حياة مزعجة لا تعرف الراحة والاستقرار لصياد الماس ولمغامر لم تأت كهدية. لقد أصبح هيبوليت ماتفييفتش نحيلًا للغاية، وبدأ يشعر بالألم في كبده. وفي ظل رقابة بندر الصارمة كان هيبوليت ماتفييفتش يفقد ملامحه الأصلية، وسرعان ما ذاب في العقلية الجبارة لابن الجالية التركية. والان، عندما أصبح وحيداً مع المواطنة كالاتشوف الساحرة، كان بوده أن يحدثها عن جميع مصائبه ومخاوفه، لكنه لم يجرؤ على فعل ذلك.

– نعم – قال ناظراً بحنان إلى محاورته – تلك هي الأمور. وكيف حالك، يا إيزافيتا...

– بتروفا. وما هو اسمك؟

وتبادلا الأسماء الأولى وأسماء الأب.

«قصة حب، يا عزيزي» – خاطب هيبوليت ماتفييفتش نفسه، متأملاً وجه ليزا البريء. بكثير من الشغف والرغبة الشديدة، كان يرغب هذا المشير المتقدم في السن بحنان امرأة يؤثر انعدامه بصورة قاسية على نمط حياته، لدرجة أنه سرعان ما أخذ يد ليزا الناعمة بيديه المتجعدتين وبدأ يتحدث بحماس عن باريس. فقد رغب أن يكون ثرياً، كريماً، مضيافاً لا يقاوم. كان بوده أن يجذب ويشرب على صوت الأوركسترا شمبانيا «ريديري» الملونة من الأوركسترا النسائية في حجرة خاصة. وماذا يمكنه الحديث مع هذه الفتاة التي لا تعرف شيئاً، بلا شك، لا عن شمبانيا «ريديري»، ولا عن الأوركسترا النسائية، والتي بطبيعتها لا يمكنها أن تدرك سحر هذا النوع. لكنه رغب كثيراً بأن يكون جذاباً! وأغوى هيبوليت ماتفييفتش ليزا بقصصه عن باريس.

– هل أنت باحث علمي؟ سألته ليزا.

– نعم، على نحو ما – أجاب هيبوليت ماتفييفتش، مدركاً أنه منذ تعارفه مع بندر اكتسب وقاحة لا تميزه في السنوات الأخيرة.

– وكم عمرك، مع اعتذاري عن الوقاحة؟

– بالنسبة للعلم الذي أمثله الآن، ليس للعمر أية علاقة.

وبهذه الإجابة السريعة والهادفة ألحق بليزا الهزيمة.

– ومع ذلك، كم؟ ثلاثون؟ أربعون؟ خمسون؟

– ثمانية وثلاثون تقريباً.

– أوه! رائع، تبدو أصغر بكثير.

شعر هيبوليت ماتفييفتش بنفسه سعيداً.

– متى ستسعديني برؤيتك من جديد – سألها هيبوليت ماتفييفتش في أنفها.

شعرت ليذا بخجل شديد. فتململت في كنبتها وشعرت باللهفة.

– أين اختفى الرفيق بندر؟ – سألت بصوت ناعم.

– إذن، متى – سأل فوروبيانينوف بفارغ من الصبر – متى وأين سنلتقي؟

– حسناً، لا أعرف. عندما تريد.

– هل يمكننا اليوم؟

– اليوم؟

– أرجوك.

– حسناً. وليكن اليوم. تفضل لعندنا.

– لا، تعالي لملتقي في الخارج. فالآن أصبح الطقس رائعاً. أتعرفين هذه الأبيات الشعرية: «إنه شهر مايو اللعوب، إنه شهر مايو الساحر، ينفخ بهوائه المنعش».

– هذه قصيدة جاروف؟

– نعم... أظن. إذن، اليوم. متى؟

– يا لك من غريب! أينما تريد. أتريد عند الخزانة المقاومة للاحتراق؟ أتعرفها؟ عندما يحل الظلام...

وما إن تمكن هيبوليت ماتفييفتش من تقبيل يد ليزا، وهذا ما فعله بصورة احتفالية للغاية، وعلى ثلاثة أقسام، حتى عاد أستاذ. كان أستاذ عملياً جداً.

– عفواً يا مدموازيل، – قال بسرعة – ولكن لن نتمكن وصديقي من مرافقتك. انكشفت أمامنا قضية صغيرة لكنها مهمة جداً. وعلينا التوجه بسرعة إلى مكان معين.

توقفت أنفاس هيبوليت ماتفييفتش.

– إلى اللقاء، إلبزافيتا بتروفنا – قال على عجل – اعذرنا، اعذرنا، اعذرنا، لكننا في عجلة شديدة من أمرنا.

وهرب الشريكان، تاركين ليزا التي أصيبت بالذهول في القاعة المكتظة بأثاث هامبز.

– لولاي – قال أستاذ عندما هبطا على الدرج – لما نتج أي شيء. صِلْ من أجلي! صِلْ، صِلْ، ولا تخف، فرأسك لن ينكسر! اسمع! أثاثك ليس له قيمة متحفية. ومكانه ليس في المتحف بل في ثكنة كتيبة التأديب. هل أنت راض عن هذا الوضع؟

– ما هذه السخرية! – صاح فوروبيانينوف الذي بدأ يتحرر من نير العقل الجبار لابن الجالية التركية.

– صمتاً – قال أستاذ ببرود – أنت لا تعرف ماذا يحدث. إذا لم نستولي الآن على أثاثنا – بالطبع. فلن نراه أبداً. أجريت للتو حديثاً قاسياً مع مدير هذه النفائات التاريخية.

– وماذا – صاح هيبوليت ماتفييفتش – ماذا قال لك المدير؟

– قال كل ما هو ضروري. لا تقلق. سألته: «كيف يمكنك أن تفسر أن الأثاث المرسل إليك من ستارغورود بموجب أمر ليس موجوداً؟» سألته عن هذا بلطف، بالطبع، بطريقة رفاقية. فسألني: «أي أثاث؟ ليست لدي في المتحف مثل هذه المعطيات». فعرضت عليه الأمر على الفور. فلجأ إلى كتبه ووثائقه. وبحث نصف ساعة ثم عاداً أخيراً. وهل يمكنك أن تتخيل؟ أين هذا الأثاث؟

– هل ضاع؟ – صاء فوروبيانينوف.



- تصور أنه لم يضع. تصور، أنه في مثل هذه الفوضى قد نجا. وكما سبق أن قلت لك، ليس له قيمة متحفية. رموه في المستودع، وبالأمس فقط، لاحظ، بالأمس، بعد سبع سنوات (بقي في المستودع سبع سنوات!) تم إرساله للبيع في المزاد العلني. المزاد العلني للإدارة العامة للمؤسسات العلمية والمتحفية. وإذا لم يشتريه أحد البارحة أو اليوم، فسيبقى لنا! هل أنت راضٍ؟

- أسرع! - صاح هيبوليت ماتفييفتش.

- أيها الحوذي! - صاح أستاذ.

صعدا إلى العربة دون مساومة.

- صلّ من أجلي، صلّ! لا تخف، أيها المارشال! لقد تم ضمان النبيذ والنساء والبطاقات لنا. وعندها ستنحاسب على ثمن الصدرية الزرقاء.

في مخزن «باساج» بشارع بتروفكا، حيث توجد قاعة المزاد العلني، ركض صاحب الامتياز بنشاط مثل فحلين.

في الغرفة الأولى من المزاد العلني شاهدا ما كانا يبحثان عنه طويلاً. كانت جميع كراسي هيبوليت ماتفييفتش العشرة واقفة على طول الجدار بأرجلها المحنية. حتى أن تنجيدها لم يغمق لونه، ولم يحترق، ولم يهترئ. كانت الكراسي جديدة ونظيفة، وكأنها خرجت لتوها من تحت إشراف الحريصة كلافديا إيفانوفنا.

- هل هي ذاتها؟ - سأل أستاذ.

- يا إلهي، يا إلهي - كرر هيبوليت ماتفييفتش - هي، هي، هي ذاتها. لاشك أبداً في هذه المرة.

- سنتحقق، على أي حال - قال أستاذ، محاولاً أن يبقى هادئاً.

اقترب من البائع:

- قل لي، هذه الكراسي، كما يبدو من متحف الأثاث؟

- هذه؟ هذه - نعم.

- وهي معروضة للبيع؟

– نعم، للبيع.

– وبأي سعر؟

– لم يحدد لها سعر بعد. فهي تأتي لعندنا وتسعر على أساس المزاد.

– أيوه. اليوم؟

– لا، اليوم انتهى المزاد. غداً من الساعة الخامسة.

– ألا تبيعها الآن؟

– لا. غداً اعتباراً من الساعة الخامسة.

كان من المستحيل، بالنسبة لهما الابتعاد عن الكراسي على الفور.

– اسمح لنا – غمغم هيبوليت ماتفييفتش – بأن نتفحصها، ممكن؟

نظر صاحب الامتياز طويلاً إلى الكراسي، وجلسا فوقها، ومراعاة لآداب اللياقة نظرا إلى أشياء أخرى. كان فوروبيانينوف يتنفس بصعوبة، ويدفع باستمرار أستاب بكوعه.

– صلّ من أجلي – همس أستاب – صلّ، أيها المشير.

كان هيبوليت ماتفييفتش مستعداً ليس للصلاة من أجل أستاب فحسب، بل وحتى لتقبيل نعل حذاءه القرمزي.

– غداً – قال – غداً، غداً، غداً.

كان بوده أن يغني ويصدق.

## الفصل العشرون التصويت على الطريقة الأوروبية

في الوقت الذي كان فيه الصديقان يمارسان نمطاً ثقافياً تنويرياً من الحياة، ويزوران المتاحف، ويطلقان الوعود للفتيات، كانت الأرملة المزدوجة غريتساتسويفا، المرأة البدينة والضعيفة في ستارغورود، وفي شارع بليخانوف، تجري الاجتماعات وتقوم بالأنشطة السرية مع جيرانها. لقد فحص الجميع بصورة جماعية الورقة المكتوبة التي تركها بندر حتى أنهم نظروا إليها عبر المصباح. ولكن لم يكن عليها علامات مائية، وحتى إذا ما كانت، فإن الشخبطات السرية الغامضة لبندر الرائع لن تصبح أكثر وضوحاً.

لقد انقضت الأيام الثلاثة. وظل الأفق واضحاً. ولم يَعد بندر، ولا مصفاة الشاي، ولا السوار المنفوخ، ولا الكرسي. جميع هذه الأشياء، الحية وغير الحية، اختفت بصورة غامضة.

عندها أقدمت الأرملة على اتخاذ اجراءات جذرية صارمة. ذهبت إلى مكتب صحيفة «برافدا ستارغورود» المحلية، وأعدوا لها هناك بسرعة الإعلان التالي: **أتوسل إليكم**

**الأشخاص الذين يعرفون مكان وجوده.**

**الرفيق بندر عمره 25 - 30 سنة خرج من البيت**

**في بدلة خضراء، وحذاء أصفر، وسترة سماوية.**

**أسود الشعر.**

**من يعرف مكانه أرجو إعلامي مقابل مكافأة معتبرة.**

**شارع بليخانوف، رقم المنزل 15، غريتساتسويفا.**

– هل هو ابنك – استفسر العاملون في المكتب بتعاطف.

– إنه زوجي! – أجابت المتألمة، مغلقة وجهها بمنديل.

– آه، زوجك!

– الشرعي القانوني. وماذا في الأمر؟

– لا شيء. كان عليك أن تتوجهي إلى الشرطة.

خافت الأرملة. كانت تخاف من الشرطة. وغادرت الأرملة، ترافقها النظرات الغربية.

نُشر هذا النداء ثلاث مرات على صفحات «برافدا ستارغورود». لكن الدولة الكبرى لا ذت بالصمت. ولم يُعثر على الأشخاص الذين يعرفون مكان وجود الأسمر ذي الشعر الأسود بحذائه الأصفر. ولم يأت أحد للحصول على الجائزة المعتبرة. وكانت جاراتها تنشرن الشائعات.

كانت طلعة الأرملة تزداد قتامة يوماً بعد يوم. والغريب في الأمر: أن هذا الزوج ومض كالصاروخ، ساحباً معه إلى السماء السوداء كرسياً جيداً ومصفاة الشاي العائلية، والأرملة ما زالت تحبه. من يمكنه فهم قلب المرأة، وخاصة قلب امرأة أرملة؟

\*\*\*

اعتاد الناس على حافلة الترام في ستارغورود وأخذوا يركبونها دون خوف. كان قاطعو التذاكر يصرخون بصوت غص «لا توجد أماكن»، وسار كل شيء وكأن الترام قد أنشئ في المدينة منذ عهد الأمير فلاديمير الشمس الحمراء (بطل من الفلكلور الروسي - م.). كان المقعدون من جميع الفئات، والنساء مع الأطفال وفيكتور ميخائيلوفيتش بوليسوف يجلسون في الحافلات من المدخل الأمامي. ورداً على صرخة «احصل على تذكرة!» - كان بوليسوف يقول باحترام: «تذكرة سنوية» - ويبقى واقفاً إلى جانب سائق الترام. ولم تكن لديه تذكرة سنوية، ومن غير الممكن أن تكون لديه.

لقد تركت إقامة فوروبيانينوف والمحتال الكبير في المدينة أثراً عميقاً.

وقد حافظ المتآمرون بحرص شديد على السر الذي ائتمنوا عليه. ولاذ بالصمت أيضاً حتى فيكتور ميخائيلوفيتش الذي كان يغريه كثيراً الكشف عن الأسرار التي يعرفها لأول من يصادفه. بيد أن بوليسوف كان يشد همته عندما يتذكر كتفي أستاذ العريضين الكبيرين. وكان يفتح صدره فقط في أحاديثه مع العرافة. فكان يقول: - وما رأيك يا يلينا ستانيسلافوفنا، ما هو تفسير غياب قائدنا؟

كانت يلينا ستانيسلافوفنا مهتمة أيضاً كثيراً بهذا، ولكن لم يكن لديها أية معلومات.

وكان الميكانيكي، مصلح الأقفال، القلق يتابع قائلاً:

- يلينا ستانيسلافوفنا، ألا تعتقدين أنهما ينفذان الآن مهمة خاصة؟

كانت العرافة مقتنعة بأن هذا هو الحال. ويبدو أن البغاء بسرّوالة الأحمر كان يشارك الرأي نفسه. فقد كان ينظر إلى بوليسوف بعينه المستديرة الذكية، وكأنه يقول: «اعطني البزر،

وأنا سأخبرك بكل شيء. فيكتور، أنت ستصبح محافظاً وجميع الميكانيكيين والقفالين سيخضعون لك. أما بواب المنزل رقم 5، الذي يعتبر نفسه وقحاً، فسيبقى بواباً».

– يلينا ستانيسلافوفنا، ألا تعتقدين بأن علينا متابعة العمل؟ فمهما كان، لا يصح أن نبقي مكتوفي الأيدي.

وافقت العرافة وأشارت قائلة:

– لكن هيبوليت ماتفييفتش بطل.

– بطل، يلينا ستانيسلافوفنا! هذا واضح. وهذا الضابط المقدام المرافق له؟ رجل عملي! كما يحلو لك، يلينا ستانيسلافوفنا، لكن القضية لا يمكنها أن تبقى جامدة على هذا النحو. بالتأكيد غير ممكن.

وبدأ بوليسوف العمل. كان يقوم بزيارات منتظمة لجميع أعضاء الجمعية السرية «السيف والمحراث»، مثقلاً بصورة خاصة على المواطن كيسليارسكي، المالك الحذر لـ «معمل كعك أوديسا – «كعك موسكو». فقد اسود وجه كيسليارسكي عندما رأى بوليسوف. أما الكلام عن ضرورة العمل فقد دفع بالكبش الجبان إلى الجنون.

بحلول نهاية الأسبوع اجتمع جميع الأعضاء عند يلينا ستانيسلافوفنا في الغرفة مع البغاء. كان بوليسوف يغلي.

– أنت، فيكتور، لا تتكلم كثيراً – قال له ديايديف الحكيم – ماذا بك طيلة الأيام تترثر في أنحاء المدينة؟

– يجب أن نعمل! – صاح بوليسوف.

– العمل ضروري، أما الصراخ فغير ضروري أبداً. أنا، أيها السادة، إليكم كيف أتصور كل شيء. إن ما قاله هيبوليت ماتفييفتش – هو شيء مقدس. وعلينا الافتراض، أن انتظارنا لن يطول كثيراً. وكيف سيجري هذا، لسنا بحاجة إلى معرفة ذلك: من أجل هذا ثمة رجال عسكريون. أما نحن فنشكل الجزء المدني – ممثلي مثقفي المدينة والتجار. ما هو المهم بالنسبة لنا؟ أن نكون مستعدين، جاهزين. هل لدينا شيء ما؟ لا. من سيكون على رأس المدينة؟ لا أحد. وهذا، أيها السادة، هو الشيء الأهم. الانكليز، أيها السادة، لن يتحالفوا بعد الآن مع البلاشفة، كما يبدو. وهذه العلامة الأولى بالنسبة لنا. كل شيء سيتغير، أيها السادة، وبسرعة كبيرة. أؤكد لكم.

– حسناً، نحن لا نشك في ذلك – قال شاروشنيكوف عابساً.

– هذا رائع، أنك لا تشكّ. وما هو رأيك، سيد كيسليارسكي؟ ورأيكما، أيها الشابان؟ وعبر نيكيشا وفلاديا بكامل مظهرهما عن الثقة في التغيير السريع. أما كيسليارسكي الذي أدرك من كلام رئيس الشركة التجارية «بيستروأوباك» (التعبئة السريعة)، أنه لن يقوم بالمشاركة المباشرة في الاشتباكات المسلحة، وافق بكل سرور.

– ماذا علينا أن نفعل الآن؟ – سأل فيكتور ميخائيلوفيتش بفارغ الصبر.

– انتظر – قال دياديف – خذ قدوة من رفيق السيد فوروبيانينوف. يا لمهارته! يا لحرصه! هل لاحظتم كيف حول القضية بسرعة لمساعدة المشردين؟ هكذا علينا أن نتصرف نحن أيضاً. نحن نساعد الأطفال فقط. وهكذا، أيها السادة، دعونا نسمي المرشحين!

– نحن نقترح تنصيب هيوليت ماتفييفتش مشيراً للنبلاء! – صاح الشابان نيكيشا وفلاديا.

سعل شاروشنيكوف بتنازل.

– هذا قليل! لن يكون أقل من وزير. أو ارفعه إلى أعلى – إلى ديكتاتور!

– ماذا بكم، أيها السادة – قال دياديف – المشير قضية من المرتبة العاشرة! علينا أن نفكر في الحاكم. تعالوا لنبدأ من الحاكم. أعتقد...

– وليكن السيد دياديف – صاح بوليسوف بحماس – ومن غيره يمكن أن يتولى الأمور في المقاطعة كلها؟

– أنا ممتن جداً لثقتكم... – بدأ دياديف. ولكن هنا برز فجأة شاروشنيكوف الذي احمرّ وجهه.

– هذه المسألة، أيها السادة، يجدر دراستها بعناية.

وحاول عدم النظر إلى دياديف.

أخذ ينظر مالك شركة «التعبئة السريعة» بفخر إلى جزمته التي ألصقت عليها نشارة الخشب. وقال: – أنا لا أعترض. دعنا نصوّت. التصويت مغلق أم مفتوح؟

– لسنا بحاجة إلى الطريقة السوفييتية – قال شاروشنيكوف مستاءً – تعالوا نصوّت بصورة نزيهة، على الطريقة الأوروبية، بتصويت مغلق.

تم التصويت بأوراق تم توزيعها. ونال ديادوف أربعة أصوات. ونال شاروشنيكوف صوتين. وامتنع واحد عن التصويت. ومن تعابير وجه كيسليارسكي اتضح أنه هو الذي امتنع عن

التصويت. لم يكن يرغب بالإساءة لعلاقاته مع حاكم المدينة، كائناً من كان.

عندما أعلن بوليسوف بصوت مرتجف نتائج التصويت الأوروبي النزيه، سيطر صمت ثقيل على الغرفة. وحاولوا عدم النظر إلى شاروشنيكوف. كان يجلس المرشح الخاسر لمنصب الحاكم كما الملطخ بالبصاق.

كانت يلينا ستانيسلافوفنا تشعر بالأسف الشديد. فهي قد صوتت له.

أما الصوت الآخر الذي اكتسبه شاروشنيكوف، الخبير في العملية الانتخابية، فكان صوته هو. وهنا قالت يلينا ستانيسلافوفنا الطيبة على الفور: - على أي حال، أقترح انتخاب مسيو شاروشنيكوف رئيساً للبلدية.

- ولماذا - على أي حال؟ - قال الحاكم المنتخب الشهم - ليس على أي حال، بل ننتخبه هو ولا أحد غيره. فالأنشطة الاجتماعية العامة للسيد شاروشنيكوف نعرفها جيداً.

- نرجو ذلك، نرجو ذلك - صرخ الجميع.

- هل نعتبر الانتخاب تمت الموافقة عليه؟

انتعش شاروشنيكوف المبصوق عليه، بل واحتج أيضاً:

- لا، لا، أيها السادة. أرجو التصويت. ثمة ضرورة للتصويت على رئيس البلدية حتى أكثر من الحاكم. إذا كنتم أيها السادة، ترغبون بمنحي ثقتكم، أتوسل إليكم إجراء التصويت!

أسقطت أوراق التصويت في علبة السكر الفارغة.

- ستة أصوات موافقة - قال بوليسوف - وواحد امتنع عن التصويت.

- أهنئك، أيها السيد رئيس البلدية! - قال كيسليارسكي، وكان واضحاً من وجهه أنه هو الذي امتنع عن التصويت في هذه المرة أيضاً. - أهنئك!

أشرق شاروشنيكوف وأزهر. وقال لديادياف:

- بقي أن ننتعش، يا صاحب السعادة. بوليسوف، طر بسرعة إلى مخزن «أكتوبر». هل لديك نقود؟

أومئ بوليسوف بيده إيماءة سرية وخرج. أوقفوا الانتخابات لفترة قصيرة وتابعوها مع طعام العشاء.

وعينوا راسبوبوف، المدير السابق لثانوية النبلاء، نصير باكونين حالياً، مديراً لتعليم المنطقة. وقد كالوا له المديح كثيراً. ما عدا فلاديا، الذي ثمل من ثلاثة أقداح من الفودكا، اعترض فجأة: - لا يمكن انتخابه. فقد أعطاني علامة «اثنين» المرسبة بمادة المنطق في امتحان التخرج.

فهاجم الجميع فلاديا، وصاحوا في وجهه:

- في مثل هذه الساعة الحاسمة، لا يمكن للإنسان أن يفكر بمصلحته الخاصة! فكّر بالوطن.

وتم إقناع فلاديا بسرعة، حتى أنه هو نفسه صوّت لجلّاده. وتم انتخاب راسبوبوف بالإجماع، مع امتناع واحد عنه التصويت.

عُرض على كيسليارسكي منصب رئيس لجنة البورصة. ولم يعترض على ذلك، إلا أنه امتنع عن التصويت تحسباً لكل طارئ.

من خلال تفحصهم لأسماء معارفهم وأقربائهم، انتخبوا: رئيس الشرطة، رئيس دائرة المعايرة، مفتش المكوس والضرائب والمصانع؛ وملاؤا الوظائف الشاغرة لمحامي المقاطعة، رئيس المحكمة وأمينها، وأعضاءها؛ وسمّوا رؤساء المجلس البلدي والمجلس التجاري، والوصاية على الأطفال، وأخيراً رئيس دائرة البورجوازية الصغيرة. وانتخبوا يلينا ستانيسلافوفنا قيّمة على جمعيتي «قطرة حليب» و«الزهرة البيضاء». عُيّن نيكيشا وفلاديا، ولكونهما في عز الشباب، موظفي المهام

الخاصة التابعة للحاكم.

- عفواً! - صاح شاروشنيكوف - للحاكم موظفان! ولي؟

- لرئيس البلدية - قال الحاكم بلطف - لا يوجد موظفين للمهام الخاصة حسب الملاك.

- حسناً، إذن سكرتيرة.

وافق دياديف. وانتعشت يلينا ستانيسلافوفنا، وقالت بوجل:

- أليس من الممكن، لدي شاب لطيف جداً وبالغ التهذيب. ابن السيدة تشركيسوفا... لطيف جداً وموهوب... هو الآن عاطل عن العمل. وهو مسجل في بورصة العمل. حتى أنه لديه تذكرة. ووعدوه منذ أيام بقبوله في الاتحاد... أليس من الممكن أن توظفوه عندكم؟ ستكون أمه ممتنة جداً.



– أظن سيكون ممكناً – قال شاروشنيكوف بلطف – ما رأيكم في هذا الموضوع، أيها السادة؟ حسناً، عموماً، أظن أن هذا ممكن.

– ماذا إذن – علّق دياديف – يبدو أن كل شيء، عموماً... انتهى؟ كل شيء كما يبدو؟

– وأنا؟ سُمع فجأة صوت ناعم مضطرب. في الزاوية، خلف البغاء، كان يقف بوليسوف في الطرف محبطاً. وانهمرت الدموع على جفني فيكتور ميخائيلوفيتش السوداوين. وشعر الجميع بالخجل. وتذكر الضيوف فجأة أنهم يشربون فودكا بوليسوف، وأنه هو أحد المنظمين الرئيسيين لفرع ستارغورود لجمعية «السيف والمحراث» السرية.

أمسكت يلينا ستانيسلافوفنا بصدغيها وصاحت من الخوف.

– فيكتور ميخائيلوفيتش – تأوه الجميع – حبيبنا، عزيزنا! حسناً، ألا تشعر بالخجل؟ ولماذا وقفت في الزاوية؟ تعال إلينا، إلى هنا، فوراً!

اقترب بوليسوف. كان يعاني. لم يكن ينتظر من رفاقه في «السيف والمحراث» هذه القسوة. ولم تحتل يلينا ستانيسلافوفنا. فقالت: – هذا مريع، أيها السادة! كيف أمكنكم أن تنسوا فيكتور ميخائيلوفيتش الغالي علينا كلنا.

ونهضت وقبلت الميكانيكي القفال الأرستقراطي على جبينه المدخن.

– هل من المعقول، أيها السادة، أن فيكتور ميخائيلوفيتش لا يمكنه أن يكون وصياً لائقاً لمديرية التعليم في المنطقة أو قائد شرطة؟

– فيكتور ميخائيلوفيتش – سأله الحاكم – هل تريد أن تكون وصياً للتعليم؟

– بالطبع، سيكون وصياً رائعاً وإنسانياً! – أيد رئيس البلدية، وهو يبلع قطعة الفطر ويتغضن.

– وراسبو بوف؟ – مطّ كلامه فيكتور ميخائيلوفيتش – لقد عينتم راسبوبوف لهذا المنصب؟

– نعم، بالفعل، وماذا نفعل براسبوبوف؟

– في إدارة المطافئ، ربما؟...

– في إدارة المطافئ – قال فيكتور ميخائيلوفيتش متحمساً.

وظهرت أمامه على الفور عربات الإطفاء، وبريق النيران، وأصوات الأبواق وقرع الطبول. ولمعت الفؤوس، وتمايلت المشاعل، وانقلبت الأرض، وحمله التنين الأسود إلى حريق مسرح المدينة.

– مدير المطافئ؟ أنا أريد أن أكون مدير المطافئ!

– حسناً، هذا رائع! نهنئك. أنت اعتباراً من الآن مدير المطافئ.

– لنشرب نخب ازدهار فرقة رجال المطافئ! – قال رئيس لجنة البورصة ساخراً.

هاجم الجميع كيسليارسكي قائلين:

– أنت دوماً، كنت يسارياً! نحن نعرفك!

– أيها السادة، أي يساري أنا؟

– نعرفك، نعرفك!...

– يساري!

– جميع اليهود يساريون!

– ولكن، والله، أيها السادة، أنا لا أفهم هذه النكات.

– يساري، يساري، لا تُخف!

– أنه ينام ويرى ميليوكوف (عضو مجلس الدوما ووزير خارجية روسيا – م.) في أحلامه!

– أنت كاديت! كاديت! (كاديت: الحزب الديمقراطي الدستوري في روسيا – م.) وجأر شاروشنيكوف فجأة:

– إن أعضاء حزب الكاديت قد باعوا فنلندا، وأخذوا الأموال من اليابانيين، وخدعوا الأرمن.

لم يتحمل كيسليارسكي سيل الاتهامات المزعومة، التي لا أساس لها من الصحة. أمسك رئيس لجنة البورصة البائس بظهر الكرسي، بعينين شاحبتين، وقال بصوت رنان: – كنت دوماً أكتوبرياً (من أنصار أكتوبر) وسأبقى.

وبدأوا بالبحث عن كل واحد، ومع أي حزب يتعاطف.

– الديمقراطية بادئ ذي بدء، أيها السادة – قال شاروشنيكوف – إن الحكم الذاتي في مدينتنا يجب أن يكون ديمقراطياً. ولكن من دون أعضاء حزب الكاديت. فقد أسأؤوا إلينا كثيراً في العام السابع عشر!

واستفسر الحاكم بصورة لازعة:

– آمل، أنه لا يوجد بيننا ممن يُدعون بالاشتراكيين – الديمقراطيين؟

على يسار الأكتوبريين الذين كان يمثلهم كيسليارسكي في الاجتماع، لم يكن هناك أحد. وأعلن شاروشنيكوف نفسه «وسطياً». في أقصى اليسار كان يقف مدير المطافئ. وكان يمينياً لدرجة أنه لم يكن يعرف إلى أي حزب ينتمي.

وتطرق الحديث إلى الحرب.

– إن لم تقم اليوم، فغداً – قال دياديف.

– ستكون هناك حرب. ستكون.

– أنصح بأخذ الاحتياطات والتخزين قبل فوات الأوان.

– هكذا تعتقد – قال كيسليارسكي منزعجاً.

– وأنت كيف تعتقد؟ أظن أنه في أثناء الحرب هل يمكن الحصول على شيء؟ الآن اختفى الطحين من الأسواق! والعملات الفضية وكأنها اختفت تحت الأرض، وستظهر العملات الورقية المختلفة، والطوايع البريدية التي ستنتشر على قدم المساواة، وأنواع مختلفة من هذه الأشياء.

– الحرب – مسألة منتهية.

– أنتم كما تعرفون – قال دياديف – أما أنا فأصرف جميع الأموال لشراء السلع الضرورية.

– وماذا عن عملك في المانيفاتورة (النسيج)؟

– المانيفاتورة تسير بحد ذاتها، أما الطحين والسكر فلهما نظامهما الخاص. لهذا أنصحكم أيضاً. وأنصحكم بإلحاح.

ضحك بوليسوف.

– وكيف سيحارب البلاشفة؟ وبم؟ بم سيحاربون؟ بالبنادق القديمة؟ والأسطول الجوي؟ قال لي شيوعي بارز، أنه لديهم.

– حسناً، وكم لديهم من الطائرات برأيك؟

– مئتا طائرة!

– مئتان؟ ليس مئتين، بل اثنتان وثلاثون! أما فرنسا فلديها ثمانون ألف طائرة حربية.

– نعم... لقد أوصل البلاشفة البلاد إلى الصفر.

افترقوا في منتصف الليل.

ذهب الحاكم لمرافقة رئيس البلدية.

سارا كلاهما بسلاسة مفرطة.

– حاكم! – قال شاروشنيكوف – أي حاكم أنت؟ أنت لست جنرالاً؟

– أنا سأكون جنرالاً مدنياً، وهل تحسدني؟ عندما سأريد، سأدخلك إلى سجن القلعة. ستسجن عندي.

– أنا لا يمكن سجنني. فأنا نجحت في التصويت، وحزت على الثقة.

– مقابل المقترع عليه يُطلق سراح اثنين غير مقترع عليهما.

– أرجو أن لا تمزح معي! صرخ فجأة شاروشنيكوف بصوت وصل إلى الشارع كله.

– ماذا بك، يا أحق، هكذا تصرخ؟ – سأل الحاكم – هل يرضيك أن تقضي ليلتك عند الشرطة؟

– لا يصح أن أقضي الليل عند الشرطة – أجاب رئيس البلدية – أنا موظف سوفييتي...

كان النجم لامعاً. والليل رائعاً. في الشارع السوفييتي الثاني استمر جدال الحاكم مع رئيس البلدية.

## الفصل الحادي والعشرين من إشبيليا إلى غرناطة

المعذرة، أين الأب فيودور؟ أين كاهن كنيسة فلور ولاور الحليق؟ كان ينوي، كما أظن الذهاب إلى شارع فينوغراندنيا، إلى المنزل رقم 4، إلى المواطن برونس؟ أين هذا الباحث عن الكنز في صورة ملاك، والعدو اللدود لهيبوليت ماتفييفتش فوروبيانينوف، المناوب الآن في الممر المظلم عند الخزانة المقاومة للحريق؟

لقد اختفى الأب فيودور. دارت به الدوائر. يُقال أنهم رأوه في محطة بوباسنايا، في سكة حديد دونتسك. كان يركض على رصيف المحطة مع إبريق الشاي المغلي...

كان الأب فيودور يتحرق شوقاً إلى الثراء. طمح بالحصول على الثروة. فحمله هذا الشوق للتنقل في أنحاء روسيا بحثاً عن طقم موبيليا الجنرالة بوبوفا، الذي لا يحتوي على أي شيء، وهذا ما يجدر الاعتراف به. إنه يسافر ويتنقل في كل أنحاء روسيا. ويكتب الرسائل لزوجته فقط.

### رسالة الأب فيودور

كتبها في المحطة في خاركوف لزوجته في بلدة مقاطعة (ن)

«عزيزتي كاترينا ألكسندروفنا!

أنا مذنب للغاية في حقك. فقد تركتك وأنت البائسة وحيدة في هذا الوقت.

يجب عليّ أن أخبرك بكل شيء، وأنت ستفهميني وآمل بأن توافقيني

لم أذهب، بالطبع، إلى أية كنيسة حية ولم أفكر في الذهاب، وأرجو الله أن يغفر لي ذلك.

الآن، اقرئي، بانتباه. قريباً سنعيش بشكل آخر.

أتذكرين، كنت قد حدثتك عن معمل الشمع. سوف نحصل عليه، وقد نحصل على شيء ما آخر. ولن تكوني مضطرة لتحضير الغداء، وإطعام آخرين مقابل أجر. سنذهب إلى سماري ونوظف خادماً.

هنا ثمة موضوع، ولكن أرجو أن تبقيه سرياً للغاية، ولا تخبري أحداً به، حتى ماريا إيفانوفنا. أنا أبحث عن كنز. أتذكرين كلوديا إيفانوفنا بيتوخوفا الراحلة، حماة فوروبيانينوف؟ قبل وفاتها، كشفت لي كلوديا إيفانوفنا عن سر مفاده، أن في بيتها في

ستارغورود، في أحد كراسي غرفة الضيوف (وعدها اثنا عشر كرسيًا) قامت بإخفاء حليها من الماس.

أنت، يا كاتنكا (كاترينا - م.) لا تظني أنني سارق من السارقين. فقد أوصت لي بهذه الماسات، وطلبت مني أن أحميها من هيبوليت ماتفييفتش، معذبها القديم.

لهذا أنا تركتك أنت الفقيرة البائسة فجأة.

فلا تلوميني.

وصلت إلى ستارغورود، وتصوري أن هذا العجوز زير النساء كان هناك أيضاً. علم بالسر بطريقة ما. ربما كان يعذب العجوز قبل وفاتها. رجل رهيب! ويسافر معه مجرم جنائي. استأجر قاطع طريق. وقد هجما عليّ هجوماً مباشراً، وأرادا قتلي. لكنني لست ضعيفاً، ولا يمكن وضع الاصبع في فمي، فأنا قوي ولن أستسلم.

في البداية وجدت نفسي في مسار خاطئ. عثرت على كرسي واحد فقط في منزل فوروبيانينوف (هو الآن مؤسسة خيرية)؛ أحمل الكرسي معي إلى غرفتي في فندق «السوربون»، وفجأة هجم علي رجل من خلف الزاوية هادراً، وأمسك بالكرسي. كاد أن يصل الأمر إلى العراك. أراد أن يفضحني. ثم ألقى نظرة إليه، وأرى فوروبيانينوف. وتخيلي، هذا المحتال حلق وأصبح رأسه عارياً من دون شعر ليتكلل بالعار في شيخوخته.

كسرنا، نحن الاثنان الكرسي - ولم نجد شيئاً. بعدها أدركت أنني سرت في المسار الخاطئ. كنت آنذاك مستاءً جداً.

شعرت بالإهانة، وقلت لهذا الفاسق الحقيقة كلها في وجهه.

«أقول له: أي عار في شيخوختك. أقول له: أي وحشية حلت في روسيا: مشير النبلاء هاجم كالأسد رجل الدين، وأخذ يدينني لأنني غير حزبي! أقول له: أنت إنسان منحط، معذب كلوديا إيفانوفنا، وصياد ملكية الغير، التي أصبحت الآن ملكية الدولة وليست ملكيته».

شعر بالخجل، وذهب بعيداً عني، ربما إلى بيت الدعارة، كما هو مفروض.

وأنا ذهبت إلى غرفتي في فندق «السوربون» وأخذت أفكر في خطتي المستقبلية. وتدبرت ما لا يمكن أن يخطر في بال هذا الأحمق الحليق: لقد قررت العثور على الشخص الذي وزع الآثار المصادرة. تصوري كاتنكا، ليس من العبث أنني درست في كلية الحقوق - فقد كان هذا من مصلحتي. عثرت على هذا الشخص. في اليوم التالي وجدته.

فارفلوميتش – رجل متقدم في السن، محترم جداً. يعيش مع الجدة العجوز، ويكسب خبزه بعرق جبينه. أعطاني جميع الوثائق. وكان علي، والحق يقال، أن أكافئه على هذه الخدمة. وبقيت من دون نقود(فيما بعد سأحدث عن هذا). واتضح أن جميع الكراسي الاثنا عشر خرجت من منزل فوروبيانينوف إلى المهندس برونس، في شارع فينوغرادييا، رقم المنزل 34. لاحظي، أن جميع الكراسي وصلت كلها إلى رجل واحد، وهذا ما لم أكن أتوقعه بأي شكل من الأشكال(كنت أخشى أن تذهب الكراسي إلى أماكن مختلفة). وسُررت بهذا كثيراً. هنا في فندق «السوربون» التقيت مرة أخرى بالوغد فوروبيانينوف. ووبخته بشدة هو وصديقه قاطع الطريق ولا أسف على ذلك. كنت أخشى جداً أن يكتشفا سري، واختبأت في الفندق إلى أن غادراه.

اتضح أن برونس انتقل من ستارغورود إلى خاركوف في عام 1923، حيث انتقلت وظيفته إلى هناك. وعلمت من البواب أنه أخذ معه الأثاث كله من الموبيليا وأنه يحافظ عليه جيداً جداً. ويُقال أنه رجل متزن.

أنا أجلس الآن في المحطة بخاركوف، وأكتب لك بهذه المناسبة. أولاً، أنا أحبك كثيراً وأتذكرك، وثانياً، برونس لم يعد في خاركوف. ولكن، لا تنزعجي. إنه يقيم في روستوف، ويعمل الآن، كما علمت، في معمل أسمنت روستوف «نوفوروسيمنت». نقودي بالكاد تكفيني للطريق. سأسافر بعد ساعة بقطار الشحن والركاب. وأنت، يا عزيزتي، اذهبي إلى صهرك وخذي منه خمسين روبلاً(هو مدين لي ووعد بإعطائها) وأرسلها لي إلى روستوف على العنوان التالي: البريد الرئيس، مكتب استلام الرسائل، فيودور يوانوفيتش فوستريكوف. التحويل، من أجل التوفير أرسله بالبريد. سيكلف ثلاثين كوبيكاً.

ماهي أخبار مدينتنا؟ هل من جديد؟

هل جاءت لديك كوندرايتينا؟ قل لي للأب كيريل أنني سأعود قريباً: قل لي وكأنني ذهبت إلى عمتي التي تحتضر في فورونيچ. اقتصدي بالمال. هل مازال يفتسيغنييف يتناول طعام الغداء؟ أبلغه تحيتي. قل لي بأنني ذهبت لزيارة عمتي.

كيف الجو عندكم؟ هنا، في خاركوف، الجو صيفي تماماً. المدينة صاخبة – إنها مركز جمهورية أوكرانيا. بعد إقامتي في مقاطعة ريفية، يبدو لي وكأنني وصلت إلى الخارج.

اعملي الآتي:

غفّارتي الصيفية اعطها للتنظيف(الأفضل دفع 3 روبلات للتنظيف من صرف المال على شراء غفّارة جديدة)، 2 (اعتني بصحتك، 3) عندما ستكتبين رسالة لغولنكا، اذكري عرضاً، أنني ذهبت إلى عمتي في فورونيچ.

بَلِّغِي سلامي للجميع. قلّلي، إنني سأعود قريباً.

أقبلك بحنان، أعانقك، وأباركك.

زوجك فيديا(فيودور – م.)

ملاحظة: في أي مكان يُنقَّب فوروبيانينوف الآن؟

\* \* \*

الحب يجفّف الإنسان. الثور يخور من الشهوة. الديك يركض ولا يجد لنفسه مكاناً. مشير النبلاء يفقد شهيقه.

ترك هيبوليت ماتفييفتش أستاب والطالب إيفانوبولو في الحانة، وشق طريقه إلى البيت الوردي، واتخذ موقعه عند الخزانة المقاومة للحريق. كان يسمع ضجة القطارات المتوجهة إلى قشتالة وطرطشة البواخر المغادرة.

تنطفئ الربوع الذهبية

في جبال البخاري البعيدة. (البُخاري منطقة جبلية في جنوب إسبانيا – م.) كان قلبه يدق مثل البندول. وكانت أذناه تدقّان.

أخرجني يا عزيزتي

لنداء الغيتار الذي يدعوك

ساد القلق في الممر. لا شيء يمكنه أن يُدفع برودة الخزانة المقاومة للحريق.

من إشبيليا إلى غرناطة

في شفق الليل الهادئ...

تأوهت أجهزة الحاكي في الغرف الصغيرة. وسمع هدير مواقد البريموس كأزيز النحل.

تُسمع ألحان الغرام الليلية،

ويُسمع صليل السيوف...



باختصار كان هيبوليت ماتفييفتش مغرماً للغاية بليزا كالاتشوفا.

عَبَّر كثير من الناس في الممر إلى جانب هيبوليت ماتفييفتش، ولكن تفوح منهم رائحة التبغ أو الفودكا، أو العقاقير الصيدلانية أو شورية الملفوف. في ظلام الممر كان يمكن تمييز الناس فقط من خلال الرائحة أو شدة وطء الخطوات. ولم تمر ليذا. كان هيبوليت ماتفييفتش متأكداً من ذلك. فهي لم تكن تدخن، ولا تشرب الفودكا، ولم تكن ترتدي الجزمة المبطنة بالشرائح الحديدية. كان من غير الممكن أن تفوح منها رائحة اليود أو سمك السلمون. كان من الممكن أن تفوح منها فقط الرائحة الناعمة لعصيدة الأرز، أو العشب المطهو اللذيذ، الذي كانت السيدة نوردمان سيفيروفاً تطعم بها الفنان إيليا ريبين فترة طويلة.

فجأة سُمعت خطوات خفيفة خفرة. كان شخص ما يسير في الممر، واصطدم بجدرانه المرنة، وغمغم بلطف.

– هذه أنتِ، يليزافيتا بتروفنا؟ – سأل هيبوليت ماتفييفتش بصوت ناعم.

جاء الجواب بصوت منخفض:

– قل لي، من فضلك، أين يقيم هنا آل بيفركونوف؟ هنا في الظلام لا يمكن رؤية شيء.

لاذ بالصمت هيبوليت ماتفييفتش خائفاً. وانتظر الباحث عن آل بيفركونوف الجواب في حيرة، وعندما لم يسمعه ذهب بعيداً.

لم تصل ليذا إلا بحلول الساعة التاسعة. فخرجوا إلى الشارع تحت سماء مسائية خضراء كالكراميل.

– أين سوف نتدرج؟ – سألت ليذا.

نظر هيبوليت ماتفييفتش إلى وجهها الأبيض المضيء، وبدلاً من أن يقول صراحة: «أنا هنا، يا إينيزيليا، أقف تحت النافذة» (بيت من قصيدة للشاعر بوشكين وإينيزيليا – عشيقة دون جوان – م.)، بدأ حديثاً طويلاً ومملاً حول أنه لم يكن في موسكو منذ مدة طويلة، وأن باريس أفضل من موسكو ذات الحجارة البيضاء، التي مهما قلبتها تبقى قرية كبيرة مخططة بصورة عشوائية.

– أنا أذكر موسكو، يليزافيتا بتروفنا، ليست كما هي الآن. الآن البخل يتجلى في كل شيء. ونحن في زمننا لم نكن نبخل بالمال. «نحن نعيش في الحياة مرة واحدة» – هناك مثل هذه الأغنية.

اجتازا بولفار بريشينسكي كله، ووصلا إلى الكورنيش (نابريجنايا) وإلى كاتدرائية المسيح المخلص.

بعد جسر موسكفورييتسكي كانت تمتد معاطف النساء بذيول الثعلب السوداء والبنية اللون. كانت محطات توليد الكهرباء لمدينة موسكو تنشر دخانها كسرب من الطائرات. وعربات الترام تتدحرج عبر الجسر. وكانت المراكب تسير في النهر. وكانت الهارمونيكا تعزف لحناً حزيناً.

أمسكت ليزا بيد هيبوليت ماتفييفتش وأخذت تحدثه عن همومها وأحزانها. عن شجارها مع زوجها، وعن حياتها الصعبة وسط الجيران المتنصتين – وعن رتابة المائدة النباتية.

كان هيبوليت ماتفييفتش يصغي ويفكر. واستيقظت الشياطين في نفسه. كان يحلم بعشاء رائع. ووصل إلى استنتاج مفاده، أنه يجب إدهاش هذه الفتاة بشيء ما.

– لنذهب إلى المسرح – عرض عليها هيبوليت ماتفييفتش.

– الأفضل إلى السينما – قلت ليزا – السينما أرخص.

– أوه! وما علاقة النقود! مثل هذه الليلة الرائعة، وفجأة يتطرق الحديث إلى النقود.

وبدون مساومة، أجلس الشياطين المجنونة الاثنين في عربة أجرة وقادوهما إلى سينما «آرس». كان هيبوليت ماتفييفتش رائعاً. واشترا أغلى بطاقتين. ومع ذلك لم ينتظرا حتى نهاية العرض. فليزا، التي اعتادت الجلوس في مقاعد السينما الرخيصة، القريبة من الشاشة، كانت رؤيتها غير واضحة من صف المقاعد الرابع والثلاثين.

كان في جيب هيبوليت ماتفييفتش نصف المبلغ الذي حصل عليه صاحب الامتياز من اجتماع المتأمرين في ستارغورود. وكان هذا مبلغاً كبيراً لفوروبيانينوف، الذي أقلع عن عادة الرفاهية. والآن، وهو المتحمس والمضطرب من فرصة حب سهل، أراد أن يبهر ليزا بكرمه. وكان يعد نفسه مهياً وجاهزاً بصورة رائعة. وتذكر بفخر كيف غزا بسهولة، في وقت مضى، قلب يلينا بوور الرائعة. كانت عادة صرف الأموال بسهولة وبصورة طنانة متأصلة في نفسه. وكان مشهوراً في ستارغورود بحسن تربيته ومهارته في إدارة الحديث مع أية سيدة. وبدا له من السخافة بمكان أن يصرف لمعانه في نظامه القديم من أجل إخضاع فتاة سوفيتية شابة، لم تر ولا تعرف أي شيء كما يجب.

بعد محاولات قصيرة من الاستمالة، أخذ ليزا إلى مطعم «براغ» – المطعم النموذجي لاتحاد موسكو للجمعيات الاستهلاكية – «أفضل مكان في موسكو» – كما قال له بندر.

أذهل مطعم «براغ» ليزا بكثرة المرايا والأضواء وأصص الزهور. وكانت ليزا معذورة في هذا: فهي لم تزر أبداً المطاعم النموذجية الاستعراضية الكبيرة. لكن قاعة المرايا أدهشت أيضاً هيبوليت ماتفييفتش. فقد تخلف، ونسي ترتيب المطاعم. والآن أصبح يشعر بالخجل من جزمته البارونية برأسها المربعين، ومن سرواله الذي يعود إلى ما قبل الحرب، ومن صدرته القمرية المرصعة بالنجمة الفضية.

لقد أصيبا كلاهما بالدهشة وتجمدا أمام مرأى جمهور المطعم المختلف وغير المتجانس.

– دعينا نذهب إلى هنا، إلى الزاوية – اقترح فوروبيانينوف، رغم وجود طاولات فارغة أمام منصة المسرح مباشرة، حيث كانت الأوركسترا تعزف مقطوعات مختلفة من بالية «بايادير».

ولشعورها بأن الجميع ينظر إليها وافقت ليزا بسرعة. وتبعها مذهولاً فوروبيانينوف، أسد المجتمع الراقي وزير النساء. كان السروال المهترئ لأسد المجتمع الراقي يتدلى كال كيس على مؤخرته النحيفة. وشعر زير النساء بالخرج، وللتغلب على حرجه، أخذ يمسح نظارته.

لم يقترب أحد من طاولتهما. وهذا لم يكن يتوقعه هيبوليت ماتفييفتش. وهو بدلاً من أن يتحدث بأناقة مع سيدته، لاذ بالصمت، وبدأ يعاني، وأخذ يطرق بمنفضة السجائر بخجل على الطاولة ويسعل بلا نهاية. كانت ليزا تنظر بفضول من حولها، وأصبح الصمت غير طبيعي. لكن هيبوليت ماتفييفتش لم ينبس ببنت شفة. لقد نسي أنه هو بالذات كان دائماً يتحدث في مثل هذه الحالات.

– لو سمحت! – نادى على عمال المطعم المارين قربه.

– دقيقة يا سيدي! – كان يصيح النادل، ماشين دون توقف.

أخيراً تم إحضار قائمة الطعام. وبشعور من الارتياح بدأ يقرأها.

– ولكن – تتمم قائلاً – شريحة لحم العجل: روبلان و25 كوبيك، فيليه: روبلان و25 كوبيك، فودكا: خمسة روبلات.

– بخمسة روبلات ورق كبير من الفودكا يا سيدي – أعلن النادل، وهو ينظر من حوله بفارغ الصبر.

«ماذا حصل لي؟ – شعر هيبوليت ماتفييفتش بالرعب – إنني أغدو سخيلاً».

– إليك من فضلك – خاطب ليزا بمجاملة متأخرة – ماذا تختارين؟ ماذا سوف تأكلين؟

شعرت ليذا بالخجل. لقد رأت كيف نظر النادل بشموخ إلى رفيقها، وفهمت أنه يفعل شيئاً غير مناسب.

– لا أريد أن أكل أبداً – قالت بصوت مرتجف – أو إليك ما أريده... قل، أيها الرفيق، أليست لديكم مأكولات نباتية ما؟

أخذ النادل يراوح في مكانه كالحصان.

– نحن لا نحفظ بالمأكولات النباتية. ربما فقط العجة مع الجمبون.

– إذن إليك – قال هيبوليت ماتفييفتش مقررأ – اعطنا نقانق. سوف تأكلين النقانق، يليزافيتا بتروفنا؟

– سأكل.

– إليك إذن. نقانق، تلك التي سعرها روبل و25 كوبيك. وزجاجة فودكا.

– ستكون الفودكا في دورق.

– في هذه الحالة، دورق كبير.

نظر عامل المطعم إلى ليذا المسكينة بعينين شقافتين.

– ماهي المازة التي ستأخذونها مع الفودكا؟ كافيال طازج؟ سمك السلمون؟ فطائر بحشوة مكشوفة؟

استمر الصخب في نفس هيبوليت ماتفييفتش أمين مكتب الأحوال المدنية.

– لا حاجة – قال بوقاحة غير مرضية – ما سعر مخلل الخيار عندكم؟ اعطنا اثنتين.

ابتعد النادل عنهما. وساد الصمت مرة أخرى على الطاولة. كانت ليذا أول من قطع حبل الصمت: – أنا لم أجلس هنا أبداً من قبل. هنا مكان لطيف للغاية.

– نعم، نعم – قال هيبوليت ماتفييفتش، وهو يحسب قيمة ما طلباه. وفكر في نفسه: «لا بأس، سأشرب الفودكا وتنقشع غيومى وأمرح. وإلا، بالفعل، أشعر بنوع من الإحراج».

ولكن عندما شرب الفودكا وأكل خيارة، لم ينبسط بل ازداد تجهماً. ليذا لم تشرب الفودكا. ولم يزل التوتر. وهنا اقترب من طاولتهما رجل ونظر إلى ليذا بمودة، وعرض شراء الزهور.

تظاهر هيبوليت ماتفييفتش بأنه لم يلاحظ بائع الزهور، لكن الأخير لم يغادر. وكان من المستحيل الحديث إليه بلطف ومجاملة.

لكن برنامج الحفلة الموسيقية ساعد لفترة معينة. فقد صعد إلى المنصة رجل بدين يحمل علامة الممثلين وبحذاء لامع.

– ها نحن نلتقي معكم من جديد – قال بوقاحة مخاطباً الجمهور – في الفقرة التالية من حفلتنا الموسيقية ستغني المطربة العالمية للأغاني الشعبية الروسية، المعروفة جيداً في منطقة مارينا روشا(منطقة في موسكو – م.). فارفارا إيفانوفنا غودلفسكايا. فارفارا إيفانوفنا! تفضلي!

كان هيبوليت ماتفييفتش يشرب الفودكا ويلوذ بالصمت. وبما أن ليزا لم تشرب وكانت دوماً تتطلع للذهاب إلى بيتها، كان عليه أن يسرع ليشرب الدورق بكامله.

وعندما خرج إلى خشبة المسرح مونولوجيست (فنان المنوعات) بقميصه المخملي الطويل ليحل محل المطربة، المعروفة في مارينا روشا، وغنى: أنت تمشي

وتتجول في كل مكان،

وكان الزائدة الدودية عندك

ستشبع من المشي،

أنت تمشي،

تا – را – را – را –

كان هيبوليت ماتفييفتش قد ثمل إلى حد كبير، ومع جميع زوار المطعم النموذجي، الذين كان يعتبرهم قبل نصف ساعة، فطين وقطاع طرق سوفييت شحيحين، صفق بيديه على الإيقاع، وأخذ يردد: أنت تمشي

تا – را – را – را...

وكثيرا ما كان يقفز، ودون أي اعتذار، يذهب إلى الحمام. وقد بدأوا في الطاولات المجاورة يسمّونه بالعم ويدعونه لتناول قدح من البيرة معهم. لكنه لم يذهب. وأصبح فجأة متكبراً وشكوكاً. نهضت ليزا بصورة حاسمة من على الطاولة: – أنا سأذهب. وأنت ابق. سأصل بنفسي إلى المنزل.

– لا، لماذا. باعتباري نبيلًا، لا يمكنني السماح بهذا! سنيور! الحساب! وقحون!...

نظر هيبوليت ماتفييفتش إلى الحساب طويلاً، وهو يتمرجح على الكرسي.

– تسع روبلات وعشرون كوبيكاً؟ – رددهو – ربما عليّ أيضاً أن أعطيك مفتاح شقتي حيث توجد خزنتي؟

وانتهت بأن اقتادوا هيبوليت ماتفييفتش إلى الأسفل، وهم يمسون به بعناية من تحت إبطيه. لم تستطع ليزا الهروب، لأن الرقم التابع لخزانة الملابس حيث عُلق معطفها موجود لدى أسد المجتمع الراقي.

في الجادة الأولى ضغط هيبوليت ماتفييفتش بكتفه على ليزا وأخذ يمسك بها بيديه. كانت ليزا تبتعد عنه بصمت.

– اسمع! – كانت تقول – اسمع! اسمع!

– سندهب إلى غرفة الفندق – كان فوروبيانينوف يحاول إقناعها.

تحررت ليزا من بين يديه بقوة، ودون أي تسديد، ضربت زير الناس بقبضتها على أنفه. سقطت على الفور نظارته مع قوسها الذهبي ووقعت تحت أصابع جزمة البارون وانكسرت العدسة بقرقرة.

نسيم عليل ليلي

يصدر الأثير...

ركضت ليزا، مختنقة بالدموع، عبر جادة سيربيريني، إلى منزلها.

الوادي الكبير(نهر في إسبانيا – م.)

يضج،

يركض.

هرول هيبوليت ماتفييفتش، الأعمى بعد أن فقد نظارته، في الاتجاه المعاكس، وهو يصيح:  
– أمسكوا الحرامي!

ثم أخذ يبيكي طويلاً، واشترى من العجوز وهو يبكي جميع كعكاتها مع السلة. ثم خرج إلى سوق سمولينسك، فوجده فارغاً ومظلماً، مضى فيه طويلاً إلى الأمام وإلى الخلف، وهو يرمي الكعكات، كما يرمي المزارع بذوره. خلال ذلك كان يصرخ بصوت غير موسيقي: أنت تمشي

وتتجول في كل مكان

تارا - تارا = تارا...

ثم تصادق هيبوليت ماتفييفتش مع الحوذي، وفتح له قلبه وروحه، وبصورة غير متسقة حدثه عن الماس.

- سيّد مرح - صاح الحوذي.

لقد ابتهج هيبوليت ماتفييفتش حقاً. وكما يبدو فإن ابتهاجه كان ذا طابع مستهجن، لأنه بحدود الساعة الحادية عشر صباحاً استيقظ ليجد نفسه في قسم الشرطة.

ومن أصل مئتي روبل التي بدأ بهما ليلة ملذاته واستراح، لم يبق سوى اثني عشر روبلاً.

كان يبدو له أنه يحتضر. كان يشعر بالألم في عموده الفقري، وبالألم في كبده، وبالوجع في رأسه، كان يشعر وكأنه ألبس قبعة من رصاص. لكن الشيء الأفظع، هو أنه لا يذكر إطلاقاً أين وكيف وصرف هذه الأموال الكبيرة. وفي طريقه إلى البيت اضطر للتعريج إلى محل بيع النظارات الطبية وشراء عدسات جديدة لنظاراته.

نظر أستاذ طويلاً، وبدهشة، إلى هيئة هيبوليت ماتفييفتش المنهكة، لكنه لم يقل شيئاً. كان بارداً ومستعداً للصراع.

## الفصل الثاني والعشرون العقاب

افتتح المزاد التجاري في الساعة الخامسة. بدأ إدخال المواطنين إلى المزاد منذ الساعة الرابعة لرؤية المعروضات. حضر الصديقان في الساعة الثالثة، ومكثا ساعة كاملة في مشاهدة معرض المكائن والآليات الذي كان واقعاً في بناء مجاور. قال أستاذ: - يبدو وكأننا غداً سنتمكن، في حال توفر الإرادة الطيبة، من شراء هذه القاطرة البخارية الصغيرة. للأسف، السعر غير مكتوب. شيء جميل أن يكون لديك قاطرة خاصة.

كان هيبوليت ماتفييفتش يتقلب ويعاني. فالكراسي وحدها كان من الممكن أن تهدئه.

لم يبتعد عنها إلا في تلك الدقيقة عندما صعد إلى المنصة مدير المزاد في سروال ذي رسوم مربعة ولحية تنزل على قميصه الفضفاض من القماش السميك.

جلس صاحب الامتياز على مقعدين في الصف الرابع إلى اليمين. بدأ هيبوليت ماتفييفتش ينفعل بشدة. كان يبدو له أن الكراسي ستباع الآن على الفور. لكن رقمها كان حسب ترتيب المعروضات ثلاثة وأربعين، وبدأ بيع المزاد بعرض معروضات عادية صغيرة: طقوم من الصحن منقوشة وعليها شعار، ووعاء للمرق على شكل زورق، وحامل فضي للكأس، ولوحة منظر طبيعي للفنان بيتونين، وحقيبة مطرزة بالسيلان، وموقد جديد كلياً من نوع بريموس، وتمثال نصفي لنابليون، وصدرية نسائية من قماش الكتان، ولوحة نسيجية جدارية «صياد يطلق النار على الديك البري» وغيرها من مواد الزينة.

كانا مضطرين للتحلي بالصبر والانتظار. وكان الانتظار صعباً للغاية: كانت جميع الكراسي أمامهما ظاهرة للعيان، وكان الهدف قريباً، كان من الممكن الوصول إليه باليد. فكر أستاذ وهو ينظر إلى جمهور المشاركين في المزاد: «ستحدث هنا ضجة كبيرة لو عرفوا أي كنز هنا سيباع اليوم تحت ستار هذه الكراسي».

- تمثال برونسي يمثل صورة العدالة! - أعلن مدير المزاد - خالية العلام في وضع ممتاز. خمسة روبلات. من يدفع أكثر؟ ستة روبلات ونصف في اليمين، سبعة في الأخير. ثمانية روبلات في الصف الأول، في الأمام. ثمانية روبلات في الصف الأمامي للمرة الثانية، ثمانية روبلات في الصف الأول الأمامي للمرة الثالثة.

اقتربت على الفور فتاة من المواطنة في الصف الأول ومعها الإيصال لاستلام النقود.

كانت تُقرع مطرقة مدير المزاد. تم بيع منافض سجاج من القصر، وزجاج من الكريستال، وعلبة بودرة من الخزف.



كان الوقت يمر ببطء وبصورة مؤلمة.

– تمثال نصفي من البرونس لألكسندر الثالث. يمكن استخدامه ثقالة للورق. ولا يصلح لأي شيء آخر. تمثال ألكسندر الثالث معروض للمزاد بسعر مقترح.

ضحك الجمهور.

– اشتريه أيها المشير – قال أستاذ ساخراً – أظن أنك تحبه.

لم يرفع هيبوليت ماتفييفتش نظره عن الكراسي.

– لا يوجد راغبون بالمزاد؟ يحذف من المزاد التمثال البرونسي النصفي لألكسندر الثالث. تمثال يمثل صورة العدالة. يبدو أنه مماثل للتمثال الذي تم بيعه للتو. فاسيلي، أظهر للجمهور «تمثال العدالة». السعر خمسة روبلات. من يزيد؟

سُمع تنفس في الصف الأول الأمامي. يبدو أن مواطناً أراد امتلاك «العدالة» بكامل قوامها.

– خمسة روبلات «العدالة» البرونسية!

– ستة! – قال مواطن بدقة.

– ستة روبلات على التوالي. سبعة. تسعة روبلات، في الأخير إلى اليمين.

– تسعة ونصف – قال محب «العدالة»، رافعاً يده.

– تسعة ونصف، في الأمام. للمرة الثانية، تسعة ونصف، في الأمام. للمرة الثالثة، تسعة ونصف.

وهوت المطرقة. حلت السيدة «العدالة» على المواطن في الصف الأول.

سد المبلغ وذهب إلى غرفة أخرى ليأخذ برونسية «العدالة».

– عشر كراسي من القصر! – قال فجأة مدير المزاد.

– لماذا من القصر؟ – تحسّر هيبوليت ماتفييفتش بهدوء.

غضب أستاذ:

– اذهب إلى الجحيم! اسمع ولا تقم بأي حركة!

– عشرة كراسي من القصر. من خشب الجوز. من عصر ألكسندر الثاني. كاملة وخالية  
العلام. من صنع معمل هامبز. فاسيلي، ضع كرسيًا واحدًا تحت الضوء.

جرّ فاسيلي الكرسي بجلافة، حتى أن هيبوليت ماتفييفتش قفز من مكانه.

– اجلس، أيها الغبي الملعون، ألزمتُ به! – همس أستاذ – اجلس، أقول لك!

تحرك الفك السفلي لدى هيبوليت ماتفييفتش.

قدم أستاذ موقفاً مشرفاً. وأشرق عيناه.

– عشرة كراسي من خشب الجوز. ثمانون روبلاً.

انتعشت القاعة. معروض للبيع شيء ضروري للمنزل. كانت الأيدي ترتفع واحدة إثر أخرى.  
وكان أستاذ هادئاً.

– لماذا لا تزايد؟ – انقض عليه فوروبيانينوف.

– اخرس – أجابه أستاذ ضاغطاً على أسنانه.

– مائة وعشرون روبلاً، من الخلف. مائة وخمسة وثلاثون روبلاً من هناك أيضاً. مائة  
وأربعون.

أدار أستاذ ظهره إلى المنصة وبابتسامة، أخذ يتأمل منافسيه.

المزاد وصل إلى ذروته. لم تعد هناك أماكن شاغرة. وخلف أستاذ مباشرة، نظرت سيدة إلى  
الكراسي، وبعد أن تحدثت مع زوجها («كُنّبات رائعة! صناعة رائعة، سانيا! فهي من القصر»)،  
رفعت يدها.

– مائة وخمسة وأربعون، في الصف الخامس إلى اليمين. واحد.

خمدت القاعة. غالبية جداً.

– مائة وخمسة وأربعون. اثنان.

قام أستاذ بفحص الإطار الملصق بلا مبالاة. وكان هيبوليت ماتفييفتش جالساً، منكس الرأس، وهو يرتجف.

– مائة وخمسة وأربعون. ثلاثة.

ولكن، قبل أن تهوي المطرقة الخشبية المطلية بالورنيش الأسود على المنصة الخشبية، استدار أستاذ ورفع يده إلى الأعلى وقال بصوت منخفض: – مائتا روبل.

تحولت رؤوس الجميع باتجاه صاحبي الامتياز. وتحركت السيدارات والقبعات النسائية والقلنسوات والطواقي. رفع مدير المزاد وجهه المضجر ونظر إلى أستاذ، وقال: – مائتان، واحد. مائتان في الصف الرابع من اليمين، اثنان. ليس هناك من راغبين بالمزاد؟ مائتا روبل طقم من عشر كراسي خشب الجوز من القصر. مائتا روبل، ثلاثة – في الصف الرابع من اليمين.

وارتفعت يد المدير مع المطرقة فوق المنصة.

– ماما! – صاح هيبوليت ماتفييفتش بصوت عال.

ابتسم أستاذ المزهر والهادئ. وهوت المطرقة محدثة صوتاً سماوياً.

– بيع طقم الكراسي – قال مدير المزاد – يا سيدة! في الصف الرابع من اليمين.

– حسناً، أيها المشير، على نحو فعال، أليس كذلك؟ – سأل أستاذ – ماذا كنت ستفعل من دون المدير الفني؟

صاح هيبوليت ماتفييفتش سعيداً. هرولت نحوهما سيدة.

– أنتما اشتريتما الكراسي؟

– نحن – صاح هيبوليت ماتفييفتش الذي صمت طويلاً – نحن، نحن. متى يمكننا أخذها؟

– متى تريدان، ولو الآن!

وقفز بجنون لحن «أنت تمشي، أنت تتجول في كل مكان» في رأس هيبوليت ماتفييفتش. «كراسينا، لنا، لنا، لنا!» كان يصرخ بهذا جسمه كله. «لنا!» – يصرخ كبده. «لنا!» – يؤكد المعني الأعور.

وفرّح لدرجة كبيرة بحيث أن نبضه أخذ يظهر في الأماكن الأقل توقّعا. وكل هذا كان يقطّط ويهتز ويتمايل تحت ضغط السعادة التي لم يسمع بها أبداً. وظهر للعيان القطار المقترب من سان – جوتهارد (ممر جبلي في سويسرا – م.). وكان هيبوليت ماتفييفتش يقف على السطح المكشوف من العربة الأخيرة في سروال أبيض، وهو يدخل السيجار. وسقطت زهور البرسية الألبية بهدوء على رأسه، المزين بالشيب بلون الألومنيوم. كان ينحدر إلى جنة عدن.

– ولماذا مائتان وثلاثون، وليس مائتين؟ – سمع هيبوليت ماتفييفتش.

هذا ما قاله أستاذ، وهو يدير الإيصال في يده.

– تضاف خمسة عشر بالمئة، جباية السمسة – قالت السيدة.

– حسناً، ما العمل، تفضلي، خذي.

أمسك أستاذ بمحفظة نقوده وأخرج منها مائتي روبل واتجه نحو المدير العام لشركته: – اعطني ثلاثين روبلاً، أيها المرتجف، بسرعة: ألا ترى – السيدة تنتظر، ماذا؟

لم يقم هيبوليت ماتفييفتش بأي محاولة لاستخراج النقود.

– ماذا؟ لماذا تنظر إليّ كما ينظر الجندي إلى القملة؟ هل تبلد ذهنك من السعادة؟

– ليس لدي نقود – نطق أخيراً هيبوليت ماتفييفتش.

– ليس لدي من؟ – سأل أستاذ بصوت خافت.

– لدي.

– ومائتا روبل؟

– أنا... أ – أ – أ – أضعتها.

نظر أستاذ إلى فوروبيانينوف، وقدّر بسرعة ذاكرة وجهه، أخضرار وجنتيه، والانتفاخات التي كبرت تحت عينيه.

– اعطني النقود! – همس بكراهية –، أيها الخنزير العجوز.

– هل ستدفع – سألت السيدة.

– دقيقة واحدة – قال أستاب، مبتسماً ابتسامة ساحرة – عثرة صغيرة.

كان ثمة أمل صغير. كان من الممكن إقناعها بالانتظار قليلاً لتسديد النقود.

هنا تدخل في الحديث هيبوليت ماتفييفتش الذي صحا فجأة، وقال وهو ينفث لعابه.

– عفواً – قال – ولماذا جباية السمسرة؟ نحن لا نعرف شيئاً عن هذه الجباية! كان من الواجب تنبيهنا. أنا أرفض دفع الثلاثين روبلاً هذه.

– حسناً – قالت السيدة بخنوع – الآن سأرتب كل شيء.

أخذت الإيصال وذهبت إلى مدير المزاد وقالت له بضعة كلمات. نهض مدير المزاد على الفور. وكانت لحيته تلمع تحت ضوء المصابيح الكهربائية القوية. وقال بصوت عالٍ: – حسب قواعد تجارة المزاد العلني، فإن الشخص الذي يرفض دفع المبلغ الكامل للمادة التي اشتراها، عليه أن يغادر القاعة. يُلغى المزاد على الكراسي.

جلس الصديقان المذهولان جامدين.

– أرجوكما اخرجاً! – قال مدير المزاد.

كان التأثير بالغاً. وضحك الجمهور بشدة وتشفّف. مع ذلك، لم ينهض أستاب. فمثل هذه الضربات لم يتعرض لها منذ زمن طويل.

– أرجووكما!

قال مدير المزاد بصوت غنائي قوي لا يسمح بالاعتراض.

اشتد الضحك في القاعة.

وغادرا. قليل من غادر قاعة المزاد العلني بمثل هذا الشعور المرير. كان فوروبيانينوف أول من غادر. سار كطائر الغرنوق، وقد أحنى عظمي كتفيه، بسترته القصيرة وجزمته البارونية الغبية، شاعراً من خلفه بالنظرة الودودة الدافئة للمحتال الكبير.

توقف صاحب الامتياز في الغرفة المجاورة لقاعة الامتياز. والآن، أصبح بإمكانهما رؤية تجارة المزاد فقط من خلال الباب الزجاجي. والطريق إلى هناك قد أصبح محظوراً. كان أستاب صامتاً بصورة ودية.

– لا، بالفعل، ما هذا، الشيطان وحده يعرف! – تابع فوروبيانينوف ثورة غضبه – يأخذون من الكادحين أسعاراً باهظة، والله!... مقابل عشرة كراسي مستعملة مائتان وثلاثون روبلاً. شيء يدعو للجنون...

– نعم، – قال أستاذ متخشياً.

– حقيقة، أليس كذلك – سأل فوروبيانينوف من جديد – شيء يدعو للجنون!

– نعم.

أقترب أستاذ من فوروبيانينوف ملتصقاً به، وبعد أن نظر من حوله، وجه للمشير ضربة قصيرة، قوية، وغير ملحوظة للآخرين في جانبه.

– ها هي ذي الشرطة بالنسبة لك! هذا هو غلاء أسعار الكراسي لعمال العالم كله! هذه نزهاتك الليلية مع الفتيات! هذا ثمن الشيب في لحيتك! إليك هذا الشيطان في خاصرتك!

لم يصدر أي صوت من هيبوليت ماتفييفتش خلال فترة العقاب.

من الجانب، كان يمكن أن يبدو هذا وكأن ابناً محترماً يتحدث مع أبيه، لكن الأب يهز رأسه بكثير من الحيوية.

– حسناً، الآن ابعد عني!

أدار أستاذ ظهره لمدير شركته وبدأ بالنظر إلى قاعة المزاد. بعد دقيقة نظر إلى الخلف.

كان هيبوليت ماتفييفتش لا يزال واقفاً، منزلاً يديه إلى الأسفل.

– آه، أنت ما زلت هنا، يا روح المجتمع؟ ابعد عني، هيا!

– أيها الرفيق بندر – توسل فوروبيانينوف – أيها الرفيق بندر!

– اذهب! اذهب! ولا تأتِ إلى الطالب إيفانوبولو! سأطردك!

– أيها الرفيق بندر!

لم يعد ينظر أستاذ إلى الورا. وحدث في القاعة شيء أثار اهتمام بندر الشديد، لدرجة أنه فتح باب القاعة وأخذ يسترق السمع.

- ضاع كل شيء! - قال بندر.

- ماذا ضاع؟ - سأل فوروبيانينوف بتذلل.

- الكراسي تباع بشكل منفرد، هذا ما سيحدث. ربما ترغب في الشراء؟ تفضل، أنا لا أمسك. لكنني أشك بأن يسمح لك بالدخول. وليس لديك الكثير من المال، كما أظن.

في هذا الوقت كان يحدث ما يلي في قاعة المزاد العلني: بعد أن شعر مدير المزاد أنه لن يتمكن من الحصول على مائتي روبل دفعة واحدة من جمهور المشاركين (مبلغ كبير للغاية من المشتركين الصغار الباقين في القاعة)، قرر الحصول على مئتي روبل على دفعات. دخلت الكراسي المزاد مرة أخرى، ولكن مجزأة وليس دفعة واحدة.

- أربعة كراسي من القصر، من خشب الجوز. لينة، من صنع هامبز. ثلاثون روبلاً. من يدفع أكثر؟

سرعان ما استعاد أستاذ تصميمه ورباطة جأشه. فخاطب رفيقه:

- أنت المفضل لدى السيدات، ابق هنا ولا تخرج لأي مكان. سأعود بعد خمس دقائق. انظر هنا، وتابع ما يحدث ومن يشتري. بحيث لا يخرج من أيدينا أي كرسي.

ونضجت في رأس بندر على الفور خطة هي الوحيدة الممكنة في مثل هذه الظروف الصعبة التي وقعا فيها.

ركض إلى شارع بتروفكا، وتوجه إلى أقرب حوض للأسفلت. وبعد عشرة ساجين (تعاادل 60 قدماً - م.) رأى شاباً وضع منصب جهاز التصوير. كان يجلس مشردون في المرجل. وما إن رأوا أن مجموعتهم الضيقة ينوون تصويرها، أخذوا يدافعون عن أنفسهم. وطارت قطع من الراتنج إلى جهاز التصوير الفوتوغرافي الإخباري. فقفز إلى الوراء حاملاً المنصب الشبيه بالضحية مع الكاميرا. وبعد أن انتقل إلى الرصيف المقابل حاول المصور تصوير المشردين من بعيد. عندها غادر المشردون الشباب المرجل وهجموا على العدو. وخوفاً على سلامة جهاز تصويره، هرب المصور إلى جادات شارع بتروفكا.

من وسط الحشد المتجمع ظهر بتكاسل المراسل الفوتوغرافي لمجلة منافسة. نظر المشردون إليه بنفور، لكن الحشد كان يقلق المصور كما تقلق نظرات الحسناوات الجميلات مصارع الثيران. علاوة على ذلك، كان عالماً، خبيراً بالنفس البشرية. فاقترب من المشردين الأطفال، وأعطى للمجموعة كلها نصف روبل، وبعد دقيقة واحدة، عاد المشردون وجلسوا في المرجل بشكل لائق، والتقط لهم المصور صوراً من جميع الجهات.

– ميرسي – قال المصور حسب عادته – جاهزة.

وشيّعه الضحك المؤيد للجمهور الذي بدأ يتفرق.

عندها بدأ أستاب محادثات تجارية مع المشردين.

وكما وعد، عاد أستاب إلى هيبوليت ماتفييفتش بعد خمس دقائق. ووقف المشردون على أهبة الاستعداد أمام مدخل قاعة المزاد العلني.

– الكراسي تُباع، تباع – همس هيبوليت ماتفييفتش – تم بيع أربعة كراسي، وكرسيين.

– إنها فعلتك – قال أستاب – والآن افرح وانبسط. كانت الكراسي كلها في أيدينا، أتفهم. هل يمكنك فهم هذا؟

سُمع في القاعة صوت كصوت الكمان، لم تمنحه الطبيعة إلا لموظفي المزاد، والمشرفين على لعب القمار، وبائعي الزجاج.

– ونصف روبل، إلى اليسار. ثلاثة. كرسي آخر من القصر. من خشب الجوز. في حالة سليمة تماماً. ونصف، من الأمام. واحد – ونصف من الأمام.

ثلاثة كراسي تم بيعها كلاً على حدة. أعلن مدير المزاد عن بيع الكرسي الأخير. كان الغضب يمزق روح أستاب. وهجم على فوروبيانينوف مرة أخرى. كانت ملاحظاته المهينة مليئة بالمرارة. ومن يعرف إلى أين يمكن أن يصل أستاب في أقواله وتماريناته اللاذنة الساخرة، لو لم يقاطعه بسرعة رجل اقترب منه في بدلة مزينة بأزهار اللودز البنية. ولوح بيديه المكتنزتين، وكان يقفز ويتراجع، وكأنه لاعب تنس.

– قل لي – سأل أستاب على عجل – هل هنا، حقاً، مزاد علني؟ نعم؟ مزاد علني؟ وهنا بالفعل تباع أشياء؟ هذا رائع!

قفز الغريب إلى الراء، وأضاء وجهه بكثير من الابتسامات.

– هنا تباع حقاً أشياء ثمينة؟ وحقيقة، يمكن شراؤها بسعر رخيص؟ من الصنف الممتاز! جداً، جداً، أوه!...

اندفع الغريب، وهو يهز بوركيه الممتلئين إلى القاعة أمام صاحبي الامتياز المذهولين، واشترى بسرعة الكرسي الأخير، لدرجة أن فوروبيانينوف بطبط وتعثر في الكلام. ركض الغريب والإيصال بيده إلى طاولة الاستلام.



– قل لي، هل يمكن أخذ الكرسي الآن مباشرة؟ هذا رائع!... أوه!... أوه!...

حمل الغريب الكرسي، وهو يثغو دون توقف ويتحرك باستمرار، على عربة وانطلق بعيداً. وركض مشرد في إثره.

شيئاً فشيئاً، تفرق مالكو الكراسي الجدد وغادروا. وانطلق وراءهم عملاء أستاذ القاصرون المشردون. وخرج أستاذ نفسه. وتبعه هيبوليت ماتفييفتش بخوف وخجل. فهذا اليوم بدا له كالحلم. فكل شيء حدث بسرعة، وليس أبداً كما كان متوقعاً.

في زقاق سيتسفي فراجك (جادة صغيرة بالقرب من حي أرباب بموسكو – م.) كانت آلات البيانو والمندولين والأكورديونات تحتفل بقدوم الربيع. وكانت النوافذ مفتوحة على مصاريحها. والأزهار في الأصص الفخارية تملأ عتبات النوافذ. وكان رجل بدين بصدرة المشعر المكشوف وبحملات سرواله واقفاً أمام النافذة ويغني بحماس. وعلى طول الجدار كان يعبر قط ببطء. وفي أكشاك الطعام كانت مصاييح الكيوسين متوهجة.

كان كوليا يتنزه بالقرب من المنزل الوردي. وما إن رأى أستاذ الذي كان يمشي في الأمام حياته باحترام واقترب من فوروبيانينوف. فحياه هيبوليت ماتفييفتش بحرارة. بيد أن كوليا لم يحاول إضاعة الوقت.

– مساء الخير – قال بحزم ولم يستطع كبح جماح غضبه، فضرب هيبوليت ماتفييفتش على أذنه. وفي الوقت نفسه نطق بعبارة رذيلة، برأي أستاذ الذي كان يراقب هذا المشهد. وقال كوليا بصوت طفولي: – هكذا سيحصل مع جميع من يتناول على غيره...

ولم يفصح كوليا على من يتناول. وارتقى على أصابع قدميه، وأغلق عينيه، وصفع فوروبيانينوف على خده.

رفع هيبوليت ماتفييفتش مرفقه، ولم يجرؤ على النطق بكلمة.

– هذا صحيح – علق أستاذ – والآن على رقبتك مرتين. هكذا. لا يمكن عمل شيء آخر. البيضات أحياناً تضطر إلى تربية الدجاجة الفاضحة... مرة أخرى... هكذا. لا تخجل. لا تضربه على الرأس بعد الآن. فهو أضعف نقطة عنده.

لو رأى متأمرو ستارغورود عملاق الفكر وأبا الديمقراطية في هذه اللحظة الحرجة، بالنسبة له، فمن المفترض أن يفرط الحلف السري «السيف والمحراث» ويزول من الوجود.

– حسناً، يبدو لي هذا يكفي – قال كوليا ووضع يده في جيبه.

– مرة أخرى فقط – توسل إليه أستاذ.

– حسناً، فليذهب إلى الجحيم! سوف يعرف مرة أخرى!

غادر كوليا. صعد أستاذ إلى الطالب إيفانوبولو ونظر إلى الأسفل. كان هيبوليت ماتفييفتش يقف على مقربة من المنزل، متكئاً على سور السفارة الحديدي.

– المواطن ميكلسون! – صاح أستاذ – كونراد كارلوفيتش! ادخل إلى المبنى! أسمح لك!

دخل هيبوليت ماتفييفتش إلى الغرفة وقد تنشط قليلاً. وقال:

– وقاحة لا سابق لها! بالكاد تمكنت من ضبط أعصابي.

– ها ها ها – تعاطف معه أستاذ – أية شبيبة جاءت! شبيبة رهيبة! تلاحق زوجات الغرباء! وتهدر أموال الغير... انحطاط كامل. ولكن قل لي، عندما يضربونك على رأسك، هل تشعر بالألم؟

– سوف أستدعيه للمبارزة.

– رائع، يمكنني أن أوصي لك صديقي المحترم. إنه يعرف تقاليد المبارزة وتشريعاتها عن ظهر قلب، ويملك مكنستين مناسبتين للغاية من أجل الصراع والمبارزة ليس من أجل الحياة بل من أجل الموت. ويمكن استدعاء إيفانوبولو وجاره على اليمين كشاهدين. فهو مواطن شرف سابق لمدينة كولوغريف (مدينة روسية – م.)، وما يزال يفتخر بهذا اللقب. كما يمكن ترتيب مبارزة في مطاحن اللحوم – فهي أكثر أناقة. وكل جرح هو جرح مميت بلا شك. والخصم المهزوم يتحول بصورة آلية إلى كفتة. هل هذا يناسبك أيها المشير؟

في هذه اللحظة وصلت صفرة من الشارع، ونزل أستاذ لتلقي معلومات عملائه السرية من المشردين.

لقد نجح المشردون بصورة ممتازة في تنفيذ المهمة التي كلفوا بها. ووصلت أربعة كراسي إلى مسرح كولومبوس. وروى المشرد بالتفصيل كيف تم نقل هذه الكراسي الأربعة على عجلة، وكيف تم سحبها ونقلها إلى بناء المسرح عبر مدخل الفنانين. وكان أستاذ يعرف جيداً موقع المسرح.

ونُقل كرسيان على عربة «الحثالة الأنيقة»، كما قال متعقب شاب مشرد آخر. ويبدو أن هذا الفتى لا يتمتع بمهارات وقدرات كبيرة. فزقاق فارسونوفسكي الذي نُقل إليه الكرسيان،

يعرفه جيداً، كما يعرف الشقة التي أدخل الكرسيان إليها، وهي الشقة 17، لكنه لم يستطع تذكر رقم البناء.

– كنت أركض بسرعة كبيرة – قال المشرد – وطار من رأسي رقم المنزل.

– لن تحصل على النقود – قال رب العمل (أستاب – م).

– عمي!... سأريك أين.

– حسناً، ابق هنا، سنذهب معاً.

اتضح أن هذا المواطن الذي يثغو، كان يعيش في شارع سادوفو – سباسكايا. وقد كتب أستاذ عنوانه الدقيق على دفتر ملاحظاته.

أما الكرسي الثامن فقد ذهب إلى دار الثقافة. واتضح أن الصبي الذي تعقب هذا الكرسي كان شاطراً، حاذقاً، وبتغلبه على الحواجز كإدارة المدخل والموظفين العديدين، تمكن من الدخول إلى البناء، واقتنع بأن الكرسي اشتراه مدير مكتب هيئة تحرير «ستانوك» (الماكينة – م). صبيان لم يحضرا بعد. وقد ركضا في وقت واحد تقريباً، وكانا لاهئين ومتعبين.

– جادة التكنات «كازارميني»، عند «تشيسيتي برودي» (الينابيع النقية – م).

– رقم المنزل؟

– تسعة. والشقة التاسعة. بجوارها يسكن التتار. في الفناء. وقد حملت الكرسي إليه. مشينا سيراً على الأقدام.

أما المتابع الأخير فقد جلب أخباراً حزينة. في البداية، كان كل شيء على ما يرام، ثم أصبح كل شيء سيئاً. دخل المشتري مع الكرسي إلى متجر محطة أكتوبر، وكان من المستحيل الدخول وراءه – كان يقف على المدخل مسلحون من مفوضية الشعب لطرق المواصلات. وأنهى المشرد تقريره بقوله: – لقد غادر، على الأغلب.

وهذا ما أثار قلق أستاذ كثيراً. وبعد أن كافأ المشردين بطريقة ملكية – روبلاً لكل متابع، باستثناء الصبي المتابع في زقاق فارسونوفسكي الذي نسي رقم المنزل (أمره بالقدوم في اليوم التالي صباحاً باكراً) – وعاد المدير الفني إلى المنزل، ومع عدم إجابته على تساؤلات رئيس مجلس الإدارة، شرع بإعداد الخطط.

– لم نفقد بعدُ أي شيء. العناوين موجودة، ومن أجل الحصول على الكراسي ثمة طرق عديدة مجرّبة: 1) تعارف بسيط، 2) مكيدة غرامية، 3) تعارف مع قرصنة، 4) مقايضة، و5) النقود. الطريقة الأخيرة هي الأصح. لكن النقود قليلة.

نظر أستاذ بسخرية إلى هيبوليت ماتفييفتش. واستعاد المحتال الكبير نضارة فكره العادية وتوازنه النفسي. يمكن بالطبع، الوصول إلى النقود. لدينا في الاحتياط: لوحة «البلاشفة يكتبون رسالة إلى تشمبرلين»، مصفاة الشاي، وفرصة كاملة لمتابعة وظيفة متعدد الزوجات.

كان يقلقه فقط الكرسي العاشر. كان هناك أثر، بالطبع، لكنه أي أثر! – غامض وضبابي. وقال أستاذ بصوت عال: – حسناً وماذا في الأمر، يمكن اصطياذ مثل هذه الفرص. ألعب بتسعة مقابل واحد. الاجتماع يستمر! أسمع؟ أنت، أيها المحلف المحترم!

## الفصل الثالث والعشرون إلتشكا الغاوية، أكلة لحوم البشر

يضم معجم وليم شكسبير، وفق حساب الباحثين، اثني عشر ألف كلمة. ويضم قاموس الزنجي من قبيلة أكلة لحوم البشر «مامبو - جامبو» ثلاثمائة كلمة.

كانت إلتشكا (يلينا) شوкина تكتفي بثلاثين كلمة بسهولة وحرية.

وهاكم الكلمات والعبارات وأدوات النداء التي اختارتها إلتشكا بعناية من كامل اللغة الروسية الواسعة والكبيرة والعديدة الكلمات كلها: 1 - تتوآقح.

2 - هو - هو!! (تعبر، بحسب الظروف والسياق، عن: السخرية، الدهشة، البهجة، الكراهية، الفرح، الازدراء، الرضا). 3 - مشهور(ذائع الصيت).

4 - كئيب (فيما يتعلق بكل شيء، مثال: «جاء بيتيا الكئيب»، «طقس كئيب»، «حادثة كئيبة»، «قط كئيب» وما شابه ذلك). 5 - لظلمة، غم.

6 - فظيع، مرعب (فظيع، مثلاً اللقاء مع صاحبتها الطيبة: «لقاء فظيع»). 7 - شاب (تقولها لجميع الرجال الذين تعرفهم، بصرف النظر عن عمرهم ووضعهم الاجتماعي). 8 - لا تعلمني كيف أعيش.

9 - مثل طفل («أسدد له ضرباتي كما أضرب الطفل» - أثناء اللعب بالورق. «لقد كسّرتَه كطفل» - كما يبدو أثناء الحديث مع مستأجر مسؤول). 10 - جماااا!

11 - بدين وجميل (تستخدمها كتوصيف للجماذ والأحياء). 12 - سنذهب بعربة أجرة(تقولها لزوجها)

13 - سنذهب بسيارة تكسي (تقولها لمعارفها من الذكور) 14 - إن ظهرك كله أبيض.(على سبيل المزاح).

15 - فكّر ولوا!

16 - أوليا(لاحقة الدلال للأسماء مثل: ميشوليا، زينوليا). 17 - واوا! (سخرية، دهشة، مفاجأة، إعجاب، كراهية، فرح، احتقار، رضا).

أما الكلمات القليلة المتبقية فكانت تشكل صلة وصل بين إلتشكا والمشرفين على المتاجر العامة.

وإذا ما نظرت إلى صور إتشكا شوкина المعلقة على سرير زوجها (صورة أمامية، وأخرى جانبية) فليس من الصعب أن تلاحظ ارتفاع جبينها اللطيف وبروزه، وعينيها الكبيرتين الرطبتين، وأحلى أنف وذقن في مقاطعة موسكو مع شامة ناعمة لطيفة مرسومة بالمسكرة.

كان الرجال يطرون على قامة إتشكا. كانت قصيرة القامة، وحتى الرجال القصار الهزيلين كانوا يبدون إلى جانبها رجالاً طوالاً وعمالقة.

لم يكن لدى إتشكا علامات فارقة. ولم تكن إتشكا بحاجة إليها. فقد كانت جميلة.

أما بالنسبة لمائتي روبل التي كان زوجها يستلمها شهرياً في معمل الثريات الكهربائية فكانت إهانة بالنسبة لإتشكا. فهي لم تكن تساعد بأي شكل من الأشكال في معركتها البطولية التي كانت تخوضها إتشكا منذ أربع سنوات منذ أن شغلت وضعها الاجتماعي كربة بيت وزوجة شوكين. كانت المعركة تُدار بجهد من كامل قواها. وكانت تستهلك جميع الموارد. وكان زوجها أرنست بافلوفيتش يقوم بعمله المسائي في بيته، وتخلي عن الخدم، ويوقد «البريموس»، ويكب القمامة، بل ويقلّي الكفتة أيضاً.

لكن كل شيء كان بلا ثمر. فالعدو الخطير كان يدمر المنزل باطراد عاماً بعد عام. وكانت إتشكا قد لاحظت منذ أربع سنوات أنه أصبح لديها امرأة منافسة وراء المحيط. وقد حل الحظ السيء على إتشكا في تلك الأمسية البهيجة عندما قاست بلوزة رائعة من الحرير. وفي هذا الزي كانت شبيهة بالإلهة.

– هو – هو! – صاحت إتشكا جالبة بهذا الصراخ الوحشي مشاعر معقدة مذهلة سيطرت عليها.

وببساطة، يمكن التعبير عن هذه المشاعر بالجملة التالية: «إذا ما رأي الرجال هكذا فسيضطربون. سوف يرتعدون. ويتبعوني إلى نهاية العالم، متلعثمين من الحب. لكنني سأكون فاترة. وهل يستحقونني؟ أنا المرأة الأجمل. فليس لدى أحد على سطح الكرة الأرضية مثل هذه البلوزة الأنيقة».

لكن مجموع الكلمات كان ثلاثين كلمة، واختارت منها إتشكا أكثرها تعبيراً – «هو – هو!».

في هذه الساعة العظيمة قدمت إليها فيمكا سوباك. وأحضرت معها رائحة يناير/كانون ثاني المتجمد ومجلة الموضة الفرنسية. توقفت إتشكا عند الصفحة الأولى. كانت الصورة المتألقة تمثل ابنة الملياردير الأمريكي فاندربيلد في فستان السهرة. كان في الصورة فرو وريش، وحرير ولؤلؤ، في تفصيل خفيف، غير عادي، وتصفيفة شعر مذهلة. وهذه قررت كل شيء.

– ولو! – قالت إلتشكا لنفسها.

وكانت تعني بذلك: «إما أنا وإما هي».

في صباح يوم آخر ظهرت إلتشكا عند مصفف الشعر. وهنا قصت جديدتها السوداء الجميلة وصبغت شعرها باللون الأشقر. ثم تمكنت من الصعود إلى درجة أخرى من الدرج نفسه الذي قرّب إلتشكا من الجنة المشعة، حيث تتمشى بنات المليارديرات، غير الصالحات لأعمال شوкина المنزلية، ولا تعادلن حتى ظفرها. واشترت ببطاقتها التأمينية الوظيفية جلد كلب على هيئة الدسمان (حيوان برمائي يشبه الخلد – م.). وقد استخدمته لتزيين فستان السهرة.

شعر المستر شوكين، الذي كان يحلم منذ فترة طويلة بشراء لوحة جديدة للرسم، بشيء من الكدر.

لقد وجه الفستان المزين بفرو الكلب لابنة فاندربيلد المتغطرة أول ضربة صائبة. ثم ألحقت بالأمريكية المعتدة بنفسها ثلاث ضربات متتالية. فقد اشترت إلتشكا من بائعة الفراء المحلي فيمكا سوباك وشاحاً نسائياً من فرو الأرنب الروسي، واقتنت لنفسها قبعة سماوية اللون من اللباد الأرجنتيني وحولت سترة زوجها الجديدة إلى سترة نسائية دارجة. فترنحت المليارديرة، ولكن، كما يبدو أنقذها أبوها فاندربيلد الذي يحبها حباً جماً.

كان العدد التالي من مجلة الموضة يحتوي على صور المنافسة الملعونة في أربعة أشكال: (1) بثعالب سوداء وبنية اللون، (2) بنجمة ماسية على الجبهة، (3) في بدلة طيران (جزمة عالية، سترة خضراء رقيقة جداً وقفازات، رُصّعت فوهاتها بحبات متوسطة الحجم من الزمرد)، (4) في فستان الرقص (شلالات من المجوهرات وقليل من الحرير).

أعلنت إلتشكا التعبئة. أخذ الأب – شوكين قرضاً من صندوق المساعدة المشتركة. لم يعطوه أكثر من ثلاثين روبلاً. لقد نسف هذا الجهد القوي الجديد اقتصاد الأسرة من جذوره. فاضطرت إلى الصراع في جميع جوانب الحياة. وقد الثّقت منذ فترة قريبة صور جديدة للآنسة في قصرها الجديد في فلوريدا. فاضطرت إلتشكا إلى الحصول على أثاث جديد. واشترت من المزاد العلني كرسيين منجدين طريين. (شراء موفق، كان من المستحيل تفويته!). ودون أن تسأل زوجها، أخذت نقوداً من المال المخصص للغذاء. وحتى الخامس عشر من الشهر (موعد قبض الراتب – م.) بقيت عشرة أيام وأربعة روبلات.

نقلت إلتشكا الكرسيين بأناقة من جادة فارسونيفسكي. لم يكن زوجها في البيت. ومع ذلك، سرعان ما حضر، حاملاً معه محفظة النقود.

– جاء الزوج كئيباً – لاحظت إلتشكا بوضوح.

كانت تنطق بجميع الكلمات بوضوح وتنطلق منها بخفة كالبالزلاء.

– مرحباً بتشكا، ما هذا؟ من أين الكرسيان؟

- هو - هو!

٢٠ - لا، حقيقة؟

- جماال!

– نعم، الكرسيان جیدان.

- مشهوران!

- هل هما هدية؟

– واو؟

– كيف؟ هل اشتريتهما؟ وبأى مال؟ بمال الغذاء ومصروف البيت؟ لقد قلت لك ألف مرة...

– أرنستيولا (تدليع لأرنست)، أنت تتواقح!

– ولكن، كيف يمكنك فعل هذا؟ لن يكون لدينا المال للطعام في هذه الحالة!

- ولو، فکر!

– لكن هذا معيب وشائن! أنت لا تعيشين حسب مواردنا!

– أتمزح!

– نعم، نعم، أنت لا تعيشين حسب مواردنا...

– لا تعلمنى كيف أعيش!

– لا، تعالى نتحدث بجدية. أنا راتبى الشهرى مائتا روبل...

— غم!

– أنا لا أرتشى، ولا أسرق الأموال، ولا أعرف تزيف الأموال...



- فظيع!

صمت أرنست بافلوفيتش. ثم قال أخيراً:

- إليك ما سأقوله: لا يمكنك العيش على هذا النحو.

- هو - هو! - قالت إلتشكا وهي تجلس على الكرسي الجديد.

- علينا أن نفترق.

- ولو، فكر!

- لسنا متجانسين بطباعنا. أنا...

- أنت شاب بدين وجميل.

- كم رجوتك، لا تسمّيني شاباً.

- أنت تمزح!

- ومن أين لديك هذه الرطانة الغبية!

- لا تعلمني كيف أعيش!

- أوه، يا للشيطان! - صاح المهندس.

- أنت تتواقع، يا أرنستيولا!

- تعالي نفترق بسلام!

- واو!

- لن تثبتي لي أي شيء! هذا الخلاف...

- سوف أضربك كطفل.

- لا، إنه أمر لا يطاق. حججك لن تزيحني أبداً عن هذه الخطوة التي أضطر للإقدام عليها.  
سأذهب الآن لاستدعاء حوذي الشحن.

– أنت تمزح!

– سنتقاسم الأثاث بالتساوي!

– فطیع!

– ستحصلين على مائة روبل في الشهر. بل مائة وعشرين. الغرفة ستبقى لك. عيشي كما تريدن، أما أنا فلا يمكنني العيش هكذا...

– أنت ذائع الصيت! – قالت إتشكا باحتقار.

– وأنا سأنتقل إلى إيفان ألكسييفتش.

— واو!

- لقد ذهب إلى منزله الريفي وترك لي شقته طيلة فصل الصيف. والمفتاح معي... ولكن الشقة خالية من الأثاث.

— يا للجمaaaال!

عاد أرنست بافلوفيتش بعد خمس دقائق مع البواب.

- حسناً، لن آخذ خزانة الملابس، فأنت بحاجة إليها أكثر مني، أما طاولة الكتابة فاسمحي لي بأخذها... وخذ هذا الكرسي، أيها البواب. سأخذ واحداً من هذين الكرسيين. أظن أنه من حقي؟

ربط أرنست بافلوفيتش أغراضه في بقعة كبيرة، ولف جزمته بجريدة، واستدار إلى الباب.

- إنَّ ظَهْرَكَ كُلَّهُ أَبْيَضٌ - قالتْ إلتشكا بصوت الحاكى.

– وداعاً، يا يلينا!

كان يتوقع أن تمتنع زوجته عن كلماتها المعدنية العادية. وشعرت إتشكا أيضاً بأهمية اللحظة. فتوترت وأخذت تبحث عن الكلمات المناسبة. وسرعان ما عثرت عليها: - ستذهب في سيارة أجرة! يا للجماااا!

انحدر المهندس على الدرج كالتيار الجارف.

أمضت إلتشكا أمسيتهما مع فيما سوباك. وبحثا حدثاً مهماً غير عادي، يهدد بتحطيم الاقتصاد العالمي.

– يبدو لي، سوف يرتدون ملابس طويلة وواسعة – قالت فيما وقد طمست رأسها في كتفها على طريقة الدجاجة.

– يا للغم!

ونظرت إلتشكا باحترام إلى فيما سوباك. فالدموازيل سوباك اشتهرت بأنها فتاة مثقفة: حيث أن قاموسها يضم حوالي مائة وثمانين كلمة. ومنها كانت تعرف كلمة واحدة لا يمكن لإلتشكا أن تحلم بها. وكانت هذه كلمة غنية: الجنسية المثلية. لا شك بأن فيما سوباك كانت فتاة مثقفة.

استمر الحوار المفعم بالحيوية بينهما طويلاً، لما بعد منتصف الليل.

\* \* \*

في الساعة العاشرة صباحاً دخل المحتال الكبير إلى جادة فارسونيفسكي. وكان يركض أمامه الصبي المشرّد الأخير. فأشار إلى المنزل.

– ألا تكذب؟

– ماذا بك، يا عم... هنا بالضبط، في الباب الأمامي.

أعطى بندر الصبي الروبل الذي استحقه بعرق جبينه.

– يجب أن تزيد – قال الصبي على طريقة الحوذي.

– «لم يبق من الحمار الميت سوى أذناه». ستحصل على المزيد من بوشكين. إلى اللقاء، أيها الأبله.

قرع أستاذ الباب، دون أن يفكر إطلاقاً بأية ذريعة سيدخل. فقد كان يفضل الإلهام في الأحاديث مع السيدات.

– واو؟ – استفسروا من وراء الباب.

– في موضوع مهم – أجاب أستاذ.

فُتِحَ الباب. دخل أستاذ إلى الغرفة التي يمكن أن تكون مفروشة حسب خيال نقار الخشب. على الجدران عُلِّقت صور من أفلام سينمائية، ودُمى، ولوحات قماشية من تامبوف. في هذه الخلفية المزينة المبرقشة، التي كانت تبهر العين، كان من الصعب ملاحظة المالكة الصغيرة للغرفة. كانت تلبس رداءً، معدلاً من قميص أرنست بافلوفيتش الطويل، وملبساً بنوع من الفراء.

أدرك أستاذ على الفور كيف يجب عليه التصرف في المجتمع الراقى. فأغْمَضَ عينيه وتراجع خطوة إلى الوراء. وصاح قائلاً: - فرو جميل!

- أنت تمزح! - قالت إتشكا بلطف - إنه يربوع مكسيكي.

- هذا غير ممكن. لقد خدعوك. لقد أعطوك فرواً أفضل بكثير. إنه فرو نمر ثلجي من شنغهاي. نعم! نمر ثلجي! أعرفه من ظلاله. أترين، كيف يتلون الفرو على أشعة الشمس!... كالزمرد! كالزمرد!

لقد صبغت إتشكا بنفسها فرو اليربوع المكسيكي باللون المائي الأخضر، لهذا راقها كثيراً مديح زائر الصباح.

ودون أن يسمح لصاحبة الشقة بأن تعود إلى رشدها، نطق المخادع الكبير بكل ما سمعه سابقاً عن الفراء، بعد ذلك تطرق أستاذ إلى الحديث عن الحرير، ووعد المالكة الساحرة للشقة بإهدائها عدة مئات من شرائق الحرير التي زعم أن رئيس اللجنة التنفيذية المركزية في أوزبكستان جلبها له.

- أنت، الشاب المطلوب - لاحظت إتشكا من خلال الدقائق الأولى لتعارفهما.

- فوجئت، بالطبع، من الزيارة المبكرة لرجل مجهول؟

- هو - هو!

- إنني جئت إليك بشأن مسألة حساسة.

- أنت تمزح!

- البارحة كنت في المزاد العلني وتركت في نفسي انطباعاً استثنائياً.

- أنت تتواقح!

- رحمتك! إن من غير الإنساني الوقاحة مع مثل هذه المرأة الفاتنة.

– فظيع!

واستمر الحديث لاحقاً على هذا المنوال، الذي يعطي، في بعض الحالات، ثماراً رائعة. لكن إطرء أستاذ أخذ يغدو مرة بعد أخرى، أكثر سطحية وإيجازاً. ولاحظ أستاذ عدم وجود الكرسي الثاني في الغرفة. فاضطر إلى تتبع الأثر. وبتنميقة أسئلته بالتملق الشرقي الملون، علم أستاذ بالأحداث التي وقعت بالأمس في حياة إلتشكا.

وفكر في نفسه: «مسألة جديدة، الكراسي تتفرق وتزحف كالصراصير».

وفجأة قال لها أستاذ: «– عزيزتي، بيعيني هذا الكرسي. إنه يعجبني كثيراً. أنت وحدك بذوقك الأنثوي الحساس يمكنك اختيار هذه التحفة الفنية. بيعيني الكرسي وسأعطيك سبعة روبلات».

– أنت تتوآقح، أيها الفتى – قالت إلتشكا بخبث.

– هو – هو! – فطن أستاذ. وقرر في نفسه:

«يجب التصرف معها بشكل آخر. سأقترح المقايضة».

– أتعرفين، الآن في أوروبا استعادوا في أفضل المنازل الموضة القديمة – يسكبون الشاي عبر المصفاة. فهي فعالة بصورة غير عادية، وأنيقة للغاية.

أبدت إلتشكا بعض الحذر.

– قديم إليّ ذات مرة، دبلوماسي من فيينا وأحضر لي هدية. قطعة رائعة.

– يجب أن تكون مشهورة – أبدت إلتشكا اهتمامها.

– يا للعجب! هو – هو! تعالي نتبادل. أنت تعطيني الكرسي، وأنا أعطيك المصفاة. أترغبين؟

وأخرج أستاذ من جيبه مصفاة مذهبة صغيرة.

تدحرجت أشعة الشمس على المصفاة كالبيضة. كانت الأرناب تقفز على السقف. وفجأة أضيئت زاوية الغرفة المظلمة. وتركت هذه القطعة في نفس إلتشكا انطباعاً قوياً لا يقاوم، مثل الانطباع الذي تحدثه علبة قديمة من الكونسروة على آكل لحوم البشر من قبيلة مامبو جامبو. في مثل هذه الحالات، يصرخ آكل لحوم البشر بملء صوته، وتأوهت إلتشكا بهدوء: – يا للعجب!

لم يسمح لها أستاب بالعودة إلى رشدھا، فوضع المصفاة على الطاولة، وأخذ الكرسي، بعد أن علم من المرأة الفاتنة عنوان زوجها، وانحنى لها مودعاً بأناقة.

## الفصل الرابع والعشرون أبشالوم فلاديميرفيتش إزنورنكوف

بدأت مرحلة عصيبة عند صاحبي الامتياز. كان أستاب يؤكد أنه يجب طرق الكراسي وهي حامية. أما هيبوليت ماتفييفتش فكان مهادناً، رغم أن أستاب كان يستجوبه من فترة لأخرى:

– بحق الجحيم، لماذا ارتبطت أنا بك؟ وما حاجتي إليك، حقيقة؟ أليس من الأفضل أن تذهب إلى بيتك، إلى دائرة الأحوال المدنية. هناك ينتظر ك الموتى، وحديثو الولادة. لا تعذب الأطفال حديثي الولادة. اذهب!

لكنه في أعماقه، تعلّق المحتال الكبير بالمشير المستوحش. وفكر في نفسه «بدونه الحياة ليست مضحكة ومسلية». ومان ينظر بمرح إلى فوروبيانينوف الذي نبت على قمة رأسه عشب فضي.

من حيث خطط العمل، خُصص لمبادرة هيبوليت ماتفييفتش حيز كبير مناسب. وما إن غادر الطالب الهادئ إيفانوبولو، شرح بندر لشريكه بالتفصيل أقصر الطرق للبحث عن الكنز:

– يجب العمل بجرأة. وعدم سؤال أحد. ولا بد من قدر أكبر من المجون والاستهتار. فهذا ما يروق للناس. عدم اتخاذ أية خطوة عن طريق شخص ثالث. لم يعد هناك حمقى. ولن يجلب لك أحد الماس من جيب الغريب. ولكن من دون ارتكاب جريمة. فعلينا أن نحترم القوانين.

مع ذلك، كانت تسير عمليات البحث من دون تألق متميز. كان يعيقها القانون الجنائي وكمية كبيرة من الخرافات البرجوازية التي بقيت لدى سكان العاصمة. فهم، على سبيل المثال، لا يحتملوا بأي شكل الزيارات الليلية عبر النافذة. وكان مضطرين للعمل بصورة علنية قانونية.

في يوم زيارة أستاب لإلتشكا شوكيننا ظهر أثاث في غرفة الطالب إيفانوبولو. وهو الكرسي الذي تمت مقايضته بمصفاة الشاي، – وهو الثالث بحساب غنيمة الحملة الاستكشافية. لقد مضى ذلك الوقت عندما كان البحث عن الماس يثير في الشريكين مشاعر قوية، عندما كانا يمزقان الكراسي بمخالبهما ويقضمان نوابضها. وكان يقول أستاب:

– حتى ولو لم يكن هناك أي شيء في الكراسي، اعتبر أننا ربحنا عشرة آلاف على الأقل. فكل كرسي مفتوح يزيد من فرصنا. وماذا لو أنه لا شيء في كرسي السيدة؟ لا حاجة لتحطيمه من أجل هذا السبب. فليحصل إيفانوبولو على أثاث. فهذا أكثر مسرة لنا.

في ذلك اليوم خرج صاحب الامتياز من البيت الوردي، وسارا باتجاهين مختلفين. كُلف هيبوليت ماتفييفتش بالبحث عن كرسي عند شخص غريب ثغَاء من حي سادوفايا - سباسكايا، وأعطاه بندر خمسة وعشرين روبلاً للمصاريف، وأمره بعدم الدخول إلى حانات البيرة، وعدم الرجوع من دون الكرسي. وأخذ المحتال الكبير على عاتقه الذهاب إلى زوج التشكا.

عبر هيبوليت ماتفييفتش المدينة على متن الحافلة رقم 6. وأثناء اهتزازة على مقعد الحافلة الجلدي وتحليقه إلى سقف الحافلة المطلي بالورنيش، كان يفكر بكيفية معرفة كنية هذا المواطن الثغَاء، وبأي ذريعة يدخل إلى بيته، وماذا سيقول في الجملة الأولى، وكيف الدخول إلى لب الموضوع.

بعد أن نزل من الحافلة عند البوابة الحمراء، وجد حسب العنوان الذي كتبه له أستاذ المنزل المطلوب، وشرع يمشي من حوله. لم يجرؤ على الدخول. فقد كان هذا فندقاً موسكوفياً قديماً، تم تحويله إلى جمعية للإسكان مكوّنة، بحسب الواجهة المتهالكة، من المقصرين في الدفع مدة طويلة.

وقف هيبوليت ماتفييفتش طويلاً أمام المدخل، وكان يقترب منه وحفظ عن ظهر غيب الإعلان المكتوب بخط اليد مع التهديدات بحق السكان المهملين، ودون أن يفكر بأي شيء، صعد إلى الطابق الثاني. كانت تظهر في الممر غرف منفصلة. اقترب هيبوليت ماتفييفتش ببطء، وكأنه يقترب من سبورة صف ليثبت النظرية التي حفظها، من الغرفة 41. وقد علّقت على الباب بدبوس واحد بطاقة زيارة رأسها إلى الأسفل:

أبشالوم فلاديميرفيتش

إزنورنكوف

وفي العتمة الكلية، نسي هيبوليت ماتفييفتش أن يقرع الباب، ففتحه وخطا كالنائم ثلاث خطوات ووجد نفسه في منتصف الغرفة. قال بصوت مختنق:

- عفواً!، هل يمكنني رؤية الرفيق إزنورنكوف؟

لم يجب أبشالوم فلاديميرفيتش. رفع فوروبيانينوف رأسه، ورأى آنذاك أنه لا يوجد أحد في الغرفة.

كان من المستحيل من حيث المظهر الخارجي، تحديد ميول مالك الغرفة. لكن الواضح أنه أعزب، وليس لديه خادم. على حافة النافذة كانت هناك قطعة من الورق بجلود السجق. كان السرير عند الجدار ممتلئاً بالصحف. وعلى رف صغير كانت هناك عدة كتب مغبرة. وكانت



ترى على الجدران صور القطط وعجول البحر والهرر. وفي وسط الغرفة، إلى جانب الأحذية القذرة والمائلة إلى الجانب، كان يقف كرسي خشب الجوز. وعلى جميع قطع الأثاث، بما في ذلك على كرسي قصر ستارغورود، كانت تتدلى أختام الشمع القرمزي. لكن هيبوليت ماتفييفتش لم ينتبه لهذا الأمر. فقد نسي على الفور القانون الجنائي وتوصيات أستاذ، وقفز إلى الكرسي.

في هذه الأثناء، تحركت الصحف على التخت. خاف هيبوليت ماتفييفتش. وزحفت الصحف وانهارت على الأرض. ومن تحتها خرج قط هادي. فنظر بلا مبالاة إلى هيبوليت ماتفييفتش، وبدأ يغتسل، ماسحاً بمخلبه أذنه وخده وشاربيه.

– فوا! – قال هيبوليت ماتفييفتش قرِفاً.

وسحب الكرسي إلى الباب. فانفتح الباب من تلقاء ذاته. وظهر على العتبة صاحب الغرفة – الشخص الغريب الثغاء. كان يرتدي معطفاً يظهر من تحته سرواله الداخلي الأرجواني. وكان يمسك بنطاله بيده.

يمكن القول عن أبشالوم فلاديميرفيتش إزنورنكوف، أنه لا مثيل له في الجمهورية كلها. وكانت الجمهورية تقدره على خدماته. فقد كان يقدم لها فائدة كبيرة. وخلف هذا كله بقي مجهولاً، رغم أنه كان معلماً، في الغناء مثل شاليابين، وفي الأدب مثل غوركي، وفي الشطرنج مثل كابالانكا، وفي التزلج على الجليد مثل ملنيكوف، ويشغل المكانة الأفضل في زاوية تفيرسكي وكامرغيرسكي في تنظيف الأحذية بالكريم الأصفر.

لقد غنى شاليابين. وكتب غوركي رواية كبيرة. وكابالانكا استعد للمباراة مع آليخين. حطم ملنيكوف الأرقام القياسية. والأشوري جعل أحذية المواطنين لامعة كأشعة الشمس. أما أبشالوم إزنورنكوف فكان يسخر.

لم يكن يسخر وينكت قط بلا هدف، من أجل الكلمة الجميلة. كان يفعل هذا بتكليف من المجلات الساخرة. وعلى منكبيه كان يتحمل الحملات المسؤولة، ويزود رسومات ومقالات غالبية مجلات موسكو الساخرة بالموضوعات.

يسخر الناس العظماء مرتين في حياتهم. وهذه السخرية تزيد من شهرتهم وتدخلهم التاريخ. كان إزنورنكوف يصدر ما لا يقل عن ستين عبارة ساخرة قارصة من الدرجة الأولى في الشهر، وكان الجميع يكررون هذه العبارات الساخرة بابتسامة، ومع ذلك بقي مجهولاً. وإذا ما وقعت الرسمة بعبارة إزنورنكوف الساخرة، كانت تحل الشهرة والمجد على الفنان. وكان اسم الرسام يكتب فوق الرسمة. لكن اسم إزنورنكوف لا يكتب.

– هذا أمر فظيع! – كان يصرخ – من المستحيل التوقيع. وعلى أي شيء أوقع؟ أوقع تحت سطرين؟

وتابع بحرارة الصراع ضد أعداء المجتمع: التعاونيين السيئين، المختلسين، أنصار تشمبرلن، البيروقراطيين. وكان يلسع بعباراته الساخرة القارصة المتملقين، ومدراء المباني، وتجار القطاع الخاص، والمدراء، والمشاعبين الزعران، والمواطنين غير الراغبين بتخفيض الأسعار، ورجال الاقتصاد المتهربين من نظام التوفير وعدم الهدر.

وبعد صدور هذه المجلات كانت هذه النكات والعبارات القارصة تُقدم على حلبة السيرك، وتعيد نشرها الصحف المسائية دون الإشارة إلى المصدر وتُقدم للجمهور من على منصة «مؤلفي المنوعات الغنائية».

وقد نجح إزنورنكوف في التنكيت والسخرية في تلك الجوانب التي كان يبدو أنه من المستحيل قول أي شيء مضحك فيها. ومن تلك المواضيع الصحراوية القاحلة، مثل الإضافات الباهظة على التكلفة، تمكن إزنورنكوف من استخراج حوالي مائة من روائع الدعابة والسخرية. كان من الممكن للشاعر الألماني هاينريش هاينه أن يفشل إذا ما طُلب منه قول شيء ما مضحك ومفيد اجتماعياً في الوقت نفسه بخصوص التعرف غير الصحيحة لشحن البضائع بالسرعة المحدودة؛ ولتهرب الكاتب الانكليزي مارك توين إذا ما طُلب منه مثل هذا الموضوع. لكن إزنورنكوف بقي ثابتاً، صامداً في موقعه.

كان يركض في غرف تحرير المجلات، مصطدماً بسلات المهملات المعدة لأعقاب السجائر وهو يثغو. وبعد عشر دقائق يكون قد صاغ الموضوع، واختار الرسم وحدد العنوان.

وعندما رأى في غرفته شخصاً يحمل كرسيّاً مختوماً، رمى أبشالوم فلاديميرفيتش البنطال الذي كواه للتو عند الخياط، وقفز وصاح:

– هل فقدت عقلك! أنا أحتج! ليس لديك الحق! هناك قانون! رغم أنه لم يُكتب للحمقى، لكنك قد تعرف، على الأقل من خلال الشائعات، أن الأثاث يمكنه البقاء في مكانه أسبوعين آخرين!... سأشتكي للنياحة!... سأدفع ثمنه، أخيراً!

وقف هيبوليت ماتفييفتش في مكانه ساكناً، وخلع إزنورنكوف معطفه، ودون الابتعاد عن الباب، ارتدى البنطال على ساقيه الممتلئتين، مثل شيشكوف (شخصية خيالية من رواية الكاتب الروسي نيقولاي غوغول «الأرواح الميتة» – م.). كان إزنورنكوف بدين الجسم، لكنه نحيف الوجه.

لم يكن لدى فوروبيانينوف أي شك بأنه سرعان ما سيُقبض عليه ويُجرّ إلى الشرطة. لهذا تفاجأ للغاية عندما هدا صاحب الغرفة فجأة بعد أن لبس ثيابه. ثم قال صاحب الشقة

بلهجة مصالحة:

– افهم، أخيراً، فأنا لا يمكنني الموافقة على ذلك.

وهيبوليت ماتفييفتش لو كان مكان إزنورنكوف لما وافق أيضاً بأن يسرقوا الكراسي منه في وضح النهار. لكنه لم يعرف ماذا يقول ولذلك لاذ بالصمت.

– الذنب ليس ذنبي. مدير الموسيقى هو المسؤول. نعم، أنا أعترف. لم أدفع لقاء استئجار البيانو ثمانية أشهر، غير أنني لم أبعه، رغم أنه كانت لدي فرصة كاملة لبيعه. لقد تصرفت بأمانة، أما هم فتصرفوا بطريقة احتيالية. أخذوا البيانو، ورفعوا عليّ دعوى في المحكمة وحجزوا الأثاث. لا يمكن حجز أي شيء عندي. فهذا الأثاث هو أداة الإنتاج. والكرسي أيضاً أداة إنتاج!

بدأ هيبوليت ماتفييفتش يدرك الموقف على نحو ما.

– اترك الكرسي! – صرخ أبشالوم فلاديميرفيتش فجأة – أسمع؟ أنت، بيروقراطي!

ترك هيبوليت ماتفييفتش الكرسي باستسلام، وتمتم:

– معذرة، سوء تفاهم، هذه هي الوظيفة.

هنا، شعر إزنورنكوف بكثير من المرح. فركض في أنحاء الغرفة وغنّى: «وفي الصباح ابتسمت من جديد أمام نافذتها، كعادتها». ولم يكن يعرف ماذا يفعل بيديه. فقد كانتا تطيران. وبدأ بربط ربطة عنقه، ودون أن ينتهي رماها. ثم أمسك بصحيفة، ودون أن يقرأ فيها أي شيء رماها على الأرض.

– إذن لن تأخذ الأثاث اليوم؟... حسناً!... أوه! أوه!

استغل هيبوليت ماتفييفتش الظروف المواتية الناشئة، وتحرك نحو الباب.

– انتظرا! – صاح فجأة إزنورنكوف. – هل رأيت يوماً مثل هذا القط؟ قل، إنه فعلاً رقيق جداً، وناعم إلى أقصى الحدود، أليس كذلك؟

وجد القط نفسه في يدي هيبوليت ماتفييفتش المرتعشتين.

– إنه من المرتبة الرفيعة... – تمتم أبشالوم فلاديميرفيتش، دون أن يعرف ماذا يفعل بطاقته الزائدة. – آه!... آه!...

هرع إلى النافذة، وشبك يديه، وأخذ ينحني مراراً لفتاتين كانتا تنظران إليه من نافذة المنزل المقابل. وراوح مكانه وأخذ يفرط في إصدار تأوهات واهنة:

– يا فتيات الضواحي! أنتن أفضل ثمرة!... من مرتبة رفيعة!... آه!... «وفي الصباح ابتسمت من جديد أمام نافذتها، كعادتها دائماً...».

– إذن، سأذهب، أيها المواطن – قال مدير الامتياز بغباء.

– انتظر، انتظرا! – اضطرب فجأة إزنورنكوف – دقيقة واحدة!... آه!... والقط؟ حقيقة، إنه رقيق وناعم بشكل غير عادي؟... انتظرا!... أنا الآن!...

فتش في جميع جيوبه بحرج، وهرب، ثم عاد، وتأوه، ونظر من النافذة، ثم هرب مرة أخرى وعاد من جديد.

– سامحني، يا روعي – قال لفوربيانيونوف الذي بقي واقفاً طيلة هذه الألعيب، طاوياً ذراعيه كجندي.

وبهذه الكلمات أعطى للمشير خمسين كوبيكاً.

– لا، لا، لا ترفض، من فضلك. أي عمل يجب تسديد أجره.

– أنا شاكر جداً – قال هيبوليت ماتفييفتش، مندهشاً من سعة حيلته.

– شكراً، يا عزيزي، شكراً، يا روعي!...

سمع هيبوليت ماتفييفتش وهو يمشي في الردهة ما يصدر من غرفة إزنورنكوف من ثغاء، وصراخ، وغناء، وصيحات عاطفية.

في الشارع تذكر فوروبيانيونوف أستاذ وارتجف من الخوف.

\* \* \*

كان إرنست بافلوفيتش شوكين يتجول في الشقة الفارغة، التي تنازل له عنها رفيقه لفترة الصيف، وكان يقرر مسألة: هل يستحم أم لا.

كانت الشقة المكونة من ثلاث غرف تقع تحت السطح مباشرة لبناء يتألف من تسعة طوابق. وكان يحوي كومودينة بمرآة فقط بالإضافة إلى طاولة الكتابة وكرسي فوروبيانيونوف.

وكانت الشمس تنعكس على المرأة وتؤدي العيون. استلقى المهندس على طاولة الكتابة، لكنه نهض على الفور. كان كل شيء حارقاً. وقرر في نفسه: «أنا ذاهب لأستحم».

خلع ثيابه، وشعر بالبرودة، ونظر إلى نفسه في المرأة وتوجه إلى الحمام. فسيطرت عليه البرودة. نزل إلى البانيو وصب الماء على نفسه من طاسة زرقاء مدهونة بالمينا، ورغا رغوة الصابون بسخاء. فتغطى بكامله برقائق الرغوة وأصبح شبيهاً بابا نويل.

– حسناً! – قال أرنست بافلوفيتش. كل شيء كان جيداً. وشعر بالبرد. زوجته لم تكن موجودة. وكانت أمامه حرية كاملة. جلس المهندس وفتح الصنبور كي يغسل الصابون. فاختنق الصنبور وأخذ يحشرج ببطء بكلام غير مفهوم. ولم يخرج الماء. أدخل أرنست بافلوفيتش إصبعه الصغير الزلق في فوهة الصنبور. فانسكب تيار رفيع لا أكثر وانقطع. تجهم أرنست بافلوفيتش وخرج من الحمام، رافعاً ساقيه واحدة إثر أخرى، وتوجه إلى صنبور المطبخ. ولكنه هناك أيضاً لم يتمكن من استخراج الماء.

شق أرنست بافلوفيتش طريقه إلى الغرف وتوقف أمام المرأة. كانت الرغوة تلسع عينيه، وظهره يحكّه، ورغوة الصابون تتساقط على الأرضية. وبعد أن دقق السمع فيما إذا كان الماء يجري في الحمام، قرر استدعاء عامل النظافة. وقرر المهندس وهو يفرك عينيه ويغلي ببطء: «فليجلب الماء على الأقل، وإلا فالشيطان يعلم ما هذا».

ألقى نظرة من النافذة. في قاع ساحة البناء كان يلعب الأطفال. صاح أرنست بافلوفيتش:

– أيها البواب! يا عامل النظافة!

لم يستجب أحد لصراخه.

تذكر عندها أرنست بافلوفيتش أن البواب يسكن في المدخل الرئيس، تحت الدرج. فداس على البلاط البارد، ممسكاً الباب بيده، وتطلع إلى الأسفل. كانت في الردهة شقة واحدة، ولم يخش أرنست بافلوفيتش من أن الجيران قد يرونه في لباس غريب من رغوة الصابون.

– أيها البواب! – صاح مخاطباً من في الأسفل.

تزلقت الكلمة وتدرجت على الدرجات.

– هو، هو – أجب الدرج.

– أيها البواب! أيها البواب 1

– هو – هو! هو! هو!

وهنا انزلق المهندس الذي كان يقف بحذر حافي القدمين، وكي لا يفقد توازنه أفلت الباب من يده. ففرقع الباب باللسان المعدني للقفل الأمريكي وانغلق. كان الحائط يرتجف. قبل أن يدرك أرنست بافلوفيتش استحالة إصلاح ما حدث، شدّ مقبض الباب. ولم يستجب الباب ولم ينفتح.

دفع المهندس مصعوقاً الباب عدة مرات، مصغياً بقلب يخفق. كان الصمت الكنسي الباهت مسيطراً. وكان الضوء بالكاد يخترق الزجاج الملون للنافذة العالية.

– «يا له من وضع» – فكر أرنست بافلوفيتش.

– يا لك من وغد – قال مخاطباً الباب.

في الأسفل، بدأت تُسمع وتتفجر أصوات بشرية كالمفرقات النارية. ثم أخذ ينبح كلب بيتي مثل مكبر صوت.

على الدرج كانت تُدفع عربة أطفال إلى الأعلى.

كان أرنست بافلوفيتش يمشي بجبن في الردهة أمام الباب.

– شيء يدعو إلى الجنون!

بدا له أن كل هذا وحشي للغاية بحيث يمكن أن يحدث بالفعل. واقترب من الباب ثانية وأخذ يسترق السمع. فسمع أصواتاً جديدة لا يعرفها. بدا له في البداية، أن شخصاً ما يمشي في الشقة.

«ربما جاء شخص ما من الباب الخلفي؟» – فكر، رغم أنه كان يعرف أن الباب الخلفي مغلق، ولا يمكن لأي شخص أن يدخل إلى الشقة.

استمرت ضجة رتيبة. أوقف المهندس أنفاسه. وعندها أدرك أن الماء المتدفق هو الذي يحدث هذه الضجة. وأن الماء، كما يبدو، يسيل من جميع صنابير الشقة. وكاد أرنست بافلوفيتش أن يشهق.

كان الوضع فظيلاً. في موسكو، في مركز المدينة، وفي ردهة الطابق التاسع كان يقف رجل ذو شاربين، يحمل شهادة جامعية، عاري الجسم تماماً، ومغطى برغوة الصابون الرجراجة. لم يكن لديه مكان يذهب إليه. كان يفضل أن يكون في السجن من أن يظهر بهذا الشكل. بقي عنده شيء واحد – أن يختفي. كانت الرغوة تنفجر وتحرق له ظهره. وقد جمدت على يديه ووجهه، وأصبحت شبيهة بالجرب، وتشد جلده مثل الحجر – مسنّ موسى الحلاقة.

مرت نصف ساعة على هذا الشكل. كان المهندس يفرك جسمه بجير الجدار، وهو يئن، وحاول عدة مرات كسر الباب دون جدوى. وأصبح قذراً ومخيفاً. وقرر شوكين النزول إلى الأسفل، إلى البواب، مهما كلفه الأمر.

«لا توجد طريقة أخرى، سوى الاختباء عند البواب!»

أخذ أرنست بافلوفيتش يتسلل ببطء على طول الدرابزين، وهو يلهث ويغطي عورته بيده كما يفعل الرجال عندما يدخلون إلى ماء النهر. فوجد نفسه على الردهة بين الطابقين الثامن والتاسع.

كان الضوء يسقط على جسمه بمعينات ومربعات متعددة الألوان من النافذة. وأصبح شبيهاً بهارليكوين الذي يسترق السمع إلى حديث كولومبينا وباجيلياك (حكاية شعبية روسية بطلها هارليوكين وبطلتها كولومبينا وباجيلياك هو المهرج - م). وكان قد تحول إلى مصطبة جديدة من الدرج، عندما فُتح فجأة قفل الشقة السفلية وخرجت من الشقة سيدة تحمل حقيبة نسائية صغيرة. ولم تكد السيدة تخطو خطوة واحدة حتى وجد أرنست بافلوفيتش نفسه أمام ردهته. فكاد يصاب بالصمم من نبضات قلبه الرهيبة.

بعد نصف ساعة فقط تعافى المهندس وتمكن من القيام بخطوات جديدة. وقرر في هذه المرة الاندفاع بسرعة إلى الأسفل، وعدم الالتفات إلى أي شيء، والركض إلى غرفة البواب المنشودة.

وهذا ما فعله. قفز عضو مكتب قسم المهندسين والفنيين بشكل غير مسموع أربع درجات وهو يلهث بصوت خافت، ووثب إلى الأسفل. توقف للحظة عند ردهة الطابق السادس. وهذا ما قتله. كان شخص ما يصعد من الأسفل.

- فتى لا يطاق - سُمع صوت نسائي، تضخم مرات عديدة بفعل مكبر صوت الدرج - كم من المرات نبهته وحدثته!

وأصبح خاضعاً لغريزته وليس لعقله، طار أرنست بافلوفيتش بسرعة إلى الطابق التاسع مثل قط تلاحقه الكلاب.

وعندما وجد نفسه أمام ردهته المتسخة بالآثار الرطبة، بدأ يبكي بصمت، ويشد شعره متأرجحاً بتشنج. اصطدمت دموعه الساخنة بقشرة الصابون وحفرت فيها أخدودين متموجين.

- يا الله - قال المهندس - يا إلهي! يا إلهي!

لم يعد فيه ما يدل على الحياة. في هذه الأثناء، سمع بوضوح صوت شاحنة تسير في الشارع. إذن، ثمة حياة تجري في مكان ما.

حث نفسه عدة مرات أخرى للنزول إلى الأسفل، لكنه لم يستطع - فقد انهارت أعصابه. ووقع في حيرة كاملة.

- اعتنِ بنفسك، حافظ على النظافة، مثل الخنزير - سمع صوت امرأة عجوز من الردهة السفلى.

ركض المهندس نحو الحائط ونطح رأسه به عدة مرات. كان الأكثر منطقية بالطبع، أن يصرخ إلى أن يأتي أحد ما، ومن ثم الوقوع في أسر القادم. بيد أن أرنست بافلوفيتش فقد نهائياً القدرة على التفكير، فبقي يلف ويدور حول الردهة، وهو يتنفس بصعوبة كبيرة.

لم يكن هناك مخرج.



## الفصل الخامس والعشرون نادي سائقي السيارات

كان «السيد المحترم» أسوكين يقرأ كتاب أغافون شاخوف الجديد لليلة الثالثة على التوالي. ومع كل صفحة جديدة كان قلب أمين الصندوق يمتلئ بالإلهام. فبطل الرواية - هو، أمين صندوق. لم يكن لديه أدنى شك. أسوكين تعرّف على نفسه في كل شيء من خلاله. كان لدى بطل الرواية عادات أسوكين، ينسخ النكات والأقوال الطريفة بخنوع، ويرتدي البدلة ذاتها مثله - سترة عسكرية بنية اللون، وسروالاً يسقط على الكعبين العالين للحداء.

لقد تم وصف قفص صندوق «السيد المحترم» فوتوغرافياً. فقد كان أغافون شاخوف خالياً من الخيال. حتى كنية بطل الرواية كانت شبيهة بكنيته: أجوغين. شعر «السيد المحترم» منذ البداية بالإعجاب والسرور. فقد كان وصفه صحيحاً في الرواية.

- إن أي واحد من معارفي وزملائي سيعرفني - كان يقول أمين الصندوق بفخر.

ولكن الفصل السادس، حيث نسب المؤلف لأمين الصندوق سرقة خمسة آلاف روبل من الخزينة، أثار في نفس «السيد المحترم» ضحكة قلقة مكتومة.

وقد كُرسَت الفصول السابع والثامن والتاسع لوصف المندامات وحفلات السكر الصاخبة لـ «السيد المحترم» مع كاهنات كوكب الزهرة في أكثر أوكار مدينة كالوغا إغراء، حيث كان يختفي أمين الصندوق حسب رغبة المؤلف. في تلك الأمسية لم يتناول أسوكين طعام العشاء. فقد جلس في الحديقة على مقعد تحت المصباح الكهربائي مباشرة، وعلى ضوءه الوردي أخذ يقرأ عن حياته الخيالية. شعر بالخوف في البداية، من أن السلطات ستعلم بمآثره، ولكن فيما بعد، تذكر أنه لم يقم بأية مآثر، اطمأن بل وشعر بالإطراء. فعلى أية حال، لم يختار أغافون شاخوف أحداً غيره، بل اختاره هو بالذات بطلاً لروايته الجديدة المثيرة.

شعر أسوكين بنفسه أسمى وأذكى بكثير من ذلك المختلس الفاشل الذي صوّره الكاتب. حتى أنه أصبح في نهاية الأمر يحتقر أمين الصندوق الهارب هذا. فأولاً، فضّل بطل الرواية على ناتاشكا اللطيفة («بثديها المرتفعين وعينيها الخضراوين وخط وركيها القوي») مدمنة الكوكائين المجرمة إزميرالدا («بثديها المسطحين وأسنانها المتوحشة وجرس صوتها الذي يخرج من حلقها»). ولو كان مكان بطل الرواية لفضل أسوكين في أسوأ الأحوال فينشكا (فينيا) البسيطة الريفية («بثديها الكبيرين وخديها الحمراوين وخط وركيها القوي»), وليس أبداً إزميرالدا السافلة التي كانت تمارس السرقة أثناء عهدها. وبعد ذلك غضب «السيد المحترم» أكثر. فقريته في الرواية خسر في سباق الخيل بغباء وجهل ألفي روبل من خزينة الدولة. لم يكن أسوكين ليقدّم أبداً على هذه الفعلة. وعندما فكر بهذا

الغباء الطفولي، بصق أسوكين بانزعاج. كان الكاتب يرضي أسوكين بشيء واحد فقط، هو وصفه للحانات ووجبات العشاء ومختلف أنواع المازة. لقد وصف الحانات بشكل جيد - بمعرفة دقيقة بها، وبحماسة الشباب التي لا تعرف الزلل، وبحب وحماسة وتفصيل أدبية لطيفة. فقد قارن سمك السلمون، على سبيل المثال، بحضن فتاة شابة أصلها من شيوس (جزيرة في بحر إيجه - م.). ولم ينس الكافيار - هذا الرفيق الساحر لروايات الحب في الشوارع الفرنسية والروسية شبه الجادة. وقد وصفها بوزن لا يقل عن نصف بود (البود = 16 كغ - م.). وكان الكافيار طعام جميع شخصيات الرواية الرئيسة والثانوية. شعر أسوكين بالألم. فلو كان مكانه لما أعطى الكافيار لأحد، ولأكله لوحده. زجاجات الشمبانيا، وكونياك مارتيليف (لم يكن يعرف المؤلف أفضل شركات الكونياك)، والفواكه، والانتفاخ الحريري لأرجل السيدات، وكبراء الندل في الفنادق والمطاعم، ومفارش المائدة المنشأة، والسيارات والسيجار - كل هذا اختلط في كومة فاخرة لم يخرج من تحتها المختلس إلا في الفصل الأخير، كي يذهب على الفور إلى التحقيق الجنائي مع اعترافه الطوعي.

وبعد انتهائه من قراءة الرواية التي كانت تُدعى «سباق الموجة»، ارتجف أسوكين من برد المساء وعاد إلى البيت لينام.

لم يستطع النوم. كان قرينه يضغط على خياله. في اليوم التالي، وعند مغادرته مكتبه، أخذ «السيد المحترم» معه خمسة آلاف روبل، وهو المبلغ نفسه تماماً الذي صرفه قرينه المجرم. قرر «السيد المحترم» استخدام المال بصورة عقلانية: استعارة جميع منجزات أجوغين، ومع مراعاته لأخطائه، تجنب العيوب.

في المساء، أخذ أسوكين في اعتباره المنجزات وتجنب العيوب والنقائص برفقة فتيات من جهات بتروفسكي. وقد كلفه تبادل الخبرات مائة روبل. وعند الفجر، خرج «السيد المحترم» بعد أن صحا، إلى بولفار تيفيرسكي، ومشى متثاقلاً من نصب بوشكين إلى نصب تيميريازيف.

لم يأت إلى هيئة التحرير في ذلك اليوم. ونشأ طابور أمام الصندوق. وقد أثار ضجة رهيبة المعلق برسيتسكي، الذي كان قد طلب سلفة صغيرة وانتظر افتتاح أعمال الصندوق منذ نصف ساعة. وعندها أرسلوا المراسل لإحضار أسوكين. لكن أمين الصندوق لم يكن في بيته أيضاً. وكل ما تبقى حدث بسرعة كبيرة: قاموا بفض الختم وفحص محتويات الصندوق. ثم ذهب ممثل إدارة الصندوق إلى مباحث موسكو الجنائية، كي يعلن عن اختفاء أمين الصندوق والمال. ولدهشته الشديدة التقى هناك بأمين الصندوق أسوكين، الذي كان يجلس حزيناً خلف الحاجز في مكتب الرئيس، ويبكي بطريقة خرقاء، على طريقة الكبار. فقد أربعه هدر مائة روبل لدرجة أنه أسرع على الفور بالتوبة والاعتراف. وتم إعادة مبلغ 4900 روبل في اليوم نفسه إلى الخزنة، وحصل المعلق برسيتسكي على السلفة، أما أسوكين، ولأن المبلغ المهذور غير كبير، فقد أطلقوا سراحه، وألغوا استجوابه وألزموه

بالتوقيع على عدم المغادرة. ذهب آسوكين إلى هيئة التحرير، ودون أن يجراً على الحديث مع أي شخص، طاف على أطول رواق في دار الثقافة. مر إلى جانب أمين الصندوق المغرم مدير التوريد جاراً وراءه الكرسي الوثير الذي اشتراه لرئيس التحرير من المزاد العلني. وركض إلى جانبه الموظفون مع حزمة من الملاحظات. كان أحدهم يبحث عن قسم الحلويات، ويبدو أنه بحث طويلاً، لأنه كان يسأل عنه بصوت ضعيف للغاية. واستعلموا من آسوكين عن كيفية الوصول إلى المخرج، وأين يمكن تسليم منشور عن فقدان الوثائق. واستفسر شاب يحمل حقيبة كبيرة عدة مرات من «السيد المحترم» ما إذا كانت لديه رغبة بتسجيل اشتراكه في الموسوعة السوفييتية الكبرى في تجليد جلدي. وباختصار، طُرحت عليه جميع الأسئلة التي يطرحها المواطنون الراكضون في رواق مؤسسة سوفييتية بالاتجاهين المقابل والموازي.

لم يجب آسوكين على أي سؤال. فشعر العاملون بالسوء. وسرت شائعات في الأقسام، سرعان ما تأكدت. فقد أبعد آسوكين عن منصبه بسبب الخلل في الصندوق. واتصلوا هاتفياً بشاخوف. ففرح شاخوف.

– ماذا فعلت؟! – صرخ شاخوف في الهاتف – في الصميم! لا في الحاجب بل في العين! انحنوا لـ «السيد المحترم»! ماذا؟ مبلغ صغير؟ هذا ليس مهماً. المبدأ هو المهم.

لكن شاخوف لم يستطع الحضور إلى مكان الحادثة. فتحت ريشته كانت تحلّق مشكلة أخرى – مشكلة الانتحار. (هذا القسم من بداية الفصل إلى هنا حذفته الرقابة السوفييتية باستمرار – م.)

\*\*\*

في هيئة تحرير صحيفة «ستانوك» (الماكينة) اليومية الكبيرة، الواقعة الطابق الثاني من دار الثقافة، كانوا يعدّون المواد الصحفية بسرعة لتسليمها للتنضيد.

اختيرت من الزربية (المواد التي تم تنضيدها ولم تنشر في العدد السابق) الزوايا والمقالات، وتم حساب عدد الأسطر التي تشغلها، وبدأ البازار اليومي على المكان من العدد.

كانت الصحيفة تتسع على صفحاتها الأربع كلها لـ 4400 سطر. ومن المفترض أن ينشر هنا كل شيء: البرقيات، المقالات، الإخباريات، رسائل المراسلين العمال، الإعلانات، مقالة انتقادية شعرية ومقالتان انتقاديتان نثريتان، رسوم كاريكاتورية، صور، ملفات خاصة: المسرح، الرياضة، الشطرنج، الافتتاحية، ما تحت الافتتاحية، أخبار المنظمات السوفييتية والحزبية والنقابية، الرواية التي تنشر على حلقات، خواطر فنية عن حياة العاصمة، أشياء صغيرة بعنوان «بذور مقشورة»، مقالات علمية – مبسطة، الإذاعة – ومواد عرضية مختلفة.

وثنُضد في جميع الأقسام مواد تقدر بألف مادة وبعشرة أسطر لكل منها. ولذلك فإن توزيع مساحة الصحيفة على الأعمدة كان يترافق عادة بمشاهد درامية.

كان المايسترو سوديكيين رئيس قسم الشطرنج أول من ركض إلى أمين التحرير. وطرح سؤالاً محترماً، لكنه مليء بالمرارة:

– كيف؟ ألن يكون للشطرنج مكان في عدد اليوم؟

– لا تستوعب – أجاب أمين التحرير – الزريبة (المواد المنضدة المتبقية من أمس) كبيرة. ثلاثمائة سطر.

– لكن اليوم هو يوم السبت. والقارئ ينتظر قسم الأحد. لدي أجوبة عن الأسئلة والمهام، لدي مسألة شطرنجية رائعة لنيؤنيفاكو، لدي أخيراً...

– حسناً. كم تريد؟

– ما لا يقل عن مائة وخمسين سطرًا.

– جيد. طالما لديك أجوبة عن الأسئلة والمهام، سنعطيك ستين سطرًا.

حاول المايسترو تحصيل ثلاثين سطرًا أخرى، على الأقل لمسألة نيؤنيفاكو (لعبة هندية رائعة تارتاكوفير – بوغوليوبوف موجودة لديه منذ شهر)، ولكن تم استبعادها.

جاء المراسل برسيتسكي. وسأل بصوت هادئ:

– هل من الواجب تقديم انطباعات عن الاجتماع الموسع؟

– بالطبع – صرخ أمين التحرير – فأول أمس تحدثنا عن ذلك.

– موجودة لدي، – قال برسيتسكي بصوت منخفض أكثر – ولدي رسمتان، غير أنهم لا يعطوني حيزاً في العدد.

– كيف لا يعطوك؟ مع من تحدثت؟ وهل فقدوا عقولهم؟

ركض أمين التحرير وهو يشتم. وتبعه برسيتسكي محرراً للفتنة، وخلفهما ركض موظف من قسم الإعلانات.

- لدينا إعلان لسائل سيكار(سائل مشهور اخترعه عالم الفيزيولوجيا الفرنسي بروين - سيكار 1817 - 1894 م.) - صرخ بصوت حزين.

سار يبطء من خلفهم مدير التوريد صاحباً معه الكرسي الوثير المنجد الذي اشتراه لرئيس التحرير من المزاد العلني.

- السائل ليوم الثلاثاء. اليوم سننشر ملاحظتنا!

- ستحصل على الكثير من إعلاناتك المجانية، أما الإعلان عن السائل فقد استلمنا ثمنه نقداً.

- حسناً، سنتبين في الإصدار الليلي. سلّم إعلانك باشا (بافلينا). هي الآن في طريقها إلى الإصدار الليلي.

جلس أمين السر يقرأ الافتتاحية. اقتلعوه على الفور من هذا العمل الممتع. فقد جاء الرسام. قال أمين التحرير:

- أيوه، جيد جداً. ثمة موضوع للرسوم الكاريكاتورية، بصدد البرقيات الأخيرة من ألمانيا.

- أعتقد على النحو التالي - قال الرسام - خوزة فولاذية والموقع العام لألمانيا...

- حسناً. اجمعها وارسمها أنت بطريقة ما، ثم أرني إياها.

ذهب الرسام إلى قسمه. أخذ مربعاً من ورق الرسم ورسم بقلم الرصاص كلباً نحيفاً. وأبس رأس الكلب خوزة ألمانية مع رمح. ثم بدأ بالكتابة عليها. وعلى جسم الكلب كتب بأحرف طباعية كلمة «ألمانيا»، وعلى ذيله الملتوي كتب «ممر دانتسيغ»، وكتب على فكه «أحلام الانتقام»، وعلى طوق الكلب «مخطط داوس» (مخطط ألماني يهدف إلى استعادة الصناعة الحربية الألمانية - م.). وكتب على لسانه الممدود «شتريسمان» (وزير الخارجية الألماني - م.). ووضع الرسام أمام الكلب الرئيس الفرنسي بوانكاريه ممسكاً بيده قطعة من اللحم. وكان بود الرسام أن يكتب شيئاً على قطعة اللحم، لكن القطعة كانت صغيرة، ولم تتسع للكتابة فوقها. لو كان شخص آخر أقل ذكاء من رسام الكاريكاتير في الصحيفة لوقع في حيرة من أمره، لكن الرسام، ودون أن يستغرق في التفكير أضاف إلى قطعة اللحم زجاجة مربوطة برقبة الكلب للوصفة، وكتب عليها بأحرف صغيرة: «الاقتراحات الفرنسية للضمانات الأمنية». وكي لا يختلط بوانكاريه مع رجل دولة آخر، كتب على بطنه: «بوانكاريه». وأصبح الرسم جاهزاً.

كان هناك على طاولات القسم الفني مجلات أجنبية، ومقص كبير، وعلب حبر ومحلول مبيّض. وكانت هناك قصاصات من الصحف على الأرض: كتف شخص ما، ورجلا شخص آخر، وقطع من مناظر طبيعية.

كان خمسة رسامين يكشطون بشفرات الحلاقة «جيليت» الصور، ويسلطون عليها الضوء، ويشحذونها بتلوينها بالحبر والمبيّض، ويضعون على ظهرها التوقيع والحجم: 3/4، 3 مربعات، عمودان، وما إلى ذلك من تعليمات مطلوبة للزنكوغراف.

في غرفة رئيس التحرير كان يجلس وفد أجنبي. وكان مترجم هيئة التحرير ينظر إلى وجه الأجنبي المتكلم ويقول مخاطباً رئيس التحرير:

– الرفيق آرنو يريد أن يعرف...

كان يدور الحديث حول هيكل الصحيفة السوفييتية. وبينما كان المترجم يشرح لرئيس التحرير ماذا كان يريد الرفيق آرنو أن يعرف، كان آرنو نفسه، في سرواله المخملي الشبيه بسروال سائق الدراجة، ينظر هو وجميع الأجانب الآخرين بفضول إلى القلم الأحمر بريشته رقم 86، الملتصق بزاوية الغرفة. كانت الريشة تكاد تلامس السقف، أما القلم في مقبضه وقسمه العريض فكان بسماكة جذع رجل متوسط الطول. وكان من الممكن الكتابة بهذا القلم: فالريشة كانت حقيقية، رغم أنها من حيث الحجم أكبر من رمح كبير.

– أوهو – أوهو – ضحك الأجانب – عملاق!

تم تقديم هذه الريشة لهيئة التحرير من قبل مؤتمر المراسلين الصحفيين العماليين.

كان رئيس التحرير، الجالس على كرسي فوروبيانينوف، يتنسم، ويومئ برأسه بسرعة إلى القلم تارة، وإلى الضيوف تارة أخرى وهو يشرح بمرح.

استمر الصراخ في أمانة التحرير. وحمل معه برسيتسكي مقالة سيماشكو، وسرعان ما شطب أمين التحرير من ماكيت الصحيفة (النسخة التمهيدية) العمود الثالث لقسم الشطرنج. ولم يعد سوديكيين يقاتل من أجل مسألة نيؤنيفاكو الشطرنجية الرائعة. وسعى جاهداً للإبقاء على حل المسائل والمهام على الأقل. وبعد صراع، بعد صراع أشد من صراعه مع لاسكر على بطولة سان – سيباستيان، حصل المايسترو على حيز له في الصحيفة على حساب «المحكمة والحياة».

تم إرسال مقالة سيماشكو للتنضيد. تعمق أمين التحرير من جديد في قراءة الافتتاحية. فقد قرر قراءتها، مهما كلف الأمر، على الأقل من باب الفضول.

وعندما وصل إلى جملة: «... بيد أن مضمون الحلف الأخير هو على نحو بحيث إذا ما لاحظته واكتشفته عصابة الأمم، فسندطر للاعتراف بأن...»، اقترب منه رجل مُشعر، كاتب زاوية «المحكمة والحياة». تابع أمين التحرير القراءة، دون النظر بشكل متعمد إلى «المحكمة والحياة»، ومدخلاً على الافتتاحية ملاحظات غير ضرورية.

دخل كاتب «المحكمة والحياة» من الجانب الآخر وقال متأثراً بالإساءة:

– أنا لا أفهم.

– ماذا، ما بك – تتمم أمين التحرير، محاولاً إضاعة الوقت – ما هي المسألة؟

– المسألة، أن «المحكمة والحياة» لم تنشر يوم الأربعاء، ولم تنشر يوم الجمعة، وفي يوم الخميس أخذوا من «الزريبة» قضية النفقة وحدها، وفي يوم السبت حذفوا المحاكمة التي تكتب عنها جميع الصحف منذ زمن، ونحن فقط...

– أين يكتبون؟ – صرخ أمين التحرير – أنا لم أر، ولم أقرأ.

– غداً ستنشر في كل مكان، ونحن سنتأخر مرة أخرى.

– وعندما كُلفت بقضية تشوباروف، ماذا كتبت؟ كان من المستحيل الحصول على سطر واحد منك. أنا أعرف أنك كتبت عن قضية تشوباروف في الصحيفة المسائية «فيتشركا».

– ومن أين تعرف هذا؟

– أعرف. قيل لي.

– في هذه الحالة أنا أعرف من قال لك. قال لك برسييتسكي، برسييتسكي ذاك الذي يستغل علناً، أمام أعين موسكو كلها، جهاز هيئة التحرير، كي يقدم مادة إلى لينينغراد.

– باشا (بافلينا)! – قال أمين التحرير بصوت خافت – استدعي برسييتسكي.

كان يجلس كاتب «المحكمة والحياة» بلا مبالة، على حافة النافذة. وخلفه كانت تظهر الحديقة، التي كان يسعى فيها الطيور وسكان المنطقة. جرى بحث الدعوى طويلاً. وأوقفها أمين التحرير بحيلة ذكية: ألغى الشطرنج ووضع بدلاً منه «المحكمة والحياة». ووجه تنبيهاً إلى برسييتسكي.

وحل وقت التحرير الأكثر سخونة – الساعة الخامسة.

سيطر الدخان على الآلات الكاتبة المحتدة. وكان العاملون يملون بأصوات مزعجة بسبب السرعة. كانت كبيرة ضاربات الآلة الكاتبة تصيح على الأوغاد، الذين كانوا يملون بصورة غير ملحوظة، موادهم خلافاً للدور.

في الرواق كان يسير شاعر هيئة التحرير ويتلو بأسلوب شعري:

اصغ أيتها الأرض.

الأنهار تستيقظ،

من المناجم،

من الأراضي المزروعة،

من المكائن...

من كل

مكتبة

صغيرة

يُسمع هدير الناس...

كان يغازل ضاربة الآلة الكاتبة، التي كان وركاها المتواضعان يطلقان العنان لمشاعره الشعرية. قادها إلى نهاية الرواق، وعند النافذة حدّثها بكلمات الحب، التي كانت الفتاة ترد عليها:

– لدي اليوم عمل إضافي، وأنا مشغولة جداً.

وكان هذا يعني أنها تحب شخصاً آخر. عندئذ، ذهب الشاعر إلى بيته وأخذ يكتب أشعاراً لروحه:

تغريني نظرتك الضبابية،

والقوقاز يتلأأ أمامي.

فمك، خصرك العطر...



آه، لقد مُتَّ حباً بكِ!...

كان الشاعر متضيقاً، وتوجه إلى جميع معارفه بطلب رتيب على نحو مدهش:

– اعطني عشرة كوبيكات لركوب الترام!

ومن أجل هذا المبلغ جاء إلى قسم المراسلين العماليين. وتدافع بين الطاومات التي كان يعمل عليها «القرء»، وبعد أن لمس يديه أكوام الرسائل والمراسلات، جدد الشاعر محاولاته. و«القرء» هم أشد الناس صرامة في هيئة التحرير(وقد جعلتهم بهذا الشكل ضرورة قراءة مائة رسالة كل يوم، مكتوبة بأيدي أكثر دراية بالفأس، وفرشاة الدهان وعربة البناء من كتابة الرسائل) كانوا يلوذون بالصمت.

قام الشاعر بجولة استكشافية ثم انتقل إلى المكتب. لكنه هناك أيضاً لم يحصل على عشرة كوبيكات، بل تعرض للهجوم من جانب الكومسومولي(عضو الشبيبة الشيوعية – م.) آفدوتيف: وعُرض على الشاعر الانتساب إلى حلقة سائقي السيارات. أحاطت رائحة البنزين بروح الشاعر العاشقة. فخطا خطوتين جانباً، وأسرع في خطوته الثالثة ليختفي عن الأعين.

لم يشعر آفدوتيف بأي قدر من الإحباط. فقد كان واثقاً بانتصار فكرة السيارات. وخاض في أمانة التحرير صراعاً في الخفاء. وهذا ما أعاق أمين التحرير من الانتهاء من قراءة المقالة الافتتاحية.

– اسمع، ألكسندر يوسفيتش، انتظر، إنها مسألة جادة، – قال آفدوتيف، وهو يجلس على كرسي أمين التحرير. – تشكل لدينا نادي السيارات. ألن تقدم هيئة التحرير لنا قرصاً بخمسمائة روبل لمدة ثمانية أشهر؟

– يمكنك أن تطمئن.

– ماذا، هل تظن أنها مسألة بلا أمل؟

– لا أعتقد، لكنني أعرف. كم عدد الأعضاء عندكم في الحلقة؟

– أصبح لدينا الكثير من الأعضاء.

كانت الحلقة تضم حتى الآن منظّمها فقط، لكن آفدوتيف لم يتوسع في هذا.

– بخمسمائة روبل سنشتري سيارة من «المقبرة» (مكبّ النفایات – م.). وقد شاهدها يغوروف بالفعل. وهو يقول أن تصليحها لن يكلف أكثر من خمسمائة روبل. المجموع ألف

روبل. ولهذا أفكر بأن آخذ عشرين شخصاً، ومن كل منهم خمسين روبلاً. وهذا سيكون رائعاً. نتعلم قيادة السيارة. وسيكون يغوروف رئيس المجموعة. وبعد ثلاثة أشهر، بحلول شهر آب/أغسطس – سنتعلم جميعاً قيادة السيارة، فالسيارة ستكون موجودة، وبالدور يأخذها كل واحد منها، ويذهب حيثما يريد.

– ومن أين خمسمائة روبل لشرائها؟

– سيعطيها صندوق المساعدة المتبادلة بالفائدة. فما رأيك، هل أسجلك؟

لكن أمين التحرير قد أصبح أصلاً، وعمل سنوات طويلة، كان على رأس الأسرة والشقة، كان يحب بعد الغداء الاستلقاء على الأريكة وقراءة صحيفة «البرافدا» قبل النوم. فكر في الأمر ثم رفض.

– أنت رجل عجوز – قال آفدوتيف.

كان آفدوتيف يقترب من كل طاولة ويكرر خطاباته النارية. وقد أثارت كلماته تأثيراً مريباً لدى جميع العاملين الأكبر من عشرين سنة، والذين كان يعتبرهم من كبار السن. وكانوا يردون بفظاظة وفتور، مؤكدين على أنهم أصبحوا أصدقاء الأطفال، ويسددون بانتظام كل عام عشرين كوبيكاً لمساعدة الأطفال الفقراء. وهم في الواقع، كان من الممكن أن يوافقوا على الانتساب إلى النادي الجديد، ولكن...

– ماذا «ولكن»؟ – صاح آفدوتيف – لو كانت السيارة موجودة اليوم؟ نعم؟ إذا ما وضعت على طاولتك سيارة «باكارد» زرقاء بستة أسطوانات، مقابل خمسة عشر كوبيكاً في العام، فهل سيكون البنزين والزيوت على حساب الحكومة؟

– اذهب، اذهب – قال كبار السن – الآن الرسالة الأخيرة، أنت تعيقنا عن العمل!

انطفأت فكرة السيارة وبدأت تدخن. وأخيراً ظهر رائد للمشروع الجديد. ارتد برسيتسكي بضجة عن الهاتف، وأصغى إلى آفدوتيف وقال:

– أنت لم تجد المدخل المناسب، اعطني ورقة. نبدأ من البداية. وبدأ برسيتسكي مع آفدوتيف دورة جديدة.

– أنت أيها الرجل العجوز – قال برسيتسكي لشاب بعينين زرقاوين – من أجل هذه الغاية، لست بحاجة لأن تعطي النقود. لديك قرض حكومي في العام السابع والعشرين؟ ما مقداره؟ خمسون روبلاً؟ هذا أفضل. تعطي هذه السندات لنادينا. من السندات يتشكل رأس المال. في شهر آب سنتمكن من بيع السندات كلها وشراء سيارة.

– وإذا ما ربح سندي؟ – قال الشاب مدافعاً.

– كم تريد أن تربح؟

– خمسين ألفاً.

– بهذه الخمسين ألفاً سوف نشتري سيارات. والشيء نفسه إذا ما ربحت أنا. وكذلك إذا ربح آفدوتيف. وباختصار أي سند سيربح ستصرف النقود لشراء سيارات. هل فهمت الآن؟ إنك شخص غريب! ستسافر لوحده على الطريق الجورجي – العسكري! منظر الجبال! يا لك من أحمق! وخلفك سيسير على سياراتهم الخاصة كتاب «المحكمة والحياة»، والأخبار، وقسم الحوادث، وتلك السيدة، تعرفها، التي تعرض الأفلام... عرفتھا؟ عرفتھا. سوف تغازلھا!...

كل حامل للسندات الحكومية لا يثق في أعماقه بإمكانية الربح والفوز. بيد أنه ينظر بغيرة شديدة إلى سندات جيرانه ومعارفه. إنه يخاف أكثر من النار من أن يربحوا هم، أما هو الفاشل الدائم فسيخفق من جديد في الحصول على أي شيء. لهذا فإن الآمال بفوز الجار في هيئة التحرير دفعت بحاملي السندات إلى حظيرة النادي الجديد. ما كان يقلقهم هو أن لا يربح أي سند. بيد أن هذا كان يبدو، لسبب ما، قليل الاحتمال، وإلى جانب ذلك فإن نادي السيارات لم يكن يخسر شيئاً: فسيارة واحدة من «المقبرة» كانت مضمونة من رأس المال المكون من قيمة السندات الفعلية.

وتم جمع عشرين شخصاً خلال خمس دقائق. وعندما توجت القضية بالنجاح، جاء أمين التحرير الذي سمع بالآفاق المغربية لنادي السيارات، وقال:

– وماذا، يا رفاق، ألا ترون بأن أسجل اسمي أيضاً؟

– سجّل اسمك أيها العجوز، ولم لا – أجب آفدوتيف – ولكن ليس عندنا. فقد اكتمل العدد عندنا، للأسف، وتم وقف قبول الأعضاء الجدد حتى عام ألف وتسعمائة وتسعة وعشرين. والأفضل أن تسجل اسمك مع مجموعة أصدقاء الأطفال. فهي رخيصة وهادئة. عشرون كوبيكاً في العام، ولا داع للسفر إلى أي مكان.

تردد أمين التحرير، وتذكر أنه فعلاً كبير السن، فتنهد وذهب لإنهاء قراءة الافتتاحية الممتعة.

– قل لي، أيها الرفيق – أوقفه في الرواق رجل وسيم بوجه شركسي – أين هنا هيئة تحرير صحيفة «ستانوك» (الماكينة)؟

كان هذا المحتال الكبير.

## الفصل السادس والعشرون حديث مع المهندس العاري

سبق ظهور أستاذ بندر في هيئة التحرير عدد من الأحداث الهامة.

نظراً لعدم عثوره على أرنست بافلوفيتش خلال النهار(كانت الشقة مغلقة، وصاحبها كان على الأغلب في وظيفته)، قرر المحتال الكبير زيارته لاحقاً، بينما كان في الوقت الحالي يتجول في المدينة. ولتعطشه للنشاط والعمل، كان يعبر الشوارع، ويتوقف عند الساحات، ويغمر الشرطي، ويساعد السيدات على الركوب في الحافلات، وعموماً كانت هيئاته تبدو وكأن موسكو كلها، بنصبها التذكارية ومعالمها، وحافلات الترام فيها، وعمالها وعاملاتها، وكنائسها ومحطات سككها الحديدية، ولوحاتها الإعلانية، اجتمعت في حفل استقبال له. كان يمشي بين الضيوف، متبادلاً أطراف الحديث معهم بلطف، وكان لكل واحد منهم يجد كلمة دافئة. لقد أتعب، قليلاً، هذا العدد الكبير من الزوار المحتال الكبير. علاوة على ذلك، أصبح الوقت في السادسة مساءً، وكان عليه التوجه إلى المهندس شوكين.

لكن القدر حكم على أستاذ بأن يتأخر ساعتين من أجل توقيع محضر صغير، قبل الاجتماع بأرنست بافلوفيتش.

في ساحة تياترالنايا(ساحة المسارح) وقع المحتال الكبير تحت الحصان. فبصورة مفاجئة تماماً، هجم عليه حيوان أبيض خجول ودفعه في عظم صدره. سقط بندر، غارقاً في العرق. كان الجو شديد الحرارة. وقدم الحصان الأبيض اعتذاره بصوت عالٍ. نهض أستاذ بسرعة. ولم يصب جسمه القوي بأي ضرر. وكانت هناك أسباب وفرص أكبر لإثارة فضيحة.

كان من المستحيل معرفة سيد موسكو المضياف واللطيف. اقترب مترشحاً من سائق العربة العجوز المذهول وضربه بقبضته على ظهره الضعيف. تحمل العجوز العقوبة بصبر. وهرع الشرطي إليهما.

– أطالب بكتابة محضر – كان يصيح أستاذ بحماس.

ترددت في صوته نوتات معدنية لشخص تعرض للإساءة في أقدس مشاعره. وقع أستاذ المحضر وهو واقف أمام جدار المسرح الصغير (مالي)، في المكان نفسه الذي سيقام فيه فيما بعد نصب تذكاري للكاتب المسرحي الروسي الشهير أستروفسكي، وأدلى بحديث قصير للصحفي برسييتسكي الذي ركض لتغطية الحادث. لم يكن برسييتسكي يأنف من العمل المجهد. وسجل بعناية في دفتر ملاحظاته اسم وكنية الضحية وانطلق بعيداً.

سار أستاذ في طريقه بفخر. ولمعاناته من هجوم الحصان الأبيض عليه، وشعوره بأسفه المتأخر لأنه لم يلحق من ضرب الحوزي على رقبتة أيضاً، وبقفزه عبر كل درجتين، صعد

أستاب إلى الطابق السابع من شقة شوكين. وهنا سقطت على رأسه قطرة ثقيلة. فنظر إلى الأعلى. وتدفق على عينيه مباشرة من الردهة العليا شلال صغير من المياه القذرة.

وقرر أستاب في نفسه: «لمثل هذه الفعلة القذرة يجب ضرب فاعلها على وجهه». وهرع إلى الطابق العلوي. أمام باب شقة شوكين كان يجلس رجل عار وظهره موجه إليه، مغطى بأشنيات بيضاء. كان يجلس على البلاط مباشرة، وهو يمسك برأسه ويتأرجح.

وحول الرجل العاري كانت المياه تتدفق من شق باب الشقة.

– أوووووه – كان يئن الرجل العاري – أوووووه...

– قل لي، أنت من يصب الماء هنا – سأله أستاب غاضباً – وهل هذا مكان للاستحمام؟ أنت فقدت عقلك!

نظر الرجل العاري إلى أستاب وانتحب باكياً.

– اسمع، أيها المواطن، بدلاً من أن تبكي، يمكنك غالباً الذهاب إلى الحمام؟ انظر إلى نفسك، من تشبه! وكأنك فارس بيكادورا! (الفارس الذي يوجه الرمح للثور في مصارعة الثيران – م.)

– المفتاح – تمتع المهندس.

– وماذا بالمفتاح؟ – سأل أستاب.

– مفتاح الشقة.

– حيث توجد النقود؟

كان الرجل العاري يحزق بسرعة مذهلة.

لم يكن هناك ما يُخرج أستاب. وبدأ يدرك الموقف. وعندما أدرك الموقف أخيراً، كاد أن يقع على الدرابزين الحديدي من الضحك، الذي كان من العبث وقفه.

– إذن، أنت لا تستطيع الدخول إلى الشقة؟ هذه مسألة بسيطة!

اقترب أستاب من الباب، باذلاً جهده كي لا يتسخ من الرجل العاري، وأدخل في ثقب القفل الأمريكي الظفر الأصفر الطويل لإصبعه الكبير، وأخذ يديره بحذر من اليمين إلى اليسار ومن الأعلى إلى الأسفل.

وانفتح الباب دون ضجيج، وركض الرجل العاري بعواء فرح إلى الشقة التي غمرتها المياه.

كانت الصنابير تضح وتندفق منها المياه. وشكلت المياه في غرفة الطعام دوامة مائية. أما في غرفة النوم فكانت مثل بركة هادئة تعوم فيها نعال الليل مثل حركة بجعة. وكانت أعقاب السجائر تتجمع في الزاوية كالأسماك النعسة.

كان كرسي فوروبيانينوف يقف في غرفة الطعام، حيث كان تيار الماء الأقوى. وتشكلت موجات بيضاء متكسرة على أرجل الكرسي الأربعة. كان الكرسي يهتز قليلاً، وبدا وكأنه سرعان ما سيبحر ببطء بعيداً عن مطارده. جلس عليه أستاب وضغطه برجليه. بعد أن صحا أرنست بافلوفيتش أخذ يصرخ «عفواً! عفواً!»، وأغلق الصنابير، واغتسل وظهر أمام بندر عارياً حتى الخصر، ورافعاً سرواله المبلل إلى ركبتيه.

– لقد أنقذتني بكل معنى الكلمة! – صاح متحمساً – أعتذر، لا يمكنني مصافحتك، فأنا مبتل تماماً. أتعرف، كدت أفقد عقلي.

– هذا ظاهر، وهذا ما حدث.

– لقد وجدت نفسي في وضع رهيب.

وبداً أرنست بافلوفيتش، مسترجعاً الحادثة الرهيبة، مكفهاً تارة وضاحكاً بعصبية تارة أخرى، يروي للمحتال الكبير تفاصيل المصيبة التي حلت به. واختتم المهندس حديثه قائلاً:

– لولاك، كنت سأموت.

– نعم – قال أستاب – لقد أصابني أيضاً مثل هذا الحادث. بل وأسوأ قليلاً.

كان المهندس مهتماً جداً بمثل هذه الحوادث، لدرجة أنه ترك السطل الذي كان يجمع الماء فيه، وأخذ يصغي إلى محدثه بتوتر واهتمام.

– مثل ما حدث معك تماماً – بدأ بندر الحديث – ولكن كان الوقت شتاء، ولم يحدث في موسكو بل في ميرغورود، في إحدى المسافات المرحلة الفاصلة بين ماخنو وتيوتيون في العام التاسع عشر. كنت أعيش عند عائلة. أوكرانيون يائسون! ملاك نموذجيون: منزل من طابق واحد وكثير من الخردة المتنوعة. وعليك أن تنتبه أنه بالنسبة للصرف الصحي والمرافق الأخرى لم يكن في ميرغورود سوى الحفر والبوايع. قفزت ذات ليلة في ملابسني الداخلية إلى الثلج مباشرة لقضاء حاجة. لم أكن خائفاً من البرد – فهي مسألة دقائق. قفزت خارجاً وبصورة آلية، أغلقت الباب من خلفي. كان الجو صقيعاً – عشرون درجة تحت الصفر. أطرق الباب – لا يفتح أحد. كان من غير الممكن الوقوف في مكاني: سأتجمد! أطرق

الباب وأركض، أطرق وأجري – لا يفتح أحد. والأهم من ذلك، لا أحد ينام في البيت. الليل رهيب. والكلاب تعوي. يطلقون النار في مكان ما. وأنا أركض بين أكوام الثلوج في كلسون صيفي. طرقت الباب ساعة كاملة. كدت أن أموت. ولماذا، برأيك، لم يفتحوا الباب؟ أخفوا ممتلكاتهم، وخاطوا نقودهم في الوسادة. كانوا يظنون أن حملة تفتيش تداهمهم. كدت أن أقتلهم بعد ذلك.

كل هذا كان قريباً جداً من المهندس.

– نعم – قال أستاذ – إذن، أنت المهندس شوكين؟

– نعم. ولكن أرجوك لا تخبر أحداً. فهو حادث محرر، حقيقة.

– أوه، من فضلك، هذا بيننا فقط، tet – a – tet بيني وبينك. وكما يقول الفرنسيون بأربعة أعين. أنا جئت إليك بأمر، أيها الرفيق شوكين.

– سأكون سعيداً جداً بأن أخدمك.

– غراند ميرسي (شكراً جزيلاً). أمر صغير. زوجتك طلبت مني أن آتي لعندك وأخذ هذا الكرسي. وقالت أنها بحاجة إليه ليشكل زوجاً مع الكرسي الآخر. وهي تنوي إرسال الكنبه لك.

– نعم، تفضل – صاح أرنست بافلوفيتش – أنا سعيد جداً. ولماذا تتعب نفسك؟ يمكنني إحضاره بنفسي. في هذا اليوم.

– لا، ولماذا! هذا بالنسبة لي عمل بسيط للغاية. فهذا ليس صعباً علي، لأنني أقيم على مقربة.

تحرك المهندس بسرعة وودع المحتال الكبير حتى باب الشقة، الذي خاف من اجتيازه رغم أنه أبدى حذره ووضع المفتاح في جيب سرواله المبلل.

\* \* \*

أهدي للطالب السابق إيفانوبولو كرسي آخر. صحيح أن تنجيده تعرض قليلاً للضرر، ومع ذلك فقد كان كرسيًا جميلاً، علاوة على أنه مثيل للكرسي الأول.

لم يكن أستاذ قلقاً من الفشل مع هذا الكرسي، وهو الرابع. كان يعرف جميع الأعيب القدر.

كان يحاكم الأمور على النحو التالي: «تأتي السعادة دوماً في الدقيقة الأخيرة. إذا كنت في سوق سمولنسك وعليك أن تتركب الترام رقم 4، وهناك عدا عن الترام رقم 4 تأتي عربات الترام رقم 5 و17 و30 و31 و«ب» و«ج» وخطان من الباصات، فكن واثقاً أنه سيأتي الترام «ج» أولاً، ثم حافلتا ترام برقم 15 معاً، وهذا عموماً غير طبيعي، ثم يأتي الترام رقم 17 و30، وكثير من حافلات ترام «ب»، و«ج» من جديد و31 و5 ومن جديد رقم 17 والترام «ب». وعندما يبدو لك أنه لا وجود للترام رقم 4 في الطبيعة، يأتي الترام رقم 4 من جانب محطة بريانسك غاصاً بالركاب. لكن الركوب في هذا الترام بالنسبة لراكب الترام الماهر ليس صعباً أبداً. المهم أن يأتي الترام فقط. وإذا كنت بحاجة لركوب الترام رقم 15 فلا تشك: سيأتي أولاً العديد من عربات الترام من جميع الأرقام الأخرى، والترام رقم 4 اللعين يأتي ثماني مرات على التوالي، أما الترام رقم 15 الذي كان منذ فترة قصيرة يأتي كل خمس دقائق، سيبدأ في الظهور مرة واحدة في اليوم لا أكثر. المهم أن يكون لديك صبر وأن تنتظره».

لم ينطبع في النظام المتناغم لاستنتاجاته كشيء كبير غامض سوى الكرسي الذي أبحر في أعماق السوق التجاري لمحطة أكتوبر. فأفكاره حول هذا الكرسي كانت مزعجة وجلبت له شكوكاً مؤلمة.

كان المحتال الكبير في موقع لاعب الروليت، الذي يراهن حصراً على أرقام سلاله واحدة من طبيعة الناس الذين يرغبون بأن يربحوا دفعة واحدة ستة وثلاثين ضعفاً لقيمة رهانهم. حتى أن الوضع كان أسوأ: فصاحب الامتياز كانا يلعبان في لعبة الروليت تلك حيث يأتي الصفر إحدى عشر مرة من أصل اثنا عشر. كما يبدو أن الرقم اثنا عشرة نفسه خرج بعيداً عن الأنظار، والشيطان وحده يعرف أين هو، وربما كان يحتفظ لنفسه بالجائزة الرائعة.

لقد تم كسر سلسلة هذه التأملات الحزينة بقدوم المدير العام. فشكله وحده أصبح يثير في نفس أستاذ مشاعر سيئة.

– أووه! – قال المدير الفني – أرى أنك تحرز تقدماً. ولكن إياك أن تمزح معي. لماذا تركت الكرسي خلف الباب؟ كي تتسلّى عليّ؟

– الرفيق بندر – تتمم المشير.

– آه، لماذا تلعب بأعصابي! أحضره بسرعة إلى هنا، أحضره! أنت ترى أن الكرسي الجديد الذي أجلس عليه قد زاد من قيمة مقتنيائك عدة مرات.

أمال أستاذ رأسه جانباً وضيق عينيه.

– لا تعذب طفلاً – صرخ أستاذ بصوت عال – أين الكرسي؟ لماذا لم تحضره؟



كان تقرير هيبوليت ماتفييفتش غير المتسق يتقطع بصرخات سريعة وتصفيق ساخر وأسئلة صعبة. وأنهى فوروبيانينوف تقريره بضحك جماعي من الجمهور.

– وماذا بالنسبة لتعليماتي – سأله أستاذ مهدهداً – كم مرة قلت لك أن السرقة خطيئة! وحتى عندما كنت تريد في ستارغورود سرقة زوجتي، مدام غريستاسويفا، منذ تلك الأثناء أدركت أن لديك شخصية جنائية تافهة. وأكثر ما يمكن أن تقودك إليه هذه القدرات – هي ستة أشهر من السجن من دون عزل انفرادي. وكأن هذا ليس كثيراً بالنسبة لعملاق الفكر وأب الديمقراطية الروسية، وتلك نتائجها. انزلق الكرسي الذي كان بين يديك. وعلاوة على أنك أفسدت مكاناً سهلاً! حاول أن تقوم بزيارة ثانية إلى هذا المكان. سيقطع رأسك بأشالوم هذا. ومن حسن حظك أن حادثة غبية ساعدت، وإلا كنت الآن خلف القضبان وتنتظر دون جدوى أن أرسل لك طروداً غذائية. لن أحمل لك أي طرد، ضع هذا في اعتبارك. وهل أنت هيكوبا (ملكة طروادة وزوجة بريام – م.) بالنسبة لي؟ وأنت في نهاية الأمر، لست أُمي، ولا أختي، ولا عشيقتي.

وقف هيبوليت ماتفييفتش منكساً رأسه خزيًا، بعد أن أدرك تفاهته وحقارته.

– إليك، يا عزيزي، إنني أرى انعدام أي هدف في عملنا المشترك. وعلى أية حال، يبدو لي أن العمل مع شريك ضعيف الثقافة مثلك سخيلاً بنسبة أربعين بالمائة. وشئت أم أبيت، عليّ وضع شروط جديدة.

تنفس هيبوليت ماتفييفتش الصعداء بعد أن حاول حتى الآن أن لا يتنفس.

– نعم، يا صديقي العجوز، أنت مريض بالعجز التنظيمي والوهن الشاحب. وتبعاً لهذا تتناقص حصتك. بصراحة – هل تقبل بعشرين بالمائة؟

هز هيبوليت ماتفييفتش رأسه بحزم رافضاً.

– لماذا لا تقبل؟ هل هذا قليل بالنسبة لك؟

– قليل.

– لكنها تعني ثلاثين ألف روبل! كم تريد؟

– أنا موافق على أربعين.

– سرقة في وضح النهار! – قال أستاذ، مقلداً لهجة المشير أثناء البازار التاريخي في غرفة الحارس. – ثلاثون ألفاً لا تكفيك؟ ربما تطلب أيضاً مفتاح الشقة؟

- أنت بحاجة إلى مفتاح الشقة - غمغم هيبوليت ماتفييفتش.

- خذ عشرين قبل فوات الأوان، وإلاّ قد أغير رأيي. استفد الآن من مزاجي الحسن.

لقد فقد فوروبيانينوف منذ مدة ذلك المظهر الراضي عن نفسه الذي كان لديه عندما بدأ البحث عن الماس.

إن الجليد الذي تكسّر في حجرة البواب، الجليد الذي كان يقعقع ويتكسر والذي اصطدم بصخر الكورنيش الجرانيتي، قد تفتت وذاب منذ مدة طويلة. لم يعد هناك أي جليد. كانت هناك مياه تتدفق وتنتشر على نطاق واسع تحمل معها هيبوليت ماتفييفتش خبط عشواء، وتنقله من طرف إلى آخر، فتضربه بجذع شجرة تارة، وتصدمه بالكراسي تارة أخرى، وتبعده أحياناً عن هذه الكراسي. كان هيبوليت ماتفييفتش يشعر بخوف لا يمكن التعبير عنه. كان يخيفه كل شيء. وعلى طول النهر كانت تطفو القمامة، والفضلات النفطية، وأقنان الدجاج المحطمة، والأسماك الميتة، وقبعة رهيبة لا يعرف صاحبها. ربما كانت هذه قبعة الأب فيودور، سدارة البط التي انتزعتها الرياح منه في روستوف؟ من يعرف! لم تكن نهاية الطريق ظاهرة. لم تكن تدفعه إلى الشاطئ، ولم يكن لدى مشير النبلاء السابق لا القوة ولا الرغبة للسباحة والعيوم ضد التيار.

كل هذا كان يحمله إلى بحر مفتوح من المغامرات.

## الفصل السابع والعشرون زيارتان

كان أبشالوم إزنورنكوف في حالة قلق دائم، مثل طفل صغير منزوع القماط، يفتح ويغلق قبضتيه الشمعيتين، ولا يتوقف لدقيقة واحدة، ويحرك رجليه، ويدير رأسه الذي يبلغ حجمه حجم تفاحة كبيرة، ومغطى بقبعة، وينفخ الفقاعات من فمه. كان يحرك ساقيه بكاملهما، ويدير ذقنه الحليقة، ويصدر التأوهات ويقوم بيديه المشعرتين بحركات وكأنه يمارس رياضة الجمباز بالأشرطة المطاطية.

كان يعيش حياة نشيطة للغاية، فيظهر في كل مكان ويتقدم بالمقترحات، ويسرع في مشيته في الشارع مثل دجاجة خائفة، ويتحدث بسرعة بصوت عال، وكأنه يحسب تأمين بناء مغطى بالحديد. كان جوهر حياته ونشاطه يكمن في أنه لا يستطيع، عضوياً، أن يمارس عملاً ما، أو نشاطاً أو فكرة أكثر من دقيقة واحدة.

وإذا لم ترق نكتته اللاذعة ولم تثر ضحكاً خاطفاً، لم يكن إزنورنكوف يقنع رئيس التحرير، مثل الآخرين، بأن النكتة اللاذعة جيدة وتتطلب، من أجل تقييمها بشكل كامل، شيئاً من التأمل والتفكير، بل كان يقترح على الفور نكتة لاذعة جديدة. وكان يقول: - ما هو سيء، فهو سيء بالطبع.

في المتاجر كان أبشالوم فلاديميرفيتش يحدث ارتباكاً كبيراً، فيظهر ويختفي أمام أعين المشرفين المذهولين، ويشتري علبة الشوكولا بسرعة كبيرة، لدرجة أن أمينة الصندوق كانت تتوقع أن تحصل منه على ثلاثين روبلاً على الأقل. لكن إزنورنكوف كان يرمي على القاعدة الزجاجة للنقود، وهو يرقص أمام الصندوق ويمسك بربطة عنقه وكأنها تخنقه، ثلاثة روبلات مجعدة، ويثغو بشكر وامتنان، ويهرب.

لو استطاع هذا الرجل أن يوقف نفسه لمدة ساعتين على الأقل لوقعت الأحداث الأقل توقعاً.

كان من الممكن لإزنورنكوف أن يجلس على الطاولة ويكتب قصة طويلة رائعة، وربما كان يمكنه أن يكتب طلباً لصندوق المساعدة المتبادلة لتسليمه قرصاً غير قابل للسداد، أو بنداً جديداً في قانون استخدام المساحة السكنية، أو يكتب كتاباً حول «فن ارتداء أفضل الملابس والتصرف في المجتمع».

لكنه لم يكن قادراً على ذلك. كان من الممكن لساقيه المتحركتين بجنون أن تذهبا به بعيداً، وأن يطير قلم الرصاص من بين يديه المتحركتين، كالسهم، وأن تقفز أفكاره.

كان إيزنورينكوف يركض في أنحاء الغرفة، وكانت الأختام على قطع الموبيليا تهتز مثل الأقراط لدى الراقصة العجرية. وكانت تجلس على الكرسي فتاة مضحكة من الضواحي.

– آه، آه – كان يصيح أبشالوم فلاديميرفيتش – إلهية! «الملكة بصوتها، ونظرتها الناعمة، تحيي العيد...» آه، آه! درجة رفيعة!... أنت – الملكة مارغو.

ودون أن تفهم شيئاً من هذا، كانت الملكة القادمة من الضواحي تضحك باحترام.

– حسناً، كلي الشوكولا، حسناً، أرجوك!... آه، آه!... إنك ساحرة!

كان كل دقيقة يقبل أيدي الملكة، معجباً بزينتها المتواضعة، ويدفع لها بالقط ويسألها بتملق: – حقيقة، أليس شبيهاً بالبغاء؟ إنه أسد! أسد! أسد حقيقي! قولي، أليس رقيقاً إلى أبعد الحدود؟... والذيل! الذيل! قولي أليس ذيلًا كبيراً؟ آه!

ثم هرب القط إلى الزاوية، أما أبشالوم فلاديميرفيتش فأخذ ينحني مبتسماً لأحد ما في النافذة، وهو يضغط بيديه على ثديه الممتلئ. وفجأة نقر صمام من الصمامات في رأسه المضطرب، وأخذ يكيل بتحد النكات القارصة بخصوص الصفات الجسدية والنفسية لضيافته.

– قولي لي، هل هذا البروش من الزجاج فعلاً؟ آه! آه! يا له من تألق!... لقد أصبّني بالعمى حقاً!... أخبريني، هل باريس مدينة كبيرة حقاً؟ وهل برج إيفل هناك حقاً؟... آه! آه!... ما أجمل هذين اليدين!...؟ يا له من أنف جميل!... آه!

لم يعانق الفتاة. كان يكفيه أن يكبل المديح والعبارات الجميلة. وكان يتحدث من دون توقف. قوطع تدفق كلامه بظهور أستاذ غير المتوقع.

كان المحتال الكبير يدير في يديه قطعة من الورق ويستجوب بصرامة: – هل يعيش إزنورنكوف هنا؟ هل هو أنت؟

نظر أبشالوم فلاديميرفيتش بقلق إلى وجه الضيف الحجري. وحاول أن يقرأ في عينيه ما هي المطالبات التي سيعرضها عليه: هل هي غرامة على الزجاج المكسور في الترام أثناء حديثه، أم دعوة إلى محكمة الشعب لعدم تسديده رسوم الشقة، أم قبول الاشتراك في مجلة للمكفوفين.

– ماذا فعلت أيها الرفيق – قال بندر بقسوة – هذا عمل غير صالح أبداً – تطرد ساعياً حكومياً.

– أي ساع؟ – أصيب إزنورنكوف بالرعب.

– أنت نفسك تعرف أي ساع. سأقوم بإخراج الأثاث الآن. أرجوك، أيتها المواطنة، اخلي الكرسي – قال أستاذ بصرامة.

نهضت المواطنة التي قيلت فيها منذ لحظات قصائد الشعراء الغنائيين، من مكانها.

– لا! اجلسي! – صاح إزنورنكوف مغطياً الكرسي بجسمه – ليس لهم الحق.

– بالنسبة للحقوق، الأجدر بك أن تسكت أيها المواطن! يجب أن تكون واعياً. اخلي الأثاث! عليك احترام القانون!

بهذه الكلمات أخذ أستاذ الكرسي وهزه في الهواء.

– أنا أخرج الأثاث! – أعلن بندر بحزم.

– لا، أنت لن تُخرجه!

– كيف لن أخرجه – ضحك بندر ساخراً، خارجاً مع الكرسي من الشقة – ها أنا أخرجه.

قبل أبشالوم يد الملكة وانحنى لها برأسه احتراماً، وركض خلف القاضي الصارم. وكان ذاك قد نزل على الدرج.

– أنا أقول لك، ليس لديك حق. وفقاً للقانون، يمكن للأثاث أن يبقى أسبوعين، وقد بقي عندي ثلاثة أيام فقط! ربما سأسدد!

حام إيزنورينكوف حول أستاذ مثل النحلة. وعلى هذا الشكل وجدا نفسيهما في الشارع. كان يركض خلف الكرسي حتى الزاوية. وهنا رأى فورويانيونوف، راكضاً حول كومة القمامة. نظر إليهما بعينين مشرقتين، وتمتم، ثم ضرب كفاً بكف، وقال وهو ينفجر ضاحكاً: – طبقة رفيعة! آه! آه!... أي تحول حدث في هذا الموضوع!

عاد إزنورنكوف المفتون بتطور الموضوع، إلى الورااء مرحاً، وقفز عائداً إلى شقته. وتذكر الكرسي في الشقة عندما رأى فتاة الضواحي واقفة في وسط الغرفة.

نقل أستاذ الكرسي على عربة أجرة. وقال لهيبوليت ماتفييفتش: – تعلم! تم أخذ الكرسي بيدين عاريتين. بالمجان. أتفهم؟

بعد فتح الكرسي ونبش تنجيده، شعر هيبوليت ماتفييفتش بالحزن.

– الفرص تتزايد – قال أستاب – ولا وجود لأي مال أو ماس. قل لي، ألم تكن حماتك الراحلة تحب المزاح؟

– عم تتكلم؟

– ربما، لا يوجد أي ماس؟

لوح هيبوليت ماتفييفتش بيديه، لدرجة أن جاكيتته ارتفع.

– في هذه الحالة كل شيء على ما يرام. سوف نأمل بأن ثروة إيفانوبولو ستزيد أيضاً بكرسي آخر.

– أيها الرفيق بندر، كتبت عنك الصحف اليوم. – قال هيبوليت ماتفييفتش بصوت متزلف. عبس أستاب.

كان لا يحب عندما تثير الصحف الضجة والعواء حول اسمه.

– ماذا تقول؟ في أي صحيفة؟

فتح هيبوليت ماتفييفتش صحيفة «ستانوك» (الماكينة) باحتفاء.

– هنا. في قسم «ماذا حدث خلال يوم».

اطمأن أستاب قليلاً، لأنه كان يخشى فقط زوايا القسمين الفاضحين: «دبابيسنا» و«المسيؤون – إلى المحاكمة».

بالفعل، في قسم «ماذا حدث خلال يوم» كان منشوراً بأحرف طباعية كبيرة: **وقع تحت الحصان**

البارحة في ساحة سفردلوف وقع تحت حصان عربة الحوزي رقم 8974 المواطن أ. بندر. نجت الضحية بخوف بسيط.

– إنه السائق الذي نجا بخوف بسيط، ولست أنا – علق أ. بندر بغضب – أغبياء! يكتبون، ويكتبون – وهم أنفسهم لا يعرفون ما يكتبونه. أه! إنها صحيفة «ستانوك». جميل جداً، جداً. أتعرف، يا فوروبيانينوف، أن هذه الزاوية قد يكون كتبها صحفي كان جالساً على كرسيها؟ قصة مضحكة!

فكر المحتال الكبير.

تم العثور على ذريعة لزيارة هيئة التحرير.

بعد أن استفسر من أمين التحرير عن أن جميع الغرف على طول الرواق، على اليمين وعلى اليسار، تشغلها هيئة التحرير، أضفى أستاذ على نفسه حياة ساذج بسيط، وقام بجولة في جميع غرف هيئة التحرير: كان عليه أن يعرف في أية غرفة يوجد الكرسي.

دخل إلى غرفة اللجنة المحلية، حيث كان يجري اجتماع سائقي السيارات الشباب، وبما أنه رأى أنه لا وجود للكرسي فيها، انتقل مباشرة إلى الغرفة المجاورة. تظاهر في المكتب أنه ينتظر قراراً، وفي قسم المراسلين العماليين استعلم حسب الإعلان المنشور أين تباع نفايات الأوراق هنا؛ وفي أمانة التحرير استفسر عن شروط الاشتراك في الصحيفة، وفي غرفة النقاد الساخرين سأل عن مكان قبول الإعلانات عن فقدان الوثائق.

على هذا النحو وصل إلى غرفة رئيس التحرير، الذي كان يصرخ في سماعة الهاتف، جالساً على كرسي الامتياز المطلوب.

كان أستاذ بحاجة إلى وقت كي يدرس بعناية طبيعة المنطقة.

– هنا، أيها الرفيق رئيس التحرير، نُشر ضدي افتراء حقيقي. – قال بندر.

– أي افتراء؟ – سأل رئيس التحرير.

قلب أستاذ طويلاً نسخة صحيفة «ستانوك». وألقى نظرة إلى الباب فوجد عليه قفلاً أمريكياً. وإذا ما قص قطعة من زجاج الباب، فمن السهولة بمكان أن يمد يده ويفتح القفل من الداخل.

قرأ رئيس التحرير الزاوية التي أشار إليها أستاذ.

– وأين ترى الافتراء، أيها الرفيق؟

– كيف! هذا هو:

نجت الضحية بخوف بسيط.

– أنا لا أفهمك.

نظر أستاذ برقة إلى رئيس التحرير وإلى الكرسي.

– هل سأخاف من حوزي عربة! وصفتوني أمام العالم كله – لا بد من تفنيد.

– إليك أيها المواطن – قال رئيس التحرير – لم يصمك أحد، ونحن لا نقدم تفنيداً لمثل هذه المسائل التافهة.

– حسناً، على أية حال، لن أتخلّى عن هذه المسألة على هذا النحو – قال أستاذ وهو يغادر المكتب.

فقد رأى كل ما كان يحتاجه.



## الفصل الثامن والعشرون سلة «الاعتقال» الرائعة

وقف فرع ستارغورود من جمعية «السيف المحراث» السرية العابرة مع شباب أقوياء من شركة «بيستروأوباكوفكا» (التعبئة السريعة) في طابور طويل للغاية أمام مخزن الدقيق لمؤسسة «إنتاج الحبوب».

كان المارة يتوقفون.

– من أجل أي شيء يقف الناس في الطابور؟ – كان المواطنون يسألون.

في الطابور الممل، الواقف عند المتجر، يوجد دوماً شخص واحد تقوى رغبته في الكلام كلما كان أبعد عن باب المتجر. وكان بوليسوف يقف في آخر الطابور.

– عشنا ورأينا – قال رجل الإطفاء – سرعان ما سننتقل جميعاً إلى أكل الحشائش. حتى في العام التاسع عشر كان الوضع أفضل. كان الطحين في المدينة يتواجد في أربعة أيام.

قتل المواطنون شواربهم غير مصدقين، ودخلوا في نقاش مع بوليسوف، مستندين إلى صحيفة «البرافدا» المحلية في ستارغورود.

وبعد أن أثبتوا لبوليسوف أن  $4 = 2 + 2$ ، وان الطحين متوفر في المدينة بكميات كبيرة، هرع المواطنون إلى بيوتهم، وأخذوا كل النقود المتوفرة لديهم وانضموا إلى طابور الطحين.

بعد أن اشترى شباب «التعبئة السريعة» كامل الطحين من مخزن الدقيق، انتقلوا إلى البقالية وشكلوا طابوراً على الشاي والسكر.

في غضون ثلاثة أيام سيطرت أزمة المواد الغذائية والبضائع على ستارغورود. واقترح ممثلو الجمعيات التعاونية ومتاجر الدولة تقنين بيع البضائع بحدود رطل (رطل مصري – م.) من السكر وخمسة أرطال من الطحين، إلى حين وصول المواد الغذائية الموجودة حالياً على الطريق، إلى المدينة.

في اليوم التالي تم اختراع ترياق ضد السموم.

كان الخين أول من اصطف في الطابور على السكر. ومن خلفه زوجته ساشخين، باشا (بافل) إيميلفتش، أربعة من آل ياكوفليف، وجميع العجائز الخمس عشرة في أثوابهن القطنية الرمادية. وبعد أن أخذ من مخزن الجمعية التعاونية في ستارغورود نصف رطل

من السكر، نقل ألخين دوره إلى تعاونية أخرى، لاعناً في طريقه باشا إيميليفتش الذي التهم رطل السكر المخصص له. كان يذرّ السكر على راحة كفه ويدفعه إلى فمه العريض. كان ألخين يجهد ويركض طيلة اليوم. وتجنباً للخسارة والتناثر، سحب باشا إيميلوفيتش من الطابور وكلفه بنقل المشتريات إلى السوق المستورد. وهناك كان ألخين يبيع بخجل السكر، والطحين، والشاي، ونسيج الماركيزيت (نسيج رقيق للستائر - م.) بسعر أعلى للمتاجر الخاصة.

كان بوليسوف يقف في الطوابير من أجل المبدأ، بصورة رئيسة. فلم يكن لديه نقود، ولم يكن باستطاعته شراء أي شيء. فكان ينتقل من طابور لآخر، ويصغي إلى ما يسمعه من أحاديث، ويدلي بملاحظات وتصريحات لاذعة، رافعاً حاجبيه بمعان متعددة، ومتنبئاً. وكانت نتيجة تحفظه في الكلام، أن المدينة ملئت بشائعات عن وصول شخص ما من منظمة «السيف والمحراث» السرية.

وقد حصد الحاكم ديادييف في يوم واحد عشرة آلاف. أما كم كسب كيسليارسكي، رئيس لجنة البورصة، فلم تعرف حتى زوجته.

كانت فكرة انتمائه إلى منظمة سرية تقض مضاجعه. وقد أرعبته أخيراً الشائعات السارية في المدينة. وبعد أن أمضى ليلة من الأرق، ولم يعرف طعم النوم، قرر رئيس لجنة البورصة، أن الاعتراف الصادق وحده يمكنه أن يقلص فترة مكوثه في السجن.

- اسمعي، يا هنرييتا - قال لزوجته - حان الوقت لنقل المانيفاتورة إلى أخيك شورين.

- وماذا في الأمر، هل سيأتون - سألته زوجته هنرييتا كيسليارسكايا.

- يمكنهم أن يأتوا. بما أنه لا توجد في البلاد حرية التجارة، فهل عليّ أن أجلس يوماً ما في السجن؟

- إذن، ماذا ترى، هل يجب الآن تجهيز ثيابك وغياراتك الداخلية؟ يا لحياتي البائسة! أحمل طرود المواد الغذائية بصورة أبدية. ولماذا لا تخدم كموظف سوفييتي؟ إن شورين هو عضو في النقابة، والوضع عادي! ولكن لا بد لك هنا من أن تكون تاجراً أحمرأ.

لم تكن هنرييتا تعرف أن القدر قد رفع زوجها إلى منصب رئيس لجنة البورصة، ولهذا كانت هادئة، مطمئنة.

- قد لا آتي لقضاء الليل في البيت - قال كيسليارسكي - في هذه الحالة، ستأتي غداً مع الطرد الغذائي. ولكن، أرجوك، لا تحملي لي الفطائر المسلوقة. وأي متعة لي بتناول فطائر باردة؟

– ربما تأخذ معك وابور «بريموس»

– من يسمح لك بإحضار «بريموس» إلى الزنزانة! اعطني سلتي.

كانت لدى كيسليارسكي سلة خاصة بالاعتقال. وقد تم صنعها بتوصية خاصة، فقد كانت شاملة لكل شيء إلى حد كبير. ففي شكلها المفتوح هي عبارة عن سرير، وبشكلها نصف المفتوح هي عبارة عن طاولة، علاوة على ذلك، كانت تستبدل الخزانة: فكان فيها رفوف، وخطافات، وأدراج. وضعت الزوجة في السلة الشاملة العمومية عشاءً بارداً وغيارات داخلية نظيفة.

– يمكنك أن لا ترافقيني – قال الزوج ذو الخبرة – إذا ما جاءك روبنس من أجل المال، قل لي له ليس لدينا نقود. إلى اللقاء! يمكن لروبنس أن ينتظر.

وخرج كيسليارسكي إلى الشارع، حاملاً بيده سلّة الاعتقال الخاصة.

– إلى أين، أيها المواطن كيسليارسكي – هتف بوليسوف.

كان يقف عند عمود التلغراف، محفزاً بصراخه عامل الاتصالات، الذي كان يتمسك بمخالبه الحديدية الملتفة على العمود، مقترباً من الأسلاك العازلة.

– أنا ذاهب للاعتراف – أجاب كيسليارسكي.

– الاعتراف بماذا؟

– بـ«السيف والمحراث».

فقد فيكتور ميخائيلوفيتش القدرة على الكلام. أما كيسليارسكي فدفع ببطنه البيضوي، المحاط بحزام عريض ذي جيب عريض للساعة، إلى الأمام وذهب على مهل إلى مكتب المدعي العام في المقاطعة.

رفر ف فيكتور ميخائيلوفيتش بجناحيه وطار نحو دياييف.

– كيسليارسكي – عميل سري – صاح رجل الإطفاء – لقد ذهب للتو للوشاية. ما يزال ظاهراً للعيان.

– كيف؟ ومعه سلته؟ – أصيب حاكم ستارغورود بالرعب.

– سلته معه.

قَبْلَ دِيَادِييفَ زَوْجَتِهِ، وَصَاحَ، إِذَا مَا جَاءَ رُوبَنْسَ لَا تَعْطِيهِ أَيْةَ نَقُودَ، وَخَرَجَ مَهْرُولاً إِلَى الشَّارِعِ. دَارَ فَيَكْتُورَ مِيخَائِيلُوفِيْتَشَ، وَتَأَوَّهَ مِثْلَ دَجَاجَةٍ تَضَعُ بَيْضَةً، وَرَكَضَ إِلَى فَلَادَا وَنِيكِيْشَا.

فِي غُضُونِ ذَلِكَ، كَانَ الْمَوَاطِنُ كَيْسَلْيَارْسْكِي يَتَمَشَّى بِبَطْءٍ، مُقْتَرِباً مِنْ مَكْتَبِ الْمَدْعِي الْعَامِ لِلْمَقَاطَعَةِ. فِي طَرِيقِهِ التَّقَى رُوبَنْسَ وَتَحَادَثَ مَعَهُ طَوِيلًا.

– وَمَاذَا بِالنَّسْبَةِ لِلنَّقُودِ؟ = – سَأَلَ رُوبَنْسَ.

– مِنْ أَجْلِ النَّقُودِ، أَذْهَبَ إِلَى زَوْجَتِي.

– وَلِمَاذَا تَحْمِلُ السَّلَةَ؟ – اسْتَفْسَرَ رُوبَنْسَ مَرْتَاباً

– أَنَا ذَاهِبٌ إِلَى الْحَمَامِ.

– حَسَنًا، أَتَمْنَى لَكَ حَمَامًا سَعِيدًا.

ثُمَّ دَخَلَ كَيْسَلْيَارْسْكِي إِلَى مَحَلِّ حَلَوِيَّاتِ ССПО، حَلَوِيَّاتِ فَارْصُوفِيَا سَابِقًا، وَتَنَاوَلَ كُوبًا مِنَ الْقَهْوَةِ وَأَكَلَ فُطِيرَةً – بِقْلَاوَةً. لَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْاعْتِرَافِ.

دَخَلَ رَئِيسُ مَكْتَبِ الْبُورْصَةِ إِلَى قَاعَةِ اسْتِقْبَالِ الْمَدْعِي الْعَامِ لِلْمَقَاطَعَةِ. كَانَتِ الْقَاعَةُ فَارِغَةً. اقْتَرَبَ كَيْسَلْيَارْسْكِي مِنْ بَابِ كُتُبٍ عَلَيْهِ «الْمَدْعِي الْعَامِ لِلْمَنْطَقَةِ»، وَقَرَعَ الْبَابَ بِاحْتِرَامٍ.

– تَفْضُلُ! – أَجَابَهُ صَوْتُ يَعْرِفُهُ كَيْسَلْيَارْسْكِي جَيِّدًا.

دَخَلَ كَيْسَلْيَارْسْكِي وَتَوَقَّفَ مَذْهُولًا. وَهَبَطَ كَرَشُهُ الْبَيْضُويَّ وَانْكَمَشَ كَحْبَةٌ تَمُرٌ. فَمَا رَأَاهُ كَانَ بِالنَّسْبَةِ لَهُ مَفَاجَأَةً مَذْهَلَةً.

كَانَ يَحِيطُ بِالْمَكْتَبِ الَّذِي يَجْلِسُ خَلْفَهُ الْمَدْعِي الْعَامِ أَعْضَاءُ التَّنْظِيمِ السَّرِيِّ الْكَبِيرِ «السَّيْفِ وَالْمَحْرَاثِ». وَمِنْ خِلَالِ إِيمَاءَاتِهِمْ وَأَصْوَاتِهِمْ، أَدْرَكَ أَنَّهُمْ اعْتَرَفُوا بِكُلِّ شَيْءٍ.

– هَا هُوَ – صَاحَ دِيَادِييفُ – الطَّلِيعِيُّ الرَّئِيسُ!

– بَادئُ ذِي بَدْءٍ – قَالَ كَيْسَلْيَارْسْكِي، وَاضْعًا سَلَةً اعْتَقَلَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَمُقْتَرِبًا مِنَ الطَّاوَلَةِ – أَوَّلًا، أَنَا لَسْتُ طَّلِيعِيًّا، ثُمَّ أَنَّنِي كُنْتُ دَوْمًا مُتَعَاظِفًا مَعَ السَّلْطَةِ السُّوفِيَّيْتِيَّةِ، أَمَّا ثَالِثًا، فَالرَّئِيسُ لَيْسَ أَنَا، بَلِ الرَّفِيقُ شَارُوشْنِيكُوفُ، وَعُنْوَانُهُ...

– شَارِعَ الْجَيْشِ الْأَحْمَرِ «كَرَاسْنُوَارْمِيْسْكَايَا»! – صَاحَ دِيَادِييفُ.

– رقم ثلاثة – قال فلادا ونيكيشا بصوت واحد.

– في الفناء وإلى اليسار – أضاف فيكتور ميخائيلوفيتش – يمكنني أن أريكم.

بعد عشرين دقيقة أحضروا شاروشنيكوف، الذي أعلن بادئ ذي بدء، أنه لم ير في حياته على الإطلاق أي واحد من الحاضرين في المكتب. وإثر هذا، ودون أي توقف، وشى شاروشنيكوف بيلينا ستانيسلافوفنا.

في الزنزانة كان وحده، وبعد أن غير ملابسه الداخلية وتمدد على سلته، شعر رئيس لجنة البورصة في نفسه باليسر والهدوء.

تمكنت مدام غريتساتسويفا – بندر خلال الأزمة من تخزين المواد الغذائية والسلع لمتجرها لأربعة أشهر على الأقل. وبعد أن اطمأنت بدأت بالحزن من جديد، على زوجها الشاب، الغارق في اجتماعات مجلس مفوضي الشعب المصغر. ولم تدخل زيارة العرافة الاطمئنان إلى قلبها.

أما يلينا ستانيسلافوفنا، القلقة من اختفاء حكماء ستارغورود جميعهم، فكانت ترمي الورق بلامبالاة واستياء. كان الورق يعدها تارة بنهاية العالم، وبزيادة في الرواتب تارة أخرى، وبموعد مع زوجها في دار حكومية وبحضور ملك البستوني الشرير.

كما أن العرافة ذاتها انتهت على نحو غريب. فقد حضر عملاء – ملوك البستوني – واقتادوا المدعى عليها إلى دار الحكومة، إلى المدعي العام.

وعندما أصبحت الأرملة لوحدها مع البيغاء، ونوت المغادرة، وهي قلقة مضطربة، ضرب البيغاء فجأة القفص بمنقاره، وتحدث لأول مرة في حياته بصوت إنسان.

– عشنا ورأينا! – قال ساخراً، وغطى رأسه بجناحه، وانتزع ريشة من تحت إبطه.

اندفعت مدام غريتساتسويفا – بندر خائفة إلى الباب.

وقد لحقها سيل من الكلام الساخن المرتبك مناسباً عليها. كان الطائر العجوز منذهلاً من زيارة العملاء واقتياد ربة المنزل إلى دار الحكومة، لدرجة أنه بدأ يصرخ بكل الكلمات التي كان يعرفها. وقد شغل فيكتور ميخائيلوفيتش بوليسوف الحيز الأكبر من خطابه.

– مع واقع غيابها – قال الطير بانفعال.

وبعد أن دار على القصة وأمال براسه إلى الأسفل، رمش بعينه الأرملة التي جمدت عند الباب، وكأنه يقول: «كيف سيروك، أيتها الأرملة؟»

- آه، يا أمي! - تأوهت غريستاسويفا.

- في أي فوج خدمت - سأل الببغاء مقلداً صوت بندر. إخفاااق... أوروبا ستساعدنا.

بعد هروب الأرملة، رتب الببغاء قميصه وقال تلك الكلمات التي حاول الناس استخراجها منه دون جدوى طيلة ثلاثين عاماً.

- الببغاء أحمق!

كانت الأرملة تركض في الشارع وهي تصرخ. وكان ينتظرها في منزلها عجوز كثير الحركة. لقد كان هذا فارفولوميتش.

- وفق الإعلان - قال فارفولوميتش - أنا أنتظرك منذ ساعتين، يا سيدتي.

ضرب حافر ثقيل من الحدس في قلب غريستاسويفا.

- أوه! - غرّدت الأرملة - روعي أرهقت.

- غادرك، كما يبدو، المواطن بندر؟ أنتِ نشرتِ إعلاناً؟

سقطت الأرملة على أكياس الطحين.

- يا لجسمك الضعيف - قال فارفولوميتش بلطف. - بداية، بودي أن أعرف المكافأة التي سأحصل عليها...

- أوه!... خذ كل شيء! الآن، لا أشعر بالأسف على أي شيء! - ندبت الأرملة الحساسة.

- إليك يا سيدتي. أنا أعرف مكان وجود ابنك أ. بندر. ما هي مكافأتي؟

- خذ كل شيء! - كررت الأرملة.

- عشرين روبلاً - قال فارفولوميتش بجفاء. نهضت الأرملة عن أكياس الطحين. وقد اتسخت ثيابها بالطحين.

- كم؟ - سألتها مستفسرة.

- خمسة عشر روبلاً - خفّض فارفولوميتش السعر.

فقد شعر أنه سيكون من الصعب أخذ مبلغ من المرأة البائسة، ولو كان ثلاثة روبلات.

دفعت الأرملة أكياس الطحين، وداست على الرجل العجوز، متوجهة إلى قوة السماء كي تشهد، وبمساعدها حصلت على سعر ثابت.

– حسناً، بارك الله بك، ولتكن المكافأة خمسة روبلات. ولكن، أرجو الدفع مقدماً. لدي هذه القاعدة.

أخرج فارفولوميتش من دفتر ملاحظاته قصاصتين من الصحف، ودون أن يتخلى عنهما، بدأ يقرأ:

– اسمحي بأن نلقي نظرة على المسألة بالترتيب. أنت كتبت ما يلي: «أتوسل إليكم... غادر المنزل الرفيق بندر ببدة خضراء، وحذاء أصفر، وسترة زرقاء...» صحيح؟ هذا منشور في صحيفة «برافدا ستارغورود». وإليك ما تكتبه صحف العاصمة عن ابنك. إليك... «وقع تحت الحصان...» لا تخافي يا سيدتي، استمعي لما يليه... «وقع تحت الحصان...» نعم، إنه حي، حي! أقول لك إنه على قيد الحياة. وهل يمكنني أخذ النقود من أجل شخص ميت؟ إليك الخبر: «وقع تحت الحصان. بالأمس، في ساحة سفردلوف، وقع المواطن أ. بندر تحت حصان سائق العربدة رقم 8974. ولم يتضرر المصاب سوى بخوف بسيط...» إذن، أقدم لك هذه الوثائق، وأنت تعطيني النقود سلفاً. هذه قاعدة عندي.

سلمت الأرملة المال وهي تبكي. فزوجها، زوجها الحبيب بحذائه الأصفر وقع على أرض موسكو البعيدة، وحصان العربدة الذي ينفث النار ضرب بحافره صدره الأزرق الناعم.

كانت روح فارفولوميتش الحساسة راضية عن المكافأة اللائقة. فخرج وهو يشرح للأرملة أنه سيتم العثور بالتأكيد على آثار إضافية لزوجها في هيئة تحرير «ستانوك»، حيث كل شيء في العالم معروف.

بعد الضربة الصاعقة التي ألحقتها به النهاية المخزية لجده، بدأ فارفولوميتش يكسب رزقه بالعمل مع الكلاب. كان يركب إعلانات وينشرها في صحيفة «برافدا ستارغورود». وبقراءة الإعلان:

فُقدت كلبة، بويتر ألمانية، شعرها بني

صدرها وقوائمها ورقبتها رمادية.

تابعوا الكلبة الضائعة وخذوها إلى شارع كووويراتيفنايا 17,2.

وإلى جانبه إعلان مقتّع:

كلبة من جنس غير معروف صفراء داكنة تتحرش

بعد ثلاثة أيام اعتبرها ملكك. شارع بيريليش، جادة 6.

كان فارفولوميتش يتجول على كل من المعلنين، وبعد أن يقتنع أن الكلبة هي ذاتها، وقبل انتهاء فترة الأيام الثلاثة كان يخبر كلاً منهم بمكان وجود الكلبة المفقودة. وكان هذا يجلب له دخلاً غير منتظم وغير حلال، وبعد انهيار الخطط الكبيرة كان يمكن لطوق الكلب، بالنسبة له أن يكون مفيداً.

### رسالة الأب فيودور

كُتبت في مدينة روستوف، في سخان المياه «درب التبانة» لزوجته في بلدة مقاطعة (ن).

عزيزتي كاتيا! حلّ بلاء جديد عليّ، سأحدث عنه لاحقاً. استلمت النقود في الوقت المناسب، وهذا ما أشكر عليه من أعماق قلبي. حال وصولي إلى روستوف، ركضت فوراً إلى عنوان المؤسسة الروسية للاسمت «نوفوروس سمت» – مؤسسة كبيرة جداً، لم يكن هناك من يعرف المهندس برونس. لقد كنت يائساً جداً، ولكن نصحوني هناك. قيل لي، اذهب إلى مكتب الذاتية وشؤون الموظفين. ذهبت، فقالوا لي: «نعم، كان يعمل عندنا هذا المهندس، وكان يؤدي عملاً هاماً، لكنه غادرنا في العام الماضي. أغروه بالعمل في باكو في شركة النفط الآسيوية «آزنيفت»، في مجال الأمن الصناعي».

ولكن يا عزيزتي، رحلتي ليست قصيرة، كما كنا نظن. تكتبين أن المال ينفد. لا نستطيع فعل شيء، كاترينا ألكسندروفنا. لم يبق طويلاً من الانتظار لبلوغ النهاية. أتلح بالصبر، وأتوجه بصلاتي لله، بيعي بدلتی الطلابية المضلعة. وعلينا تحمل التكاليف ببيع أشياء أخرى. كوني مستعدة لكل شيء.

الغلاء رهيب في روستوف. دفعت لقاء غرفة في اليوم روبلين وخمسين كوبيكاً. لدي ما يكفي من المال للسفر إلى باكو. في حال التوفيق، سأرسل لك برقية من هناك.

الطقس حار هنا. أحمل معطفي على يدي. أخشى أن أتركه في الغرفة فيسرقونه. الشعب جريء هنا. لا تعجبني مدينة روستوف. من حيث عدد سكانها، ومن حيث موقعها الجغرافي مدينة خاركوف تتفوق عليها كثيراً. ولكن، لا شيء، أيتها الأم، سيرزقنا الله وسنذهب معاً إلى موسكو. هناك سترين مدينة أوروبية غريبة تماماً. ثم سنذهب للعيش في سماري، بالقرب من مصنعنا.



ألم يعد فوربانيونوف؟ أين يركض ويبحث الآن؟ هل لا يزال يفستيفغنييف يتناول طعامه عندنا؟ كيف أصبح ردائي الكنسي بعد التنظيف؟ ازرعني الثقة لدى جميع معارفنا بأنني موجود عند أهل عمّتي. أكتبني لغولنكا أيضاً.

أجل! كدت أن أنسى تماماً أن أروي لك الحادث الفظيع الذي جرى لي اليوم.

كنت أقف على الجسر معجباً بالدون الهادئ وأحلم بتحسّن وضعنا المادي. وهنا هبت الريح وحمل معها إلى النهر قبعة أخيك، الخباز. وقد رأيتها منذ هنيهة. واضطرت للقيام بمصروف جديد: اشتري قبعة انكليزية بروبلين ونصف. لا تقولي شيئاً لأخيك الخباز عما حدث. أقنعيه أنني في فارونيج.

أعاني من صعوبة فيما يتعلق بالألبسة الداخلية. أغسلها في المساء، وإذا لم تنشف أرديها رطبة. وهذا لطيف مع هذا الطقس الحار الآن. أقبلك وأعانقك.

زوجك الأبدي فيدي.

## الفصل التاسع والعشرون الدجاجة وديك المحيط الهادي

كان المراسل الصحفي برسييتسكي يستعد بنشاط للذكرى المئوية الثانية لميلاد عالم الرياضيات الكبير اسحق نيوتن. وأعلن: - سأخذ على عاتقي الكتابة عن نيوتن. اعطوني فقط المساحة اللازمة.

- أنت، يا برسييتسكي، كن حذراً - حذره أمين التحرير - اخدم نيوتن بطريقة إنسانية.

- لا تقلق. كل شيء سيكون على ما يرام.

- حتى لا يحدث، كما حدث مع لومونوسوف. ففي الصحيفة المسائية «فيتشركا» تم نشر مقالة حفيذة لومونوسوف، الطليعية، أما عندنا...

- هذا ليس خطئي. كان عليك أن تكلف إيفانوف أحمر الشعر بهذه المقالة المسؤولة! وجّه لومك لنفسك.

- ماذا ستُحضر؟

- كيف ماذا؟ مقالة من الإدارة العامة للمؤسسات العلمية والأثرية والأدبية: لدي هناك علاقات ليست أبداً كعلاقات إيفانوف. سنأخذ سيرته الذاتية من بروكهاوس Brokhaus (معجم سير العظماء). لكن الصورة ستكون رائعة. الجميع يبحثون عن الصور في المعجم نفسه، أما أنا فلدي مرجع أهم. لقد شاهدت في «الكتاب الدولي» صورة رائعة!... لكنني بحاجة إلى دفعة مقدمة! حسناً!... سأذهب من أجل نيوتن!

- ألن نُصوّر نيوتن؟ - سأل المصور الذي ظهر في نهاية الحديث.

رسم برسييتسكي علامة تحذير، تعني: «هدوء، انظروا جميعاً ما سأفعله الآن». فتنبهت أمانة التحرير كلها.

- كيف؟ أنت، لم تصور نيوتن حتى الآن؟! - اندفع برسييتسكي نحو المصور مهاجماً.

أخذ المصور، احتياطاً لكل طارئ، ينتحل الأعذار. وقال مفتخراً: - حاول أنت الإمساك به.

- كان يمكن للمصور الجيد أن يمسك به - صرخ برسييتسكي.

- ماذا إذن؟ هل يجب تصويره أم لا؟

– بالطبع يجب تصويره! أسرع! هناك يجلسون غالباً من جميع أقسام هيئة التحرير!

حمل المصور جهاز التصوير على كتفه والحامل الثلاثي القوائم.

– هو الآن في «المصنع الحكومي لآلات الخياطة» (غوسشفينتايا ماشينا). لا تنسى: نيوتن، إسحاق، لا أذكر اسم أبيه. صوره بمناسبة الذكرى السنوية. ورجاء، لا تتأخر في عملك. الجميع عندكم يجلسون وراء الطاولة ويقرؤون الأوراق. صور أثناء سيرك بسرعة، أو في وسط العائلة.

– عندما سيعطونني إسطوانات أجنبية، عندها سوف أصور أثناء السير ماشياً. حسناً، أنا ذاهب.

– أسرع! فالساعة الآن السادسة!

ذهب المصور ليصور عالم الرياضيات الكبير بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاده، وأخذ العاملون يتشدقون بأصوات مختلفة.

في ذروة العمل دخل ستيوبا (ستييبان) من مجلة «العلم والحياة» وخلفه كانت تمشي بتناقل مواطنة بدينة.

– اسمع، يا برسيتسكي – قال ستيوبا – هذه السيدة جاءت إليك بقضية ما. تفضلي إلى هنا، أيتها المواطنة، هذا الرفيق سيشرح لك.

هرب ستيوبا ضاحكاً.

– نعم! – قال برسيتسكي – ماذا تريدين؟

وجهت مدام غريستاتسويفا (كانت هي) إلى المراسل عينيها الواهنتين وسلمته بصمت قصاصة.

– إذن – قال برسيتسكي –... وقع تحت الحصان... واقتصرت إصابته على خوف بسيط... ما المشكلة؟

– العنوان – سألت الأرملة متضرعة – أليس من الممكن أن أعرف العنوان؟

– عنوان من؟

– عنوان أ. بندر.

– ومن أين لي أن أعرف؟

– لكن هذا الرفيق قال أنك تعرف.

– أنا لا أعرف شيئاً. توجهي إلى مكتب العناوين.

– ربما تتذكر، أيها الرفيق؟ كان بحذاء أصفر.

– أنا نفسي ارتدي حذاءً أصفر. في موسكو ثمة مائتا ألف آخرين يرتدون أحذية صفراء. ربما، تريدين معرفة عناوينهم أيضاً؟ في هذه الحالة، تفضلي. سأترك أي عمل أقوم به وأشتغل بقضيتك. بعد نصف عام سوف تعرفين كل شيء. أنا مشغول، أيها المواطنة.

لكن الأرملة التي شعرت نحو برسيتسكي باحترام كبير، تبعته في الرواق، وأخذت تكرر توسلاتها ورجاءها، وهي تقرع بتنورتها الداخلية المنشأة، ذات الشبكة الحديدية.

وفكر برسيتسكي في نفسه: «أنت وغد يا ستيوبا. حسناً. سأسلط عليه مخترع الحركة الدائمة، وسأريه نجوم الظهر».

– وماذا يمكنني أن أفعل – سأل برسيتسكي بانفعال، وهو يتوقف قبالة الأرملة – ومن أين يمكنني أن أعرف عنوان المواطن أ. بندر؟ وهل أنا الحصان الذي هجم عليه؟ أو أنا الحوزي الذي ضربه أستاذ على ظهره أمام عيني؟...

كانت الأرملة تجيب بزئير غامض لم يكن يفهم منه سوى «يا رفيق» و«أرجوك كثيراً».

انتهت الأعمال في دار الثقافة. وفرغت المكاتب والممرات. في مكان واحد فقط كانت لا تزال الآلة الكاتبة تضرب الصفحة الأخيرة.

– عفواً، يا مدام، ألا ترين أنني مشغول!

ومع هذه الكلمات اختفى برسيتسكي في دورة المياه. وبعد أن تمشى هناك عشر دقائق، خرج مرحاً. كانت غريته سأتسويفاً تهز بصبر تنورتها على زاوية الرواقين. وعند اقتراب برسيتسكي تابعت ثرثرتها.

جنّ جنون المراسل. وقال لها:

– إليك، أيتها العمّة، فليكن ما تريدين، سأقول لك أين حبيبك أ. بندر. اذهبي إلى الأمام في الرواق، ثم انعطفي إلى اليمين، واذهي مباشرة إلى الأمام. سيكون هناك باب. أسألي عن تشيريبينكوف. يجب أن يعرف.

واختفى برسيتسكي الذي كان مسروراً باختراعه، بسرعة لدرجة أن الأرملة ذات التنورة المنشأة لم تجد الوقت للحصول منه على معلومات إضافية.

ذهبت مدام غريستاسويفا إلى الأمام في الرواق، بعد أن سوت تنورتها.

كانت أروقة دار الثقافة طويلة وضيقة للغاية، بحيث أن العابرين لها كانوا يحثون خطواتهم بصورة لا إرادية. وكان من الممكن من خلال مظهر أي عابر، معرفة كم قطع. فإذا كان يسير بخطى سريعة بعض الشيء، فهذا يعني أن مسيرته قد بدأت لتوها. أما الذين عبروا ممرين أو أكثر فكانوا يهرولون بسرعة متوسطة. وأحياناً يمكن رؤية شخص يركض بأقصى سرعة: فهذا يعني أنه يقع في مرحلة الممر الخامس. أما المواطن الذي اجتاز ثمانية ممرات فيمكن مقارنته من حيث السرعة، بالطائر، وبفرس السباق، وببطل العالم في الركض – العداء نورمي.

بعد أن انعطفت إلى اليمين، بدأت تركض مدام غريستاسويفا. كانت الأرضية الخشبية تطلق وتنطق.

كان يسير نحوها شاب أسمر في سترة زرقاء وحذاء قرمزي. كان واضحاً من وجهه أستاذ، أن زيارة دار الثقافة في مثل هذه الساعة المتأخرة تأتي نتيجة قضايا الامتياز السريعة. وبديهي أن خطط المدير الفني لم تتضمن اللقاء مع حبيبته.

عند رؤيته للأرملة، استدار بندر، ودون أن يلتفت إلى الخلف سار محاذياً للجدار إلى الورا.

– الرفيق بندر – صاحت الأرملة فرحة – إلى أين أنت تذهب؟

أسرع المحتال الكبير خطاه. وأسرعت الأرملة خطاها.

– انتظر، ما سأقوله لك – ناشدته الأرملة.

لكن الكلمات لم تصل إلى أذني أستاذ. كانت الريح تغني وتصفرف في أذنيه. فانطلق إلى الممر الرابع، وتخطى السلالم الداخلية الحديدية. ولم يترك لحبيبته سوى صدى كان يكرره لها ضجيج السلالم الحديدية طويلاً.

– حسناً، شكراً لك – تمتم أستاذ، وهو جالس في الطابق الخامس – وجدت وقتاً مناسباً لموعد غرامي! من الذي أرسل هذه السيدة الحامية إلى هنا؟ حان وقت تصفية فرع الامتياز في موسكو، وإلا، أي خير في أن يأتيني فارس وحيد(شُرطي) على الموتور.

خلال هذه الفترة، كانت مدام غريستاسويفا، التي تفصلها عن أستاب ثلاثة طوابق وآلاف من الأبواب وديزينة من الممرات، تمسح بطرف تنورتها الداخلية وجهها المحتدم وبدأت بحثها عنه. في البداية كانت تريد العثور بسرعة على زوجها وأن تتفاهم معه. وتوقدت في الممرات مصابيح خافتة. كانت جميع المصابيح وجميع الممرات وجميع الأبواب متشابهة. شعرت الأرملة بالرعب. وأرادت المغادرة.

وبارتقاها للأدراج الرابطة بين الممرات، هرعت بسرعة متزايدة. كانت أبواب الرئاسة، والأمناء العامين، واللجان المحلية، والأقسام التنظيمية، وهيئات التحرير تتعاقب بضجة وسرعة على جانبي جسمها البدين. وأثناء سيرها أوقعت المنافض الكبيرة المخصصة لأعقاب السجاير بتنانيرها المشبكة بالحديد. فكانت المنافض تتساقط بضجة إثرها. وتشكلت في زوايا الممرات زوايع ودوامات مائية. وانصفقت الكوات الصغيرة المفتوحة من النوافذ. وتساقطت على الأرض أسهم التأشير المرسومة بحبر الستنسل والمعلقة على الجدران في تشوش بائس.

وأخيراً وصلت غريستاسويفا إلى ردهة السلالم الداخلية. كان هناك الظلام مسيطراً، لكن الأرملة تغلبت على خوفها، ونزلت إلى الطابق الأسفل، وشدت الباب الزجاجي. كان الباب مغلقاً. رجعت الأرملة إلى الوراء. لكن الباب الذي مرت منه للتو تم إغلاقه بأيدي أمينة.

\* \* \*

في موسكو يحبون إغلاق أبوابهم.

آلاف من أبواب المداخل الرئيسية مغلقة ومرتجة بالعوارض الخشبية، ويشق مئات آلاف المواطنين طريقهم إلى شققهم عن طريق المداخل الجانبية المخفية. لقد انقضى العام الثامن عشر منذ مدة طويلة، ومنذ زمن بعيد أصبح مفهوم «السطو على الشقة» مفهوماً غامضاً، واختفت حراسة المنازل التي ينظمها السكان لضمان الأمن، ويجري حل مشكلة المرور والحركة في الشوارع، وتُشيد محطات كهربائية ضخمة، وتنفذ مشاريع علمية كبيرة، ولكن ليس هناك من شخص واحد يكرس نفسه لحل مشكلة الأبواب المغلقة.

من هو الشخص الذي سيحل الأبواب الملغزة لدور السينما والمسارح والكنائس؟

ثلاثة آلاف شخص يجب أن يدخلوا إلى السيرك خلال عشر دقائق، عبر باب واحد ومن خلال درفة واحدة من الباب. أما بقية الأبواب العشرة، المعدة لمرور حشود كبيرة فهي مغلقة. ومن يعرف، لماذا هي مغلقة؟ ربما، قبل عشرين عاماً، سُرِق حمار مُدْرَب من اسطبل السيرك، ومنذ تلك الأثناء سدت إدارة السيرك، خوفاً من السرقة، المداخل والمخارج المناسبة بالطوب. وربما، في فترة ماضية، كان قد أصيب ملك الجو الشهير بالبرد نتيجة تيار هوائي، وليست الأبواب المغلقة سوى صدى للفضيحة التي حلت بالملك.

في المسارح ودور السينما يخرجون الجمهور على دفعات صغيرة، تجنباً للازدحام، حسب ادعائهم. إن تجنب الازدحام سهل للغاية – يكفي فقط فتح المداخل المتوفرة بكثرة. ولكن، بدلاً من ذلك تتصرف الإدارة باستخدام القوة. والمستخدمون في المسرح يمسون بأيدي بعضهم بعضاً، مشكلين حاجزاً بشرياً، وبهذا الشكل يبقون الجمهور تحت الحصار ما لا يقل عن نصف ساعة. أما الأبواب، الأبواب المنشودة، مغلقة منذ عصر بافل الأول، ولا تزال مغلقة حتى يومنا هذا.

خمس عشرة ألفاً من مشجعي كرة القدم، المتحمسين للمباراة الرائعة لمنتخب موسكو، مجبرون على التدافع إلى الترام عبر شق ضيق للغاية، بحيث يمكن لعسكري واحد مسلح بسلاح خفيف أن يمسك بأربعين ألف همجي معززين ببرجين محاصرين.

ليس للملعب الرياضي سقف، ولكن له عدة بوابات. هناك بوابة صغيرة واحدة مفتوحة فقط. ولا يمكن الخروج إلا باختراق البوابة. وبعد كل مباراة رياضية كبرى تتكسر البوابات. ولكن حرصاً على تنفيذ التقليد المقدس، يتم ترميمها بعناية وإغلاقها من جديد.

وإذا لم تكن هناك أية إمكانية لتعليق باب (هذا يحدث عندما لا يوجد ما يمكن تثبيت الباب عليه)، تُستعمل أبواب خفية من جميع الأنواع:

1. الحواجز.
2. الحواجز المرورية.
3. المقاعد المقلوبة.
4. كتابات ورسوم حاجزة.
5. حبال.

والحواجز منتشرة على نطاق واسع في المؤسسات.

وبها يمنع الوصول إلى الموظف المطلوب. والزائر، مثله مثل النمر، يسير على طول الحاجز، محاولاً بالإشارات لفت الانتباه إليه. وربما جلب الزائر اختراعاً مفيداً! أو ربما. يريد فقط دفع ضريبة الدخول! لكن الحاجز كان يمنع – بقي الاختراع غير معروف، وبقيت الضريبة غير مدفوعة.

يُستخدم الحاجز في الشوارع.

يضعونه في الربيع في الأوتوستراد الصاخب السريع وكأنه بغرض تسييج الرصيف الجاري إصلاحه. وعلى الفور يتحول الشارع الصاخب إلى صحراء. ويقصد المارة الأماكن التي يقصدونها عبر شوارع أخرى. ويضطرون يومياً للمشاة عدة كيلومترات

زائدة، لكن الأمل الزائف لا يفارقهم. فالصيف يمضي. والأوراق تيبس. والحاجز يبقى ثابتاً. لم ينجز أي إصلاح. والشارع فارغ.

وتحجز مقاعد الحدائق المقلوبة المداخل إلى حدائق موسكو العامة الصغيرة، التي لم تزود ببوابات قوية، بسبب إهمال العمال الصارخ.

كان من الممكن كتابة كتاب كامل عن الكتابات واللوحات الحائزة، لكن هذا لا يدخل الآن في خطة المؤلفين.

وتكون مثل هذه الكتابات على نوعين: مباشرة وغير مباشرة.

ومن بين الكتابات المباشرة:

### **الدخول ممنوع.**

### **ممنوع دخول الأشخاص الغرباء.**

### **المرور محظور.**

ومثل هذه الكتابات تعلق أحياناً على أبواب المؤسسات، وبخاصة التي يتردد إليها الجمهور بكثافة.

أما الكتابات غير المباشرة فهي الأكثر وبالاً. فهي لا تمنع المرور، لكن بعض الناس المتهورين النادرين يخاطرون أحياناً باستخدام حقهم في المرور. وإليكم بعض الكتابات المعيبة: ممنوع الدخول من دون تقرير.

المراجعة متوقفة.

بزيارتك تعيق الشخص المشغول

وحيث لا يمكن وضع حواجز، أو قلب المقاعد، أو تعليق كتابة مانعة – تُمدد الحبال. وتمدد هذه الحبال، حسب الإلهام، في الأماكن الأقل توقعاً. وإذا ما تم مدّها على ارتفاع صدر الإنسان، فيقتصر الضرر على خوف بسيط وضحك عصبي. أما الحبال التي يتم تمديدّها على ارتفاع الأقدام فيمكنها أن توقع المارة وتشوهم.

فلتذهب الأبواب إلى الجحيم! ولتذهب الطوابير أمام مداخل المسارح إلى الجحيم! اسمحوا بالدخول من دون تقارير! نتوسل إليكم ارفعوا الحاجز الذي وضعه مدير مسؤول أمام منعطف دائرته! لا تلجؤوا إلى قلب المقاعد! أعيدوها إلى أماكنها! من



المريح جداً الجلوس في الحديقة ليلاً. حيث يكون الهواء نظيفاً، وتأتي الأفكار  
الذكية إلى الرؤوس!

\* \* \*

كانت مدام غريتساتسويفا، الجالسة على الدرج أمام الباب الزجاجي المقفل في  
وسط دار الثقافة، تفكر في مصيرها كأرملة، فتأخذ قيلولة قصيرة نادرة، وتنتظر  
الصباح.

ومن الممر المضاء انساب ضوء أصفر من المصابيح الكهربائية على الأرملة. واخترقت  
غشاوة الصباح نوافذ بيت الدرج.

كان السكون سائداً عند الصباح الباكر النقي. في هذه الساعة الهادئة سمعت  
غريتساتسويفا وقع خطوات في الممر. نهضت الأرملة بسرعة وانحنت على الزجاج.  
لمعت سترة زرقاء في نهاية الممر. وكان الحذاء القرمزي مغطى بالغبار. نفض ابن  
الجالية التركية الغبار عن جاكيتته، واقترب من الباب الزجاجي. نادته الأرملة: -  
سَصلق! سَصلق! (حيوان صغير من القوارض، يطلق تحبباً - م.) كانت تتنفس أمام  
الزجاج بحنان لا يوصف. فتغطى الزجاج بالبخار. وتشكلت عليه بقع قزحية. كان  
يسطع شبهان زرقاوان وقزحيان في الضباب وأقواس القزح.

لم يسمع أستاذ وقوقة الأرملة. فحك ظهره وهز برأسه قلقاً. وخلال ثانية كاد أن  
يختفي وراء المنعطف.

- «الرفيق بندر!» - صاحت الزوجة المسكينة أمام الزجاج. التفت المحتال الكبير.

- آه - قال بندر، بعد أن رأى أنه منفصل عن الأرملة بالباب المغلق - أنت هنا أيضاً؟

- هنا، هنا - أكدت الأرملة بفرح.

- عانقيني، يا فرحتي، نحن لم نلتق منذ أمد طويل - دعاها المدير الفني.

اضطربت الأرملة. فقفزت من خلف الباب مثل عصفور في القفص. وعادت التناير  
التي هدأت ليلاً لتصلل. فتح أستاذ ذراعيه.

- لماذا لا تأتي يا دجاجتي؟ فديك من المحيط الهادي متعب من اجتماعات المجلس  
المصغر لمفوضي الشعب.

كانت الأرملة محرومة من الخيال.

– سَصلق – قالت للمرة الخامسة – افتح لي الباب، أيها الرفيق بندر.

– بهدوء، أيتها الفتاة! التواضع زينة للمرأة. لم هذه القفزات؟

كانت الأرملة تعاني وتتعذب.

– ما الذي يعذبك؟ – سأل أستاذ – من الذي يمنعك من العيش؟

– أنت غادرتني، وأنت تسأل!

وبكت الأرملة.

– امسحي عينيك أيتها المواطنة. إن كل دمعة من دمعائك هي جزيء من الفضاء.

– وأنا كنت أنتظرك، انتظرك، أغلقت المتجر. وسافرت لألقاك، يا رفيقي بندر...

– حسناً، وكيف تعيشين الآن على الدرج؟ ألا تشعرين بالبرد؟

أخذت الأرملة تغلي ببطء مثل سماور الدير الكبير.

– يا لك من خائن! – نطقت بها وهي ترتجف.

كان لدى أستاذ المزيد من وقت الفراغ. فأخذ يقرع بأصابعه، ويتأرجح بصورة إيقاعية، وغنى بصوت خافت: جزء من الشيطان فينا

محبوس أحياناً!

وقوة سحر الأنثى

تولد الحريق في الصدر...

– فلتنفجر ولتتم! – تمت له الأرملة في نهاية الرقصة. – سرقت السوار، هدية زوجي. ولماذا أخذت الكرسي؟

– يبدو أنك تنتقلين إلى أمور شخصية؟ – لاحظ بندر ببرود.

– سرقت، سرقت – أكدت الأرملة.

– اسمعي أيتها المرأة: احفظي مدى الحياة، أن أستاذ بندر لم يسرق أبداً أي شيء.

– ومن أخذ المصفاة؟

– آه، مصفاة الشاي! من مقتنياتك غير النقدية؟ وهل تعتبرين هذا سرقة؟ في هذه الحالة إن نظرتينا إلى الحياة متعارضتان كلياً.

– لقد أخذتها – وقوقت الأرملة.

– يعني، إذا ما اقترض شاب سليم معافي من جدّة خرقاء آنية من أواني المطبخ، فهذا يعني أنه سارق؟ هكذا تريدان أن أفهم؟

– سارق، سارق!

– في هذه الحالة علينا أن نفترق. أنا موفق على الطلاق.

هجمت الأرملة على الباب. فاهتز الزجاج. وأدرك أستاذ، أنه حان وقت الانصراف. وقال: – لا وقت لدي للعناق. وداعاً، يا حبيبتي! لقد افترقنا كما تفترق سفينتان في البحر.

– أيها الحارس!! – صرخت الأرملة.

لكن أستاذ كان قد أصبح في نهاية الممر. فوقف على عتبة النافذة، وقفز بقوة إلى الأرض الرطبة بعد أمطار الأمس، واختفى في الحقائق الرياضية الرائعة.

سمع الحارس الذي استيقظ على صرخات الأرملة. فأطلق سراح السجينة، مهدداً بالغرامة.

## الفصل الثلاثون مؤلف قصيدة «غافريل يادا»

عندما غادرت مدام غريستاسويفا معسكر المكاتب غير المضيف، توافد إلى دار الثقافة الموظفون من أدنى المراتب الوظيفية: السعاة، السيدات الداخليات والخارجيات، عاملات الهاتف المناوبات، المساعدون الشباب للمحاسبين، المراهقون الحراس المدافعون.

وبينهم تحرك نيكيفور ليابيس، شاب في مقتبل العمر بتسريحة خروف ونظرة وقحة.

كان الزائرون الجاهلون والعنيدون والزائرون للمرة الأولى يدخلون إلى دار الثقافة من المدخل الرئيس. أما نيكيفور ليابيس فولج إلى البناء عبر المستوصف. في دار الثقافة كان شخصاً يعرف كل شيء، ويعرف أقصر الطرق إلى الواحات، حيث تتناثر المفاتيح المضيفة للمكافآت تحت ظلال الصفحات العريضة لمجلات الدوائر والأقسام. ذهب نيكيفور ليابيس بادئ ذي بدء، إلى البوفيه. لعب مباراة بالصندوق الآلي المطلي بالنيكل ورمى له ثلاثة شيكات، أكل نيكيفور فطيرة، وفتح الكأس المغلف بالورق، وكعكة الكريمة التي تشبه حوض الأزهار. وكل هذا أكله مع شرب الشاي. ثم أخذ ليابيس على مهل يجول على ممتلكاته.

قام بالزيارة الأولى للهيئة تحرير مجلة الصيد الشهرية «غيراسيم ومومو» (8). لم يكن الرفيق نابرنيكوف قد حضر بعد، وانطلق نيكيفور ليابيس إلى هيئة تحرير «النشرة الاسترطابية»، وهو التقرير الأسبوعي الذي يتواصل من خلاله العاملون في الصيدلة مع العالم الخارجي.

– صباح الخير – قال نيكيفور – كتبت أشعاراً رائعة.

– عن ماذا؟ – سأله رئيس الصفحة الأدبية – وفي أي موضوع. فأنت تعرف، يا تروبتسكوي، أن مجلتنا...

وحرك رئيس الصفحة بأصابعه من أجل تحديد أدق لماهية «النشرة الاسترطابية».

نظر تروبتسكوي – ليابيس إلى سرواله الأبيض المصنوع من الليف الأبيض، وأمال جسده إلى الخلف وقال بطرب: – «قصيدة الغنغرينا».

– هذا مثير للاهتمام – علّق الباحث الاسترطابي. – حان منذ زمن نقل أفكار الوقاية في شكل أدبي شعبي مبسط.

شرع ليابيس يتلو قصيدته على الفور:

كان غافريل يعاني من الغنغرينا،

وأصبح طريق الفراش من الغنغرينا...

بعد ذلك وبالأبيات الشعرية الرباعية الجريئة يتحدث عن غافريل الذي لم يذهب في الوقت المناسب إلى الصيدلية بسبب جهله، وتوفي لأنه لم يدهن جرحه باليود.

– تروبتسكوي، أنت تحقق تقدماً – شجعه المحرر – لكنني أرغب بالمزيد... هل تفهم؟

وحرك أصابعه، لكنه أخذ القصيدة الرهيبة، واعدأ بدفع المكافأة يوم الثلاثاء.

في مجلة «أيام عامل المورس» استقبل ليايوس بحفاوة وترحيب.

– حسناً أنك جئت، يا تروبتسكوي. نحن بحاجة الآن بالذات إلى قصائد شعرية. ولكن اكتب عن الحياة، الحياة، فقط عن الحياة. من دون غنائيات رومانسية. أسمع، يا تروبتسكوي؟ اكتب شيئاً ما عن حياة عملي الاتصالات، وفي الوقت نفسه، أنت تدرك؟...

– البارحة بالذات، فكرت بحياة عملي الاتصالات. وفاضت عندي القصيدة التالية. واسمها «الرسالة الأخيرة». وها هي...

كان غافريل عامل بريد،

كان غافريل يوزع الرسائل...

اكتملت قصة غافريل باثنين وسبعين بيتاً من الشعر. وفي خاتمة القصيدة، أصيب غافريل برصاص فاشي، ومع ذلك أوصل الرسالة إلى العنوان المطلوب.

– أين حدث هذا – سئل ليايوس.

كان السؤال مشروعاً. ففي الاتحاد السوفييتي لا وجود للفاشييين، ولا وجود لغافريل وأعضاء نقابة عمال الاتصالات في الخارج.

– ما هي المشكلة؟ – قال ليايوس – حدث هذا عندنا، بالطبع، والفاشي متخفي.

– أتعرف، يا تروبتسكوي، الأفضل أن تكتب عن محطة الإذاعة.

– ولماذا لا تريدون ساعي البريد؟

– فلتبق القصيدة عندنا. نحن نأخذها بصورة شرطية.

ذهب نيكيفور ليابيس – تروبتسكوي الحزين من جديد إلى هيئة تحرير «غيراسيم ومومو». كان نابرنيكوف يجلس في مكتبه. وقد علقت على الجدار صورة مكبرة لتورغينيف واضعاً نظارة على عينه، ويرتدي جزمة الصيد ويحمل بندقية بماسورتين على كتفه. وكان يقف إلى جانب نابرنيكوف منافس ليابيس – شاعر من الضواحي.

وبدأت الأغنية القديمة عن غافريل، لكنه الآن يحب الصيد. كانت القصيدة الإبداعية بعنوان: «صلاة الصياد».

كان غافريل ينتظر أرنباً في كمين،

أطلق غافريل النار على الأرنب.

– جيد جداً! – قال نابرنيكوف الطيب – أنت في هذه القصيدة تفوقت على إنتشي نفسها (فوميكو إنتشي – كاتبة يابانية بارزة 1905 – 1986 م). ولكن بحاجة إلى بعض التصحيح. أولاً

– اشطب «الصلاة» من جذورها.

– والأرنب – قال الشاعر المنافس.

– ولماذا الأرنب؟ – استغرب نابرنيكوف.

– لأن هذا ليس موسم صيد الأرانب.

– تروبتسكوي، اسمع، غير الأرنب أيضاً.

أصبحت القصيدة في شكلها المتغير بعنوان «درس للصياد»، وتم استبدال الأرانب بالشناقيب. ولكن تبين فيما بعد أن الشناقيب لا تُطلق عليها النار صيفاً. وأصبحت القصيدة في شكلها النهائي كما يلي: كان غافريل ينتظر الطائر في كمين.

أطلق غافريل النار على الطائر...

والخ...

بعد الإفطار في المطعم، استأنف ليابيس العمل. كان السروال الأبيض يلمع في عتمة الممر. كان يدخل إلى هيئات التحرير ويبيع «غافريل» المتعدد المهن والشخصيات.

في هيئة تحرير «الفلوت التعاوني» سلم قصيدة غافريل بعنوان «فلوت إيولس» (إيولس إله الرياح عند الإغريق - م.): كان غافريل بائعاً.

وكان يبيع الفلوت...

واشترى المحررون المغفلون من مجلة «الغابة كما هي» السمكة من ليابيس قصيدة صغيرة بعنوان «على الحافة». وكانت تبدأ كما يلي: سار غافريل عبر الغابة المتعرجة،

كان غافريل يقطع الخيزران.

وآخر غافريل خلال هذا اليوم كان يعمل في المخبز. ووجد لنفسه مكاناً في هيئة تحرير «عامل الرغبة». كانت القصيدة ذات عنوان طويل وحزين: «الخبز وجودة المنتج والحبيب». وقد أهدى القصيدة لصديقه ذات الشخصية الغامضة هينا تشليك. وتبدأ القصيدة بشكل غنائي كما في القصائد السابقة: كان غافريل يعمل خبازاً

وكان يخبز الرغبة...

بعد صراع دقيق، تم شطب الإهداء. والمحزن في الأمر، أن ليابيس لم يحصل على نقود من أية جهة. بعضهم وعد بالدفع يوم الثلاثاء، وبعضهم يوم الخميس أو الجمعة - بعد أسبوعين. واضطر ليابيس إلى اقتراض المال من معسكر الأعداء، حيث لم ينشروا شيئاً له.

نزل ليابيس من الطابق الخامس إلى الطابق الثاني ودخل إلى أمانة تحرير «ستانوك». ولكن لسوء حظه، اصطدم هناك على الفور بالشاعر العامل الجاد برسيتسكي.

- آه - صاح برسيتسكي - ليابيس!

- اسمع - قال نيكيفور ليابيس بصوت خافت - اعطني ثلاثة روبلات. هيئة تحرير غيراسيم ومومو» يجب أن تدفع لي حزمة كبيرة من المال.

- يمكنني إعطاءك نصف روبل. انتظر. سأحضر الآن.

وعاد برسيتسكي جالِباً معه عشرة من العاملين في «ستانوك».

بدأ حديث عام.

- حسناً، كيف تاجرت؟ - سأله برسيتسكي.

- كتبت قصائد رائعة!

– عن غافريل؟ شيء ما فلاحى؟ «كان غافريل يحرق منذ الصباح الباكر، غافريل يعشق محراثه»؟

– من هذا غافريل! هذه زعبرة! – دافع ليابيس عن نفسه – كتبت عن القوقاز.

– وهل كنت في القوقاز؟

– سأذهب بعد أسبوعين.

– ولكن ألا تخاف، يا ليابيس؟ هناك بنات آوى!

– هذا يخيفني كثيراً!! إنها في القوقاز غير سامة!

بعد هذا الجواب، نصب الجميع آذانهم وأصغوا باهتمام.

– قل لي، ليابيس، – سأل برسييتسكي – كيف هي بنات آوى، برأيك؟

– نعم، أعرف، دعك من هذا!

– حسناً، قل، إن كنت تعرف!

– حسناً، إنها... على شكل ثعابين.

– نعم، نعم، أنت على حق، كعادتك دائماً. برأيك، صهوة الماعز البري تُقدّم على المائدة مع العظام الركابية.

– أنا لم أقل هذا أبداً – صاح ليابيس.

– أنت لم تقل هذا. أنت كتبت هكذا. قال لي نابرنيكوف، أنك حاولت أن تدسّ له مثل هذه الأبيات الشعرية إلى «غيراسيم ومومو»، وكأنها من حياة الصيادين. قل لي، بوجدانك، يا ليابيس، لماذا تكتب عن أشياء لم ترها أبداً في حياتك، وليس لديك أي تصور عنها؟ لماذا البينوار (روب النوم – م.) Peignoir في قصيدتك «كانتون» هو ثوب للرقص؟ لماذا؟!

– أنت تاجر – قال ليابيس متبجحاً.

– لماذا في قصيدتك «سباق الخيل إلى جائزة بوديوني» (بوديوني: قائد عسكري شهير من الجيش الأحمر أصبح مثلاً للشجاعة – م.) يشد الفارس الحبل على سمط الحصان وبعد هذا يجلس على السرج؟ هل رأيت يوماً ما حبلاً؟



– رأيت.

– حسناً، قل لي، كيف هو؟

– دعني هادئاً. أنت غير متوازن نفسياً.

– وهل رأيت سرجاً؟ وهل كنت في سباق الخيل؟

– ليس من الضروري أن أكون في كل مكان! – صاح ليابيس – كتب بوشكين قصائد تركية، ولم يكن أبداً في تركيا.

– آه، نعم، أرض روم تقع في المقاطعة التركية.

لم يفهم ليابيس السخرية. وتابع بحماس:

– كان بوشكين يكتب من خلال المواد والوثائق. لقد قرأ تاريخ عصيان بوغاتشوف، ومن ثم كتب عنه. أما عن سباق الخيل فقد روت لي الكاتبة اليابانية إنتشي كل شيء.

بعد هذا الدفاع البارع، اقتاد برسييتسكي ليابيس العنيد إلى الغرفة المجاورة. ولحقهما المشاهدون. هناك على الجدار كانت قصاصة كبيرة من صحيفة معلقة، محاطة بإطار الجِداد.

– أنت كتبت هذه المقالة عن «جسر القائد»؟

– أنا كتبتها.

– أعتقد، أن هذه تجربتك الأولى في كتابة النثر؟ أهنتك! «تدافعت الأمواج عبر كاسر الموج وسقطت إلى الأسفل بمرفاع سيارة عنيف...» لقد صنعت معروفاً لـ «جسر القائد»! الجسر الآن، لن ينساك طويلاً، يا ليابيس!

– المشكلة في أن... هل تعرف ما هو المرفاع؟

– بالطبع أعرفه. دعني وشأني...

– كيف تتصور المرفاع؟ صفه بكلماتك الخاصة.

– إنه هكذا... يسقط، باختصار.

- المرفاع يسقط. لاحظوا جميعاً كل شيء. المرفاع يسقط بعنف! انتظر ليابيس، سأحضر لك الآن نصف روبل. لا تدعوه يخرج!

ولكن في هذه المرة أيضاً، لم يُعط نصف الروبل. حمل برسيتسكي من مكتب الاستعلامات الجزء الحادي والعشرين من معجم التراجم «بروكهاوس، الذي يحتوي الأسماء من دوميتسي إلى يفرينوف. بين دوميتسي في دوقية ميكلينبورغ - شفيرين الكبرى، ودوميل وهو نهر في بلجيكا وهولندا تم العثور على الكلمة المطلوبة.

- اصغ! المرفاع (بالألمانية Daumkraft) - إحدى الآلات لرفع الأجسام الثقيلة. والمرفاع العادي البسيط، المستخدم لرفع العربات والسيارات وما شابه ذلك، يتألف من حزام مسنن متحرك، يُمسك به ترس يُدار بقوة اليد...» وما شابه ذلك. «قام جون ديكسون في عام 1879 بتركيب ما يعرف باسم «إبرة كليوباترا» مكان المسلة، بمساعدة أربع عمال قاموا بتشغيل أربع مرافيع هيدروليكية». هذا الجهاز، برأيك، يتمتع بالقدرة على السقوط بسرعة؟ هذا يعني أن معجم بروكهاوس منذ عهد يفرون كان يخدع البشرية طيلة خمسين عاماً؟ لماذا تفبرك وتبتذل، بدلاً من أن تدرس وتتعلم؟ أجب!

- أحتاج للمال.

- ولكن لم يكن أبداً لديك مالاً في يوم من الأيام. أنت دوماً تبحث عن نصف روبل.

- اشتريت أثاثاً وانكسرت ميزانيتي.

- وهل اشتريت كثيراً من الأثاث؟ يدفعون لك على ابتذالك بمقدار ما يستحق، - قروش!

- قروش جيدة! اشتريت كرسيّاً رائعاً في المزاد العلني...

- على شكل أفعى؟

- لا. من القصر. ولكن حصلت عندي مصيبة. البارحة عدت إلى البيت ليلاً...

- من عند هينا تشليك؟ - صاح الحاضرون بصوت واحد.

- هينا!... لم ألتق بهينا منذ زمن طويل. عدت إلى البيت من مناقشة جماعية مع ماياكوفسكي. دخلت إلى البيت. النافذة مفتوحة. شعرت على الفور أن شيئاً حدث.

- أوو لا لا! - قال برسيتسكي وهو يغطي وجهه بيديه - أشعر، يا رفاقي، أنهم سرقوا من ليابيس تحفته الشعرية الرائعة «كان غافريل يعمل بواباً، اشتغل غافريل بالكناسة».

- دعوني أكمل. وقاحة مذهلة! دخل إلى غرفتي بعض الأوغاد ومزقوا تنجيد الكرسي كله. ربما أحكم يقرضني خمسة روبلات لإصلاحه؟

- من أجل إصلاحه، اكتب قصيدة عن غافريل جديد. يمكنني أن أقول لك حتى بداية القصيدة. انتظر، انتظر... الآن... ها هي: «اشترى غافريل كرسيًا من السوق، كان لدى غافريل كرسي سيء». اكتبها بسرعة. يمكن بيعها بربح في مجلة «صوت الخزانة»... آه منك، يا تروبتسكوي، يا تروبتسكوي!... بالمناسبة، ليايبس، لماذا أنت تروبتسكوي؟ لماذا لا تأخذ اسماً مستعاراً أفضل؟ مثل دولغوروكي (ذو اليد الطويلة - وهو لقب قيصر اشتهر بالقسوة والظلم - م.) نيكيفور دولغوروكي! أو نيكيفور فالوا؟ أو حتى أفضل: المواطن نيكيفور سوماروكوف - إلتون؟ وإذا ما وجدت لك تغذية جيدة، ترسل ثلاثة قصائد على الفور إلى هيئة تحرير «غيراسيم ومومو» فسيكون لك مخرج رائع من وضعك السيء. فيوقع هذان باسم سوماروكوف، وتوقع نفاية أخرى باسم إلتون، وثالثة باسم يوسوبوف... آه، يا لك من مبتذل مرتزق! (المقطع من هنا وحتى نهاية الفصل حذفته الرقابة السوفييتية - م.) امسكوا به، يا رفاقي، سأروي له قصة رائعة. وأنت يا ليايبس، اصغ! بالنسبة لمهنتك هذه ستكون مفيدة.

كان الموظفون يتمشون في الممر بطوله، يأكلون سندويشات كبيرة، كالأحذية الريفية. كانت هناك استراحة لتناول طعام الفطور. وكان المراهقون - الحراس يتمشون أزواجاً. وكان آفدوتيف يركض من غرفة لأخرى، داعياً أصدقاء السيارة لاجتماع طارئ. لكن جميع أصدقاء السيارة تقريباً كانوا جالسين في أمانة التحرير، يُصغون إلى برسييتسكي الذي كان يروي قصة سمعها في جمعية الرسامين.

وها هي القصة.

### قصة حب سيء الحظ

في لينينغراد، في جزيرة فاسيليفسكي، وفي الخط الثاني كانت تعيش فتاة بائسة بعينين زرقاوين كبيرين. كان اسمها كلوتيلدا.

كانت الفتاة تحب قراءة شيلر بلغته الأصلية الألمانية، وتحب أن تحلم وهي جالسة على حاجز نهر النيفا، وتأكل عند الغداء شريحة لحم مشوية قليلاً.

لكن الفتاة كانت فقيرة. وكان لديها كثير من كتب شيلر، ولم يكن لديها لحم على الإطلاق. ولهذا السبب، وربما لأن الليالي كانت بيضاء، وقعت في الحب. كان الرجل الذي أذهلها بجماله نحاً. وكانت ورشته تقع في هولندا الجديدة (جزيرة في سانت بطرسبورغ - م.).

كان الشاب والفتاة يجلسان على حافة النافذة، ينظران إلى القناة السوداء ويتبادلان القبلات.

كانت تسبح النجوم في القناة، وربما مراكب الجندول أيضاً. هكذا، على الأقل، كان يبدو لكلوتيلدا.

– انظر، يا فاسيا (فاسيلي) – قالت الفتاة – هذه فينيسيا (البندقية)! الفجر الأخضر يضيء من خلف قلعة من الرخام الأسود.

لم يرفع فاسيا يده عن كتف الفتاة.

تحولت السماء الخضراء إلى لون وردي، ثم إلى اللون الأصفر، ولم يترك العاشقان حافة النافذة.

– قل يا فاسيا – قالت كلوتيلدا – هل الفن خالد أبدي؟

– خالد أبدي – أجاب فاسيا – الإنسان يموت، المناخ يتغير، تظهر كواكب جديدة، تموت سلالات، لكن الفن لا يتزعزع، إنه أبدي.

– نعم – قالت الفتاة – مايكل أنجلو!

– نعم – كرر فاسيا، مستنشقا رائحة شعرها – النحات الأثيني براكسيتيليز!...

– النحات الإيطالي أنطونيو كانوفا!

– النحات الإيطالي بنفينتو سيليني!

ومرة أخرى طافت النجوم في السماء، وغطست في ماء القناة وأضاءت حتى الصباح بارتجاف.

لم يغادر العاشقان حافة النافذة. كان اللحم قليلاً جداً، لكن قلباهما كانا دافئين بأسماء العباقة.

كان النحات يعمل خلال النهار. كان ينحت تماثيل نصفية. لكن أعماله كان يكتنفها غموض شديد. في ساعات العمل لم تكن كلوتيلدا تدخل إلى ورشته. وعبثاً كانت ترجوه.

– فاسيا، دعني أرى كيف تُبدع!

لكنه كان مصراً. وقال لها مشيراً إلى التمثال النصفي المغطى بالقماش المبلل: - لم يحن الوقت بعد، يا كلوتيلدا، لم يحن الوقت. تنتظرنا السعادة، والمجد، والمال في القاعة. فلتنتظر.

كانت النجوم تعوم...

ذات مرة أُهديت الفتاة السعيدة تذكرة مجانية إلى السينما. كان يُعرض فيلم «عندما يجب أن يصمت القلب». جلست كلوتيلدا في الصف الأول، أمام الشاشة مباشرة. كانت الفتاة التي تربت على أشعار شيلر والمرتديلا الشعبية متأثرة بصورة غير عادية بكل ما تراه.

كان مضمون الفيلم هو الأكثر إثارة:

«نحت النحات هانز تماثيل نصفية. وكانت الشهرة تأتيه بخطوات كبيرة. كانت زوجته جميلة رائعة. لكنها تشاجرا. وفي حالة غضب، حطمت الحسنة الجميلة بالمطرقة تمثالاً نصفياً - الإبداع الكبير للنحات هانز الذي استمر في نحته ثلاث سنوات. وتحطمت الشهرة والثراء تحت ضربات المطرقة. كانت كارثة هانز عميقة وميؤوساً منها. فعلق حبل مشنقته. لكن الزوجة الثائبة سحبته في الوقت المناسب من حبل المشنقة. ثم نزعت ثيابها بسرعة وصاحت: - انحتني! ليس في العالم جسد أجمل من جسدي!

- آه! - اعترض هانز - كم كنت أعمى!

وسيطر عليه الإلهام، ونحت تمثالاً لزوجته. وكان هذا التمثال رائعاً لدرجة أن العالم كله كان يرتجف من الفرح والإعجاب. واشتهر هانز وزوجته الحسنة وعاشا سعيدين حتى الممات».

خرجت كلوتيلدا من السينما إلى ورشة فاسيا. كان كل شيء مختلطاً في أعماق نفسها: شيلر وهانز، النجوم والمرمر، المخمل والثياب الرثة. نادته: - فاسيا!

كان فاسيا في ورشة عمله. كان ينحت تمثاله النصفي العجيب - رجلاً بشاربين طويلين ورداء شتوي طويل. كان ينحته من صورة فوتوغرافية. كان النحات يضع اللمسات الأخيرة على تمثاله، مردداً أغنية: - وحياتنا كلها صراع!

في اللحظة ذاتها، تحطم التمثال بدوي إلى أشلاء بضربة قوية من مطرقة. قامت كلوتيلدا بعملها. وقالت بفخر وهي تمد يدها إلى يد فاسيا الملطخة بالجبس: - نظّف لي أظافري!

وغادرت الورشة. وصلت إلى أذنيها أصوات غريبة. وأدركت كلوتيلدا ما الذي حصل: كان النحات الكبير ينوح ويبكي على إبداعه المكسور.

جاءت كلوتيلدا في صباح اليوم التالي، لمتابعة عملها: إبعاد فاسيا عن حبل المشنقة وخلع ملابسها أمامه وتقول: - انحتمي! - ليس في العالم جسد أجمل من جسدي!

دخلت ورأت أن فاسيا لم يتعلق بحبل المشنقة. كان جالساً على كرسي مرتفع، مديراً ظهره لكلوتيلدا التي دخلت، وكان يفعل شيئاً.

لم تشعر الفتاة بالحرج... خلعت ملابسها، وصرخت وهي مقشعة من البرد وأسنانها تصطك: - انحتمي يا فاسيا، ليس في العالم جسد أجمل من جسدي!

التفت فاسيا. وتجمدت كلمات الأغنية على شفثيه.

وهنا رأت كلوتيلدا ما كان يفعله.

كان ينحت تمثالاً رائعاً - رجلاً بشارين طويلين ورداء شتوي طويل. وكانت الصورة الفوتوغرافية واقفة أمامه على الطاولة. كان فاسيا يضع اللمسات الأخيرة على التمثال.

- ماذا تفعل؟ - سألته كلوتيلدا.

- أنحت تمثالاً نصفياً لمدير المتجر التعاوني رقم 28.

- لكنني كسرته بالأمس! - همهمت كلوتيلدا - لماذا لم تشنق نفسك؟ أنت نفسك كنت تقول، أن الفن خالد. لقد حطمت فنك الخالد. لماذا أنت حي، أيها الرجل؟

- خالد هو خالد - أجاب فاسيا - لكن التوصية المطلوبة يجب تسليمها؟ وأنت ما رأيك؟

كان فاسيا نحاً مبتذلاً مرتزقاً عادياً - متوسط الحال. أما كلوتيلدا فكانت تقرأ أشعار شيلر كثيراً.

\* \* \*

- لهذا، يا ليابيس، لا تخف عشيقتك هينا تشليك بمهارتك وإبداعك. فهي امرأة لطيفة حساسة. وهي تؤمن بموهبتك. ولا أحد غيرها يؤمن بموهبتك، كما أظن. وإذا ما تابعت الركض شهراً آخر وراء «النشرة الاسترطابية»، فإن هينا نفسها ستبتعد عنك. بالمناسبة، لن أعطيك نصف روبل. اخرج يا ليابيس.

(8) «غيراسيم ومومو» عنوان قصة للكاتب الروسي تورغينيف، يقوم بطلها غيراسيم بإغراق الكلب مومو - م.

## الفصل الحادي والثلاثون حفنة الأقوياء، أو الباحثون عن الذهب

كما كان متوقعاً، لم تثر قصة كلوتيلدا في نفس «الخروف» ليابيس أية مشاعر.

ركض ستيوبا إلى الغرفة مع صيحات «ضحية البلطجية» و«اختفاء المغيرين» و«سر مكتب رئيس التحرير». وقال: - برسيتسكي، اذهب سريعاً إلى مكان الحدث، واكتب لزاوية «ما حدث خلال النهار». حادثة مثيرة بخمسة أسطر صغيرة!

اتضح أن رئيس التحرير عندما دخل إلى غرفته وجد قلماً ضخماً بريشة رقم 86 مرمياً على الأرض. انغرزت الريشة في قدم الأريكة. أما كرسي رئيس التحرير الجديد الذي تم شراؤه في المزاد العلني، فكان يبدو وكأن الغربان نقرته. فالوجه القماشي المنجد كله كان ممزقاً، والحشوة مرمية على الأرض، وكانت النوابض بارزة، وكأنها أفاعي تستعد للدغ.

- سرقة تافهة - قال برسيتسكي - إذا ما عثرنا على سرقات ثلاث أخرى ننشر زاوية في ثلاثة أسطر.

- وهنا المسألة، إنها ليست سرقة. لم يسرقوا أي شيء. شوّهوا الكرسي فقط.

- تماماً مثل ما حدث عند ليابيس - لاحظ برسيتسكي - يبدو أن ليابيس لم يكن يكذب.

- رأيتهم - قال ليابيس بفخر. اعطني نصف روبل.

أحضروا الصحيفة المسائية. وبدأ برسيتسكي يلقي نظرة عليها.

القارئ العادي يقرأ الصحيفة. أما الصحفي فينظر إليها في البداية وكأنها لوحة. ما يهمه هو تشكيل الصحيفة وبنيتها.

- لو كنت أنا لما صففتها ونضدتها - قال برسيتسكي - فقارئنا ليس مهياً للتنضيد الأمريكي... رسم كاريكاتوري بالطبع، لتشمبرلن... خاطرة عن برج سوخاريف... ليابيس، لماذا لا تكتب شيئاً عن سوق سوخاريف: موضوع جديد - نُشر عنه خلال عام أربعون مقالة فقط... وماذا بعد...

بدأ برسيتسكي بازدياء خفيف، يقرأ قسم الحوادث، الذي أصبح حسب رأيه المتحيز، بلا موهبة.

– مادة عمرها مائة سنة!... هذا المبذر كان عندنا... سرقة فاشلة لم تنجح في مسرح كولومبوس! إيه، إيه، يا رفاقي، هذا شيء ما جديد... اسمعوا!

وقراً برسيتسكي بصوت عالٍ:

### محاولة سرقة فاشلة في مسرح كولومبوس

تسلل شريران غير معروفين إلى أدوات تمثيل مسرح كولومبوس، وأخذوا أربعة كراسي من النموذج القديم الثمين.

لاحظهما في الفناء الحارس الليلي، وطاردهما، فرميا الكراسي واختفيا.

من المثير للأمر الإشارة إلى أن الكراسي تم شراؤها خصيصاً للإنتاج الجديد لمسرحية غوغل «الزواج».

– لا، هنا ثمة شيء في الأمر. إنها طائفة ما من سارقي الكراسي.

– مجانيين!

– لا، ليس بهذه السهولة. وهي تنشط بشكل جيد. كانت عند ليابيس، وعندنا، وفي المسرح.

– نعم!

– إنه يبحثون عن شيء ما، أيها الرفاق.

هنا، تغيّر فجأة وجه نيكيفور ليابيس. خرج من الغرفة بصمت وركض في الممر بطوله. بعد خمس دقائق نقله الترام المتأرجح إلى بوابات بوكروفسكي.

كان يقيم ليابيس في المنزل رقم 9 من زقاق كازارميني مع شابين يرتديان قبعتين خفيفتين. أما ليابيس فكان يغطي رأسه بقبعة قبطان عليها شعار نبتون، سيد البحار. كانت غرفة ليابيس غرفة مرور. وبالقرب منه كانت تعيش أسرة كبيرة من التتار.

عندما دخل ليابيس إلى غرفته، كان خونتوف جالساً على حافة النافذة، يتصفح دليل المسرح.

كان هذا رجلاً ابن عصره. وكان يفعل كل ما يطلبه العصر.

فإذا كان العصر يطلب الشعر كان خونتوف يكتب أشعاراً كثيرة.



كانت الأنواق تتغير. وتتغير المطالب. كان العصر والمعاصرون بحاجة إلى رواية بطولية حول موضوع الحرب الأهلية. وبدأ خونتوف بكتابة الروايات البطولية.

ثم تحولت المطالب إلى القصص الواقعية اليومية. وباعتباره ابن عصره، انتقل خونتوف إلى كتابة القصص.

كان العصر يطالب بالكثير، لكنه لم يأخذ شيئاً مما يكتبه خونتوف.

الآن يطلب العصر المسرحيات. ولهذا كان خونتوف جالساً على حافة النافذة، يقلب دليل المسرح. يمكن أن نتوقع من الكاتب الذي ينوي كتابة مسرحية، أن يبدأ بدراسة عادات تلك الطبقة الاجتماعية من الناس الذين ينوي إخراجهم على خشبة المسرح. يمكننا أن نتوقع من الكاتب المفترض به كتابة مسرحية أن يبدأ التفكير في موضوع المسرحية، وأن يرسم ذهنياً شخصيات أبطالها ويفكر بالمشاهد المسرحية Quid pro quo (باللغة اللاتينية - من مكان من؟ - م.). لكن خونتوف كان يبدأ من الطرف الآخر - من الحسابات الرياضية. وباسترشاده بخطة قاعة المشاهدين، كان يحسب متوسط الدخل الإجمالي من المسرحية في كل مسرح. وكان وجهه الممتلئ اللطيف يتجدد من التوتر، وحاجبيه يرتفعان وينزلان.

كان خونتوف يخطط بسرعة في دفتر ملاحظاته أعمدة الأرقام؛ فيضرب عدد الأماكن بمتوسط سعر التذكرة، بل ويجري حسابه مرتين: في الأولى يأخذ في اعتباره ارتفاع الأسعار، وفي الثانية بالأسعار العادية.

كان المسرح الأكاديمي الكبير (مسرح البولشوي) يأتي على رأس مؤسسات العروض المسرحية في موسكو، من حيث عدد المقاعد وأسعارها. وقد فارقه خونتوف بأسف كبير. فمن أجل الوصول إلى عرض مسرحي في مسرح البولشوي على الكاتب أن يكتب أوبرا أو باليه. غير أن العصر في تلك الفترة الزمنية كان يطلب الدراما. واختار خونتوف المسرح الأكثر ربحية: مسرح موسكو الروائي الكبير. وكان يظن أن كاتشالوف وموسكفين بقيادة ستانيسلافسكي يجمعون مردوداً جيداً. كان خونتوف يحسب نسبة المؤلف. ووفقاً لحساباته، فالمسرحية يجب أن تعرض في الموسم ما لا يقل عن مائة مرة. وهكذا عرضت مسرحية «أيام آل توربين»، كما كان يعتقد. وقفزت الأرباح كثيراً. لم يعد القدر خونتوف أبداً في يوم من الأيام بمثل هذه الأرباح.

بقي عليه فقط أن يكتب المسرحية. لكن هذا كان أقل شيء يقلق خونتوف. كان يعتقد أن «المشاهد - غبي».

- موضوع عالمي - هتف ليايبس وهو يقترب من الكاتب المنسجم دوماً مع عصره!

كان خونتوف بحاجة إلى موضوع، فسأله بسرعة:

– أي موضوع؟

– موضوع ممتاز – أجب ليابيس.

استعد الكاتب – ابن العصر، الكاتب الملحمي لتسجيل كلمات ليابيس، لكن مؤلف غافريل متعدد الوجوه والمهن، الشكّاء بطبيعته، لاذ بالصمت.

– ماذا بك! تكلم!

– أنت ستسرقه.

– وهل سرقت منك كثيراً من المواضيع؟

– وقصة الكومسومولي (الشبيبي الشيوعي) الطويلة التي ربحت مئة ألف روبل.

– نعم، ولكن لم يأخذوها.

– وما الذي أخذوه منك! أما أنا فيمكنني كتابة قصيدة رائعة.

– حسناً، لا تتظاهر بالغباء! حدّثني!

– ألن تسرقه؟

– وعد شرف.

– الموضوع ممتاز. أدرك، ثمة قصة. اخترع مخترع سوفيتي شعاع الموت، وأخفى مخططاته في كرسي. ومات. لم تكن زوجته تعرف شيئاً وباعت الكرسي. وبدأ النازيون بالبحث عن الكرسي. وعرف الكومسومولي بقصة الكرسي، وبدأ الصراع. هذا يمكن أن يوحى بأفكار وحبكة...

أخذ خونتوف يركض في أنحاء الغرفة، واصفاً التعقيدات حول كرسي فوروبيانينوف الفارغ.

– أنت تعطيني هذا الموضوع؟

– لنفترض.

– ليابيس، أليس لديك إحساساً بالموضوع! هذا ليس موضوع قصيدة. هذا موضوع مسرحية.

– مهما كان. هذا ليس شأنك. الموضوع موضوعي.

– في هذه الحالة، أنا سأكتب مسرحية، قبل أن تتمكن أنت من كتابة عنوان قصيدك.

قوطة الجدال الدائر بين الكاتبين بوصول إبراهيم.

كان إبراهيم رجلاً لطيف المعشر، رشيقياً ومرحاً. كان بديناً. وكانت ياقة القميص تخنقه. وكان النمش يلمع على وجهه ورقبته ويديه. وكان شعره مثل لون البيض المخفوق. وكان يخرج دخان كثيف من فمه. كان إبراهيم يدخل سجاير «فيغارو»: سيجارتان بخمسة وعشرين كوبيكاً. وكان يلبس جاكيتاً قماشياً يشبه الجاكيت الرسمي، وتبرز من جيوبه حزمة نوتات موسيقية. وكانت قبعته القماشية تغطي نقرته كالسلة. كان العرق الوسخ يفوح من إبراهيم. سأل بصوت مدو: – حول ماذا الخلاف؟

كان الموسيقار إبراهيم يعيش على كنف شقيقته. أرسلت له من وارسو رقصات فوكستروت جديدة. كان إبراهيم ينسخها على أوراق نوتة، ويبدل عنوانها من «حب في المحيط» إلى «طعام الآلهة» أو من «غزل في المترو» إلى «ليالي سنغافورة»، ويزود النوتة بأشعار خونتوف، ويصهرها في معزوفة موسيقية.

– حول ماذا الخلاف؟ – كرر إبراهيم.

لجأ المتنافسان إلى مناشدة حياد إبراهيم. ورؤيت قصة الفاشيين للمرة الثانية.

– يجب كتابة قصيدة – أكد ليابيس – تروبتسكوي.

– يجب كتابة مسرحية – صاح خونتوف.

لكن إبراهيم تصرف كمحلف توراتي. وحل النزاع في لحظة واحدة.

– يجب كتابة أوبرا! – قال إبراهيم نافخاً أوداجه. وستصدر عنها أوبرا حقيقية مع باليه، وكورس وحفلات موسيقية رائعة.

دعمه خونتوف. وتذكر على الفور حجم مردود مسرح البولشوي. وأغريا ليابيس المتعنت بقصص قصيرة عن الأرباح القادمة. كان خونتوف يضرب بكفه على الدليل ويصرخ بأرقام حطمت جميع أفكار ليابسوس عن الثروة.

بدأ توزيع المهام والواجبات الإبداعية. أخذ خونتوف على عاتقه السيناريو والمعالجة  
النثرية. وكانت القصائد الشعرية من نصيب ليابيس. أما الموسيقى فكان على إبراهيم أن  
يكتبها. وقرروا الكتابة هنا، وفي هذه الساعة. جلس خونتوف على كرسي معطوب وكتب  
بخط عريض في أعلى الصفحة: «الفصل الأول». قال له إبراهيم: - إليك يا صديقي، بينما  
أنت تخرّبش، صف لي الشخصيات الرئيسة للمسرحية. سأجهز بعض الألحان الأساسية. هذا  
ضروري جداً.

بدأ المنقبون عن الذهب بصياغة شخصيات أبطال المسرحية. وحددوا بصورة تقريبية  
الأشخاص الآتين: أوغولينو - السيد الكبير لفرقة الفاشيين (صوت باص الجهير). (اسم  
إيطالي شائع - م.) ألفونسينا - ابنته (صوت سوبرانو الأعلى).

الرفيق ميتين - مخترع سوفيتي (صوت باريتون).

سفورزا - أمير فاشي (صوت تينور الصاوح).

غافريل - كومسومولي ريفي (متنكراً بصوت سوبرانو أوسط).

نينا - فتاة كومسومولية (شبيبية)، ابنة كاهن (سوبرانو غنائي).

(فاشيون، صانعو مشروبات كحولية محظورة، قساوسة، جنود، كبار الخدم، فنيون،  
صقالبة، مخبريون، ظل ميتين، رواد طلائعيون، وغيرهم).

قال إبراهيم الذي فُتحت له آفاق مثمرة:

- أنا، سأكتب في الوقت الحالي جوقة القساوسة ورقصات صقلية. وأنتما اكتبوا الفصل  
الأول. بمزيد من الألحان والثنائيات.

- وماذا سنسمي الأوبرا؟ - سأل ليابيس.

ولكن هنا في الردهة سُمع وقع حوافر على الأرضية الخشبية المتعفنة، وصهيل خافت  
ومشاحنات في الشقة. وفتّح باب غرفة الباحثين عن الذهب، وأدخل الجار، المواطن  
شارينوف إلى الغرفة حصاناً نحيفاً بذيل طويل وخطم شائب.

- غوو(تحرك!) - صرخ شارينوف على الحصان - فليأخذك...

خاف الحصان فاستدار وضرب ليابيس في ردفه.

كان الباحثون عن الذهب مذهولين، فالتصقوا بالجدار من شدة الخوف. شد شارينوف الحصان إلى غرفته، التي برز منها العديد من البنات الصغيرات التتريات. حرن الحصان وضرب بحافره. فانخلع مربع من الأرضية الخشبية ودار ثم طار عبر النافذة المفتوحة.

– فاطمة! – صاح شارينوف بصوت رهيب – ادفعيه من الخلف.

هرع السكان من جميع شقق البناء إلى غرفة الباحثين عن الذهب. صرخ ليابيس بصوت غريب غير صوته. وكان إبراهيم يصفر ساخراً لحن «أمبروسيا»، وخونتوف يلوح بقائمة أشخاص الأوبرا. كان الحصان يراوغ ولم يتحرك.

– غوو اذهب! – قال شارينوف بصوت ذابل – أوه أوه أوه، اللعنة!...

هنا عاد الباحثون عن الذهب إلى رشدهم، وطالبوا بتفسير لذلك. جاء مسؤول البناء مع البواب.

– ماذا تفعل؟ – سأل مسؤول البناء – أي منظر هذا؟ كيف يمكن إدخال حصان إلى شقة مسكونة؟

غضب شارينوف فجأة.

– وماذا يعنيك هذا؟ اشتريت حصاناً. أين أضعه؟ في الفناء يسرقونه!

– أخرج الحصان الآن – صاح مسؤول البناء بصوت هستيري – إذا كنت بحاجة إلى لحم حصان، فاشتر في الملحمة الإسلامية.

– في الملحمة السعر غال – قال شارينوف – غوو(تحرك)، أيها الحصان الملعون!... فاطمة!...

تحرك الحصان إلى الخلف ووافق أخيراً على الذهاب إلى حيث اقتادوه.

– لن أسمح لك بهذا – قال مسؤول البناء – سوف تُستجوب في المحكمة.

ومع ذلك أدخل شارينوف الحصان إلى غرفته، صائحاً باستمرار على الحصان، وربطه بمقبض النافذة. بعد دقيقة ركضت فاطمة حاملة كومة كبيرة وخفيفة من التبن.

– كيف سنعيش عندما يكون بجوارنا حصان؟ نحن نكتب أوبرا، هذا غير مناسب لنا – صرخ ليابيس.

– لا تقلقوا – قال مسؤول البناء وهو يخرج – اشتغلوا.

– بماذا سنسمي الأوبرا – سأل ليابيس.

– أقترح تسميتها بـ «الوردة الحديدية».

– وما علاقة الوردة هنا؟

– يمكن تسميتها باسم آخر. على سبيل المثال «سيف أوجولينو».

– كذلك اسم غير معاصر.

– فكيف نسميها؟

واستقروا على تسمية مثيرة ممتازة «شعاع الموت». وتحت عبارة «الفصل الأول» كتب خونتوف بيد ثابتة واثقة: «في الصباح الباكر. يصور المشهد شارعاً في موسكو، تيار متدفق من السيارات والحافلات والترام. عند تقاطع الطرق يظهر أوجولينو في سترة. ومعه سفورزا».

– سفورزا في البيجاما – أضاف ليابيس.

– لا تتدخل، أيها الأحقق! الأفضل أن تكتب أشعاراً لأغنية ميتين. لا يسير الناس بالبيجاما في الشارع!

وتابع خونتوف الكتابة: «ومعه سفورزا في بدلة الكومسومولي».

لم يتمكنوا من الكتابة بعد ذلك. جاء مسؤول البناء مع شرطيّين وبدأوا بإخراج الحصان من شقة شارينوف.

– فاطمة! – صاح شارينوف – امسكي، فاطمة!

أخذ ليابيس من على الطاولة رغيفاً سميكاً مستطيلاً وصفع به بجبن ردف الحصان العظمي.

– جُرّه – صاح مسؤول البناء.

كان الحصان يهز بذيله يمنة ويسرة. وكانت فاطمة وإخوتها التتر الصغار يعانقون ركبتَي الحصان النحيفتين. وكان المواطن شارينوف يصرخ يائساً «غووو» (هيا!).

هب الباحثون عن الذهب لمساعدة ممثلي القانون، وأخرجت المجموعة الخلاصة الحصان إلى الردهة.

كانت الغرفة الفارغة تفوح برائحة مثل رائحة اسطبل السيرك. وهبت ريح مفاجئة فاقتلعت أوراق الأوبرا من على الطاولة مع القش ودارت في الغرفة. أما أغنية الرفيق ميتين فطارت إلى السقف. وأنشدت جوقة الكهنة وبدأت ترقص براعم رقصة صقلية على حافة النافذة.

وصل من الدرج صراخ وصهيل مقرف. وبذل الباحثون عن الذهب والشرطيان وممثلو إدارة البناء قواهم الأخيرة. وبعد تغلبهم على عناد الحيوان، جمع المؤلفون المتشاركون الصفحات المتبعثرة وتابعوا الكتابة من دون تصحيح.

## الفصل الثاني والثلاثون في مسرح كولومبوس

أصبح هيبوليت ماتفييفتش بالتدريج، مدهناً متملقاً. عندما كان ينظر إلى أستاذ، كانت عيناه تكتسبان مسحة دركية زرقاء.

كان الجو حاراً جداً في غرفة إيفانوبولو لدرجة أن كراسي فوروبيانينوف التي جفت بدأت تطقطق كالخطب في الموقد. كان المحتال الكبير مستلقياً يستريح، واضعاً تحت رأسه سترته الزرقاء.

كان هيبوليت ماتفييفتش ينظر إلى النافذة. فهناك في الجادات المتعرجة، وإلى جانب حدائق موسكو الصغيرة، كانت تسير بسرعة عربة النبلاء. وكانت ينعكس على طلائها الخارجي الأسود المارة المنحنون: رجل من الخيالة برأس نحاسي، وسيدات المدينة، والغيوم البيضاء الكثيفة. وبتكسيها قارعة الطريق بحدواتها عبرت الخيول بالعربة أمام هيبوليت ماتفييفتش. فابتعد بخيبة أمل.

كانت العربة تحمل شعار وزارة المرافق العامة، المعدة لنقل القمامة، ولم تكن تعكس جدرانها الخشبية أي شيء.

كان يجلس على مقعد الحوزي عجوز شجاع بلحية كثيفة شائبة. ولو أن هيبوليت ماتفييفتش عرف أن الحوزي ليس أحداً آخر سوى الكونت ألكسي بولانوف، الخيال – الراهب الشهير لكان غالباً دعا العجوز ليتحدث معه عن الزمن الماضي الجميل.

كان الكونت ألكسي بولانوف مهموماً للغاية. وبجلده للخيول، كان يفكر بحزن بالبيروقراطية التي تأكل قسم البراز في الصرف الصحي والتي بسببها لم يسلموا الكونت منذ نصف سنة البدلة الخاصة التي يفرضها العقد الصحي.

– اسمع – قال فجأة المحتال الكبير – كيف كانوا ينادونك في طفولتك؟

– ولماذا يهملك هذا؟

– مجرد فضول! فأنا لا أعرف كيف أدعوك. لقد سئمت من اسم كنييتك فوروبيانينوف، أما هيبوليت ماتفييفتش – فكئيب للغاية. كيف كانوا يدعونك؟ هيبا؟

– كيسا – أجاب هيبوليت ماتفييفتش مبتسماً



– رائع! – اسمع يا كيسا، انظر من فضلك، ماذا يوجد لدي على ظهري. يؤلمني بين عظمي الكتفين.

نزع أستاب من خلال رأسه قميص رعاة البقر(الكابوي). وانكشف أمام كيسا فوروبيانينوف الظهر العريض لأنطونيوس الريفى (شاب إغريقي، عشيق الامبراطور الروماني هارديان – م.)، ظهر بشكل ساحر، لكنه متسخ بعض الشيء.

– أوه – قال هيبوليت ماتفييفتش – بعض الاحمرار.

بين عظمي الكتفين كانت تلمع وتنعكس كقوس قزح نفطي بنفسجي كدمات خطوط غريبة.

– بشرفي، إنه الرقم 8! – صاح فوروبيانينوف – لأول مرة أرى مثل هذه الكدمة.

– ألا يوجد رقم آخر – سأل أستاب بهدوء.

– وكأنه حرف P.

– ليس لدي المزيد من الأسئلة. كل شيء مفهوم. هذا القلم اللعين! أتري، يا كيسا كيف أعاني، ولأية أخطار أتعرض بسبب كراسيك؟ هذه العلامات الحسائية ألحقها بي قلم كبير ذاتي الحركة بريشة رقم ستة وثمانون. عليك أن تلاحظ أن هذا القلم اللعين سقط على ظهري في تلك اللحظة ذاتها عندما أدخلت يداي في داخل كرسي رئيس التحرير.

– أنا أيضاً... أنا أيضاً عانيت وتأذيت – أضاف كيسا على عجل.

– ومتى عانيت؟ عندما وضعت عينك على زوجة غريبة؟ كما أذكر، هذه المغازلة المتأخرة انتهت بفشل ذريع! أو، ربما، أثناء مبارزتك مع كوليا الذي أهنته.

– لا، آسف، لحق بي الضرر نتيجة إصابة عمل.

– آه! عندما تراجعنا لاعتبارات استراتيجية عن مسرح كولومبوس؟

– نعم، نعم... عندما قام الحارس بمطاردتنا.

– إذن، أنت تعتبر سقوطك من السور بطولة؟

– ضريت على رصفة ركبتى بالرصيف.

– لا تقلق، مع النطاق الواسع لأعمال البناء الآن، سيصلحونه بسرعة.

رفع هيبوليت ماتيفيفتش بمهارة البنطلون عن ساقه اليسرى وتوقف محتاراً. لم يكن هناك أي ضرر على ركبته الصفراء.

– كم هو سيء الكذب في هذه السن المبكرة – قال أستاذ بحزن – سأضطر لوضع علامة 4 على سلوكك، يا كيسا، وسأستدعي والديك!... وليست لديك أية مهارة لفعل أي شيء. لماذا اضطررنا للهرب من مسرح كولومبوس؟ بسببك! وأي شيطان دفعك للوقوف على الزنك، كالحارس، دون أية حركة. أنت، طبعاً، فعلت هذا لتجذب انتباه الجميع إليك. من لطخ الكرسي المنهك على هذا النحو، مما اضطرني فيما بعد أن ألث بسببك؟ ولن أقول كلمة عن المزداد العلني. وجدت وقتاً للعجرفة! إن العجرفة ضارة في مثل عمرك! حافظ على صحتك!... أما أنا فأتصرف بطريقة أخرى تماماً! أنا حصلت على كرسي الأرملة. وأنا حصلت على كرسيين من شوكينسكي. حتى الكرسي المنهك، في نهاية الأمر، أنا من حصل عليه. أنا ذهبت إلى هيئة التحرير وإلى ليابيس! وأنت أوصلت كرسيًا واحداً، وحيداً فقط إلى بر الأمان، وحتى هذا بمساعدة عدونا المقدس – رئيس الأساقفة.

كان المدير الفني يعاتب كيسا المطيع وهو يتجول في الغرفة بقدمين حافيتين.

بقي الكرسي الذي اختفى في السوق التجاري لمحطة أكتوبر، كما في السابق، بقعة مظلمة في المخطط اللامع لأعمال الامتياز. وكانت الكراسي الأربعة الموجودة في مسرح كولومبوس تشكل غنيمة أكيدة. لكن المسرح غادر في رحلة على سفينة «سكريبين» البخارية في نهر الفولغا، وقدم اليوم العرض الأول لمسرحية «الزواج»، آخر مسرحيات الموسم. كان من الضروري أن يقررا – البقاء في موسكو للبحث عن الكرسي المفقود في ساحة كالانشفسكايا المترامية الأطراف، أم الذهاب مع الفرقة في جولتها. كان أستاذ يميل إلى الخيار الثاني.

– أو ربما يمكننا الانفصال؟ – سأل أستاذ – سأذهب أنا إلى المسرح، وأنت ستبقى وتتابع الكرسي في السوق التجاري.

لكن كيسا رمش برموشه الشائبة بجبن شديد ما جعل أستاذ يتوقف عن متابعة فكرته. وقال: – من بين عصفورين نختار الأكبر. سنذهب معاً. لكن المصاريف ستكون كبيرة. وسنكون بحاجة إلى المال. بقي معي ستون روبلاً. وكم معك؟ آه، لقد نسيت! في أعوامك محبة النساء تكلف كثيراً! أنا أقرر: اليوم سنذهب إلى المسرح لحضور العرض الأول لمسرحية «الزواج». لا تنس ارتداء بدلة السهرة. إذا كانت الكراسي لا تزال في مواضعها ولم تُباع من أجل ديون الضمان الاجتماعي، فسنگادر غداً. تذكّر، فوروبيانينوف، يحل الفصل الأخير من كوميديتنا «كنز حماتي». تقترب نهاية الكوميديا، يا فوروبيانينوف! كن هادئاً صبوراً يا صديقي القديم! تقيّد بالأصول! آه، يا شبابي! آه، يا رائحة الكواليس! كم من

الذكريات! كم من العلاقات الغرامية! كم أظهرت من الموهبة في زماني، في دور هاملت! وباختصار، تستمر الجلسة!

توفيراً للمال، ذهباً إلى المسرح سيراً على الأقدام. كان لا يزال ضوء النهار ساطعاً، لكن المصابيح كانت تشع بضوئها الليموني. يذوي الربيع أمام أعين الجميع. كان الغبار يطرده من الساحة، والهواء الساخن يدفعه إلى الزقاق. كانت هناك العجائز يتغنين بالربيع الجميل ويشربن معه الشاي في الباحات وخلف الموائد المستديرة. لكن حياة الربيع انتهت - ولم يعد يسمح له بالظهور بين الناس. وكان بوده كثيراً الانطلاق إلى نصب بوشكين، حيث كان يتنزه الشباب بقبعاتهم الملونة، وسراويلهم الضيقة، وربطات العنق «فرحة الكلب»، وأحذية «جيمي».

أما الفتيات اللواتي غمرن وجوههن بالبودرة الأرجوانية، فكن يتنزهن بين معبد اتحاد موسكو للجمعيات الاستهلاكية وتعاونية «الكَمُوني» (أي المشارك في كمونة باريس - م.) (بين بولفار فيليبوف وبولفار يليسييف). كنّ يتشاجرن بوضوح. في هذه الساعة أبطأ المشاة خطواتهم، ليس فقط لأن شارع تفيرسكيا أصبح ضيقاً مزدحماً. فخيول موسكو لم تكن أفضل من خيول ستارغورود: كانت تتعمد القرقة بحوافرها على حواف الجسر. أما راكبو الدراجات فكانوا يطيطرون دون ضجيج من ملعب «الرواد الصغار»، من المباراة الكبيرة الأولى بين المدن. وكان بائع البوظة يدفع صندوقه الأخضر، الممتلئ بأنواع الآيس كريم ناظراً بحذر إلى الشرطي، لكن الشرطي المقيد بتشغيل إشارات المرور، التي تنظم حركة المرور، كان مسالماً.

في خضم هذا الضجيج كله كان يتحرك الصديقان. كانت المغريات تظهر في كل خطوة. كان يُشوى الشاشليك الكاري والقوقازي وشرائح الخاصرة في مناقل صغيرة على مرأى من الشارع كله. وكان الدخان الحار والثاقب يرتفع إلى السماء اللامعة. وكانت تسمع موسيقا وترية من حانات البيرة والمطاعم وسينما «الأخرس العظيم». وعند موقف الترام كان يصرخ مكبر الصوت بأعلى صوته: (المقطعان التاليان حذفهما مقص الرقيب السوفييتي - م.) - الملاك الشاب، الشاعر لينسكي مغرم بأولغا لارينا ابنة الإقطاعي. ومن أجل إغاظة صديقه كان يفغيني أونيفغين (أبطال مسرحية بوشكين الشعرية «يفغيني أونيفغين» - م.) يتظاهر بمغازلة الفتاة أولغا. استمعوا إلى الافتتاحية. أعطي الكلمة لقاعة العرض...

انتهى مكبر الصوت بسرعة من ضبط الأدوات الموسيقية، وسمعت بصوت عال عصا المايسترو على حامل النوبة وسمع الحشد المنتظر للترام الإيقاعات الأولى من الافتتاحية. بصريز مزعج اقترب الترام رقم 6. وقد ارتفعت الستارة، وأخذت العجوز لارينا، التي كانت تنظر صاغرة إلى عصا المايسترو، وتغني «العادة تُعطى لنا من الأعلى»، تجهز وتغلي المربى، أما الترام فلم يستطع الابتعاد عن الحشد المقتحم. ولم يغادر بزئير وبكاء إلا على صوت

لينسكي» في بيتك...». (نهاية المحذوف من الرقيب السوفييتي - م.) كان من واجبهما  
حث الخطى. دخل الصديقان إلى البهو المدوي لمسرح كولومبوس.

هرع فوروبيانينوف إلى شباك التذاكر وقرأ أسعار الأماكن. وقال:

- مع ذلك، الأسعار باهظة. مقعد الصف السادس عشر بثلاثة روبلات.

- كم أكره هؤلاء المغفلين، والتافهين الريفيين! - علق أستاذ - إلى أين ذهبت؟ ألا ترى أن  
هذا شباك التذاكر؟

- حسناً، وإلى أين يجب أن أتوجه؟ لا يُسمح بالدخول من دون تذكرة.

- كيسا، أنت سوقي! في كل مسرح محترم ثمة نوعان من الشبايك. إلى شباك التذاكر  
يتوجه فقط العشاق والورثة الأغنياء. وبقية المواطنين (وهم الغالبية العظمى، كما تلاحظ)  
يتوجهون مباشرة إلى شباك المسؤول الإداري.

وبالفعل، كان يقف أمام شباك التذاكر خمسة أشخاص يرتدون ملابس متواضعة. وربما كان  
هؤلاء ورثة أغنياء أو عشاق. بينما كان هناك نشاط وحيوية أمام شباك المسؤول الإداري.  
كان هناك طابور وقف فيه أشخاص متنوعون. وكان الشباب، الذين ارتدوا جاكيتات  
وسراويل دارجة، بتفصيل لا يحلم به ابن الريف، يلوحون بثقة بتواصيهم الورقية الصغيرة  
من معارفهم من المخرجين، والفنانين، وهيئات التحرير، ومصممي الأزياء المسرحية،  
ورئيس شرطة المنطقة، ومن غيرهم من الأشخاص المرتبطين بالمسرح بصلة وثيقة، مثل:  
أعضاء رابطة النقاد المسرحيين والسينمائيين، جمعية «دموع الأمهات الفقيرات»، ومن  
المجلس المدرسي «ورشة السيرك التجريبي»، ومن بعض «فورتنبراس في عهد  
أمسلوغوباسي» (من شخصيات مسرحية «الزواح» التي عرضت في مسرح كولومبوس -  
م.). وكان حواري ثمانية يقفون مع توصيات من إسبر إكليروفيتش.

تغلغل أستاذ في الطابور، دافعاً أصحاب توصية فورتنبراس وهو يصرخ: «أنا بحاجة إلى  
استعلام فقط، ألا ترون أنني لم أخلع جزمتي»، شق طريقه إلى الكوة وألقى نظرة إلى من  
بداخلها.

كان المسؤول الإداري يكدح كالحمال. وكان العرق الماسي الفاتح يغمر وجهه السمين. وكان  
رنين الهاتف يزعجه كل دقيقة بعناد عربة الترام، التي كانت تقترب من سوق سمولنسك.

- نعم! - كان يصيح - نعم، نعم! في الثامنة والنصف! وعلق السماعة بقرقعة، ليمسك بها من  
جديد.

- نعم! مسرح كولومبوس! هذه أنت سجيلديا ماركوفنا؟ موجود، بالطبع موجود، مقصورة. وبوكا لن تحضر؟ لماذا؟ نزلة صدرية؟ ماذا تقولين؟ طيب، حسناً. إلى اللقاء سجيلديا ماركوفنا.

مسرح كولومبوس!!! لا! جميع بطاق الدخول الخاصة اليوم غير صالحة. وماذا يمكنني أن أفعل؟ لقد حضرها مجلس مدينة موسكو...

مسرح كولومبوس!!! كيف؟ ميخائيل غريغورييفتش؟ قولي لميخائيل غريغورييفتش أن الصف الثالث ينتظره في مسرح كولومبوس، ليلاً ونهاراً، مكانه بالقرب من الممر.

إلى جانب أستاذ كان رجل بوجه طافح يرغي ويزبد، وكان حاجباه يرتفعان وينزلان باستمرار.

- وما شأني أنا؟ - قال له المسؤول الإداري.

كان هذا خونتوف - ابن عصره، وكان يطلب تذكرة مجانية بكلام سريع متواضع.

- مستحيل - قال المسؤول الإداري - أنت تفهم - أمر مجلس مدينة موسكو.

- نعم - تتمم خونتوف - لكن فرع موسكو لرابطة لينينغراد للكتاب المسرحيين وملحني الأوبرا نسق هذا مع بافل فيودوروفيتش...

- لا يمكنني، لا يمكنني! التالي!

- عفواً، ياكوف مينيلاييفتش، ولكن وعدوني في فرع موسكو لرابطة لينينغراد للكتاب المسرحيين وملحني الأوبرا...

- حسناً، وماذا أفعل معك؟ لا، لن أعطيك! ما 11 تريد، أيها الرفيق؟

شعر خونتوف أن المدير الإداري قد ارتجف، فتمتم مرة أخرى:

- إفهم، ياكوف مينيلاييفتش، فرع موسكو لرابطة لينينغراد للكتاب المسرحيين وملحني الأوبرا...

لم يعد يحتمل المسؤول الإداري هذا. فلكل شيء حد. فكسر قلم الرصاص وأمسك بسماعة الهاتف، وعثر لخونتوف على مكان عند الثريا.

- بسرعة - صرخ مخاطباً أستاذ - توصيتك!

- أريد مكانين - قال أستاب بهدوء - في الصالة.

- لمن؟

- لي!

- ومن أنت حتى أعطيك مكانين؟

- مع ذلك، أعتقد أنك تعرفتي.

- لا أعرفك.

لكن نظرة الغريب كانت نقية، صافية، واضحة، لدرجة أن يد المسؤول الإداري ذاتها أعطت مقعدين لأستاب في الصف الحادي عشر.

- يأتي كثيرون متنوعون - قال المسؤول الإداري، وهو يهز كتفيه - ومن يعرفهم، من هم! ربما هو من مفوضية الشعب للثقافة؟ أظن أنني رأيته في مفوضية الشعب للثقافة. أين رأيته؟

ومع إصداره بطاقات دخول مجانية للناقدين المسرحيين والسينمائيين، تابع ياكوف مينيلايفتش بهدوء، محاولاً أن يتذكر، أين رأى هاتين العينين الصافيتين.

وعندما تم إعطاء جميع بطاقات الدخول المجانية، وتم تخفيض الإنارة في الردهة، تذكر ياكوف مينيلايفتش: لقد رأى هاتين العينين الصافيتين، وهذه النظرة الواثقة في سجن تاغانكا في عام 1922، عندما كان مسجوناً فيه هو أيضاً بسبب قضية تافهة.

كان يقع مسرح كولومبوس في قصر. لهذا لم تكن قاعة العرض فيه كبيرة، بينما الردهات كبيرة جداً بصورة غير متناسبة، وكانت غرفة التدخين تحت الدرج. وقد صُوِّر على السقف مشهد صيد أسطوري. كان المسرح شاباً، وكانت عروضه جريئة، طموحة. لدرجة أنه كان محروماً من الإعانات. كان هذا العام الثاني من عمره، وكان يعيش بصورة رئيسة، على جولاته المسرحية الصيفية.

من الصف الحادي عشر، حيث كان يجلس صاحب الامتياز سَمع صوت ضحك. أعجب أستاب بالافتتاحية الموسيقية التي أداها عازفو الأوركسترا على الزجاجات، وعلى أكياس إيسمارخ (أكواب الحُقن)، والساكسفونات، وطبول الأفواج الكبيرة. وصفرت الفلوت، وفُتح الستار الذي حمل الرطوبة.

ما أثار استغراب فوروبيانينوف، الذي اعتاد على الإخراج الكلاسيكي لمسرحية «الزواج»، أن بودكليوسين (بطل المسرحية الرئيس - م) لم يكن على خشبة المسرح. وبينما كان يبحث بعينه رأى هيبوليت ماتفييفتش مستطيلات خشبية رقيقة معلقة في السقف، مدهونة بالألوان الطيف الشمسي الرئيسة. لم يكن هناك أبواب ولا نوافذ. وتحت المستطيلات الملونة بألوان مختلفة كانت ترقص سيدات في قبعات كبيرة، مفصلة من ورق الكرتون الأسود. واستدعى طنين الزجاجات إلى خشبة المسرح بودكليوسين، الذي اصطدم بالحشد على ظهر ستيبان. كان بودكليوسين يرتدي زي الحجرة. وبعد أن فرق السيدات بكلمات لم تحدد في المسرحية، صرخ مغروراً: - ستيبان!

في الوقت نفسه، قفز جانباً وتجمد في وضعية صعبة. ورعدت أكواب الحقن.

- ستيبان! - كرر بودكليوسين، قافزاً قفزة أخرى.

ولكن بما أن ستيبان كان واقفاً ومرتدياً جلد النمر، لم يستجب، وسأله بودكليوسين بصوت مأساوي: - لماذا أنت صامت، مثل عصبة الأمم؟

- من الواضح، أنني خفت من تشمبرلن - أجاب ستيبان وهو يحك جلده.

كان ثمة شعور بأن ستيبان سيدفع بودكليوسين جانباً وسيغدو الشخصية الرئيسة للمسرحية «المحدثة».

- حسناً، وهل يخطط الخياط البدلية الرسمية (الفراك)؟

وثبة. ضربة بأكياس إيسمراخ (أكواب الحقن). وقف ستيبان بجهد كبير على يديه وأجاب وهو في هذا الوضع: - يخطط!

عزفت الأوركسترا خليطاً من لحن «سيو - سيو - سان Can - Cio - Cio». طيلة هذا الوقت كان ستيبان واقفاً على يديه. وتغطى وجهه بالاحمرار. سأله بودكليوسين: - ماذا، ألم يسألك الخياط، لماذا يحتاج السيد إلى هذا القماش الفاخر؟

خلال هذه الفترة كان ستيبان قد جلس في الأوركسترا، معانقاً المايسترو، فأجاب: - لا، لم يسأل. وهل هو نائب في البرلمان الانكليزي؟

- أو لم يسألك الخياط، ما إذا كان السيد يريد أن يتزوج؟

- الخياط سأل ما إذا كان السيد يريد أن يدفع النفقة.

بعد هذا انطفأت الأنوار، وبدأ الجمهور يخطب بأرجله. وبقي يخطب إلى أن سُمع من خشبة المسرح صوت بودكليوسين: – أيها المواطنون! لا تقلقوا! أطفأنا الأنوار عمداً، حسب مسار الحدث في المسرحية. وهذا ما يتطلبه الديكور المسرحي.

أذعن الجمهور. لكن الأنوار لم تُشعل حتى نهاية الفصل. دُقت الطبول في الظلام الدامس، وبالفوانيس مرت مفرزة من العسكر بلباس بوابي الفنادق. ثم، كما يبدو، وصل كوتشكارييف على ظهر جمل. كان من الممكن الحكم على هذا كله من الحوار التالي: – آه! كيف أخفتني! كما أنك وصلت على ظهر جمل!

– آه، لا حظت ذلك بالرغم من الظلام الدامس؟! كان بودي أن أقدم لك مفاجأة سارة!

خلال فترة الاستراحة قرأ صاحباً الامتياز الإعلان عن المسرحية:

## الزواج

نص المسرحية الأصلي: ن. ف. غوغل.

قصائد: الشاعر م. شرشليافاموف.

المونتاج الأدبي: ب. أنتيوخيسكي.

المصاحبة الموسيقية: خ. إيفانوف.

مؤلف المسرحية – نيك. سيوسترين.

تصميم الديكور – سيمبييفيتش – سيندييفيتش. سفيت. بلاتون – بلاشوك.

تصميم الأصوات – غالكين، بالكين، مالكين، تشالكين، زالكيند(أسماء خيالية – م.) مكياج – ورشة كرولت.

الشعر المستعار – فوما كوتشور.

الأثاث – مناشر فولتاسار لفورتنبراس في أوامسلوبوغاس.

مدرّب الأكروبات – جورجيت تيراسبول.

المكبس الهيدروليكي – بإدارة الكهربائي ميتشنيكوف.



تم تنضيد وترتيب وطباعة الإعلان في مدرسة كرولت للتدريب المهني.

– هل يعجبك؟ – سأل هيبوليت ماتفييفتش بخجل.

– وأنت؟

– مثير جداً للاهتمام. بيد أن ستيبان غريب هنا، نوعاً ما.

– أنا لم يعجبني – قال أستاب – خاصة أن الأثاث عندهم من صنع ورشات فوغوباس. ألم يكيّفوا كراسينا على الطراز الجديد؟

تبين أن هذه المخاوف لا أساس لها من الصحة. ففي بداية الفصل الثاني نقل الزنوج بقبعاتهم العالية الكراسي الأربعة إلى خشبة المسرح.

أثار مشهد الخطوبة الاهتمام الأكبر من صالة المشاهدين. ففي تلك الدقيقة التي بدأت فيها أغافيا تيخونوفا النزول على الشريط الممدود عبر قاعة المشاهدين كلها، أصدرت أوركسترا خ. إيفانوف ضجة كبيرة لدرجة أنه بسببها كان من المفروض أن تسقط أغافيا تيخونوفا على الجمهور. بيد أن أغافيا بقيت صامدة على خشبة المسرح بصورة رائعة. كانت ترتدي لباساً ضيقاً بلون جسدها وقبعة رجالية صلبة. وبتوازنها بمظلة خضراء كتّبت عليها «أريد بودكليوسين» صعدت على الشريط، ورأى الجميع من الأسفل قدميها المتسخين. وقفزت من الشريط مباشرة إلى الكرسي. في الوقت نفسه قام جميع الزنوج، وبودكليوسين، وكوتشكاريف في لباس الباليه، والخاطبة في بدلة سائق الترام بشقلمة معاكسة. ثم استراح الجميع خمس دقائق وأطفئت الأنوار لإخفاء شيء ما.

كان الخاطبان مضحكين للغاية، خاصة الخطيب يائتشنيتسا (لقبه، ويعني باللغة الروسية البيضة المقلية – م.). وبدلاً منه أحضروا بيضة مقلية في مقلاة. وكان على البحار سارية مع شراب. عبثاً كان التاجر ستاركوف (وتعني العجوز – م.) يصرخ بأن براءة الاختراع والتسوية تخنقانه. فهو لم يرق لأغافيا تيخونوفا. وتزوجت من ستيبان. شرعاً كلاهما بالتهام البيضة المقلية، التي قدمها لهما بودكليوسين الذي تحول إلى نادل، بشهية كبيرة. وغنّاً كوتشكاروف وفيكلا مقاطع غنائية عن تشمبرلن وعن النفقة التي يجمعها الوزير البريطاني تشمبرلن من ألمانيا. وعزفوا الخاتمة على أكياس إيسمارخ (أكواب الحقنة). وأغلق الستار ناشراً البرودة.

– أنا مسرور من المسرحية – قال أستاب – الكراسي في وضع سليم على ما يرام. ولكن لا داعٍ للتأجيل. فإذا ما كانت أغافيا تيخونوفا ستقفز عليها كل يوم، فلن تعيش الكراسي طويلاً.

كان الشباب بجاكيتاتهم الدارجة يتعمقون، متدافعين وضاحكين، في تفاصيل الديكور والتصميم الصوتي.

على الدرج كان يُسمع صوت خونتوف المتشامخ:

– نعم أنا أكتب أوبرا. قالوا لي في فرع موسكو لجمعية الكتاب المسرحيين وملحني الأوبرا في لينينغراد...

ولفترة طويلة كان الجمهور المتفرق يسمع صوت الطبل للكاتب المنسجم مع عصره: – وافق معي على أن فرع موسكو لجمعية الكتاب المسرحيين وملحني الأوبرا في لينينغراد...

– حسناً – قال أستاذ – كيسا، عليك أن تقول باي – باي (وداعاً، وداعاً). غداً منذ الصباح يجب أن تقف للحصول على تذكرتين. سيسافر المسرح في السابعة مساءً إلى مدينة نيجني بالقطار السريع. وبالتالي، عليك أن تشتري تذكرتين لمقعدين صلبين رخيصين إلى مدينة نيجني، بطريق سكة حديد كورسك. ليست مصيبة – سنجلس. فهي ليلة واحدة فقط.

في اليوم التالي كان مسرح كولومبوس بأكمله يجلس في بوفيه محطة كورسك. وكان سيمببيفتش – سندیفتش الذي اتخذ التدابير اللازمة من أجل أن يُنقل الديكور المسرحي على هذا القطار، يتناول وجبة خفيفة على الطاولة. كان يسأل الكهربائي بقلق، مبللاً شاربیه بالبيرة: – قل، ألا يكسرون المكبس الهيدروليكي على الطريق؟

– إنها مصيبة، مع هذا المكبس – إنه يعمل لدينا خمس دقائق، ونضطر إلى حمله ونقله طيلة الصيف.

– وبالنسبة لـ «كاشف الوقت» كان الأمر أسهل بالنسبة لك من مسرحية «مسحوق الإيديولوجيا»؟

– بالطبع، أسهل. كان الكاشف رغم أنه كان أكبر، لكنه لم يكن هشاً إلى هذه الدرجة.

على الطاولة المجاورة كانت تجلس أغافيا تيخونوفا، وهي فتاة شابة، بساقين ثابتتين ورائعتين، مثل قوائم البولنغ. وحولها كان يجلس فنيو التصميم الصوتي – غالكين، بالكين، مالكين، تشالكين، زالكيند. واشتكت قائلة: – أنتم بالأمس لم تصدروا الأصوات كما يجب، فهكذا قد أسقط.

ثار مصممو الأصوات:

– وما العمل، فقد انبجج كيسان!

– وهل يمكن الحصول على كيس أجنبي من نوع إيسمارخ – صاح غالكين.

– ادخل إلى مخزن الدولة للمنتجات الطبية. ليس كيس إيسمارخ، بل لا يمكنك شراء حتى ميزان حرارة – أيده بالكين.

– وأنتم ألا تعزفون على مقاييس الحرارة – قالت الفتاة مذعورة.

– نحن لا نعزف على مقاييس الحرارة – علّق زالكيند – ولكن بسبب هذه الأكياس اللعينة، يصيبك المرض بكل معنى الكلمة – فنضطر إلى قياس درجة الحرارة.

كان كاتب السيناريو والمخرج الرئيس نيك. سيوسترين يتنزه مع زوجته على رصيف المحطة. وشرب بودكليوسين مع كوتشكاريف ثلاثة أقداح لكل منهما وأخذا يتنافسان في مغازلة جورجيت تيراسبول.

كان صاحب الامتياز اللذان وصلا قبل ساعتين من مغادرة القطار قد قاما بالجولة الخامسة حول الحديقة الصغيرة المهدمة أمام المحطة.

كان هيبوليت ماتفييفتش يشعر بالدوران في رأسه. فقد دخلت مطاردة الكراسي مرحلة حاسمة. كانت الظلال الممدودة ملقاة على الرصيف الساخن. وكان الغبار يغطي الوجوه الرطبة المتعركة. كانت العربات تتدقق. وتفوح منها رائحة البنزين. وكانت سيارات الأجرة تنزل الركاب. وكان الحمالون يهبون للقائهم، فيحملون الحقائب وكانت شاراتهم البيضوية تلمع على أشعة الشمس. فقد أمسكت ملهمة الرحلات الطويلة الناس من أعناقهم.

– حسناً، فلنذهب نحن أيضاً.

وافق هيبوليت ماتفييفتش منصاعاً. وهنا التقى وجهاً لوجه بمعلم شؤون الدفن بيزنشوك.

– بيزنشوك! – قال مدهوشاً للغاية – كيف وصلت إلى هنا؟

رفع بيزنشوك قبعته وتجمد من الفرح. وصاح:

– السيد فوروبيانينوف! صاح قائلاً – الاحترام للضيف العزيز!

– حسناً، كيف أحوالك؟

– أحوالي سيئة – قال معلم شؤون التوابيت.

– ولم ذلك؟

– أبحث عن زبون. ولا يأتي أي زبون.

– هل شركة «حورية» تنافسك؟

– ومن أين لها أن تنافسني! لا توجد حالات وفاة. بعد وفاة حماتك، حدثت وفاة واحدة «بيير وكونستانتين».

– ماذا تقول؟ وهل مات حقاً؟

– مات، هيبوليت ماتفييفتش. توفي في مكان عمله. حَلَق للصيديلي ليوبولد ومات. يقال أنه أصيب بتمزق داخلي، وأنا أظن أن المتوفى استنشق من هذا الصيدلي دواء ولم يتحمل.

– آخ، آخ، آخ – ردد هيبوليت ماتفييفتش – خبر مؤسف. وهل دفنته أنت؟

– وأنا دفنته. وهل هناك من يدفنه غيري؟ وهل تضعه شركة «حورية» في أرجوحة؟ وتعطيه فرشاة؟

– إذن، تغلبت عليها؟

– تغلبت. ولكن ضربوني فيما بعد. كادوا أن يحطموا قلبي. الشرطة خلّصتني. بقيت يومين طريح الفراش. تداويت بالكحول.

– تدلّكت؟

– نحن لسنا بحاجة للتدليك.

– وما الذي أتى بك إلى هنا؟

– جلبت بضاعة؟

– أية بضاعة؟

– بضاعتي. ساعدني مرافق صديق في القطار على نقلها مجاناً في عربة البريد. من خلال معرفتي به.

لاحظ هيبوليت ماتفييفتش لتوه فقط أنه كانت هناك على مقربة من بيزنشوك على الأرض كومة من التوابيت. كان بعضها بالفراشي، وبعضها هكذا. تعرف هيبوليت ماتفييفتش على واحد منها بسرعة. كان تابوتاً كبيراً ومغبراً من خشب البلوط من معرض بيزنشوك.

– ثماني قطع – قال بيزنشوك مفتخراً – متشابهة تماماً، كحبات الخيار.

– ومن يحتاج إلى بضاعتك هنا؟ هنا يكفيهم معلوهم.

– والكريب؟

– أي كريب؟

– الوباء. قال لي بروسيس، أن الكريب يفتك بالناس في موسكو، وليس هناك ما يُدفن فيه الناس. نقلوا لي الأخشاب كلها. فقررت تحسين أحوالي.

تدخل أستاذ الذي سمع الحديث كله بفضول:

– اسمع، أنت أيها الأب، إن الكريب يفتك بالناس في باريس.

– في باريس؟

– نعم. اذهب إلى هناك. وهناك سوف تنشط وتستعيد شبابك! حقاً، هناك صعوبة في الحصول على الفيزا، ولكن، لا تحزن، أيها الأب. إذا ما أحبك بريان (أريستيد بريان – وزير خارجية فرنسا في العشرينيات – م.)، فستعيش حياة جيدة: ستحصل على وظيفة متعهد توابيت في بلدية باريس. أما هنا فلديهم ما يكفي من صانعي التوابيت.

نظر بيزنشوك من حوله باستغراب. حقاً، وبصرف النظر عن تأكيدات بروسيس، لم تكن الجثث مرمية في الشوارع، كان الناس واقفين على أرجلهم بنشاط، حتى أن بعضهم كان يضحك.

كان القطار قد حمل منذ وقت طويل صاحبي الامتياز ومسرح كولومبوس، وبقية الجمهور، بينما كان لا يزال بيزنشوك واقفاً، مذهولاً فوق توابيته. ومع حلول الظلام، اشتعلت عيناه بنار صفراء لا تنطفئ.

**الجزء الثالث**

کنز مدام بیتوخوفا

## الفصل الثالث والثلاثون ليلة ساحرة على نهر الفولغا

إلى اليسار من أرصفة الركاب العائمة لشركة البواخر الحكومية النهرية على نهر الفولغا، وتحت العبارة المكتوبة: «الرسو بعد الدوايب، حافظ على الحاجز المشبك، لا تلمس الجدران»، كان يقف المحتال الكبير مع صديقه ومساعدته المقرب كيسا فوروبيانينوف.

أخافت نداءات السفن الأليمة المشير. وقد أصبح في الفترة الأخيرة جباناً خائفاً كالأرنب. فالليلة التي أمضاها دون نوم في العربة ذات المقاعد القاسية للقطار البريدي موسكو - نيجني نوفغورود، تركت على وجه هيبوليت ماتفييفتش ظلالاً، وبقعاً، وتجاعيد مغبرة.

كانت الأعلام ترفرف على الأرصفة. وكان ينطلق الدخان المجعد مثل زهرة القنبيط من الأنابيب البخارية. كان يجري تحميل الباخرة «أنطون روبنشتين» الواقفة على الرصيف رقم 2. وكان الحمالون يغرسون مخالب حديدية في بالات القطن، وقد صفت على الرصيف أواني من الحديد الزهر على شكل مربعات، وسطحت على أرض الرصيف الجلود المملحة المبللة، وربطت الأسلاك وصناديق محملة بألواح الزجاج، وكرات خيوط الربط المجدولة، وأحجار الرحي، وآلات زراعية عظمية بلونين، ومذاري خشبية، ووسائل مبطنة بالخيش من الكرز الطازج، وبراميل الرنكة. وعند الرصيف رقم 4 كانت تقف باخرة «كومونة باريس» بمحركات الديزل. وبحسب الجدول كان من المفروض أن تُقلع إلى أسفل النهر في الساعة السادسة مساءً، ولكن حتى الآن في الساعة الحادية عشرة لا يزال يتجول الركاب الواصلون صباحاً من موسكو على السطوح البيضاء المرتبة للباخرة. لكن الباخرة «سكريابين» لم تكن موجودة. وهذا ما سبب قلق هيبوليت ماتفييفتش الشديد.

– ولماذا تقلق – سأله أستاذ – تصور أن باخرة «سكريابين» هنا. وكيف تصعد إليها؟ وحتى إذا كانت لديك نقود لشراء تذكرة فلن تفلح. لأن هذه الباخرة لا تأخذ ركاباً.

كان أستاذ قد تحدث منذ أن كان في القطار مع الكهربائي ميتشنيكوف، رئيس المكبس الهيدروليكي، وعلم منه كل شيء. إن باخرة «سكريابين» المستأجرة من قبل مفوضية الشعب، كان من المفترض أن تقوم برحلة من نيجني إلى تساريتسين، متوقفة عند كل محطة، ومنفذة عمليات السحب على القرض الفائز. ومن أجل هذا الغرض وصلت من موسكو مؤسسة كاملة: لجنة السحب، الديوان، الفرقة النحاسية، المصور السينمائي، مراسلو الصحف المركزية ومسرح كولومبوس. وكان على المسرح أن يعرض على الطريق في الباخرة مسرحيات تنشر في أوساط الشعب فكرة القروض الحكومية. وحتى ستالينغراد كان المسرح حائزاً على الرضا الكامل من جانب لجنة السحب، ومن بعدها كان ينوي على مسؤوليته الخاصة القيام بجولة مسرحية كبيرة في القوقاز والقرم وعرض مسرحية «الزواج».

تأخرت الباخرة «سكريابين»، ووعدوا بأنها ستأتي من المرفأ، حيث تم إجراء الاستعدادات الأخيرة، بحلول المساء. ولهذا فإن الجهاز بكامله الذي وصل من موسكو، رثب بانتظار التحميل معسكراً على الرصيف.

كانت النساء، الكائنات الناعمة يجلسن مع حقائبهن والأغطية الواقية لملابسهن على ربطات الأسلاك، يحرسن مجموعاتهن الموسيقية، وينظرن بقلق إلى الخطافات والمشابك. وجلس مواطن على حجر الرحي بلحية امبراطورية حمراء. وكانت توجد على ركبتيه مجموعة من الألواح الصغيرة المطلية بالمينا. وعلى اللوح الأعلى كان يمكن للفضولي أن يقرأ:

### قسم الحسابات المتبادلة

كانت تقف طاولات كتابة على ركائز، وطاولات أخرى متواضعة فوق بعضها بعضاً. وكان حارس يتجول أمام خزانة مختومة مقاومة للحريق.

كان مراسل وكالة تاس قد ابتعد إلى حافة الرصيف، مدلياً ساقيه على البحر ويصطاد السمك. لم تأت السمكة وشخر المراسل بحزن، بعد أن غيّر الطعم. أما برسيتسكي ممثل صحيفة «ستانوك» (الماكينه) فكان ينظر في منظر سيز الذي يكبر ثماني مرات إلى أرض المعرض، ثم مشى، وعلم أنه بقيت خمس ساعات كاملة على وصول باخرة «سكريابين»، وصعد على مصعد الكرملين إلى المدينة. فخلال وقت الفراغ المتبقي يمكن لجميع الكثير من المواد - تقديم مقالة موجزة عن المدينة، عن مخبر بونتش - برويفيتش الإذاعي، عن عواقب الفيضان.

تحت مظلة المكبس الهيدروليكي، جلست أغافيا تيخونوفا على كرسي فوروبيانينوف وكانت تناغش عازف البالالاكا (آلة وترية روسية - م.) الموهوب، وهو شاب أنيق أوروبي الهيئة. كان العازف يشعر بنفسه بصورة رائعة في بيئة مألوفة. فجلس برشاقة على أحد كراسي فوروبيانينوف، دون الالتفات أبداً إلى أن غالكين وبالكين ومالكين وشالكين وزالكين الخمسة، اضطروا للاكتفاء بكرسيين.

كان صاحب الامتياز يتجولان حول الكراسي مثل أبناء آوى. وكان أستاذ مزعوجاً بصورة خاصة من عازف البالالاكا الموهوب.

- من هذا العصفور - همس أستاذ لهيبوليت ماتفييفتش - كل حمار يجلس على كراسيك. كل هذا ثمار تكالبك المبتذل.

- لماذا تضايقني؟ - تذمر فوروبيانينوف - حتى أنني لا أعرف ماذا تعني هذه الكلمة «تكالب».



– عبثاً – «تكالِب» تعني ملاحقة الفتيات الجميلات بنوايا خبيثة. إنكارك بلا أمل. ليذا حدثتني عن كل شيء. موسكو كلها تفقع من الضحك. الجميع يعرف بقصة تكالبك.

كان الشريكان يتشاجران وهما يدوران حول الكراسي.

وكان غالكين، وبالكين، ومالكين، وتشالكين، وزالكيند يتنبؤون بالمستقبل. لم يكن مالكين يثق بالنوعية الجيدة لعشاء السحب. وقال:

– كان من الضروري الإشارة في العقد إلى عدد الأطباق والسعرات الحرارية. وكقاعدة، يجب أن نكون مكافئين لعمال المعادن – ما لا يقل عن أربعة آلاف سعرة حرورية على الغداء.

أما غالكين ومالكين فكانا ينظران بنظرتين أكثر تفاؤلاً. وقالا:

– بالمقابل، هنا الكافيار والأسماك رخيصة.

– والهواء النقي – صاح تشالكين – هنا هواء البحر!

– لا سيما – قال زالكيند النحيف مثل السوط – مع هذا الهواء يود المرء أن يأكل باستمرار.

– حتى تساريتسين لن نجوع. سوف يطعموننا.

– وماذا سيحدث في القوقاز؟ إذا كان سيوسترين قد حصل حتى الآن لنفسه على عشرين درجة.

– ولنا – درجة ونصف لكل واحد. هذا إذا لم تفشل المسرحية...

– نعم. سنكسب خمسة عشر كوبيكاً في اليوم.

دعا عازف البلايكا الموهوب أغافيا تيخونوفا للغداء في باخرة «كومونة باريس»، الواقفة على الرصيف رقم 4.

– وهل يسمحون لنا بالدخول؟

– بالطبع، سيسمحون. في موانئ الوقوف المطبخ يعيش على هذا. هنا يحضرون طعاماً جيداً جداً ورخيصاً للغداء.

تنهدت جماعة التصميم الضوئي واندفعت نحو حانة «الطوافة». فانتعش صاحب الامتياز.

– ربما علينا أن نخاطر وننتهز الفرصة؟ – قال فجأة أستاذ، مقترباً بصورة لا إرادية من الكراسي. أنت – اثنين، وأنا – اثنين، وننطلق! سيكون جيداً جداً، اللعنة على الشيطان!

نظر من حوله. كان من الضروري الجري على طول الجسر وحتى شارع روجديستفينسكايا، المكتظ بالعربات. ولم يكن من السهل شق الطريق عبر حشد الحمّالين. علاوة على ذلك، كان بودكليوسين وكوتشكاريف يسيران على مقربة. وهما بالطبع، سيثيران عويلاً رهيباً، عندما يلاحظان سرقة الأثاث، المصنوع كما يُزعم، في ورشة عمل فولتاسار في فورت إن براس. انكمش أستاذ وتعكر مزاجه.

– علينا السفر! ولكن كيف؟ في الحالة القصوى كان من الممكن الصعود إلى باخرة «كومونة باريس» والوصول إلى تساريتسين وانتظار الفرقة هناك. لكن المال، المال! آه، يا كيسا، فليأخذك الشيطان! هل أدركت الآن شناعتك؟

قرر الشريكان الجلوس على الكراسي على الأقل. كانا ينطّان على النوابض، وينتقلان من كرسي لآخر. بدأ هيبوليت ماتفييفتش يتململ.

– يا لسخرية القدر! – قال أستاذ – شرطيان بائسان! ألم تتحسس شيئاً حتى الآن؟

اقترب بودكليوسين وكوتشكاريف من مراسل المكتب ووجها رأسيهما تجاه صاحبي الامتياز، واستعلما، من هما هذان اللذان تجرأ على الجلوس على الديكور المسرحي.

– الآن سيطردوننا – استنتج أستاذ.

اقترب الحارس من الشريكين:

– أنتما، أيها الرفيقان، من أي قسم؟

– من قسم الحسابات المتبادلة – قال أستاذ، دقيق الملاحظة.

لكن هذا لم يحل المشكلة. غادر المراسل وعاد على الفور مع الرفيق لودفيغ. طرد الرفيق لودفيغ صاحبا الامتياز عن الكراسي. ركض الصديقان على الرصيف الذي بدأت تقترب منه باخرة «سكريبين»، وهي تدور بعكس التيار. وحملت إلى سطحها الدروع الخشبية الرقيقة مع الصور القزحية للسندات العملاقة. زارت الباخرة، مقلدة صرخة الماموث، وربما حيوان آخر، كان يحل محل صفارة الباخرة في عصور ما قبل التاريخ.

انتعش المعسكر المالي – المسرحي. وركض موظفو السحب على منحدرات المدينة. وفي غيمة الغبار انحدر إلى الباخرة البدين بلاتون بلاشوك. وخرج من حانة «الطوافة» ركضاً

غالكين، وبالكين، ومالكين، وتشالكين، وزالكين. وبدأ حمالو المرفأ بالعمل على حمل الصندوق المقاوم للحريق. وركضت مدرسة الألعاب البهلوانية جورجيتا تيراسبول على السقالة. وكان سيمبييفتش – سيندييفتش يمد يديه إلى مرتفعات الكرملين تارة وإلى القبطان الواقف على الجسر تارة أخرى، من أجل الحفاظ على الديكور المسرحي. وحمل المصور السينمائي جهاز تصويره عالياً فوق رؤوس الحشد، وهو يطالب أثناء سيره بتخصيص مقصورة بأربعة أماكن لتنظيم مخبر فيها.

في هذا الركام العام شق هيوليت ماتفييفتش طريقه إلى الكراسي، ونظراً لأنه كان خارجاً عن طوره، سحب كرسيّاً إلى الجانب.

– اترك الكرسي – صرخ بندر – ماذا بك، هل جُننت؟ سنأخذ كرسيّاً واحداً، وسنفقد بقية الكراسي إلى الأبد. من الأفضل لك أن تفكر، كيف نركب في الباخرة.

اجتاز الموسيقيون المتمنطقون بالأبواق المعدنية الرصيف العائم. وكانوا ينظرون باشمئزاز إلى الساكسفونات والفليكسوتونات، وزجاجات البيرة، وأكياس إيسمارخ (أكياس الماء البلاستيكية أو الأكواب الزجاجية المستعملة للحقن، وهنا تستعمل كمصدر للموسيقا – م.) التي تقوم بالتسجيل الصوتي.

– عصابة كلاسترا! – قال الكلارينيت مقارناً نفسه مع الخمسة الأقوياء.

لم يجيبوا بشيء غالكين، وبالكين، ومالكين، وتشالكين، وزالكين، لكنهم أخفوا الانتقام في صدورهم.

تم نقل دواليب السحب على مقطورة فورد. وهي تصميم يتألف من ست دواليب – أسطوانات تدور، ومغطى بالنحاس والزجاج. وقد استغرق تثبيته على السطح السفلي من الباخرة وقتاً طويلاً.

واستمر الدوس والشجار حتى وقت متأخر من المساء.

انقض العاملون في مسرح كولومبوس، المستأؤون من إنزالهم في أماكن الدرجة الثانية انقضاضاً كبيراً على مؤلف المسرحية ومخرجها نيك. سيوسترين.

– حسناً، وهل هناك ما يستحق القلق – تتمم نيك. سيوسترين – مقصورات رائعة يا رفاق. أنا أعتبر كل شيء جيد.

– أنت هكذا تعتبر – صرخ غالكين غاضباً – لأنك نفسك نزلت في مقصورة الدرجة الأولى!

– غالكين! – قال المخرج متوعداً.

– ماذا، غالكين؟

– لقد بدأت تتفسخ!

– أنا؟ وماذا بالنسبة لبالكين؟ ومالكين؟ وتشالكين؟ وزالكين؟ ألن يقولوا لك الشيء نفسه؟ وأخيراً، أين سنجري البروفات؟

وطلب الخمسة بالإجماع بصوت واحد مقصورة خاصة للتدريب، وبالمناسبة، قليلاً من النقود مقدماً.

– اذهبوا إلى الجحيم! – صاح نيك. سيوسترين – في مثل هذه اللحظة يضايقوننا بمطالبهم!

وبدون أن يشرح أية لحظة، انحنى على ظهر الباخرة ونادى:

– سيمبييفتش! سيندييفتش! سيمبييفتش! مورا! هل رأيت سيمبييفتش – سيندييفتش؟

تم إعداد منصة مسرح في غرفة سحب اليانصيب، وألصقوا على الجدران الرسوم والملصقات والشعارات، ووضعوا مقاعد خشبية للزوار ووصلوا الأسلاك الكهربائية بدواليب السحب. وضعوا مكاتب في المؤخرة، ومن مقصورات ضاربات الآلة الكاتبة سُمع مع الضحك ضرب الآلات الكاتبة. وكان رجل شاحب بلحية صغيرة أرجوانية يسير في جميع أنحاء الباخرة ويعلق على الأبواب المناسبة لوحاته المطلية بالميناء:

قسم الحسابات المتبادلة

مكتب شخصي

الديوان العام

قسم الآلات الكاتبة

إلى جانب اللوحات الكبيرة علق الرجل ذو اللحية الأرجوانية لوحات أصغر:

ممنوع الدخول لمن ليس لديه عمل

ممنوع دخول الأشخاص الغرباء

جميع الاستعلامات في قلم التسجيل

تم تجهيز صالون الدرجة الأولى بمعرض الأوراق والسندات النقدية. وهذا ما أثار موجة من السخط لدى غالكين، وبالكين، ومالكين، وتشالكين، وزالكين. فقالوا قلقين:

– وأين سنتناول نحن طعام الغداء؟ وإذا ما أمطرت؟

– أوه! – قال نيك سيوسترين لمساعدته – لا يمكنني تحمّلهم! ما رأيك، سريوجا، هل نستطيع الاستغناء عن التسجيل الصوتي؟

– ماذا بك، نيقولاي كونستانتينوفيتش، لقد اعتاد عليه الفنانون.

هنا سُمع صخب جديد. فقد شعر الخمسة، فنيو التصميم الصوتي، أن مؤلف المسرحية سحب الكراسي الأربعة إلى مقصورته.

– هكذا، هكذا – قال الخمسة بسخرية – وعليّنا نحن أن نجري البروفات جالسين على أسرتنا، وسوف يجلس على الكراسي الأربعة نيقولاي كونستانتينوفيتش مع زوجته غوستا، التي ليست لها أية علاقة بفرقتنا. ربما نحن أيضاً، نريد أن تكون زوجاتنا معنا في الرحلة!

من الشاطئ، كان ينظر المحتال الكبير بحقد إلى باخرة سحب اليانصيب.

وصل إلى آذان صاحبي الامتياز انفجار جديد من النداءات.

– لماذا لم تخبرني مسبقاً – صرخ عضو اللجنة.

– من أين لي أن أعرف أنه سيمرض.

– الشيطان وحده يعرف ما هذا! إذن اذهب بسرعة إلى نقابة الفنانين واطلب أن يرسلوا لنا رساماً على عجل.

– إلى أين سأذهب؟ الساعة الآن السادسة مساءً. النقابة مغلقة منذ زمن. كما أن الباخرة ستغادر بعد نصف ساعة.

– في هذه الحالة، نحن سوف نرسم. طالما أخذت على عاتقك مسؤولية تزيين الباخرة، اسمح بمعالجة الموضوع، كما تريد.

بدأ أستاذ يركض على طول الجسر الخشبي، دافعاً بكوعيه الحمالين والسيدات، والفضوليين. أوقفوه عند المدخل:

– التصريح بالدخول!

– يا رفيق! – صرخ بندر – أنت! أنت! البدين! الذي يحتاج إلى رسام!

بعد خمس دقائق، كان المحتال الكبير يجلس في المقصورة البيضاء لمدير سحب اليانصيب العائم، ويتفق معه على شروط العمل.

– إذن، أيها الرفيق – قال البدين – المطلوب منك هو الآتي: تنفيذ الملصقات والرسوم والكتابات الفنية وإنهاء اللافتة. كان رسامنا قد بدأ برسمها لكنه مرض. تركناه هنا في المستشفى. وبالطبع الإشراف العام على القسم الفني. هل يمكنك أن تأخذ هذا كله على عاتقك؟ وأنا أحذرك – العمل كثير.

– نعم، يمكنني أخذ هذا كله على عاتقي. سبق أن قمت بمثل هذا العمل.

– وهل يمكنك أن تسافر معنا الآن؟

– سيكون الأمر صعباً بعض الشيء، لكنني سأبذل جهدي.

وسقط جبل كبير ثقيل من على كتفي مدير سحب اليانصيب على الباخرة. ولأنه كان يعاني من سهولة في التعامل للأطفال، كان ينظر البدين إلى الرسام الجديد نظرة مشعة مشرقة.

– شروطك للعمل – سأل أستاذ بجراًة – لا تنس أنني لست شركة دفن.

– الشروط على أساس القطعة المنجزة. حسب تسعيرة نقابة الفنانين.

صعر أستاذ خده، وهذا ما كلفه جهداً كبيراً.

– علاوة على ذلك، مائدة مجانية – أضاف الرجل البدين على عجل – ومقصورة مستقلة.

– في أي درجة؟

– في الدرجة الثانية. ومن الممكن في الدرجة الأولى. سأرتب لك هذا.

– وماذا عن أجور رحلة العودة؟

- على نفقتك الخاصة. ليست لدينا سلفة.

- حسناً - قال أستاذ متنهداً - أنا موافق. ولكن معي صبي، مساعدتي.

- لا أعرف شيئاً عن الصبي. لا تصرف سلفة على الصبي. على نفقتك الخاصة - من فضلك. ولينزل في مقصورتك.

- حسناً، فليكن كما تريد. الصبي عندي ذكي. اعتاد على البيئة الإسبانية. وهل ستطعمونه؟

- فليذهب إلى المطبخ. وهناك سنرى.

حصل أستاذ على تصريح بالدخول له وللصبي الذكي، ووضع في جيبه مفتاح المقصورة وخرج إلى سطح الباخرة الحار. كان يشعر بارتياح كبير عند ملامسته للمفتاح. فقد كانت هذه المرة الأولى في حياته العاصفة. أصبح لديه مفتاح وشقة. ولكن لم يكن لديه مال. لكن المال كان موجوداً، على مقربة منه، في الكراسي. تمشى المخادع الكبير على طول سطح الباخرة، دون أن يلاحظ فوريويانيونف الذي بقي على الشاطئ.

في البداية كان هيبوليت ماتفييفتش يرسل إشارات وهو صامت، ثم تجرأ حتى على الصرير والطنين. لكن بندر كان كالأصم. فقد كان يتابع بانتباه عملية إنزال المكبس الهيدروليكي في عنبر الباخرة، مديراً ظهره لرئيس الامتياز.

تم إجراء الاستعدادات الأخيرة للإبحار. كانت أغافيا تيخونوفا، وهي مورا في المسرحية، تنقر بقدميها، راکضة من مقصورتها إلى مؤخرة الباخرة، وناظرة إلى المياه، وهي تشارك عازف البالاياكا الموهوب مسرتها، وبهذا كله كانت تدخل الارتباك إلى صفوف رجالات مؤسسة سحب اليانصيب المحترمين.

أطلقت الباخرة الصافرة الثانية. وتحركت الغيوم من الأصوات المخيفة. تحولت الشمس إلى لون أرجواني وسقطت في الأفق. وأشعلت المصابيح والفوانيس في المدينة العليا. ووصلت من السوق في وادي بوتشايف أصوات مكبرات الصوت المتنافسة أمام آخر المشترين. كان هيبوليت ماتفييفتش المذهول والوحيد يطلق الصرخات، ولكن لم يكن هناك من يسمعه. فقعقة الروافع كانت تغطي على جميع الأصوات الأخرى.

كان أستاذ بندر يحب التأثيرات القوية. وقبيل الصافرة الثالثة بهنيهة، عندما لم يعد هناك أي شك لدى هيبوليت ماتفييفتش بأنه أصبح تحت رحمة القدر، لاحظ أستاذ وخاطبه قائلاً:

– ماذا بك واقفاً مثل الخطيب الخجول؟ كنت أظن أنك على متن الباخرة منذ مدة طويلة.  
الآن سيرفعون الجسر العائم. اركض بسرعة! اسمحوا لهذا المواطن بالمرور! وهذا هو  
تصريح الدخول.

ركض هيبوليت ماتفييفتش وهو يكاد يبكي نحو الباخرة.

– هل هذا هو صبيك؟ – سأل مدير سحب اليانصيب بشك.

– صبي – قال أستاذ – وهل هو سيئ؟ من يقل عنه أنه فتاة فليرمني بحجر!

ابتعد البدين مكتئباً.

– حسناً، يا كيسا – قال أستاذ – عليك منذ الصباح أن تباشر العمل. آمل، أنك ستتمكن من  
تذويب الدهانات. ثم عليك أن تحفظ: أنا – رسام، تخرجت من الورشات الفنية التقنية  
العليا، وأنت – مساعدتي. إذا كنت تظن غير ذلك، فاركض عائداً بسرعة إلى الشاطئ.

اندلعت رغوة سوداء – خضراء من أسفل مؤخرة الباخرة. ارتجفت الباخرة، وطرطشت  
الصنوج، وعزفت الآلات الموسيقية الفلوت، والكورنيت، والترومبون، والباص مارشاً رائعاً،  
وتحولت المدينة وانتقلت، وابتعدت إلى الضفة اليسرى. وسارت الباخرة مع التيار، متابعة  
ارتجافها، وركضت بسرعة نحو الظلام. في الخلف كانت تتمايل النجوم، والمصابيح،  
وإشارات المرفأ الملونة. وبعد دقيقة ابتعدت الباخرة عن الشاطئ لدرجة أن أنوار المدينة  
أخذت تبدو مثل مسحوق الألعاب النارية الجامد.

كان لا يزال يُسمع قرع الآلات الكاتبة العاملة، لكن الطبيعة ونهر الفولغا سيطرا على كل  
شيء. أحاط النعيم بجميع ركب باخرة «سكرابين». وكان أعضاء لجنة سحب اليانصيب  
يشربون الشاي بهدوء. ساد اللطف والرقّة في الاجتماع الأول للجنة المحلية الذي انعقد في  
مقدمة الباخرة. كانت الأمسية الدافئة تتنفس بصوت عال، والماء يغازل الضفتين بلطف،  
وتطير خطوط الضفتين المظلمة بسرعة من على جانبي الباخرة، حتى أن رئيس اللجنة  
المحلية، وهو رجل إيجابي للغاية، عندما فتح فمه ليلقي خطاباً حول ظروف العمل في  
بيئة غير عادية، وجد نفسه يغني بصورة لم يتوقعها هو نفسه:

أبحرت الباخرة في الفولغا

نهر الفولغا – الأم...

وكرر بقية المشاركين الصارمين في الاجتماع لازمة الأغنية:



الليلك يزهر...

ولم يتخذ أي قرار بشأن تقرير رئيس اللجنة المحلية. سُمعت أصوات البيانو. واستخرج قائد المرافقة الموسيقية من البيانو أرق الألحان الغنائية. وغازل عازف البالايكا الموهوب الراقصة مورتشكا(مورا)، وعندما لم يجد كلماته الخاصة للتعبير عن حبه، ردد كلمات الأغنية الرومانسية:

– لا ترحلي، فقبلتك حارة، وأنا لم أرتوي من مداعبتك العاطفية ومغازلتك. لم تستيقظ الغيوم في وديان الجبال، ولم تنطفئ في السماء النجمة اللؤلؤية...

كان سيمبييفتش – سيندييفتش يتأمل اللجة السماوية، متشبثاً بالدرازين. وبالمقارنة معها كان يبدو له الديكور المادي لمسرحية «الزواج» قذارة تثير الاشمئزاز. نظر بتقزز إلى يديه اللتين تشاركان مشاركة فعالة في ديكور الكوميديا الكلاسيكية.

وفي أشد لحظات الوجد انكبّ غالكين وبالكين ومالكين وتشالكين وزالكين الموجودون في مؤخرة الباخرة على أدواتهم الصيدلانية ومستلزمات البيرة. كانوا يجرون البروفة. وتبدد السراب على الفور. تضاءلت أغافيا تيخونوفا، ودون الالتفات إلى عازف البالايكا الموهوب، ذهبت إلى النوم. دوى من جديد في نفوس أعضاء اللجنة المحلية الاتفاق العام، وشرعوا بإعداد القرار. وبعد تأمل ناضج توصل سيمبييفتش – سيندييفتش إلى نتيجة مفادها، أن ديكور «الزواج» ليس سيئاً لهذه الدرجة. ودعا صوت غاضب من الظلام جورجيت تيراسبول إلى الاجتماع مع المخرج. كانت الكلاب تنبح في القرى. أصبح الجو منعشاً.

في مقصورة الدرجة الأولى كان أستاذ مستلقياً على الأريكة الجلدية، متأملاً طوق النجاة الفليني، المغطى بقماش أخضر، يحقق مع هيبوليت ماتفييفتش:

– هل تتقن الرسم؟ مع الأسف الشديد، أنا أيضاً لا أتقن الرسم.

وفكر ثم تابع أسئلته:

– والأحرف – ألا تتقن رسمها؟ لا يمكنك أيضاً؟ منتهى السوء! في حين أننا رسامون! حسناً، يمكننا أن نلف وندور يومين، وبعدها سيطردوننا. وخلال هذين اليومين، علينا أن نفعل كل ما يلزمنا. الوضع أصبح صعباً بعض الشيء. وقد علمت أن الكراسي موجودة في مقصورة المخرج. لكن هذا أيضاً، في نهاية الأمر، ليس كارثة. المهم أننا على ظهر الباخرة. وريثما يطردوننا، علينا أن نفحص جميع الكراسي. اليوم أصبح الوقت متأخراً جداً. والمخرج ينام في مقصورته.

## الفصل الرابع والثلاثون الزوج المشبوه

في صباح اليوم التالي، كان المعلق برسييتسكي أول من ظهر على سطح الباخرة. فقد تمكن من أخذ دوش، وتكريس عشر دقائق لتمارين الجمباز.

كان الناس لا يزالون نائمين، لكن النهر كان نشيطاً، كما في ساعات النهار. كانت تسير في النهر الطوافات - حقول ضخمة من جذوع الأشجار وعليها أكواخ صغيرة. كان هناك لنش شحن صغير عفريت، كُتب اسمه بشكل مائل على غطاء دواليبه «أمير العواصف» - يجر خلفه ثلاث بوارج نفطية مترابطة على شكل صف واحد. كان يركض من الأسفل زورق البريد «لاتفيا الحمراء». تجاوزت باخرة «سكريبين» قافلة التجريف، وبقياسها للعمق بعمود مخطط بدأت تدور على شكل قوس، منعطفة بعكس التيار.

استند برسييتسكي إلى المنظار وأخذ ينظر إلى الرصيف النهري. قرأ على اللافتة اسم المحطة «بارمينو».

بدأوا بالاستيقاظ على ظهر الباخرة. وعلى رصيف محطة «بارمينو» رُمي وزن مربوط بالخيوط. وعلى هذا الخيط شد عمال المحطة الطرف السميكة من حبل الرسو. دارت البراغي في الاتجاه المعاكس. تغطى نصف النهر بالرغوة المتحركة. ارتجفت الباخرة «سكريبين» من الضربات الحادة للولب ومالت بجانبها كله إلى الرصيف العائم. كان الوقت لا يزال مبكراً. لهذا قرروا بدء يانصيب السحب في الساعة العاشرة.

بدأت الخدمة على ظهر الباخرة «سكريبين»، كما على اليابسة، في التاسعة تماماً. ولم يغير أحد عاداته. فمن كان يتأخر على الخدمة في اليابسة كان يتأخر هنا أيضاً، رغم أنه كان ينام في الدائرة نفسها. اعتاد موظفو مفوضية الشعب للشؤون المالية الجوالون بسرعة على نمط الحياة. وكان السعاة يكنسون الحجرات باللامبالاة نفسها التي كانوا يكنسون فيها المكاتب في موسكو. وكانت عاملات النظافة يوزعن الشاي، ويركضن بالأوراق من مكتب التسجيل إلى مكتب الذاتية، دون أن يستغربن وجود مكتب الذاتية الشخصي في مؤخرة الباخرة ومكتب التسجيل في المقدمة. ومن مقصورة الحسابات التبادلية سُمع صوت قرع الحواسب وصرير الآلات الحاسبة الميكانيكية. وتم توبيخ شخص ما أمام مقصورة القبطان. كان المحتال الكبير يسير، حارقاً قدميه العاريتين بسطح الباخرة، حول شريط ضيق من القماش القطني الأحمر، وهو يرسم عليه الشعار مع النص الذي كان يفحصه كل دقيقة من ورقة بيده:

«الجميع - إلى السحب! على كل كادح أن يحمل في جيبه سنداً من القرض الحكومي».

كان المحتال الكبير يبذل كل جهده، لكن انعدام المهارات عنده كان يظهر أثره واضحاً. فالكتابة نزلت إلى الأسفل، وأتلف قسم من القماش القطني الأحمر نهائياً. وعندها قلب أستاذ بمساعدة الصبي كيساً الشريط القماشي إلى وجهه الثاني، وشرع يرسم من جديد. وقد أصبح الآن أكثر حذراً. وقبل أن يرسم الأحرف بالدهان رسم بحبل خطين متوازيين، موبخاً بهدوء فوروبيانينوف، وشرع يرسم الكلمات.

كان هيبوليت ماتفييفتش ينفذ بضمير حي واجبات الصبي. كان يركض إلى الطابق السفلي من أجل جلب الماء الساخن، ويذيب الغراء، ويسكب، عاطساً، الدهانات في الدلو وينظر بطاقة إلى عيني الرسام. حمل صاحباً الامتياز الشعار الجاهز والمجفف إلى الأسفل وثبته على ظهر الباخرة. (خمسـة مقاطع اعتباراً من هنا حذفها الرقيب السوفييتي – م.)

مرّ القبطان، وهو رجل هادئ بشاريين زابوروجيين (من سكان مدينة زابوروجيي – م.) متدليين، فتوقف وهز رأسه وقال:

– هذا العمل غير مقبول. ولماذا دق المسامير على الدرابزين. وبأية أموال سنقوم بإصلاح الباخرة من بعدكم؟

كان القبطان مغموماً. فلم يسبق أن علقت على باخرته مثل هذه اللوحات «لا تدخل إن لم يكن لديك عمل» و«لا نستقبل أحداً»، ولم توضع سابقاً أبداً الآلات الكاتبة على ظهر السفينة، ولم يُعزف أبداً على أكياس إيسمارخ (أكواب الحقن)، فمظهرها وحده كان يضع القبطان الخجول في حالة السخط البارد.

خرج من الحجرة المصور السينمائي النعس بولكان. وبقي فترة طويلة يثبت جهازه، وكان ينظر إلى الأفق، مديراً ظهره للحشد الذي اجتمع عند الرصيف، ومد لنفسه مكتباً شخصياً لمسافة عشرة أمتار بدءاً من مكتب المدير. ومن أجل جعل المظهر طبيعياً للغاية، حاول المدير أن يتمشى بصورة عفوية أمام جهاز التصوير، لكن بولكان عارض هذا:

– أنت، يا رفيق، لا تتجاوز الإطار. قف مكانك، ولا تحرك الإطار بيدك من فضلك.

وضع المدير يديه على صدره، وبمثل هذه الوضعية التذكارية تم تصويره. بعد هذا انصرف بولكان إلى مخبره.

ركض البدين، الذي استأجر أستاذ إلى الضفة، ومن هناك أخذ ينظر إلى عمل الرسام الجديد. كانت أحرف الشعار مختلفة السماكة ومائلة قليلاً إلى الجانب. فكر البدين بأن الفنان الجديد، رغم ثقته بنفسه، كان من الممكن أن يبذل مزيداً من الجهد، ولكن لم يكن هناك من مخرج، واضطر إلى قبوله. (نهاية المحذوف من الرقيب السوفييتي – م.)

نزلت الفرقة النحاسية إلى الشاطئ وأخذت تعزف مارشات موسيقية حماسية. واندفع الأطفال من بارمينو كلها على أصوات الموسيقى، وتوافد الرجال والنساء في أثرهم من بساتين التفاح. استمرت الفرقة في العزف إلى أن نزل إلى الشاطئ أعضاء لجنة السحب. وبدأ الحفل الجماهيري. ومن شرفة غرفة شاي كوروبكوف سُمعت الأصوات الأولى من التقرير حول الوضع الدولي.

كان العاملون في مسرح كولومبوس ينظرون إلى الحفل من الباخرة. ومن هناك كانت تُرى المناديل البيضاء للنساء اللواتي وقفن بحذر بعيداً عن الشرفة. وكان حشد الرجال الثابت، الذين يستمعون إلى الخطيب، والخطيب نفسه يلوحون لهن بأيديهم من فترة لأخرى. ثم بدأت الموسيقى. فاستدارت الأوركسترا، ودون التوقف عن العزف تحركت نحو المعبر الخشبي. واندفع الحشد من ورائها. (من هنا يبدأ قسم حذفه الرقيب السوفييتي - م.)

- دقيقة واحدة! - صاح الرجل البدين من على ظهر الباخرة - أيها الرفيق، سنجري الآن السحب على القرض الفائز. لذلك نرجو الجميع الصعود إلى الباخرة. وبعد انتهاء السحب ستجري حفلة موسيقية. لهذا فالرجاء بعد إجراء السحب، عدم التفرق والذهاب، بل الاجتماع على الشاطئ، ومنه مشاهدة الحفلة. الفنانون سيمثلون على ظهر الباخرة!

ركض الجميع متدافعين، إلى الباخرة ونزلوا إلى قاعة السحب الباردة. جلس أعضاء لجنة السحب وممثلو قرية بارمينو الذين انضموا إليها على المنصة. وقد قام بذلك أعضاء لجنة السحب بلياقة اكتسبوها من اعتيادهم على هذه الاحتفالات. أما ممثلو القرية (وكانوا اثنين) فقد جاءا بأحذيتهم القماشية وقميصيهما الأزرقين المخططين، بهيئة جادة، وكأنهما جاءا لدرس الحنطة، وتوجها إلى الطاولة وجلسا على طرفها. قال رئيس اللجنة:

- أرجو من الرقابة العمالية - الفلاحية فحص الأختام الموضوعة على آلة السحب.

انحنى رئيس الرقابة العمالية - الفلاحية، ولمس بحذر الأختام بيده وأعلن:

- الأختام موجودة على ما يرام!

بعد فحص الأختام على دواليب السحب طُلب من الجمهور أن يختار طفلاً.

والآن، أيها الرفاق، سيأخذ الطفل أمام مرأى الجميع بطاقة واحدة من كل من الأسطوانات الست. وفي كل بطاقة رقم واحد. والأرقام الستة معاً يشكلون رقم السند الفائز. فليتابع العملية مالكو السندات. والذين ليس لديهم سندات يمكنهم شراؤها هنا على متن الباخرة.

دارت الدواليب، وهي تومض من خلال نوافذها الزجاجية، وتوقفت. أنزل الصبي حافي القدمين يده، مرتجفاً، في كل أسطوانة بالتتابع، وسحب بطاقة ملفوفة كالسيجارة من كل

أسطوانة وقدمها لأعضاء لجنة السحب. (نهاية القسم المحذوف من الرقيب السوفييتي - م.)

- ربح السند ذو الرقم 0703418 في جميع الدورات الخمس.

كان جهاز السحب يرمي بصورة منهجية تركيب الأعداد. وتدور العجلات، ويتم إعلان الأرقام، وكان سكان قرية بارمينو يشاهدون ويسمعون. (بداية قسم محذوف من الرقيب السوفييتي - م.)

جمع العاملون في التصميم الصوتي الذين استثارت حماسهم عملية سحب اليانصيب، أموالهم وحصلوا على سند واحد، وبعد كل إعلان للأرقام الفائزة كانوا يتنفسون الصعداء: - الحمد لله، أنه ليس رقمنا.

- وعلام تفرحون؟ - استغرب نيك. سيوسترين - فأنتم لم تربحوا.

- وهل يسرنا الحصول على عشرين روبلاً - صاح الخمسة الكبار - بمثل هذا السند يمكننا أن نربح خمسين ألفاً. حساب مباشر.

- اسمعوا، يا أصدقائي - قال المخرج - مازال الوقت باكراً على الجوائز الكبيرة، ولا داع لوجودكم هنا. اذهبوا واستعدوا للعرض. (نهاية القسم المحذوف - م.)

جاء أستاذ راكضا لدقيقة، وبعد أن تأكد من أن جميع المقيمين في الباخرة جالسون في صالة السحب، ركض ثانية إلى سطح الباخرة، وهمس قائلاً:

- فورويانينوف، مهمة عاجلة لك في الجزء الفني. قف عند المخرج من ممر الدرجة الأولى وابق واقفاً هناك. فإذا ما اقترب أحدهم غرّ بصوت عال.

فوجئ الرجل العجوز.

- وماذا أغني؟

- ليس على أية حال «فليحميكم الرب القديراً!». أغنية ما عاطفية مثل «التفاحة» أو «قلب الحساء». ولكن أذكرك، من أن لا تغني في الوقت المناسب أغنيتك!... فهذا، بالنسبة لك، ليس مسرحاً تجريبياً! سأقطع رأسك.

ركض المحتال الكبير إلى الممر، المحاط بألواح الكرز، وهو يصفع بكعبيه العاريين. عكست المرأة الكبيرة الموضوع في نهاية الممر جسمه. وقرأ اللافتة على الباب:

## نيك. سيوسترين

مخرج مسرح كولومبوس

أصبحت المرأة صافية وفارغة. ثم عاود المحتال الكبير الظهور عليها. كان يمسك بيده كرسيًا بقوائم محنية. ركض في الممر، وخرج إلى السطح، وبعد أن تبادل النظرات مع هيبوليت ماتفييفتش، حمل الكرسي إلى الطابق الأعلى، إلى غرفة قائد الدفة. لم يكن هناك أحد في الغرفة الزجاجية. نقل أستاذ الكرسي إلى مؤخرة الباخرة وقال واعظًا:

– سيبقى الكرسي هنا حتى الليل. فكرت في كل شيء. هنا لا يتواجد أحد تقريبًا، سوانا. تعال لغطي الكرسي بالملصقات، وعندما يحل الظلام، نلقي نظرة على محتواه بهدوء.

بعد دقيقة تمت تغطية الكرسي بصفائح الخشب الرقيق والنسيج القطني، ولم يعد ظاهراً.

سيطرت على هيبوليت ماتفييفتش من جديد حمى الذهب.

– ولماذا لا نأخذه إلى مقصورتنا؟ – سأل بفارغ الصبر – كنا فتحناه الآن مباشرة. وإذا ما عثرنا على الماس، سنتوجه مباشرة إلى الشاطئ...

– وإذا لم نعثر؟ ماذا نفعل بعد؟ أين نضعه؟ أو، ربما نعيده إلى المواطن سيوسترين ونقول باحترام: «المعذرة، فقد سرقنا الكرسي من عندك، ولكن للأسف، لم نعثر فيه على شيء، وها نحن نعيده لك، بشكل معطوب بعض الشيء!» هل كنت ستتصرف على هذا النحو؟

كان المحتال الكبير على حق، كما هو دائماً. لم يتعافى هيبوليت ماتفييفتش من الشعور بالحرَج إلا في تلك اللحظة عندما وصلت من سطح الباخرة أصوات افتتاحية الأوبرا التي تم أدائها على أكياس إيسمارخ (أكواب الحقن) وزجاجات البيرة الفارغة.

انتهت عمليات السحب لهذا اليوم. جلس الجمهور على منحدرات الشاطئ، وفوق كل توقع، عبر بصخب عن استحسانه لفرقة الصيدلة والزواج. كان غالكين وبالكين ومالكين وتشالكين وزالكين يختلسون النظر بفخر، وكأنهم يقولون: «أرأيتم! وكنتم تؤكدون أن الجماهير الواسعة لن تفهم. الفن يصل دوماً إلى الجميع!» ثم قام فنانون مسرح كولومبوس على خشبة المسرح المرتجلة بأداء مسرحية فودفيل خفيفة مع الغناء والرقص، يتلخص محتواها بكيف ربح بابيلا (شخصية من التوراة – م.) خمسين ألف روبل وماذا نتج عنها. كان يمثل الفنانون الذين رموا عن كاهلهم أغلال نظرية نيك سيوسترين البنائية، بمرح ويرقصون بحماس ويغنون بأصوات عذبة. وكان سكان الشاطئ راضين كل الرضا.

أما المشهد الثاني فكان بطله عازف البالاياكا الموهوب. وعبر بالابتسامات الباهتة سكان الشاطئ عن موقفهم منه.

فقد أثارت بطاقة التعريف به وشعره المفروق وقصة شعره في المشاهدين الحيرة وعبارات التعجب الساخرة.

جلس العازف الموهوب على مقعد خشبي وسوّى ثيابه، وبدأ يعزف ببطء «الرابسوديا المجرية» للموسيقار ليست. وبتسريعه تدريجياً لوتيرة الإيقاع، وصل العازف الموهوب إلى الذروة في العزف على البالاياكا. خسر المتشككون المعركة، ولكن لم يظهر أي حماس عند الجمهور. عندئذ عزف الموهوب الأغنية الشعبية الروسية «بارينيا» (السيدة).

كان يغنيها ويعزفها الموهوب: «السيدة، النبيلة... السيدة، الفاضلة».

بدأت البالاياكا الحركة. فطارت إلى خلف ظهر الفنان، ومن خلف ظهره كان يُسمع: «إذا كان السيد النبيل يحمل سلسلة، فهذا يعني أنه رجل نبيل من دون ساعة!». وحلقت البالاياكا في الهواء، وخلال تحليقها القصير عزفت أصعب المعزوفات.

حلّ دور جورجيت تيراسبول. فأحضرت معها مجموعة من الفتيات بأثواب روسية صيفية قصيرة بلا أكمام. وانتهت الحفلة الموسيقية برقصات روسية.

بينما كانت باخرة «سكريبين» تستعد للانطلاق في رحلة بحرية أخرى، وبينما كان القبطان يتحدث مع قسم الآلات، وأشعلت النيران في أفران الباخرة، فارتفعت حرارة الهواء، نزلت الفرقة النحاسية ثانية إلى الشاطئ، ومع استغراب الجميع أخذت تعزف الرقصات. وتشكلت مجموعات خلابة، مليئة بالحركة. كانت الشمس المائلة إلى المغرب ترسل أشعتها المشمشية الناعمة. وحلت الساعة المثالية للتصوير السينمائي. وبالفعل، خرج مدير التصوير بولكان من مقصورته متثائباً. وحمل فوروبيانينوف الذي اعتاد على دور صبي الفرقة، الكاميرا السينمائية بحذر خلف بولكان. وهناك على العشب كانوا يرقصون رقصة الجندي. كان الشباب يدبكون بأقدامهم العارية على الأرض بقوة كبيرة، وكأنهم أرادوا تحطيم كوكبنا. وكانت الفتيات يرقصن بهدوء. ووقف المشاهدون على طول أرصفة الشاطئ ومنحدراته. كان يمكن للمصور السينمائي الفرنسي من فرقة «آفانغارد» (الطليعة) أن يجد عملاً هنا لثلاثة أيام. لكن بولكان بعد أن انزلق على طول الشاطئ بعينيه كعيون الفئران، ابتعد على الفور، وركض بزهو إلى رئيس اللجنة، وأوقفه أمام جدار أبيض ووضع في يده كتاباً، وطلب منه أن لا يتحرك، وأدار طويلاً وبصورة انسيابية مقبض جهاز التصوير. ثم اقتاد الرئيس الخجول إلى مؤخرة السفينة، والتقط له صورة على خلفية غروب الشمس.

بعد الانتهاء من التصوير، ابتعد بولكان بوقار وذهب إلى مقصورته وأغلق بابه.

صدحت الصافرة مرة أخرى، ومن جديد هربت الشمس خوفاً. وحلت الليلة الثانية.  
وأصبحت الباخرة جاهزة للإبحار.

كان برسيتسكي يركض في الممرات والسلالم، باحثاً عن مراسل وكالة تاس المختفي. لم يعثر له على أثر. فقط عندما أزيل الجسر العائم ظهر المراسل. كان يركض على طول الشاطئ، متعثراً في سيره، مقعقعاً بعلبه، وملوحاً بصنارة صيده. وصاح بصوت ممطوط:

– نسيتم شخصاً! نسيتم شخصاً!

واضطروا إلى الانتظار.

– فليأخذك الشيطان! – قال برسيتسكي عند وصول المراسل المرهق – كنت تصطاد السمك؟

– كنت أصداد.

– أين سمكاتك – الحفش والبربوت والسرطان النهري؟

– لا توجد، الشيطان وحده يعرف – قال المراسل مضطرباً – أخافوا جميع الأسماك بفرقهم الموسيقية! وحتى في الأخير، عندما نقرت سمكة واحدة الطعم، زارت تلك الصافرة الرهيبة، وهربت هذه السمكة أيضاً. لا، يا رفاقي، في مثل هذه الظروف من المستحيل العمل! من المستحيل تماماً!

ذهب المراسل الغاضب إلى القبطان واستفسر عن المحطة القريبة التالية. قال القبطان:

– أولاً يورينو، ثم كوزمودميانسك، وبعدها تشيبوكساري، ضاحية مارينسكي، كوزلوفكا. ثم قازان. نبحر حسب جدول لجنة السحب.

وبعد أن استعلم ما يستعلم عنه الجميع: ما هو الثمن التقريبي لمثل هذه الباخرة، وما هو اسمها قبل الثورة، انتقل المراسل إلى الاستفسارات الأخرى التي لا تقل تفاهة عن تحولات مسار الفولغا ومياهه الضحلة. فقال القبطان متنهداً:

– حسناً، لكن هذه مسألة غامضة. متغيرة من فترة لأخرى. ويمكن للقاع أن يتغير كل يوم. على هذا الوضع هناك.

– أي وضع – سأل المراسل مستغرباً.



– المنارات، والعوامات، والإشارات على الشواطئ. وهذا يدعى الوضع. لكن الأهم من ذلك هو الممارسة. هذا هو ابني...

أشار القبطان إلى فتى في الثانية عشرة من عمره، جالساً بجوار الدرايزين، ومتأملاً الشواطئ المتحركة بين مد وجزر.

– إنه سيكون بحارً الفولغا الحقيقي. يعرف الطريق النهري أفضل مني. آخذه معي منذ أن كان في السادسة من عمره.

اقترب من القبطان مدير التجهيزات. ومن خلفه جاء المدير الفني لامتياز الماس. قال مدير التجهيزات:

– هذا هو رسامنا. نحن هنا نصمم اللافتة. وسؤالنا هو ألا يصح تثبيتها على جسر القبطان؟ من هناك ستكون مرئية وواضحة من جميع الجهات.

رفض القبطان بصورة قطعية تزيين الجسر:

– إلى جانبه – ممكن!

توجه مدير التجهيزات إلى أستاذ:

– ألا يناسبك، أيها الرفيق الرسام، تثبيتها إلى جانب جسر القبطان؟

– مناسب – قال بندر متأوهاً.

– إذن، انظر كيف ستعمل. ومنذ الصباح باشر عملك.

فكر أستاذ بخوف من صباح الغد. كان عليه أن يقص من ورق الكرتون صورة المزارع الذي ينثر السندات. كان هذا الامتحان الفني فوق طاقة المحتال الكبير. فإذا ما أمكنه رسم الأحرف بصعوبة كبيرة، فلم يكن لديه للتصوير الفني للمزارع أية قدرة. وقد حذّره الرجل البدين:

– خذ في اعتبارك، سنبدأ مع فاسيوكوف عمليات السحب المسائية، ولا يمكننا ذلك أبداً من دون اللافتة الفنية.

– لا تقلق، من فضلك – صرّح أستاذ وعلق أمله ليس على صباح الغد بقدر ما هو على مساء اليوم – اللافتة ستكون جاهزة.

بعد العشاء الذي لم يستطع أن يشتكي من نوعيته حتى أولئك الذواقَة مثل غالِكين وبالكين ومالكين وتشالِكين ولاسكيند، وبعد تلك الأحاديث في مؤخرة الباخرة:

– وماذا سيكون بالنسبة للعمل الإضافي؟

– تعرف جيداً، أنه من دون موافقة رقابة العمل الحكومية لا يمكننا السماح بالعمل الإضافي.

– عفواً، يا رفيقي العزيز، عملنا يجري في ظروف حملة متقدمة طليعية...

– ولماذا لم تحتاطوا بأخذ الموافقة في موسكو؟

– موسكو ستوافق كأمر واقع.

– فليعملوا إذن، كأمر واقع.

– في هذه الحالة، أنا لست مسؤولاً عن عمل اللجنة.

بعد هذه الأحاديث وغيرها، حلّت ليلة مرصعة بالنجوم العاصفة. ونام سكان سفينة السحب. ونام أسود لجنة سحب اليانصيب. ونام الحملان من المكتب الشخصي، والماعز من قسم المحاسبة، والأرانب من قسم الحسابات المتبادلة، والضباع وأبناء آوى من التصميم الصوتي، والحمامات من مكتب الآلات.

لم يستسلم للنوم فقط زوج مشبوه. خرج المحتال الكبير من مقصورته في الساعة الواحدة ليلاً. وتبعه الظل الصامت لكيسا الأمين. صعدا إلى سطح الباخرة العلوي، وأقتربا همساً من الكرسي المغطى بصفائح الخشب الرقيق. أوقف أستاذ الكرسي على رجله لتفكيك غطاءه بحذر، وضغط على فكيه ومزق وجه التنجيد بزردية، وأدخل يديه تحت غطاء التنجيد.

كانت الريح تركز على السطح العلوي. وتتحرك النجوم في السماء بخفة. وكان الماء الأسود يطرش تحت أقدامهما في الأسفل. لم تكن الشواطئ ظاهرة. وكان هيبوليت ماتفييفتش يرتجف.

– وجدتها! – قال أستاذ بصوت مختنق.

## رسالة الأب فيودور

كتبها في باكو من الغرف المفروشة «التكلفة» لزوجته في بلدة المقاطعة (ن)

عزيزتي وغاليتي كاتيا!

مع كل ساعة نقرب نحن من سعادتنا. أكتب لك من الغرف المفروشة «التكلفة» بعد أن قمت بجميع أعمالي. باكو مدينة كبيرة جداً. يقال أن الكيوسيين يستخرج من هنا، ولكن الذهاب إلى هذا المكان يقتضي الركوب بالقطار الكهربائي، وليست لدي نقود. يغسل بحر قزوين هذه المدينة الخلابه. وهو بالفعل بحر كبير جداً بمقاييسه. الحر هنا رهيب. أحمل معطفي على يد، وجاكتي على اليد الأخرى – ومع ذلك فالحرارة شديدة. يداي تتعرقان. وأدلل نفسي بالشاي من فترة لأخرى. ونقودي تكاد أن تنفد. ولكن، لا يهم، يا عزيزتي كاترينا ألكسندروفنا، قريباً سيتوفر لدينا الكثير من المال. وسنذهب إلى كل مكان، وبعدها سنستقر بصورة جيدة في سماري، بالقرب من معملنا، وسنشرب النبيذ الحلو معاً. على أية حال، فلنقرب من الموضوع.

إن مدينة باكو، من حيث موقعها الجغرافي، ومن حيث عدد سكانها، أكبر من مدينة روستوف بكثير. لكنها أقل حركة من مدينة خاركوف. هنا الكثير من الأجانب والغرباء. خصوصاً، هنا كثير من الأرمن والفرس. هنا، أيتها الأم العزيزة، تركيا قريبة. كنت أنا في السوق، وشاهدت الكثير من البضائع والشالات التركية. أردت أن أشتري لك، كهدية، شرشف إسلامي، ولكن لم يكن لدي نقود. وفكرت بأننا عندما سنصبح أغنياء (وهذا سيحصل خلال أيام معدودات) عندها سوف يصبح بالإمكان شراء شرشف إسلامي.

أوه، أيتها الأم، نسيت أن أكتب لك عن حادثتين رهيبتين حصلتا معي في مدينة باكو: (1) أوقعت جاكت أخيك، الخباز، في بحر قزوين (2) بصق علي في البازار جمل بسنم واحد. هاتان الحادثتان أدهشتاني كثيراً. لماذا تسمح السلطات بهذا الاعتداء على المسافرين العابرين، لا سيما أنني لم ألمس الجمل، بل حتى أنني داعبته – دغدغته بغصن صغير في أنفه! أما الجاكت فقد أمسك به الجميع، وبصعوبة أمسكوا به عندما وقع، لكنه تغطى كله بالكيوسيين. لهذا، أنا لا أعرف ماذا سأقول لأخيك الخباز. أما أنت، يا عزيزتي، فلا تخبريه بشيء. هل ما يزال يفستيجنييف يتناول طعام الغداء عندنا؟

أعدت قراءة الرسالة ورأيت أنني لم أحدثك عن أمر. المهندس برونس يعمل فعلاً في شركة النفط الآسيوية «آزنف». بيد أنه غير موجود الآن في باكو. ذهب في إجازة إلى مدينة باطوم. لدى عائلته إقامة دائمة في باطوم. تحدثت هنا مع أشخاص وقالوا لي، إن الأثاث كله موجود عند برونس في باطوم. وهو يعيش هناك في الداتشا (منزل ريفي)، في الرأس الأخضر «زيليوني ميس» – هناك مثل هذا المكان للمنازل الريفية (ويقال أنه غالي الثمن). سعر تذكرة السفر من هنا إلى باطوم خمسة عشر روبلاً وبعض الكوبيكات. أرسلني لي عشرين روبلاً بواسطة التلغراف، وسأجيبك عن كل شيء من باطوم ببرقية. انشري في المدينة الشائعات بأنني ما زلت مريضاً، طريح الفراش عند خالتي في فورونيج.

زوجك الأبدي فيديا (فيودور)

ملاحظة. عندما أخذت هذه الرسالة إلى صندوق البريد، سرقوا من غرفتي في «التكلفة» معطف أخيك، الخباز. أنا حزين للغاية! حسناً، أن الجو، صيف الآن. لا تخبري أخاك بشيء.

## الفصل الخامس والثلاثون الطرد من الجنة

بينما كان بعض أبطال الرواية على قناعة بأن هناك من الوقت ما يكفي، واعتقد آخرون أن الوقت لا ينتظر، كان يمر الوقت حسب ترتيبه المعتاد. وبعد شهر أيار/مايو المغبر في موسكو جاء شهر حزيران/يونيو المغبر. في بلدة مقاطعة (ن) كانت السيارة الحكومية رقم 1 التي تعطلت بسقوطها في حفرة في الطريق واقفة للأسبوع الثاني على زاوية ساحة ستاروبانسكايا وشارع الرفيق غوبرنسكي، مغطية المنطقة من فترة لأخرى بدخان قانط. خرج من مقر الاعتقال المؤقت في ستارغورود المشاركون المخبولون في مؤامرة «السيف والمحراث» واحداً إثر الآخر - تم توقيعهم على تعهد مكتوب بعدم مغادرة المدينة. وعادت الأرملة غريبتساتسويفا (وهي امرأة حامية، حلم الشاعر) إلى عملها في البقالية، وتم تغريمها بخمسة عشر روبلاً لأنها لم تضع في مكان ظاهر قائمة أسعار الصابون، والفلفل، وطبعة الغسيل الزرقاء، وغيرها من السلع الصغيرة - فالنسيان مغفور لامرأة ذات قلب كبير!

\*\*\*

وقبل يوم من المحاكمة المقررة في الحادي والعشرين من حزيران/يونيو، جاء أمين الصندوق أسوكين إلى أغافون شاخوف، وجلس على الأريكة وبكى. كان الكاتب متكتناً في رداء الحمام على الأريكة يدخن سيجارة.

- لقد وقَّعت، يا أغافون فاسيليفتش - قال أمين الصندوق - سيحاكمونني الآن.

- ما الذي جعلك تقدم على هذا - سأله شاخوف ناصحاً.

- لقد وقَّعت بسببك، أغافون فاسيليفتش.

- وما دوري أنا، يهمني أن أعرف؟

- لقد أربكتني، أيها الرفيق شاخوف. وكتبت عني افتراءات كاذبة. أنا لم أكن هكذا في يوم من الأيام.

- ماذا تريد مني أيها الغبي؟

- لا أريد شيئاً. لقد وقعت بسبب كتابك، غداً سيحاكمونني. والأهم من ذلك - فقدت وظيفتي. أين سأذهب الآن؟

- هل من المعقول أن كتابي أثر عليك بهذه الطريقة؟

– أثر علي، أغافون فاسيليفتش، أثر علي كثيراً، بحيث أنني نفسي، لا أعرف كيف حدث كل شيء.

– هذا مذهش – صاح الكاتب.

كان يشعر بالإطراء. لم يسبق له أن رأى بهذا الوضوح تأثير الكلمة الروائية الأدبية على ذهن القارئ. لكن المؤسف، أن هذا الحادث المؤشر ذا الدلالة سيبقى مجهولاً للنقد ولجماهير القراء. وضع أغافون أصابعه على لحيته الشبيهة بقطعة اللحم المفروم واستغرق في التفكير. مسح أسوكين الدموع من عينه بمنديل غامق. قال الكاتب بصوت صادق صادر من القلب: – إليك، يا أخي، أين تكمن قضيتك؟ وما الذي تخافه؟ سرقت؟ نعم، مئة روبل، خاضعاً لتأثير قوي من رواية أغافون شاخوف «جري الموجة»، دار نشر «أيام خميس فاسيليف» عدد النسخ 10 آلاف، موسكو، عام 1927، 269 ص،، سعر النسخة مجلدة روبلان و25 كوبيكاً.

– أدرك جيداً يا سيدي. هذا ما حصل. هل تعتقد، أغافون فاسيليفتش، أنهم سيصدرون علي حكماً مع وقف التنفيذ؟

– هذا أمر لا بد منه. وأنت عليك أن تعرض كل شيء كما جرى. كذا وكذا، قل وكأن الكاتب أغافون شاخوف هو قاتلي المعنوي.

– وهل أجرو، أغافون فاسيليفتش، على شتم المؤلف!...

– اشتمه!

– وهل يمكنني أن أخونك؟!

– خني، يا عزيزي، إنه خطئي.

– لن ألقى عليك بأي ظل، طيلة حياتي!

– ألق علي ظلاً كبيراً، بأوراق عريضة! ولا تنس أن تحدثهم عن الإباحية، عن الفتيات العاريات، ولا تنس الحديث عن فينكا. أتذكر، كيف قيل هناك؟

– وكيف لا أذكر، أغافون فاسيليفتش! «صدر ممتلئ، خد أحمر كالرمانة، وخط الوركين القوي».

– هذا، هذا، هذا هو. وإزميرالدا. والأسنان الجارحة، أي خط هناك للوركين.

– لقد صورت ناتاشاكا(ناتاشا) فظهرت بقلمك جميلة. طالما أنهم سرّحوني، أنا أقرأ كتابك كل يوم.

– هذا أفضل. اقرأه اليوم مساءً أيضاً، وغداً حدّثهم عن كل شيء. حدّثهم عني أيضاً، وقل أنني أفسد أخلاق المجتمع، وقل بأن الرجل الراشد بعد قراءته كتابي يصبح بلا رادع. قل، أنه كتاب شيق، وقد وصف فيه المؤلف مشاهد الانحلال الجنسي التي لا يمكن وصفها.

– هل أقول هذا؟

– نعم، قل هذا: رواية أغافون شاخوف «جري الموجة». ألن تنسى؟ دار نشر «أيام خميس فاسيلييف»، عدد النسخ 10 آلاف، موسكو، عام 1927، 269 ص.، سعر النسخة المجلدة روبلان و15 كوبيكاً. وقل، مثلاً، إن الكتاب يباع في جميع المحلات والأكشاك ومحطات السكك الحديدية.

– الأفضل، أن تكتب لي كل هذا، أغافون فاسيلييفتش، وإلا سأنسى.

غرق الكاتب في الأريكة وكتب اعترافاً كاملاً للمختلس. كان فيه، بشكل رئيس، الوركين، وذكر سعر الكتاب عدة مرات، وهو سعر معتدل بالنسبة لعدد الصفحات، وذكر عدد النسخ وعنوان مستودع دار نشر «أيام خميس فاسيلييف» – جادة كوشكوف، منزل رقم 21، شقة 17 أ.

طلب أمين الصندوق الذي أحياه الأمل، أثناء الوداع، كتاب شاخوف الجديد وعنوانه «قصة البراءة الضائعة، أو في محاربة الإهمال».

– أنت، اذهب، أيها الأخ، – قال شاخوف – ولا ترتكب جرماً بعد الآن. إن هذا شيء قذر.

– إذن، سأذهب، أغافون فاسيلييفتش. أنت تظن، إذن، أنهم سيصدرون حكماً مع وقف التنفيذ؟

– هذا يتوقف عليك. إلق اللوم أكثر على الكتاب. وعندها ستتخلص.

بعد أن ودع أمين الصندوق، قام شاخوف بعدة حركات راقصة في الغرفة وصاح مغنياً: – اقرعوا على الدفوف، ولتصدح آلات الغيتار...

ثم اتصل بدار نشر «أيام خميس فاسيلييف»:

– اطبعوا الطبعة الرابعة من رواية «جري الموجة»، اطبعوها، اطبعوها، لا تخافوا! هذا ما يقوله لكم أغافون شاخوف!

\* \* \*

- يوجد! - كرر أستاذ بصوت متقطع - امسك!

أمسك هيبوليت ماتفييفتش بيديه المرتعشتين صندوقاً خشبياً مسطحاً. تابع أستاذ في الظلمة، البحث في داخل الكرسي. أومضت منارة الشاطئ. واستلقى عمود ذهبي على سطح الماء، وعام وراء الباخرة.

- ما هذا بحق الجحيم! - قال أستاذ - لا يوجد شيء آخر!

- لا، لا يمكن - غمغم هيبوليت ماتفييفتش.

- حسناً، هيا، انظر أنت أيضاً.

ودون أن يلتقط أنفاسه، قرفص فوروبيانينوف على ركبتيه وأدخل ساعده حتى المرفق في داخل مقعد الكرسي. كان يلمس بأصابعه النوابض المعدنية. ولم يكن هناك شيء صلب آخر. كانت تنبعث من الكرسي رائحة جافة كريهة للغبار المتحرك.

- لا يوجد شيء؟ - سأل أستاذ.

- لا يوجد.

عندئذ رفع أستاذ الكرسي ورماه في الماء بعيداً عن السفينة. سُمع تناثر كبير للماء. وعاد صاحب الامتياز، والشك يعذبهما، إلى المقصورة مرتجفين من رطوبة الليل.

- حسناً - قال بندر - على أية حال، عثرنا على شيء.

أخرج هيبوليت ماتفييفتش الصندوق من جيبه ونظر إليه بذهول.

- هيا، هيا! ما بك تحدد بعينيك!

فتحا الصندوق. كان يوجد في قعره لوحة نحاسية مخضرة، كتبت عليها العبارة التالية:  
بهذا الكرسي - نصف الأريكة

يبدأ المعلم هامبز

مجموعة جديدة من الأثاث.



عام 1865. سانت بطرسبورغ

قرأ أستاذ العبارة بصوت عال.

– وأين الماس؟ – سأل هيبوليت ماتفييفتش.

– أنت سريع البديهة، يا صياد المقاعد العزيز! كما ترى، لا يوجد الماس.

كان من المحزن النظر إلى فوروبيانينوف. فقد تحرك شارباه اللذان طالا قليلاً، وأصبح زجاج نظارته ضبابياً. كان يبدو وكأنه من اليأس يضرب خديّه بأذنيه.

وكان لصوت المحتال الكبير، البارد والعامل، تأثيره السحري المعتاد. فمد فوروبيانينوف يديه على خط الخياطة البالية ولاذ بالصمت.

– اسكت، أيها الحزين، اسكت، كيسا! يوماً ما سنضحك على الكرسي الثامن الغبي الذي عثرنا فيه على هذه اللوحة السخيفة. تمالك نفسك! ثمة ثلاثة كراسي أخرى – تسعة وتسعون فرصة من مئة!

خلال الليل ظهرت على خد هيبوليت ماتفييفتش الحزين بثرة بركانية. وتحولت كل معاناته، وكل إخفاقاته، وكل عذابه في مطاردة الماس إلى هذه البثرة وانطبعت عليها بعرق لؤلؤ وكرز غروبي وزرقة.

– هل فعلتها عن قصد – سأل أستاذ.

تنهد هيبوليت ماتفييفتش متشججاً، وذهب وهو طويل القامة، ومثني قليلاً مثل قصبة الصيد، لجلب الدهانات. وبدأ تجهيز اللافتة. كان صاحب الامتياز يعملان على سطح الباخرة العلوي.

وبدأ اليوم الثالث من الإبحار.

بدأ بمشاجرة قصيرة للفرقة النحاسية مع مجموعة تصميم الأضواء بسبب مكان البروفة.

بعد الإفطار توجه إلى مؤخرة الباخرة من الطرفين الرجال السمان بأدواتهم النحاسية وفرسان أكواب إيسمارخ النحفاء. وكان غالكين أول من جلس على مقعد المؤخرة. وركض الثاني عازف الكلارينيت من الفرقة النحاسية.

– المكان مشغول – قال غالكين بكآبة.

– ومن شغله؟ – سأل عازف الكلارينيت بصوت متوعد.

– أنا، غالكين.

– ومن غيرك؟

– بالكين ومالكين وتشالكين وزالكيند.

– يولكين غير موجود لديك – هذا مكاننا.

اقتربت التعزيزات من كلا الجانبين. كان يقف الهليكون (آلة موسيقية نفخية ضخمة – م.)، المحاط بثلاث حزم نحاسية ملتوية كالأفعى، وهو أكبر آلة في الأوركسترا. واهتز والادورن (آلة موسيقية معدنية تشبه اللولب المعوج – م.) الذي يشبه الأذن. وكانت الترومبونات تقف في جاهزية كاملة. وانعكس أشعة الشمس ألف مرة على الدروع القتالية. وكانت مجموعة التصميم الصوتي تبدو معتمدة وضئيلة. كان يومض زجاج القناني وتلمع بصورة باهتة الحقن الزجاجية (أكواب إيسمارخ)، أما السيكسفون – تقليد ساخر شنيع لآلة النفخ، ومستخلص متغير من بوق نفخي حقيقي – فكان في حالة يرثى لها، وكان يشبه الغليون.

– كتيبة الحُقن – قال عازف الكلارينيت المتنمر – تدعي مكاناً لها.

– أنتم – قال زالكيند، محاولاً البحث عن التعبير الأكثر إساءة – أنتم محافظون في الموسيقى.

– لا تعيقوننا من إجراء البروفة.

– أنتم تعيقوننا!

– في أوانيكم الليلية كلما تمرنتم أقل، كلما كانت النتيجة أفضل.

– أما على سماوراتكم، فسواء تدريبتم أم لم تتدربوا فلن تخرجوا بشيء.

دون التوصل إلى أي اتفاق، بقي الطرفان في مكانهما وأخذ كل منهما يعزف معزوفته بعناد. في أسفل النهر كانت تُسمع أصوات لا يمكن أن تصدر إلا عن ترام يزحف ببطء على زجاج مكسور. عزف موسيقيو الآلات النفخية مارش بلدة كيكلهومز حراس الفوج، ومجموعة التصميم الصوتي عزفوا الرقصة الزنجية «الطبي عند منبع زيمبيزي» (في جنوب أفريقيا – م.). وتم وقف الفضيحة بالتدخل الشخصي لرئيس لجنة سحب اليانصيب.

في هذا اليوم توقفت الباخرة مرتين. عند كوزمودميانسك توقفت حتى الغسق. وتم تنفيذ جميع العمليات العادية: المهرجان الخطابي الافتتاحي، سحب السندات الفائزة، أداء مسرح كولومبوس، عازف البالايكا، والرقص على الشاطئ. طيلة هذا الوقت كان صاحب الامتياز يعملان بجهد. وقد جاء لعهدهما مدير التجهيزات عدة مرات، وعند تلقيه التأكيدات بأن كل شيء سيكون جاهزاً في المساء، كان يعود مطمئناً إلى أداء واجباته المباشرة.

في الساعة الحادية عشرة تم إنجاز العمل الكبير. عائدین إلى الخلف، كان أستاذ وفوروبيانينوف يحملان اللافتة إلى جسر القبطان. وركض أمامهما الرجل البدين، مدير التجهيزات، رافعاً يديه إلى النجوم. وبالجهد المشتركة تم ربط اللافتة إلى الدرابزين. وقد علّقت فوق سطح الباخرة، مثل الشاشة. وفي غضون نصف ساعة أوصل الفني الكهربائي الأسلاك الكهربائية إلى خلف اللافتة وثبت داخلها ثلاثة مصابيح كهربائية. وبقي تشغيل المفتاح.

إلى الأمام، وإلى يمين مقدمة السفينة كانت تتراءى أنوار بلدة فاسيوكي.

دعا مدير التجهيزات جميع ركاب الباخرة للاحتفال بإضاءة اللافتة. كان هيبوليت ماتفييفتش والمحتال الكبير ينظران إلى الناس المحتشدين في الأعلى من جوانب اللوحة التي لا تزال مظلمة.

إن كل حدث على الباخرة كانت تنظر إليه مؤسسة الملاحاة على أنه حدث عاطفي مهم. فقد احتشدت ضاربات الآلات الكاتبة وعمال الآلات والموظفون، والعاملون المسؤولون، وفريق مسرح كولومبوس، وقيادة الباخرة ورؤوسهم مرفوعة إلى سطح الركاب.

– هياً! – أمر الرجل البدين.

أضاءت اللافتة.

نظر أستاذ إلى الأسفل، إلى الحشد. وتسלט ضوء وردي على الوجوه.

ضحك الجمهور. ثم ساد الصمت. وقال صوت صارم من الأسفل: – أين مدير التجهيزات؟

كان الصوت صارماً ومسؤولاً، لدرجة أن مدير التجهيزات اندفع إلى الأسفل، دون أن يعد الدرجات.

– انظر – قال الصوت – تمتع بعملك!

– الآن سيركلوننا – همس أستاذ في أذن هيبوليت ماتفييفتش.

وفعلاً، طار الرجل البدين إلى السطح العلوي للباخرة، كالصقر.

– حسناً، كيف اللافتة – سأل أستاذ بوقاحة – هل هي مفهومة مُستوعبة.

– وضّبا حاجياتكما! – صرخ مدير التجهيزات.

– وعلام هذا الاستعجال؟

– اجمعوا حاجياتكما! اخرجوا من الباخرة! ستذهبان للمحاكمة! رئيسنا لا يحب المزاح!

– اطرده بعيداً – وصل من الأسفل صوت الرئيس المسؤول.

– لا، حقيقة، لم تعجبك اللافتة؟ وهل هي لافتة غير جيدة فعلاً؟

كان من العبث متابعة هذه اللعبة. كانت باخرة «سكريبين» قد رست فعلاً على رصيف فاسيوكي، وكان من الممكن من الباخرة رؤية الوجوه المذهولة لأهالي فاسيوكي المحتشدين على الرصيف.

تم رفض إعطائه أية نقود، ومنح خمس دقائق لجمع حوائجه.

– ابن العاهرة – قال سيمبييفتش – سينديقتش عندما غادر الشريكان إلى الرصيف – لو كلفوني أنا بتحضير اللافتة. لأنجزتها بحيث لا يمكن لأي رسام مثل ميرخولد أن يبزني. توقف الشريكان على الرصيف ونظروا إلى الأعلى. كانت اللافتة تلمع في السماء السوداء.

– نعم – قال أستاذ – اللافتة فظيعة إلى حد كبير. أداء ضعيف.

إن الرسم المنجز بذيل بغل ثائر كان يمكن أن يكون لوحة متحفية، بالمقارنة مع لافتة أستاذ. فبدلاً من المزارع الذي ينثر السندات رسمت يد أستاذ المزعجة جذمة مجهولة برأس سكري ورموش رقيقة بدلاً من اليدين.

خلف صاحب الامتياز كان يتوهج الضوء وتصدح موسيقا الباخرة، وفي الأمام، على الضفة العليا، كانت كآبة منتصف الليل في البلدة، ونباح الكلاب، وصوت غارموشكا (أكورديون صغير) بعيد.

قال أستاذ متفائلاً:

– أخص الوضع القائم – الجانب السلبي: ليس لدينا ولا قرش من المال، ثلاثة كراسي تتجه إلى الأسفل مع مجرى النهر، ليس هناك مكان ننام فيه، ولا أية شارة من لجنة الأطفال.

الجانب الإيجابي: دليل لنهر الفولغا، طبعة عام ألف وتسعمئة وستة وعشرين (اضطرت لاستعارتها من السيد سيمبييفتش في المقصورة). من الصعب جداً تحقيق توازن خالٍ من العجز. سنضطر لقضاء الليلة على الرصيف.

ارتكن صاحباً الامتياز عند أكشاك الرصيف. ومن خلال ضوء فانوس الكيروسين الباهت قرأ أستاذ في الدليل: «على الضفة العليا اليمنى – بلدة **فاسيوكي**. ومنها تُصدّر الأخشاب، والراتنج، واللحاء، والألياف، وتُجلب إلى هنا السلع الاستهلاكية للمنطقة التي تبعد 50 كيلومتراً عن السكة الحديدية.

يعيش في البلدة **8000** نسمة، وفيها معمل الكرتون الحكومي ويعمل فيه **320** عاملاً، ومعمل صغير لسبك الحديد، ومعمل للبيرة، ومصبغة للجلود. ومن المؤسسات التعليمية، بالإضافة إلى المدارس العامة، ثمة مدرسة فنية للغابات».

\*\*\*

– الوضع أكثر خطورة مما كنت أتصور – قال أستاذ – فتحصيل المال من أهالي فاسيوكي يبدو لي حتى الآن، مهمة غير قابلة للحل. ونحن بحاجة إلى ما لا يقل عن ثلاثين روبلاً. فأولاً، علينا أن نأكل؛ وثانياً، علينا أن نتجاوز «مغسل» السحب، ونلتقي بالعاملين في مسرح كولومبوس على اليابسة، في ستالينغراد.

انكمش هيبوليت ماتفييفتش على نفسه مثل قط عجوز هزيل بعد مناوشة مع قط منافس شاب، متحمس، سيد السطوح والسقائف والقمریات.

تمشى أستاذ على طول المتاجر والأكشاك، وهو يفكر ويركب الخطط. وبحلول الساعة الواحدة صباحاً، أصبحت الخطة الرائعة جاهزة. استلقى بندر إلى جانب رفيقه ونام.

## الفصل السادس والثلاثون مؤتمر الشطرنج بين الكواكب

منذ الصباح، كان رجل عجوز نحيف، بنظارة ذهبية وبجزمة قذرة، ملطخة الطلاء، يسير في أنحاء فاسيوكي. كان يعلّق على الجدران إعلانات مكتوبة بخط اليد: في 22 حزيران/يونيو عام 1927

في مبنى نادي «عامل مصنع الكرتون»

سُتلقى محاضرة بموضوع:

«فكرة البداية الخلاقة» وستجري

جلسة شطرنج متزامنة على 160 لوحة.

أستاذ الشطرنج أ. بندر

يحضر الجميع مع لوحاتهم.

رسم المشاركة في المباراة – 50 كوبيكاً. رسم الدخول – 20 كوبيكاً

البداية في الساعة السادسة مساءً تماماً

الإدارة: ك. ميخلسون.

لم يضع أستاذ الشطرنج الوقت عبثاً. فبعد أن استأجر النادي مقابل ثلاثة روبلات، انتقل إلى قسم الشطرنج الذي كان واقعاً لسبب ما في ممر إدارة تربية الخيول.

في قسم الشطرنج كان يجلس رجل أعور ويقرأ رواية فردريش سيبلهاجن (كاتب ألماني 1829 – 1911 م.) طبعة بانتيليفسك.

– أنا أستاذ الشطرنج أ. بندر – قدم نفسه، وهو يجلس إلى الطاولة – سأقيم عندكم جلسة شطرنج متزامنة لمرة واحدة.

انفتحت عين لاعب شطرنج فاسيوكي الوحيدة إلى حدودها القصوى التي تسمح بها الطبيعة.

– دقيقة واحدة، أيها الرفيق أستاذ الشطرنج! – صرخ الأعور – اجلس من فضلك. سأعود الآن.

وهرع الرجل الأعور. ألقى أستاذ نظرة على بناء قسم الشطرنج. كانت معلقة على الجدران صور خيول السباق، وعلى الطاولة دفتر القسم المغبر بعنوان: «منجزات قسم الشطرنج في فاسيوكي في عام 1925».

عاد الرجل الأعور مع دزينة من المواطنين والمواطنات بأعمار مختلفة. وكلهم كانوا يقتربون بالدور ويتعارفون، ذاكرين كنياتهم، ومصافحين باحترام يد أستاذ الشطرنج.

– في طريقنا إلى قازان – قال أستاذ بصوت متقطع – نعم، نعم، الجلسة اليوم مساء، تفضلوا. أما الآن، أنا آسف، لست في حالة جيدة: تعبت بعد مباريات كارلسباد (مدينة في كاليفورنيا – م.).

كان لاعبو الشطرنج في فاسيوكي يصغون إلى أستاذ ويهتمون به بحب كما يهتمون بأطفالهم. جمع أستاذ من الفخر. وشعر بفيض قوى جديدة وأفكار الشطرنج. وقال لهم: – لن تصدقوا، كيف اندفع فكر الشطرنج بعيداً إلى الأمام. وتعرفون بأن لاعب الشطرنج الكبير لاسكر توماس وصل إلى الأشياء المبتذلة، أصبح من المستحيل اللعب معه. إنه يزعج منافسيه بدخان السيجار. ويدخن عن قصد السيجار الرخيص كي يكون الدخان أشد إزعاجاً. إن عالم الشطرنج في حالة قلق.

ثم انتقل أستاذ الشطرنج إلى المواضيع المحلية.

– لماذا لا توجد في منطقتكم الريفية أية لعبة فكرية؟ على سبيل المثال، قسم الشطرنج عندكم. هكذا يدعى: قسم الشطرنج. إنه عنوان ممل، أيتها الفتيات. لماذا لا تطلقن عليه بالفعل، اسماً جميلاً ما، يعبر حقاً عن الشطرنج. فمثل هذا الاسم كان من الممكن أن يجذب إلى القسم جمهوراً اتحادياً. أطلقوا عليه، على سبيل المثال، «نادي الشطرنج للفرسان الأربعة» أو «لعبة النهاية الحمراء»، أو «فقدان الجودة عند اكتساب الإيقاع». كان يمكن أن يكون هذا جيداً! متناغماً!

لاقت الفكرة نجاحاً.

– بالفعل – قالت لاعبات الشطرنج في فاسيوكي – لماذا لا نبدل اسم قسمنا إلى «نادي شطرنج الأحصنة الأربعة»؟

وبما أن مكتب قسم الشطرنج كان حاضراً، فقد نظم أستاذ تحت رعايته الفخرية، اجتماعاً للمكتب لمدة دقيقة، تم فيه تغيير الاسم بالإجماع إلى «نادي شطرنج الأحصنة الأربعة».

وقام أستاذ الشطرنج بيده، مستفيداً من دروس الباخرة «سكريابين» بالتصميم الفني على ورقة من الكرتون لافتة عليها أربعة أحصنة وكتب عليها العبارة المطابقة.

كان هذا الحدث الهام يعد بازدهار فكر الشطرنج في فاسيوكي. وقال أستاذ: - الشطرنج! هل تعرفون ما هو الشطرنج؟ إنه لا يدفع الثقافة وحدها إلى الأمام، بل والاقتصاد أيضاً! أتعرفون بأن ناديتكم، «نادي شطرنج الأحصنة الأربعة»، في حال وضع الأمور الصحيح، سيتمكن من تطوير مدينتكم فاسيوكي تطويراً كلياً؟

كان أستاذ جائعاً، لم يأكل أي شيء منذ الأمس، ولهذا كانت فصاحته غير عادية. وصاح: - نعم! الشطرنج سيثري البلاد! وإذا ما وافقتم على مشروع فاسيوكي فسوف تنزلون من المدينة إلى رصيف الميناء على أدراج من الرخام! وستصبح فاسيوكي مركزاً لعشر مقاطعات! ماذا سمعتم في السابق عن مدينة سيمرينغ النمساوية؟ لا شيء! والآن هذه البلدة أصبحت غنية ومشهورة فقط لأنه تم فيها تنظيم بطولة دولية في الشطرنج. لهذا أقول: يجب تنظيم بطولة دولية في الشطرنج في فاسيوكي.

- وكيف؟ - صاح الجميع.

- أمر واقعي إلى حد كبير - أجاب أستاذ الشطرنج - اتصالاتي الشخصية ومبادرتكم الذاتية - تلك هي الشروط الضرورية والكافية لتنظيم بطولة فاسيوكي الدولية بالشطرنج. فكروا، كم ستبدو جميلة هذه العبارة: «بطولة فاسيوكي الدولية لعام 1927». إن قدوم خوزي راؤول كابابلانشي، وإيمانويل لاسكر، وأليوخين، ونيمتسو فيتش، وريتشي، وروبينشتاين، وماروزي، وتاراش، وفيدمار، والدكتور غريغوريف (من كبار لاعبي الشطرنج آنذاك - م.) مضمون وأكيد. وكذلك مشاركتي مضمونة!

- ولكن المال! - تأوه مواطنو فاسيوكي - يجب دفع المال لهم جميعاً! عدة آلاف من الروبلات! ومن أين نأتي بها؟

- كل شيء أخذه إله الريح الجبار في اعتباره - قال أ. بندر - الرسوم ستعطي المال.

- ومن سيدفع عندنا هذه المبالغ الكبيرة؟ سكان فاسيوكي...

- أي سكان من فاسيوكي! سكان فاسيوكي لن يدفعوا شيئاً. هم سيجنون المال! وهذا كله بسيط لأبعد الحدود. فإلى دورة البطولة بمشاركة مثل هؤلاء الخبراء الكبار بالشطرنج سيأتي عشاق الشطرنج من جميع أنحاء العالم. مئات الآلاف من الناس، من الناس الأثرياء سوف يسعون للقدوم إلى فاسيوكي. وأولاً، لن يكون النقل النهري قادراً على نقل هذا العدد الكبير من الناس. وبالتالي، ستمد مفوضية الشعب للمواصلات خطاً حديدياً رئيساً موسكو - فاسيوكي. هذا أولاً. وثانياً - هذا يعني بناء فنادق وناطحات سحاب لاستيعاب الضيوف.



ثالثاً - النهوض بالزراعة في دائرة نصف قطرها ألف كيلومتر: فالضيوف يحتاجون إلى الخضار والفواكه والكافيار وسكاكر الشوكولا. ورابعاً - القصر الذي ستجري فيه البطولة. خامساً - بناء مرائب لسيارات الضيوف. ولا بد من بناء محطة إذاعية جبارة من أجل بث النتائج المثيرة للبطولة إلى العالم كله، وهذا سادساً. الآن، بالنسبة للخط الحديدي الرئيس موسكو - فاسيوكي. مما لاشك فيه أن مثل هذا الخط لن تكون لديه قدرة على نقل جميع الراغبين إلى فاسيوكي. من هنا تنشأ ضرورة بناء مطار «فاسيوكي الكبرى» - انطلاق طائرات البريد والمناطيد اليومي المنتظم إلى جميع أنحاء العالم، بما في ذلك إلى لوس أنجلوس وملبورن.

انكشفت آفاق مبهرة أمام عشاق الشطرنج في فاسيوكي. واتسعت حدود الغرفة. وانهارت الجدران العفنة لعش تربية الخيول، وبدلاً منها ارتقى إلى السماء الزرقاء قصر الفكر الشطرنجي المكون من ثلاثة وثلاثين طابقاً. وكان يجلس في كل قاعة من قاعاته، وفي كل غرفة وحتى في مصاعده أشخاص مفكرون يلعبون بالشطرنج على رقع مرصعة بأحجار الملكية الثمينة.

كانت الأدراج الرخامية تتدرج إلى نهر الفولغا الأزرق. وكانت تعوم في النهر سفن عابرة للمحيطات. وكان يصعد على القطارات السلكية المعلقة (التلفريك) إلى المدينة الأجانب بوجوههم الكبيرة، وسيدات الشطرنج، والعشاق الأستراليون للدفاع الهندي، والهنود في عمائمهم البيضاء، ومؤيدو اللعبة الإسبانية، والفرنسيون، والألمان، والنيوزيلنديون؛ وسكان حوض نهر الأمازون، وأبناء موسكو ولينينغراد وكيف وسيبيريا وأوديسا الحاسدون لسكان فاسيوكي.

وتتحرك السيارات على الناقل المتحركة بين الفنادق الرخامية. وفجأة يتوقف كل شيء. فقد خرج من الفندق الفخم «البندق المتحرك» بطل العالم في الشطرنج خوزي راؤول كابابلانكا وغرابيرا. وكانت تحيط به السيدات. وأدى له الشرطي المرتدي بدلة شطرنجية خاصة (سروال عليه مربعات وفيلة على عرواي السترة) التحية بأدب. واقترب من بطل العالم بوقار الأعور - رئيس «نادي الأحصنة الأربعة» في فاسيوكي.

انقطع الحديث الدائر بين الشخصين اللامعين باللغة الانكليزية بوصول الدكتور غريغوريف وبطل العالم المقبل في الشطرنج أليوخين بالطائرة.

هزت صيحات الترحيب المدينة. صعر خوزي راؤول كابابلانكا وغرابيرا خده. وبحركة من يد الأعور إلى الطائرة تم إيصال سلم من رخام إليها. ركض الدكتور غريغوريف على السلم وهو يحيي بالتلويح بقبعته الجديدة، ومعلقاً أثناء سيره على الخطأ المحتمل لكابابلانكا في مباراته القادمة مع أليوخين. وفجأة لاحت في الأفق نقطة سوداء. وسرعان ما اقتربت

وكبرت، متحولة إلى مظلة كبيرة بلون الزمرد. ومثل فجلة كبيرة كان معلقاً على حلقة المظلة رجل مع حقيبته.

– إنه هو – صاح الرجل الأعور – أورا! (صيحة استحسان وابتهاج – م.) أورا! أورا! لقد تعرفت على فيلسوف الشطرنج الكبير، الدكتور لاسكر. فهو الوحيد في العالم الذي يرتدي مثل هذه الجوارب الخضراء.

تغضن خوزي راؤول كابابلانكا وغراوويرا من جديد. وجهزوا للاسكر على الفور سلماً رخامياً، وسقط بطل العالم السابق النشيط – وهو يمسح عن يده اليسرى الغبار الذي سقط عليه أثناء تحليقه فوق سيليزيا (مقاطعة في بولندا – م.) – في أحضان الأعور. أمسك الأعور لاسكر من خصره وقاده إلى بطل العالم وقال: – تصالحا! أرجوكما باسم جماهير فاسيوكي الواسعة. تصالحا!

تنهد خوزيه راؤول بصخب، وصافح يد العجوز المخضرم، وقال:

– كنت دائماً معجباً بفكرتك بنقل الفيل في اللعبة الإسبانية من b – 5 إلى c – 4.

– أورا! – صاح الأعور – ببساطة وإقناع، بأسلوب البطل!

والتقط حشد لا يمكن تصويره الصيحة والعبارة:

– أورا! فيفا! برافوا! عاش! ببساطة وإقناع، بأسلوب البطل!!!

بلغ الحماس ذروته. عندما لاح المايسترو دوزخاتيميرسكي والمايسترو بيريكاتوف، المحلقان فوق المدينة بمنطاد برتقالي بيضاوي الشكل، لَوَحَ لهما الأعور بيده. وأنشد مليونان ونصف المليون من الجمهور المحتشد في فورة ملهمة موحدة: قانون الشطرنج رائع وثابت:

فمن أحرز حتى b الضئيلة

في المسافة، في الكتلة، في الزمن، بحشد القوى،

فذلك فقط من أجل إيجاد الطريق المباشر إلى الفوز.

توالى القطارات السريعة بالوصول إلى محطات فاسيوكي الاثنتي عشرة، حاملة المزيد والمزيد من هواة الشطرنج.

ركض عداء إلى الرجل الأعور:

- ارتباك في محطة الإذاعة الجبارة. المطلوب مساعدتك.
- في المحطة الإذاعية استقبل المهندسون الرجل الأعور بالصراخ:
- إشارات استغاثة! إشارات استغاثة!
- وضع الأعور سماعتيه الإذاعتين الخاصتين على أذنيه وأخذ يصغي.
- واو، واو، واو - اندفعت صرخات يائسة في الأثير - SOS! (رمز الاستغاثة وطلب النجدة - م.) أنقذوا أرواحنا!
- من أنت الذي تطلب النجدة - صاح الأعور في الأثير.
- أنا شاب مكسيكي! - أخبرت الأمواج الطائرة عبر الأثير - أنقذوا روحي!
- ماذا تطلب من «نادي الأحصنة الأربعة للشطرنج»؟
- الطلب الأدنى!
- ما الأمر؟
- أنا الشاب المكسيكي توري! تخرّجت للتو من مشفى المجانين. اسمحوا لي بالمشاركة في بطولة الشطرنج! اسمحوا لي!
- آه، ليس لدي وقت! - أجاب الرجل الأعور.
- SOS! SOS! SOS! - تابع الصراخ في الأثير.
- حسناً، اركب عربتك الطائرة وانزل!
- ليست لدي نقود! - وصل الصوت عبر الأثير من خليج المكسيك.
- آه، يا للاعبي الشطرنج الشباب - تنهد الرجل الأعور - أرسلوا له عربة هوائية. فليأت!
- كانت السماء تشتعل بالإعلانات المضئية، عندما اقتادوا إلى شوارع المدينة حصاناً أبيض. وقد كان هذا الحصان الوحيد الذي نجا بعد مكثّة وسائل النقل في فاسيوكي. وبقرار خاص تمت إعادة تسميته إلى حصان، رغم أنه اعتبر دائماً فرساً. رحب به عشاق الشطرنج، ملوحين له بأغصان النخيل ورقعة الشطرنج.

قال أستاذ: «لا تقلقوا! إن مشروعي يضمن لمدينتكم ازدهاراً غير مسبوق للقوى المنتجة. فكروا، ماذا سيحدث عندما تنتهي بطولة الشطرنج وعندما يغادر جميع الضيوف. إن سكان موسكو، الذي يعانون من أزمة سكن، سيسرعون للالتحاق بمدينتكم الرائعة. والعاصمة ستنتقل بصورة آلية إلى فاسيوكي. وستنتقل الحكومة إليها. وسيتم تغيير اسم فاسيوكي إلى نيو - موسكو، واسم موسكو سيتغير إلى فاسيوكي القديمة. وسيصرّ سكان لينينغراد وخاركوف أسنانهم، لكنهم لن يستطيعوا فعل شيء. وستغدو نيو - موسكو المركز الأكثر أناقة في أوروبا، وقريباً بعدها في كل أنحاء العالم.

- في كل أنحاء العالم!!! - تأوه سكان فاسيوكي المذهولون.

- نعم! وفيما بعد في الكون كله أيضاً. إن الفكر الشطرنجي الذي حول بلدة مقاطعة إلى عاصمة الكرة الأرضية، سيتحول إلى علم تطبيقي ويخترع طرق التواصل بين الكواكب. ومن فاسيوكي ستنتقل إشارات إلى المريخ والمشتري ونبتون. وسيصبح التواصل مع كوكب الزهرة سهلاً مثل الانتقال من مدينة ريانسك إلى مدينة ياروسلاف. وأنداك، من يعرف، قد ينعقد بعد ثماني سنوات في فاسيوكي مؤتمر للشطرنج بين الكواكب!

مسح أستاذ جبهته النبيلة. كان جائعاً، يريد أن يأكل، لدرجة أنه لو عُرض عليه حصان الشطرنج مشوياً لأكله بكل سرور.

- نعم، نعم - نطق الرجل الأعور ضاغطاً على نفسه، ملقياً نظرة مجنونة على الغرفة المغبرة المتربة - ولكن كيف نطبّق هذا المشروع عملياً في الحياة، كيف نبني قاعدته، كما يقال؟

نظر الحاضرون باضطراب واهتمام إلى أستاذ الشطرنج.

- أكرر، المشروع من الناحية العملية يتوقف على مبادرتكم الذاتية المنظمة. وأكرر، أنا آخذ على عاتقي العملية التنظيمية. لا توجد أية تكاليف مادية، باستثناء تكلفة إرسال البرقيات.

بدأ الرجل الأعور يدفع رفاقه، وأخذ يسألهم:

- حسناً، ماذا تقولون؟

- سنبنيه! سنبنيه! - رد سكان فاسيوكي المجتمعون.

- ما هو المبلغ المطلوب من أجل هذه... البرقيات؟

- رقم سخيف - قال أستاذ - مئة روبل.

– لدينا في الصندوق فقط واحد وعشرون روبلاً وستة عشر كوبيكاً. نحن ندرك بالطبع، أن هذا لا يكفي أبداً...

لكن أستاذ الشطرنج كان منظماً وديعاً قنوعاً. فقال:

– حسناً، اعطوني عشرين روبلاً، المتوفرة لديكم.

– وهل هي كافية؟ – سأل الأعور.

– كافية للبرقيات الأولية. وبعدها تبدأ التبرعات، ولن تذهب النقود إلى أي مكان. وضع أستاذ الشطرنج النقود في جيب سترته السفرية الخضراء، وذكر الحاضرين بجلسة الشطرنج المتزامنة لـ 160 رقعة شطرنج، وودعهم حتى المساء وتوجه إلى نادي «عامل مصنع الورق» إلى مواعده مع هيبوليت ماتفييفتش الذي قال: – أنا أتضور جوعاً.

كان جالساً بالفعل خلف كوة الصندوق، لكنه لم يجمع ولا كوبيكاً واحداً ولم يستطع شراء حتى قطعة من الخبز. وقد وضع أمامه سلة خضراء سلكية صغيرة من أجل جمع أسعار التذاكر. في مثل هذه السلال يضعون عادة، في منازل الطبقة المتوسطة السكاكين والشوك. صاح به أستاذ: – اسمع، يا فروروبيانيونوف! اوقف لمدة ساعة ونصف أعمال الصندوق! اذهب لتناول طعام الغداء في المطعم الشعبي. سأصف لك الوضع في الطريق. بالمناسبة، عليك أن تحلق ذقنك وتتنظف. لديك مظهر المتشرد. لا يمكن أن يكون لدى أستاذ الشطرنج مثل هؤلاء المعارف المشبوهين.

– لم أبع ولا تذكرة واحدة – أخبره هيبوليت ماتفييفتش.

– ليست بكارثة. سوف يتراکضون في المساء. لقد تبرعت لي المدينة بالفعل بعشرين روبلاً لتنظيم بطولة دولية للشطرنج.

– ولماذا نحتاج إلى جلسة شطرنج متزامنة؟ – همس المسؤول الإداري. – يمكنهم أن يضربونا. وبعشرين روبلاً يمكننا الآن الركوب في الباخرة – وقد وصلت الآن باخرة «كارل ليبكنخت» من أعلى النهر – والسفر بهدوء إلى ستالينغراد، وانتظار وصول المسرح هناك. فقد نتمكن هناك من فتح الكراسي والكشف عنها. عندها سنصبح أغنياء، وكل شيء ملئنا.

– لا يمكن التحدث بمثل هذه الأشياء السخيفة على معدة فارغة. فهذا يؤثر سلباً على الدماغ. قد يمكننا فعلاً، الوصول إلى ستالينغراد بعشرين روبلاً... وبأية نقود سنأكل؟ فالفيتامينات، أيها الرفيق المشير العزيز، لا تُعطى بالمجان. ولكن سوف يمكننا أن نجتمع من سكان فاسيوكي التوسعيين ثلاثين روبلاً، مقابل المحاضرة والجلسة.

– سوف يضربوننا! – قال فوروبيانينوف بمرارة.

– بالطبع، هناك مخاطرة. يمكنهم أن يضربوننا على فوادنا. على أية حال، لدي فكرة يمكنها مع ذلك أن تحميننا. لاحقاً سنتحدث عنها. أما الآن فنحن ذاهبان لتذوق ألوان الطعام المحلية.

بحلول الساعة السادسة مساءً، دخل أستاذ الشطرنج، شبعاً، حليقاً، تفوح منه ماء الكولونيا إلى أمانة صندوق نادي «عامل مصنع الورق».

وكان فوروبيانينوف، الشيع والحليق، يبيع التذاكر بنشاط.

– كيف الحال؟ – سأله بهدوء أستاذ الشطرنج.

– جمعنا رسوم الدخول من ثلاثين شخصاً، ورسوم المشاركة في الجلسة من عشرين – أجاب المدير المسؤول.

– مربحنا ستة عشر روبلاً. ضعيف، ضعيف.

– ماذا بك يا بندر! انظر أي طابور واقف! سيقتلوننا بالتأكيد.

– لا تفكر في هذا الموضوع. عندما سيضربونك سوف تبكي، ولكن لا تتباطأ الآن! تعلّم التجارة!

بعد ساعة كان في الصندوق خمسة وثلاثون روبلاً. ضج الجمهور في القاعة.

– أغلق كوة الصندوق! اعطني النقود! – قال بندر – إليك الآن: خذ خمسة روبلات، واذهب إلى الرصيف، واستأجر مركباً صغيراً لساعتين وانتظرني على الشاطئ، أسفل مخزن الحبوب. سنقوم معاً بنزهة مسائية. لا تقلق عليّ. أنا اليوم في حالة ممتازة.

دخل أستاذ الشطرنج إلى القاعة. كان يشعر بنفسه نشيطاً مفعماً بالحيوية، وكان يعلم تماماً أن الخطوة الأولى من E 2 إلى E 4 لا تشكل أية مضاعفات. أما بقية الحركات فكانت ترتسم في ذهنه بضباية مطبقة، لكن هذا لم يزعج أبداً المحتال الكبير. فقد كان لديه مخرج غير متوقع أبداً، جاهز لإنقاذ أية لعبة ميؤوس منها.

استقبل أستاذ الشطرنج بالتصفيق. وكانت قاعة النادي الصغيرة مزدانة بأعلام متعددة الألوان.

قبل أسبوع جرت في القاعة أمسية «جمعية الانقاذ في المياه»، وهذا ما دل عليه الشعار الملصق على الجدار: **قضية مساعدة الفرقى - لتتم على أيدي الغارقين أنفسهم**

انحنى أستاب احتراماً، ومد يديه إلى الأمام، وكأنه رافضاً التصفيق الذي لا يستحقه، وصعد إلى المنصة. وقال بصوت رائع: - أيها الرفاق! رفاقي وإخوتي في الشطرنج. موضوع محاضرتي اليوم يخدم ما كنت قد ألقيته، وأعترف، ألقيته بنجاح، قبل أسبوع في نييجني نوفغورود. موضوع محاضرتي - فكرة البداية الخلاقة. ما هي البداية، أيها الرفاق، وما هي الفكرة، يا رفاقي؟ البداية، أيها الرفاق، هي «خطوة مرتبطة بالخيال Quasi una fantasia». وما تعني الفكرة، أيها الرفاق؟ الفكرة، رفاقي، الفكر الإنساني، المتجسد في شكل شطرنجي منطقي. وحتى مع قوى ضئيلة يمكن السيطرة على لوحة الشطرنج بأكملها. وكل شيء يتوقف على كل شخص على حدة. على سبيل المثال، هذا الرجل الأشقر في الصف الثالث. نفترض أنه يلعب بشكل جيد...

احمر الرجل الأشقر خجلاً.

- وهذا الشاب الأسمر، لنفترض أنه يلعب أسوأ.

التفت الجميع ونظروا إلى الشاب الأسمر.

- ماذا نرى، أيها الرفاق؟ نرى الأشقر يلعب جيداً، والأسمر يلعب بشكل سيء. ولا يمكن لأية محاضرة أن تبدل تناسب القوتين هذا، إذا لم يتدرب كل فرد بمفرده باستمرار على الداما... عفواً أردت أن أقول على الشطرنج... والآن، سأروي لكم، يا رفاقي، بعض القصص الإرشادية من ممارسة أبطالنا الحداثيين المحترمين كابابلانكا ولاسكر والدكتور غريغوريف.

قص أستاب على الجمهور بعض الطرائف من كتاب العهد القديم، المستقاة من طفولته من «المجلة الزرقاء»، وبهذا أنهى الفصل الإضافي.

ذهل الجميع قليلاً من قصر المحاضرة. ولم يرفع الرجل الأعور عينه الوحيدة من حذاء أستاذ الشطرنج.

بيد أن بدء الجلسة المتزامنة لمباراة الشطرنج أوقف الشك المتزايد لدى لاعب الشطرنج الأعور. فقد رتب مع الجميع الطاولات بهدوء. بلغ عدد اللاعبين ضد أستاذ الشطرنج ثلاثين من الهواة. كثير منهم كان مرتبكاً تماماً، وكان ينظر كل دقيقة إلى كتب الشطرنج، لإنعاش ذاكرته بالخيارات المعقدة التي كانوا يأملون بواسطتها الاستسلام أمام أستاذ الشطرنج على الأقل بعد الحركة الثانية والعشرين.

نظر أستاذ إلى صفوف البيادق السوداء التي كانت تحيط به من جميع الجهات، وإلى الباب المغلق، وشرع بالعمل بشجاعة. اقترب من الرجل الأعور، الجالس على اللوحة الأولى، وحرك بيدق الشاه (الملك) من المربع e2 إلى المربع e4.

أمسك الرجل الأعور أذنيه بيديه على الفور، وبدأ يفكر متوتراً. سَمِعَ همس في صفوف هواة الشطرنج: - أستاذ الشطرنج حرك بيدق الملك من المربع e2 إلى المربع e4.

لم يدلّع أستاذ خصومه بتنوعات البدايات. وعلى اللوحات التسع والعشرين الباقية قام بالعملية نفسها: نقل بيدق الملك من المربع e2 إلى المربع e4. تشبث الهواة بشعورهم، واحداً إثر الآخر، وغرقوا في تفكير محموم. وحول غير اللاعبين أنظارهم إلى أستاذ الشطرنج. هاوي التصوير الوحيد في البلدة صعد على الكرسي وهم بإشعال زر الفلاش في جهاز التصوير، لكن أستاذ لوح بيديه غاضباً، وصرخ بصوت عالٍ: - أبعدوا المصور! إنه يعيق فكري الشطرنجي!

فقد قرر في نفسه قائلاً: «ولماذا بحق السماء أترك صورتني في هذه البلدة البائسة. أنا لا أحب التعامل مع الشرطة».

أرغمت همسات عشاق الشطرنج الغاضبة المصور على التخلي عن محاولته. وكان الامتناع شديداً، لدرجة أنهم أخرجوا المصور خارج القاعة.

في الخطوة الثالثة تبين أن أستاذ الشطرنج يلعب ثماني عشرة لعبة إسبانية. في الاثنتي عشرة المتبقية استخدمت البيادق السوداء خطة دفاع فيلودور (فرانسوا أندريه فيلودور - لاعب شطرنج فرنسي مشهور - م) القديمة لكنها المضمونة إلى حد كبير. ولو عرف أستاذ أنه يلعب هذه الألعاب الذكية ويصطدم بمثل هذا الدفاع المختبر، لأصيب بالدهشة إلى حد كبير. والحقيقة، أن المحتال الكبير كان يلعب الشطرنج للمرة الثانية في حياته.

لقد أصيب هواة الشطرنج وأولهم اللاعب الأعور بالرعب في البداية. فقد كان غدر أستاذ الشطرنج جلياً، لا لبس فيه.

كان أستاذ الشطرنج، المستهزئ في أعماقه بهواة الشطرنج المتخلفين من مدينة فاسيوكي، يضحى بسهولة غير عادية ببيادقه الثقيلة والخفيفة يمناً ويسرة. حتى أنه ضحى بالملكة (الوزير) أمام اللاعب الأسمر الذي عامله بفضاظة أثناء المحاضرة. أصيب اللاعب الأسمر بالرعب، وأراد الاستسلام على الفور، وفقط بجهد جهيد من إرادته أرغم نفسه على متابعة اللعبة.

بعد خمس دقائق دوى الرعد وسط السماء الصافية.



– شاه مات! – غمغم اللاعب الأسمر الخائف. – كش ملك! أيها الرفيق الأستاذ.

حلل أستاذ الموقف ودعا فرزان ملكة بشكل معيب، وهنا بتعال اللاعب الأسمر بالفوز. وانتشر هدير في صفوف هواة الشطرنج.

– «حان وقت الهروب» – فكر أستاذ في نفسه، وهو يتنقل بهدوء بين الطاولة وترتيب البيادق بلا مبالاة.

– أنت لم تضع الحصان في المكان الصحيح، أيها الرفيق أستاذ الشطرنج – علق الأعور – فالحصان لا يمشي على هذا النحو.

– آسف، آسف، أعتذر – أجاب أستاذ الشطرنج – لعبت قليلاً بعد المحاضرة.

وخلال الدقائق العشر التالية، خسر أستاذ الشطرنج عشر جولات.

انتشرت صيحات الدهشة في قاعة نادي «عامل مصنع الورق». ونضج الصراع. فقد خسر أستاذ خمس عشرة لعبة متتالية، وسرعان ما خسر ثلاث جولات أخرى. وبقي الأعور وحده. ففي بداية اللعبة ارتكب بسبب الخوف كثيراً من الأخطاء وبعد ذلك أدار اللعبة إلى النهاية المظفرة. وقد سرق أستاذ، بصورة خفية عن الحاضرين الجندي الأسود من اللوحة وأخفاه في جيبه.

تجمع الحضور بشكل حاشد حول اللاعبين.

– هنا كان يقف للتو جنديي الأسود في مكانه – صاح اللاعب الأعور ونظر مدققاً – والآن غير موجود!

– لا، هذا يعني أنه لم يكن موجوداً! – أجاب أستاذ بوقاحة.

– كيف لم يكن موجوداً؟ أذكر بوضوح.

– بالطبع، لم يكن موجوداً.

– وإلى أين ذهب؟ هل فزت به؟

– فزت.

– متى؟ في أي خطوة؟

- لماذا تصرع رأسي بجنديك؟ إذا كنت تستسلم، فقل صراحة
- اسمحوا لي، أيها الرفاق، لدي جميع الخطوات مسجلة
- المكتب يسجل - قال أستاذ.
- هذا شائن - صرخ الأعور - اعطني جندي.
- استسلم، استسلم، ما هذه اللعبة، لعبة القط والفأر
- اعطني الجندي!
- بهذه الكلمات، أدرك أستاذ الشطرنج أن التسوية أصبح مثل الموت، فأخذ في قبضته عدة بيادق ورماها على رأس اللاعب الأعور.
- أيها الرفاق - صاح الرجل الأعور - انظروا جميعكم! إنه يضرب هاوي الشطرنج!
- اندهش لاعبو الشطرنج في بلدة فاسيوكي.
- ودون أن يضيع وقته الثمين، رمى أستاذ لوحة الشطرنج على المصباح، فأصابت في الظلام الذي حل فك أحد الأشخاص وجبينه، وركض إلى الشارع. فركض وراءه هواة الشطرنج في فاسيوكي، ساقطين أحدهم على الآخر.
- كانت أمسية مقمرة. اندفع أستاذ في الشارع الفضي بسهولة، كالملاك، مبتعداً عن أرض الخطيئة. ونظراً لفشل تحول فاسيوكي إلى مركز الكون، اضطر إلى الهرب ليس بين القصور، بل بين الأكواخ الخشبية بدرفات نوافذها الخارجية.
- اندفع وراءه هواة الشطرنج.
- امسكوا أستاذ الشطرنج - زار اللاعب الأعور.
- المحتال! - أيده الباقون.
- بلهاء - أجاب أستاذ الشطرنج بشراسة، وزاد من سرعته.
- النجدة - صاح لاعبو الشطرنج المخدوعون.

صعد أستاذ على الدرج المؤدي إلى رصيف الميناء قفزاً. كان عليه أن يصعد أربعمائة درجة. على المنصة السادسة من الدرج كان ينتظره اثنان من هواة الشطرنج اللذان وصلا إلى هنا عبر طريق قصير ملتو على طول المنحدر. ألقى أستاذ نظرة من حوله. من الأعلى كانت تنحدر جماعة من المشجعين الغاضبين لدفاع فيليدور، مثل قطيع من الكلاب. لم يكن هناك أي مجال للتراجع. لهذا ركض أستاذ إلى الأمام.

– الآن، سأريكم أيها الأوغاد! – زأر على الكشافين الشجاعين، مندفعاً من المنصة الخامسة.

زعق الكشافان الخائفان، وسقطا خلف الدرابزين وانحدرا إلى مكان ما في ظلمة التلال والمنحدرات. وأصبح الطريق خالياً، آمناً.

– امسكوا أستاذ الشطرنج! – صدر صوت من الأعلى. كان المطاردون يركضون، مقرقعين على الدرج الخشبي مثل كرات البولينغ الساقطة.

بعد أن ركض إلى الشاطئ، انحرف أستاذ إلى اليمين، باحثاً بعينه عن القارب مع المسؤول الإداري المخلص. كان هيبوليت ماتفييفتش يجلس مطمئناً في القارب. انقض أستاذ على مقعد القارب وأخذ يجذف بعنف بعيداً عن الشاطئ. بعد دقيقة تساقطت الأحجار على القارب. وقد أصيب بإحداها هيبوليت ماتفييفتش. وظهر ورم قاتم على وجهه، أعلى بقليل من البثرة البركانية. غطى هيبوليت ماتفييفتش رأسه بكتفيه وبدأ يئن.

– ها هي قبعة أخرى! كادوا أن يقطعوا رأسي، وأنا لا أشتهي: نشيط ومرح. وإذا ما أخذنا في الاعتبار خمسين روبلاً من الربح الصافي، فمقابل ورم واحد على رأسك – يعد مكافأة جيدة إلى حد كبير.

في غضون ذلك، انطلق المطاردون، الذين أدركوا الآن فقط، أن خطة تحويل فاسيوكي إلى نيو – موسكو قد انهارت وأن أستاذ الشطرنج أخذ من المدينة خمسين روبلاً من أموال فاسيوكي التي جمعوها بعرق جبينهم – انطلقوا في قارب كبير وجدفوا صارخين إلى وسط النهر. كان القارب يضم ثلاثين شخصاً. فجميعهم كانوا يودون المشاركة الشخصية في الانتقام من أستاذ الشطرنج. وكان اللاعب الأعور يقود هذه الحملة. وكانت عينه الوحيدة تلمع في الظلام مثل المنارة.

– امسك أستاذ الشطرنج! – كانوا يصرخون من القارب الكبير بحمولته الزائدة.

– بسرعة، يا كيسا – قال أستاذ – إذا ما لحقونا وأمسكوا بنا، فأنا لا يمكنني أن أضمن سلامة نظارتك. كان القاربان يعومان إلى أسفل النهر مع التيار. وأخذت المسافة بينهما تتناقص باستمرار. استنفذ أستاذ كامل قواه.

– لن تهربا أيها الوغدان! – صاحوا من المركب الكبير العائم.

لم يجب أستاذ: لم يكن لديه وقت. كانت المجاذيف تخرج بسرعة من الماء وتعود. وكان الماء يجري على شكل تيارات تحت المجاذيف المجنونة ويضرب القارب.

– هيا، هيا – قال أستاذ مخاطباً نفسه.

كان هيبوليت ماتفييفتش يجدف متألماً. لكن القارب الكبير كان متقدماً. فجسمه العالي أخذ يتجاوز قارب صاحبي الامتياز الصغير من الجانب الأيسر، من أجل دفع أستاذ الشطرنج إلى الشاطئ. كان مصير مؤلم ينتظر صاحبي الامتياز. وكان الفرع على الزورق الكبير شديداً، بحيث انتقل جميع لاعبي الشطرنج الهواة إلى الجانب الأيمن كي يلحقوا بالقارب الصغير، وينهالوا بقواهم المتفوقة على الشرير – أستاذ الشطرنج.

– حافظ على النظارة، كيسا! – صرخ أستاذ يائساً، طارحاً المجاذيف بعيداً – الآن سيبدأ الضرب!

– أيها السادة! – صرخ فجأة هيبوليت ماتفييفتش بصوت كصوت الديك. – هل من المعقول أنكم ستضربوننا الآن؟

– وسنضربكم بشدة! – أرعد هواة فاسيوكي، عازمين على القفز إلى القارب الصغير.

ولكن في هذا الوقت وقعت حادثة مزعجة للغاية للاعبين الشطرنج الشرفاء في العالم كله. مال القارب الكبير بصورة مفاجئة وامتلأ بالماء.

– كونوا حذرين! – صرّ القبطان الأعور.

ولكن كان الوقت قد فات. تجمع عدد كبير جداً من هواة الشطرنج في الجانب الأيمن من «مدرعة» فاسيوكي. ولتغير مركز الثقل، لم يعد يتأرجح القارب الكبير، وبتطابق كامل مع قوانين الفيزياء، انقلب بالكامل. وكسر العويل الجماعي هدوء النهر.

– آآخ – أن لاعبو الشطرنج.

ثلاثون من هواة الشطرنج بالكامل وجدوا أنفسهم في الماء. وسرعان ما طافوا على سطح الماء وتشبثوا بسرعة بالقارب المقلوب، واحداً إثر آخر. وكان الأعور آخر من تشبث به.

– يا لكم من بلهاء – صاح أستاذ فرحاً – لماذا لا تضربون أستاذكم في الشطرنج؟ إن لم أكن مخطئاً، أردتم أن تضربوني؟

دار أستاذ بقاربه حول الذين تعرضوا للكارثة.

– أنتم تدركون، يا أبناء فاسيوكي، أنه كان باستطاعتي إغراقكم واحداً إثر الآخر، لكنني أهبكم الحياة. عيشوا، أيها المواطنون. ولكن، ولكن كُرمي لله الخالق، لا تلعبوا بالشطرنج! أنتم ببساطة، لا تتقنون اللعب! آه منكم، أيها الرجال البلهاء... ولنتابع طريقنا هيبوليت ماتفييفتش. وداعاً، أيها الهواة العوران! أخشى أن فاسيوكي لن تصبح مركز الكون. ولا أعتقد أن يأتي أبطال الشطرنج إلى حمقى مثلكم، حتى إذا ما رجوتهم الحضور. وداعاً، يا عشاق الأحاسيس الشطرنجية القوية! فليعيش «نادي الأحصنة الأربعة»!

## الفصل السابع والثلاثون وغيرهم...

استقبل الصباح صاحب الامتياز بمرأى تشيبوكساري. كان أستاذ غافياً على دفة القيادة. وكان هيبوليت ماتفييفتش نعساً يجذب الماء بمجذافيه. كان الاثنان يرتجفان من الليل البارد. وفي الشرق كانت تتفتح براعم الأزهار. وكانت نظارة هيبوليت ماتفييفتش تزداد إشراقاً. وكانت عدستها الزجاجيتان البيضاويتان تتألقان. وتنعكس عليهما بالتناوب ضفتا نهر الفولغا. وقد انعكست إشارة ملاحية من الضفة اليسرى على زجاج العدستين المزدوج. وكانت قباب تشيبوكساري الزرقاء تمخر كالمراكب. كانت تمتد حديقة في الشرق. وتحولت البراعم إلى براكين وأخذت تقذف أفضل الألوان الحلوة. وكانت الطيور على الضفة اليسرى تثير صخباً كبيراً وحاداً. وومض قوس النظارة الذهبي وأعمى أستاذ الشطرنج. لقد أشرقت الشمس.

فتح أستاذ عينيه وانتصب واقفاً، فأمال القارب وطقطق بعظامه. وقال متثائباً: - صباح الخير، يا كيسا جئت إليك محبباً، لأخبرك بأن الشمس قد نهضت وأنها أطلقت أشعتها الحارة هناك...

- الرصيف - أبلغه هيبوليت ماتفييفتش.

أخرج أستاذ الدليل واستعلم.

- على ما يبدو، إنها مدينة تشيبوكساري. حسناً، حسناً.

«نلت انتباهكم إلى الموقع الجميل لمدينة تشيبوكساري»...

- كيسا، هل موقعها جميل حقاً؟

«يعيش في تشيبوكساري حالياً 7702 نسمة».

- كيسا دعنا نتوقف عن مطاردة الماس ونزيد عدد سكان تشيبوكساري إلى سبعة آلاف وسبعمائة وأربعة أشخاص. ما رأيك؟ سيكون هذا فعلاً جداً... نفتح « Petits chevaux محل ملاهي صغير» ومن هذا « Petits chevaux » سنكسب قطعة خبز كبيرة حقيقة... وماذا بعد.

«تأسست المدينة في عام 1555، ولا تزال تحتفظ بعدد من الكنائس الممتعة للغاية. بالإضافة إلى المؤسسات الإدارية لجمهورية تشوفاشنيا يوجد في المدينة: كلية عمالية، ومدرسة حزبية، ومعهد متوسط تربوي، ومدرستان ثانويتان، ومتحف، وجمعية علمية،

ومكتبة. على رصيف ميناء تشيبوكساري وفي البازار يمكن رؤية السكان التشوفاش والتشرميس، الذي يتميزون بملامحهم الخارجية»...

ولكن، وقبل أن يقترب الصديقان من الرصيف، حيث يمكن رؤية التشوفاش والتشرميس، اجتذب انتباههما جسم عائِم يجري مع التيار بالقرب من القارب.

– كرسي! – صاح أستاذ – أيها المدير الإداري، كرسيّنا يطفو.

اقترب الرفيقان بقاربهما من الكرسي. كان يتمايل ويستدير، وينغمر في الماء، ثم يطفو ويعوم من جديد، مبتعداً عن قارب الشريكين. وكان الماء يتغلغل بحرية إلى جوفه المفتوح.

لقد كان هذا الكرسي الذي فتحا جوفه على باخرة «سكريابين»، وهو يتوجه الآن ببطء إلى بحر قزوين.

– مرحباً يا صديقي – صاح أستاذ – لم نتقابل منذ وقت طويل! أتعرف، يا فوروبيانينوف، إن هذا الكرسي يذكّرني بحياتنا. نحن أيضاً نعوم مع التيار. يغرقوننا، ونسبح ونعوم، رغم أننا لا ندخل المسرة على قلب أحد بفعلنا هذا. لا أحد يحبنا، إذا لم نحسب المباحث الجنائية التي لا تحبنا أيضاً. لو استطاع بالأمس هواة الشطرنج إغراقنا، لما بقي منّا سوى محضر فحص الجثتين: «كانت الجثتان كلتاهما مسطحتين، أقدامهما نحو الجنوب الشرقي ورأساهما نحو الشمال الغربي. هناك جروح ممزقة على الجسدين ناتجة كما يبدو عن أداة غير حادة». كان من الممكن أن يضربنا الهواة بألواح الشطرنج. وهذا ما يرد في التقرير بأن الأداة غير حادة... «تخص الجثة الأولى رجلاً مسناً في الخامسة والخمسين من العمر يرتدي جاكيتاً لامعاً ممزقاً، وسروالاً وحذاءً قديمين. وفي جيب الجاكيت بطاقة هوية باسم كونراد كارلوفيتش – ميخلسون...» هذا ما كان سيكتب عنك يا كيسا.

– وماذا كان سيكتب عنك؟ – سأل فوروبيانينوف غاضباً.

– أوه عنيّ كان سيكتب شيء آخر تماماً. كان سيكتب عني هكذا: «الجثة الثانية تخص رجلاً في السابع والعشرين من العمر. كان يحب ويعاني. كان يحب المال ويعاني من نقصه. رأسه ذو جبين عال، مغطى بشعر أسود – أزرق مجعد، متوجه نحو الشمس. وكانت قدماه الرشيقتان، ترتديان حذاءً مقاسه اثنان وأربعون، متجهتان إلى الشفق القطبي. يرتدي على جسمه ثياباً بيضاء نظيفة، وفي عنقه سنسال بقبثارة ذهبية مطعمة بعرق اللؤلؤ ونوطة اللحن الرومانسي» وداعاً، أيتها القرية الجديدة». كان الشاب الفقيد يعمل في حرق الأخشاب، وهذا ما يظهر من خلال هويته الموجودة في جيب معطفه، الصادرة في 23/7/1924 عن المشغل اليدوي «بيغاس وفرناس» تحت رقم 86/1562». وكانوا سيدفنونني باحتفال، مع الأوركسترا والخطب، وستعلّق على نصبي التذكاري عبارة: «هنا

يرقد فني التدفئة والمقاتل أستاب - سليمان - برتا - ماريا - بندر - بيه، وقد توفي أبوه الذي يحمل الجنسية التركية ولم يترك لابنه أستاب - سليمان أي إرث. وكانت والدته كونتيسة وكانت تعيش من كسب غير مشروع».

وبينما كان صاحب الامتياز يتحدثان على هذا النحو، وصلا إلى شاطئ تشيبوكساري.

في المساء، وبعد أن باع زورق فاسيوكي وأضافا ثمنه خمسة روبلات إلى رأسمالهما، ركب الصديقان بسفينة الديزل «أوريتسكي» متوجهين إلى مدينة ستالينغراد، عازمين على أن يسبقا باخرة سحب اليانصيب البطيئة والالتقاء بفرقة مسرح كولومبوس في ستالينغراد. (من المقطع التالي يبدأ مقطع محذوف من الرقيب السوفييتي - م.) \* \* \*

حملت السفينة العملاقة المضيئة الرفيقيين إلى أسفل النهر. ومراراً بمدن وبلدات مارينسكي بوساد، قازان، تيتيوشي، أوليانفسك، سينغيلي، قرية نوفوديفيتشي، وقبيل مساء اليوم التالي من رحلتها اقتربا من مدينة جيغولي.

مائة مرة حل المساء في هذه الرواية، وغربت الشمس وسطع النجم، ولكن لم يكن المساء حتى الآن بمثل هذه الوداعة والحدس بوقوع أحداث كبيرة مثل هذا المساء.

امتلأت أسطح سفينة «أوريتسكي» بحشد برتقالي من الركاب قبيل غروب الشمس. كانت جبال جيغولي غير المرتفعة خضراء اللون من الجانب الأيمن. وسيطرت الإثارة على نفوس الركاب.

شق أستاب طريقه بصعوبة كبيرة من غرف الدرجة الثالثة إلى مقدمة السفينة، وأخرج الدليل وعلم أن الطريق على طول جيغولي يشكل متعة استثنائية. وقرأ فيه بصوت عال: «تمر الباخرة بالقرب من الشاطئ نفسه، مقطعة ظلال قمم الشاطئ الساقطة في النهر. وتغري السجادة الكثيفة من النباتات الخضراء بمختلف درجات اخضرارها المسافرين بالتعمق في الغابات البكر، للاستمتاع بالهواء النقي الرائع والافتتان بالمسافات المنكشفة ونهر الفولغا الجميل القوي هنا، وتذكر بالماضي القديم، حيث كانت العناصر المتمردة الفوضوية...»

احتشد الركاب حول أستاب.

«العناصر الفوضوية المتمردة، العاجزة عن إعادة بناء النظام الاجتماعي القائم، تتروض هنا، زارعة الخوف في نفوس التجار والموظفين المنطلقين بالضرورة إلى نهر الفولغا، باعتباره طريقاً تجارياً هاماً. ولا عجب أن الذاكرة الشعبية تحتفظ حتى الآن بالكثير من الأساطير والأغاني والحكايات، المرتبطة بيرماك تيموفيفتش وإيفان كولتسو وستبان رازين (أبطال



شعبيون مشهورون في التاريخ الروسي والفولكلور الروسي – م.) وغيرهم الذي كانوا في جيغولي...»

– وغيرهم – كرر أستاذ المسحور بحلول المساء.

– وغيرهم! – تأوه الحشد، محدقاً في خطوط الشفق لتل مولوديتسكي.

– وغيرهم هم هم! – دوت صافرة الباخرة، داعية إلى الفضاء الرحب، إلى الأساطير والأغاني والحكايات الراقدة في قمم جيغولي.

ارتفع القمر مثل بالون طفل. وأضاء الجبل البكر.

كان هذا يفوق القدرات البشرية.

ومن باطن الباخرة سمع هدير غيتار، وغنى صوت أنثوي عاطفي:

من وراء الجزيرة إلى المجرى العميق،

إلى امتداد موجة النهر،

تعم قوارب ستينكا رازين... (هنا ولاحقاً أغنية من الفولكلور الروسي – م.) التقطت الأصوات المتعاطفة الأغنية الشعبية. وساد الحماس في السفينة. وتذكر الجميع «الماضي البعيد عندما كانت تتروض هنا العناصر الفوضوية المتمردة تزرع الخوف...»

لقد أحدث القمر وجيغولي انطباعاً عادياً لا قدرة للنفس البشرية على مقاومته.

عندما مرت سفينة «أوريتسكي» أمام مثنوى الأخوين الشقيقين (قصة من التاريخ الفلكلوري الروسي – م.) بدأ يغني الجميع. ولم يعد يسمع أي صوت لآلات الغيتار. وتغطى كل شيء بدوي أصوات كالرعد: نحتفل بعرس جديد...

كانت تظهر على عيون ركاب الدرجة الأولى دموع بلون القمر. ومن قسم الآليات ظهر صوت طغى على هدير الآلات: والعريس مرح أوه، أوه، وسكران أوه، أوه

وأضاف ركاب الدرجة الثانية الواقعة في مقدمة السفينة من صميم قلوبهم: كانت تُسمع همهمة خلفهما:

ضحى بنا من أجل المرأة.

نام معها ليلة واحدة...

«نام ليلة، نام ليلة، نام ليلة» - ردد الجبل ليسايا (الأقرع) بحيرة وارتاباك.

«نام ليلة! - غنوا في الدرجة الثالثة - هو نفسه غدا امرأة في الصباح».

بحلول هذا الوقت كانت سفينة «أوريتسكي» قد لحقت باخرة سحب يانصيب السندات. ومن بعيد كان من الممكن أن يظن المرء أن تمرداً للبحارة يجري على الباخرة: كانت تُسمع تأوهات ولعنات وشخير النزع قبل الموت. وبدأ وكأن براميل الروم قد تحطمت على ظهر باخرة «سكريبين»، وعُلقت مشانق المواطنون ركاب الدرجة الأولى والثانية، والقبطان بجمجمة مضروبة ملقى أمام باب يحمل لوحة «قسم الحسابات المتبادلة».

أما في الواقع، فإن البحارة وركاب الدرجات الأولى والثانية والثالثة كانوا يرددون بصوت معبر غير عادي المقطع الأخير من الأغنية: لماذا تكدرتم، أيها الشياطين؟

وأنت، يا فيلكا، تبا، ارقصي!

فلنغنّ، يا إخوتي، الأغنية القديمة...

وحتى القبطان كان واقفاً على الجسر، ولا يبعد نظره عن تل تساريف (تل القيصر)، يغني في الرحاب المقمرة: فلنغنّ، يا إخوتي، الأغنية القديمة

في ذكرى روحها!

«روحها!» - غنى المصور السينمائي بولكان، وهو يهز وجهه، متشبثاً بالدرازين.

«روحها!» - هدل غالكين وبالكين ومالكين وتشالكين وزالكيند.

«روحها!» - نادى سيمبيفتش - سندييفتش.

«روحها!» - أضاف الموظفون الذين لم تدخل رشاقتهم في هذه الأمسية العطرة في إطار علاقاتهم الوظيفية.

وكان القبطان، ذئب النهر القديم، يبكي كالأطفال. ثلاثين عاماً كان يقود البواخر مروراً بجيغولي، وفي كل مرة كان يبكي كطفل. وبما أنه كان يقوم في الملاحاة النهرية بأكثر من عشرين رحلة نهريّة كل عام، فعلى هذا النحو أمكنه البكاء أكثر من ستمائة مرة، خلال ثلاثين عاماً.

هل ثمة حاجة إلى دليل آخر على جمال جيغولي الحزين الذي لا يقاوم؟ ولأنها جارت  
الباخرة «سكريبين»، كانت السفينة «أوريتسكي» في وسط إعصار الأغنية الفلكلورية.  
رمى الركاب كلهم الأميرة الفارسية في النهر.

تراكضت الزوارق البخارية المحلية، المليئة بالسكان المحليين، الذين نشأوا على مرأى  
جيغولي. ومع ذلك فقد غنى السكان المحليون أيضاً أغنية «ستينكا رازين»

أو لم تروا الهدية

من قوازاقي الدون...

أضيت العوامات الفاصلة وانعكست في الماء على شكل نوافذ الصالونات بزواياها الأربعة،  
وومضت مصابيح الزوارق البخارية المحلية. وهدرت الأغاني، وبدأ وكأن حفلة رقص  
تجري على النهر.

تجاوزت سفينة «أوريتسكي» باخرة سحب اليانصيب بسهولة. كان صاحب الامتياز ينظران  
إلى باخرتهم العائمة الأولى بأمل. فهناك في الأضواء، بين اللافتات المحظرة وضجيج  
الموظفين، في مقصورة المخرج ثلاثة كراسي. ابتعدت باخرة «سكريبين» ببطء، وعلى  
طول الطريق حتى سمارى كانت أضواؤها ظاهرة. (نهاية القسم المحذوف من هذا الفصل  
من الرقيب السوفييتي - م.) \* \* \*

وصلت الباخرة «سكريبين» إلى ستالينغراد في أوائل تموز/يوليو. استقبلها الصديقان،  
مختبئين خلف الصناديق على الرصيف. وقبل تفريغ السفينة من الحمولة جرى سحب  
اليانصيب. وتم سحب جوائز كبيرة.

اضطرا لانتظار الكراسي أربع ساعات. نزل من الباخرة أولاً العاملون في مسرح كولومبوس  
وموظفو السحب. ومن بينهم برز وجه برسيتسكي المشرق.

أثناء جلوسهما في مكمنهما - سمع صاحب الامتياز صرخاته:

- نعم! أنا ذاهب الآن إلى موسكو! وقد أرسلت برقية بالفعل. أتعرفون أية برقية؟ «أنا أفرح  
معكم». وليخمنوا المعنى.

ثم جلس برسيتسكي في سيارة مستأجرة، وبعد أن فحصها مسبقاً من جميع الجهات  
ولمس المبرد (الرادياتير)، غادر مصحوباً لسبب ما بصيحات «أورا».

وبعد أن أنزل من الباخرة المكبس الهيدروليكي، بدأوا بإنزال الديكور المادي لمسرح كولومبوس. وأنزلوا الكراسي عندما حل الظلام. تم نقل العاملين في مسرح كولومبوس بخمس شاحنات تقودها الأحصنة، وتوجهوا بمرح إلى المحطة وهم يتصايحون بمرح.

– يبدو أنهم لن يمثلوا في ستالينغراد – قال هيبوليت ماتفييفتش.

وهذا ما كان يحير أستاب. فقرر قائلاً:

– سنضطر إلى السفر، وبأية نقود سنسافر؟ على أية حال، لنذهب إلى المحطة، وهناك سنرى ما علينا فعله.

أتضح في المحطة، أن المسرح سيسافر إلى بياتيغورسك عن طريق تيخوريتسكايا – مينيرالنيي فودي (المياه المعدنية). كانت النقود لدى صاحبي الامتياز تكفي لتذكرة واحدة.

– هل أنت قادر على السفر من دون تذكرة؟ – سأل أستاب فوروبيانينوف.

– سأجرب – قال هيبوليت ماتفييفتش بخجل.

– اذهب إلى الجحيم! الأفضل أن لا تجرب! أسامحك مرة أخرى. فليكن، أنا سأسافر من دون تذكرة.

تم شراء تذكرة لهيبوليت ماتفييفتش على عربة قطار درجة الثالثة، واقفاً من دون مقعد والتي وصل عليها إلى محطة «مينيرالنيي فودي» التي غرست فيها أشجار الدفلى في أحواض خضراء، والتابعة لخطوط السكك الحديدية لشمال القوقاز، وأخذ يبحث عن أستاب، محاولاً عدم مواجهة العاملين في مسرح كولومبوس، الخارجين من القطار.

كان المسرح قد غادر منذ زمن متوجهاً إلى بياتيغورسك، ونزل في شاليهات جديدة، ولم يحضر أستاب بعد. وصل أستاب مساءً، ووجد فوروبيانينوف في حالة يرثى لها. تأوه المشير قائلاً: – أين كنت؟ لقد أنهكت كثيراً.

– أنت أنهكت، مسافراً والتذكرة في جيبك؟ وأنا، المسافر من دون تذكرة لست منهكاً؟ إذن، لست أنا من طاردوه من قطارك إلى قطار تيخوريتسكايا؟ إذن، لست أنا الذي جلس ثلاث ساعات ينتظر كالأحمق قطار الشحن المحمل بزجاجات مياه نارزان المعدنية الفارغة؟ أنت خنزير، أيها المواطن المشير. أين المسرح؟

– في بياتيغورسك.

– لنذهب إلى هناك! لقد أنجزت بعض الأشياء على عجل في الطريق. يتجلى الربح الصافي في ثلاثة روبلات. هذا قليل بعض الشيء لكنه كاف لشراء زجاجتي ماء نارزان المعدنية وتذكرتي سفر على القطار.

خشخش قطار الضواحي مثل العربة، ونقل خلال خمسين دقيقة المسافرين إلى بياتيغورسك. وصل صاحب الامتياز إلى سفح جبل معشوق مروراً بزميكي وبيشتاو.

## الفصل الثامن والثلاثون منظر البركة المَلَكِيَّة الشفافة

كان مساء يوم الأحد. كل شيء كان نظيفاً ومغسولاً. حتى جبل معشوق، الممتلئ بالأدغال والأحراج بدا منظفاً بعناية، وفاح برائحة الجبل النباتي.

كانت السراويل البيضاء من مختلف الأنواع والأقمشة تلمع على طول الرصيف الصغير: سراويل من القماش اللين اللحائي، ومن الجلد، ومن القماش المتين الناعم، ومن القطن والفانيلا الناعمة. هنا كانوا يتمشون بالصنادل وقمصان «أباشي». وجد صاحب الامتياز نفسيهما غربيين بحذائيهما الثقيلين المتسخين، وسرواليهما السميكتين المغبرتين، وصدرتيهما الحاميتين وجاكيتيهما السميكتين الثقيلتين. ومن بين المجموعة المتنوعة من الفساتين القطنية البهيجة التي كانت ترتديها فتيات المنتجع كانت بدلة رئيسة المحطة هي الأكثر أناقة وبريقاً.

ولدهشة جميع الزوّار كان رئيس المحطة امرأة. كان شعرها الأشقر المجعد ينسحب من تحت القبعة الحمراء مع شريطين فضيين على أطراف القبعة. كانت ترتدي بلوزة رسمية بيضاء وتنورة بيضاء.

وقد دخل المسافران المعجبان برئيسة المحطة، بعد أن قرأ الملصق الجديد عن جولة مسرح كولومبوس في بياتيغورسك، وبعد أن شربا كأسين بخمسة كوبيكات من مياه نارزان، إلى المدينة على خط الترام «المحطة» - «حديقة الزهور». وقد أخذوا منهما عشرة كوبيكات رسم الدخول إلى «حديقة الزهور».

في «حديقة الزهور» كان هناك الكثير من الموسيقى، والكثير من الناس المرحين المبتهجين، والقليل من الزهور. كانت الأوركسترا السمفونية تعزف في صَدَفَة بيضاء كبيرة «رقصة البعوض». وكانوا يبيعون مياه نارزان المعدنية في معرض الشاعر ليرمنتوف. كما كانوا يبيعون مياه نارزان في الأكشاك ولدى الباعة الجوليين.

لم يكن هناك من يهتم بالباحثين القذرين عن الماس.

- آه، يا كيسا - قال أستاذ - نحن غرباء في عيد الحياة هذا.

أمضا صاحب الامتياز الليلة الأولى في المنتجع عند نبع نارزان.

هنا فقط، في بياتيغورسك، بعد أن قدم مسرح كولومبوس لأهالي المدينة المذهولين مسرحية «الزواج» للمرة الثالثة، أدرك الشريكان صعوبة الركض وراء الكنز. كان من المستحيل التسلل إلى المسرح، كما كانا يعتقدان سابقاً. فوراء الكواليس كان يمضي الليل

غالكين وبالكين ومالكين وتشالكين وزالكين الذين لا يسمح لهم نظامهم الغذائي ذو العلامة التجارية بالعيش في الفندق.

هكذا كانت تمر الأيام والصديقان مرهقان، ينامان في مكان مبارزة الشاعر ليرمنتوف ويأكلان بأجور حملهم حقائب السواح - مرضى القلب.

وفي اليوم السادس تمكن أستاذ من التعارف مع الكهربائي ميتشنيكوف، مدير المكبس الهيدروليكي. وبحلول هذا الوقت كان ميتشنيكوف لعدم توفر النقود لديه، يشرب يومياً من نبع نارزان، وأصبح في حالة رهيبة، كما لاحظ أستاذ، فكان يبيع في البازار بعض الأشياء من مقتنيات المسرح. وتم تحقيق الاتفاق النهائي عند الاضطجاع الصباحي أمام النبع. كان الكهربائي ميتشنيكوف يدعو أستاذ باسم دوسيا وكان يتفق معه. وقال:

- ممكن. هذا ممكن دائماً، دوسيا. من دواعي سرورنا، يا دوسيا.

أدرك أستاذ على الفور، أن الكهربائي معلّم كبير. كان الطرفان المتعاقدان ينظر أحدهما إلى الآخر في عينيه، ويتعانقان، ويربت أحدهما على ظهر الآخر، ويضحكان بمرح.

- حسناً - قال أستاذ - عشرة روبلات مقابل كل شيء.

- دوسيا - استغرب الكهربائي - أنت تغضبني. أنا رجل معذب بمياه نارزان.

- كم تريد؟

- ضع خمسين. فالكراسي هي ملكية حكومية عامة. أنا رجل معذب بمياه نارزان.

- حسناً. خذ عشرين! موافق؟ أرى بعينيك أن موافق.

- الموافقة هي نتاج عدم المعارضة الكاملة من الطرفين.

همس أستاذ في أذن هيبوليت ماتفييفتش:

- يُحسن عرض المسألة، هذا الكلب، تعلّم!

- متى ستحضر الكراسي؟

- الكراسي مقابل النقود.

- هذا ممكن - قال أستاذ، دون تفكير.

– النقود تُدفع مقدماً – أعلن الكهربائي – النقود صباحاً، الكراسي مساءً أو النقود مساءً، الكراسي في صباح اليوم التالي.

- أو ربما اليوم - الكراسى وغداً النقود - حاول أستاب.

– أنا يا دوسيا، إنسان مرهق. هذه الشروط لا تقبلها روحى.

- ولكننى - قال أستاذ - غداً سأستلم النقود بالتلغراف.

– عندئذ سوف نتحدث – اختتم الكهربائي العنيد الحديث – أما الآن، يا دوسيا، فلترافقك السعادة عند النبع، وأنا ذاهب: لدي الكثير من العمل مع المكبس. سيمببببفتش سيمسكني من رقبتى. لقد خارت قواى. وهل يمكننى العيش على مياه نارزان وحدها؟

وابتعد ميتشنيكوف الذي تضيئه الشمس بشكل رائع.

نظر أستاذ بصرامة إلى هيوليت ماتقيفتش وقال:

– الوقت الذي نملكه هو النقود التي لا نملكها. كيسا، علينا أن نبني مستقبلنا. مائة وخمسون ألف روبل مفروشة أمامنا. ونحتاج إلى عشرين روبلاً فقط كي يصبح الكنز ملكنا. هنا، علينا اللجوء إلى أية وسيلة. إما الفوز الكبير وإما الخسارة الماحقة. أنا أختار الفوز الكبير.

دار أستاذ حول فوروبيانينوف، وهو غارق في التفكير، ثم قال فجأة:

– اخلع الجاكيت، أيها المشير، بسرعة.

أخذ أستاذ الجاكيت من يدي هيبوليت ماتفييفتش المذهول، ورماه على الأرض وأخذ يدوسه بحذائه المغبر المترب.

- ماذا تفعل - صاح فورويانيانوف - إنني أرتدي هذا الجاكيت منذ خمسة عشر عاماً ولا يزال كأنه جديد!

- لا تقلق! - إنه لن يكون كالجديد بعد قليل! اعطني قبعتك! والآن، رش التراب على سروالك وبلله بماء نارزان. بسرعة!

بعد بضعة دقائق أصبح هيبوليت ماتقيفتش قدراً، متسخاً، مثيراً للاشمئزاز.

– الآن نضجت، واكتسبت الفرصة الكاملة لكسب المال بعرق جبينك.



– وماذا عليّ أن أفعل؟ – سأل فوروبيانينوف والدموع في عينيه.

– أمل، أنك تعرف اللغة الفرنسية؟

– بشكل سيء جداً. في حدود دورات المدرسة الثانوية.

– أه... سنضطر للاكتفاء بهذه الحدود. ألا يمكنك أن تقول باللغة الفرنسية الجملة التالية:  
«أيها السادة، أنا لم أذق طعاماً منذ ستة أيام»؟

– مسيو – بدأ هيبوليت ماتفييفتش يقول متلعثماً – مسيو... جو... نو... ما نج... با... سيس...  
جور. إذن: مسيو جو نو مانج با سيس جور.

– يا للفظك بالفرنسية يا كيسا! ومع ذلك، ماذا يُطلب من متسول! بالطبع، المتسول في  
روسيا الأوروبية يتحدث بالفرنسية أسوأ من ميليران (رئيس فرنسي سابق – م.). حسناً، يا  
كيسا، وبأية حدود تعرف اللغة الألمانية؟

– ولماذا أحتاج إلى هذا كله – صاح هيبوليت ماتفييفتش مستغرباً.

قال أستاذ برزانة وجدية: لأنك ستذهب الآن إلى «حديقة الزهور»، وتقف في الظل،  
وتطلب الصدقة باللغات الفرنسية والألمانية والروسية، مستنداً إلى أنك عضو سابق في  
مجلس الدوما عن جناح الكاديت (الحزب الديمقراطي الدستوري الروسي – م.). وكل ما  
ستجمعه سيصل إلى الكهربائي ميتشنيكوف. هل فهمت؟

تبدل هيبوليت ماتفييفتش كلياً. فأنحنى صدره مثل جسر القصر في لينينغراد، وعكرت  
النار عينيه، وكان يخرج من منخرينه، كما بدا لأستاذ، دخان كثيف. وأخذ شارباه يرتفعان  
ببطء.

– ياه، ياه، ياه – قال المحتال الكبير – انظروا إليه. إنه ليس رجلاً، بل أشبه بحصان  
محدودب!

– أبدأ، أبدأ – بدأ هيبوليت ماتفييفتش يتحدث من جوفه بصوت عال – لم يطلب  
فوروبيانينوف الصدقة، ولم يمد يده أبدأً.

– إذن، مدّ رجلك، أيها العجوز الأحمق! – صاح أستاذ – أنت لم تمد يديك أبدأً؟

– لم أمدّ.

- كيف تروك هذه الألفونسية (نسبة إلى ألفونسو - وهو الرجل الذي يعيش على حساب عشيقته - م.). ثلاثة أشهر يعيش على حسابي. ثلاثة أشهر أطعمه وأغذيه وأربيه، وألفونسو هذا يقف الآن في موقع ثالث ويعلن أنه... وماذا بعد! كفى، أيها الرفيق! واحداً من اثنين: إما أن تذهب الآن إلى «حديقة الزهور» وتجلب عشرة روبلات في المساء، وإما أستبعدك تلقائياً من عداد المساهمين - المتعاقدين أصحاب الامتياز. أعد إلى خمسة. نعم أم لا؟ واحد...

- نعم - تتمم المشير.

- في هذه الحالة، كرر الجملة - التعويذة

- مسيو جو نو مانج با سيس جور. غيبين ذي مير بيتي إتفاس كوبك آوف ديم شتوك برود. اعطوا صدقة للعضو السابق في مجلس الدوما.

- كرر، باستعطاف أشد.

كرر هيبوليت ماتفييفتش.

- حسناً، هكذا. لديك موهبة منذ الطفولة للتسول. اذهب. موعدنا عند النبع في منتصف الليل. خذ في اعتبارك، هذا ليس من أجل الرومانسية، بل، ببساطة، في المساء يعطون أكثر.

- وأنت - سأل هيبوليت ماتفييفتش - أين ستذهب؟

- لا تقلق من أجلي. أنا أنشط، كالعادة، في أصعب الأماكن.

افترق الصديقان.

ركض أستاذ إلى متجر القرطاسية، واشترى هناك بآخر ما يملكه من قروش، دفتر إيصالات، وجلس حوالي ساعة على مقعد حجري، موقفاً على كل إيصال منها. وتتمم في نفسه:

- النظام، قبل كل شيء. كل كوبيك حكومي عام يجب احتسابه.

تحرك المحتال الكبير بخطوات الرامي في طريق جبلي، يقود حول جبل معشوق إلى مكان مبارزة الشاعر ليرمانتوف مع مارتينوف، ماراً بالمصحات وبيوت الاستجمام.

وصل أستاذ إلى بروفال (الغور) متجاوزاً الحافلات وعربات الخيول.

كان المعرض رواقاً صغيراً منحوتاً في الصخر يؤدي إلى بروفال (الغور) المخروطي. وينتهي المعرض بشرفة يمكن من خلال الوقوف عليها رؤية بركة من سائل الملكية (معدن لامع أخضر اللون - م). النتن في قعر الغور. ويعد هذا الغور معلماً من معالم بياتيغورسك ولهذا يزوره يومياً عدد كبير من المجموعات السياحية والسياح الفرادى.

اكتشف أستاب على الفور أن بروفال (الغور)، بالنسبة للإنسان الخالي من الخرافات، يمكن أن يشكل مصدراً لدخل مالي. وبدأ يفكر في نفسه:

«إنه لأمر مدهش كيف لم تفكر المدينة حتى الآن بأخذ رسم عشرات الكوبيكات للدخول إلى «بروفال» (الغور). إنه المكان الوحيد الذي يسمح فيه سكان بياتيغورسك للسياح بالدخول مجاناً. سأزيل وصمة العار هذه عن سمعة المدينة. وأصحح هذا الإغفال المؤسف».

وتصرف أستاب كما أملى عليه عقله، والغريزة السليمة والوضع الناشئ.

توقف عند مدخل بروفال (الغور)، وأخذ يصرخ من فترة لأخرى، مقلباً دفتر الإيصالات بين يديه:

- اشتروا تذاكر، أيها المواطنون! بعشرة كوبيكات! الأطفال وعناصر الجيش الأحمر مجاناً.  
للطلاب - خمسة كوبيكات! لغير الأعضاء في النقابة - ثلاثون كوبيكاً.

نجح أستاب بكل تأكيد. سكان بياتيغورسك لا يذهبون إلى الغور، وأخذ عشرة كوبيك من السائح السوفييتي كرسوم الدخول إلى «مكان ما» لم يكن يشكل أدنى صعوبة. بحلول الساعة الخامسة تجمع لديه ستة روبلات. وساعده في ذلك السواح من غير النقابيين الذين كانت أعدادهم كبيرة في بياتيغورسك. كان الجميع يقدمون عشرات الكوبيكات بثقة، وسائح روماني عندما رأى أستاب قال لزوجته منتصراً:

- أترين، يا تانيا، ماذا قلت لك بالأمس؟ أما أنت فقلت بأن الدخول إلى بروفال (الغور) مجاناً. هذا غير ممكن. حقيقة، يا رفيق؟

- حقيقة مطلقة - أكد أستاب - هذا غير ممكن، عدم دفع رسم الدخول. للنقابيين - عشرة كوبيكات، ولغير النقابيين - ثلاثين كوبيكاً.

قُبيل المساء وصلت إلى بروفال (الغور) على دفعتين مجموعة سياحية من رجال شرطة خاركوف. شعر أستاب بالخوف وأراد أن يتظاهر بأنه سائح بريء، لكن رجال الشرطة تجمعوا بخجل حول المحتال الكبير، بحيث لم يكن أمامه طريقاً للتراجع. لهذا صاح أستاب بصوت حازم إلى حد ما:

– للنقابيين العماليين – عشرة كوبيك. وبما أن رجال الشركة يمكن معاملتهم كالطلاب والأطفال، فمنهم – خمسة كوبيكات.

دفع رجال الشرطة الكوبيكات الخمسة، واستعلموا بلطف عن الغرض من دفع الرسم. فأجاب أستاذ بجرأة:

– بغرض الصيانة الجذرية لبروفال (الغور)، كي لا ينهار أكثر من اللازم.

وبينما كان المحتال الكبير يتاجر بمهارة بمرأى الغور – بركة الملكية، كان هيبوليت ماتفييفتش محني الظهر وغارقاً في خجله، واقفاً تحت شجرة أكاسيا، ودون أن ينظر إلى المشاة المتنزهين، يكرر العبارات الثلاثة المكلف بقولها:

– مسيو جو نو مانج با... غيبين ذي مير بيتي إنفاس... اعطوا صدقة للعضو السابق في مجلس الدوما.

كانوا يعطونه صدقات ليست قليلة فحسب، بل وبدون رغبة. ولكن لتمثيله الدور بالنطق الفرنسي الباريسي لكلمة «مانج» (أكل) ولإثارته النفوس بالوضع البائس لعضو مجلس الدوما السابق، أمكنه أن يجمع من النقود النحاسية ما مجموعه ثلاثة روبلات.

كان الحصى يقطع تحت أقدام المتنزهين. وكانت الأوركسترا تعزف بفترات متقطعة موسيقا شتراوس وبرامس وغريغ. كان الحشد اللامع يمر مثيراً من أمام المشير العجوز ويعود ثانية إلى الوراء. كان ظل الشاعر ليرمنتوف يحوم بصورة غير ظاهرة حول المواطنين الذين يأكلون اللبن على شرفة البوفيه. وكانت تفوح رائحة الكولونيا وغاز مياه نارزان المعدنية.

– اعطوا صدقة للعضو السابق في مجلس الدوما – كرر المشير.

– قل لي، هل كنت حقاً عضواً في مجلس الدوما؟ – سُمع الصوت من فوق أذن هيبوليت ماتفييفتش – وهل كنت حقاً تذهب إلى جلسات المجلس؟ آه، آه، طبقة رفيعة!

رفع هيبوليت ماتفييفتش وجهه وتجمّد. كان يقفز أمامه كالعصفور أبشالوم فلاديميروفيتش ايزنورينكوف. وقد استبدل طقمه البني البولوني بجاكيت أبيض وبنطلون رمادي برّاق لعب. كان مفعماً بالحيوية بشكل غير عادي، يكاد يقفز أحياناً خمس بوصات فوق الأرض. إيزنورينكوف لم يتعرف على هيبوليت ماتفييفتش وتابع إغراقه بأسئلته:

– قل لي، هل كنت ترى رودزيانكو (ميخائيل – رئيس مجلس الدوما آنذاك – م.) حقاً؟ صحيح أن بوريشكيفيتش (فلاديمير – سياسي روسي محافظ وخطيب مفوّه، توفي عام

1920 - م.) كان أصلاً؟ آه، آه! يا له من موضوع! طبقة رفيعة.

ومع استمراره في الدوران حوله، دفع إيزنورينكوف للمشير المرتبك ثلاثة روبلات وهرب. ولكن استمر فخذاه السمينان بالظهور بين فترة وأخرى في «حديقة الزهور»، وكانت تُسمع أقواله وكأنها تتساقط من الأشجار:

– آه! آه! «لا تغني أيتها الحسناء أمامي أغنية جورجيا الحزينة!» آه! آه! «إنها تذكرني بحياة أخرى وبشاطئ بعيدا!...» آه! آه! «وفي الصباح ابتسمت لي من جديد!» طبقة رفيعة!...

تابع هيبوليت ماتفييفتش الوقوف، موجهاً عينيه إلى الأرض. وعبثاً وقف هكذا بعينه الموجهتين إلى الأرض. فهو لم ير الكثير.

في الظلام الرائع ليل بياتيغورسك كانت تتنزه في ممرات الحديقة إيلتشكا شوكونا (شخصية ساتيرية من اختراع المؤلفين، ورد ذكرها في الرواية)، جارة ورائها أرنست بافلوفيتش الخاضع لها والمتصالح معها. وكانت الرحلة إلى المياه الحامضة الخطوة الأخيرة في صراعه الضاري مع ابنته فاندربلت (كونسيليو فاندربلت – فاعلة خير أمريكية – م.). فالأمريكية الفخورة توجهت منذ فترة قصيرة على يختها الخاص، بهدف التسلية واللهو، إلى جزر ساندويتش (أرخبيل في جنوب جورجيا – م.)

– هو – هو! – سُمع في صمت الليل. – إنه مشهور، أرنستولا! يا للجمال!

في الخزانة الجانبية المضاءة بالمصابيح كان يجلس السارق آخين مع زوجته ساشخين. وكانت وجنتاها مزينتين كالسابق بسالفين طويلين. كان آخين يأكل شاشليك كاري، ويشرب معه

كونياك كاخيتنسكي رقم 2، أما ساشخين فكانت تمسد سالفيا بانتظار طلبها سمك الحفش.

بعد تصفية البناء الثاني للضمان الاجتماعي (تم بيع كل شيء بما في ذلك غطاء الرأس القماشي للطباخ وشعار «إنك تساعد المجتمع بهضمك الجيد للطعام») قرر آخين الاستراحة والاستجمام. وقد حما القدر هذا المحتال الجشع الذي لا يعرف الشبع. كان ينوي الذهاب في هذا اليوم إلى بروفال (الغور) لكنه لم يلحق. وهذا ما أنقذه. كان أستاذ سيسحب من مدير التوريد الخجول آخين هذا ما لا يقل عن ثلاثين روبلاً.

مشى هيبوليت ماتفييفتش ببطء نحو النبع بعد أن طوى الموسيقيون منصاتهم الموسيقية، وتفرق الجمهور المحتفل، وبقي العشاق وحدهم يتنفسون أزواجاً الهواء في الممرات الضيقة لـ «حديقة الزهور».

– كم جمعت؟ – سأله أستاذ عندما ظهرت القائمة المحدودة للمشير أمام النبع.

– سبعة روبلات وتسعة وعشرين كوبيكاً. ثلاثة روبلات ورقية. والباقي عملة نحاسية وقليلًا من الفضة.

– هذا شيء رائع بالنسبة للجولة الأولى! إنه معدّل عامل مسؤول! لقد أثرت عواطفِي، يا كيسا! ولكن بودي أن أعرف، أي أحقق أعطاك ثلاثة روبلات؟ ربما، أنت لم تُرجع له البقية؟  
– أعطاني إياها إيزنورينكوف.

– هذا غير ممكن! أبشالوم؟ يا للكلب! إلى أين كان ذاهباً يلهو؟ هل تحدثت معه؟ آه، إنه لم يتعرف عليك!

– كان يسأل عن مجلس الدوما! كان يضحك!

– كما ترى، أيها المشير، ليس أمراً سيئاً أن تكون متسولاً، وخاصة مع التعليم المتوسط، والتظاهر بصوت ضعيف! وأنت كنت ترفض وتتردد! حسناً، يا كيسا، وأنا لم أمض الوقت عبثاً. خمسة عشر روبلاً، جمعتها كوبيكاً إثر آخر. المجموع – يكفي.

في صباح اليوم التالي استلم الكهربائي النقود وفي المساء جلب كرسيين. وبحسب قوله، كان من المستحيل جلب الكرسي الثالث. كان مهندسو الصوت يلعبون عليه بورق الشدة.

من أجل مزيد من الأمان والحذر صعد الصديقان مع الكرسيين إلى أعلى قمة تقريباً في جبل «معشوق».

في الأسفل كانت بياتيغورسك مضاءة بمصاييح قوية ثابتة. وفي أسفل بياتيغورسك كانت الأنوار الخافتة ترسم محطة غرياشيفودسكايا (المياه الساخنة – م.). وفي الأفق، ومن خلف الجبل كانت تبرز مدينة كيسلوفودسك بخطين متوازيين منقطين.

نظر أستاذ إلى السماء المرصعة بالنجوم، وأخرج من جيبه الزردية المعروفة.

## الفصل التاسع والثلاثون الرأس الأخضر

كان المهندس برونس يجلس على الشرفة الحجرية لمنزله الريفي في الرأس الأخضر تحت شجرة نخل كبيرة وكانت أوراقها المنشأة ترمي ظلالاً حادة وضيقة على نقرة المهندس الحليقة، وعلى قميصه الأبيض وعلى كرسي هامبز من أثاث زوجة الجنرال بوبوفا الذي كان يجلس عليه المهندس بانتظار طعام الغداء.

مطّ برونس شفّتيه السميكتين الممتلئتين كالأنبوب، وبصوت طفل لعوب نادى:

– مووووسيك!

بقي المنزل صامتاً.

كانت النباتات الاستوائية تداعب المهندس. فكانت الصباريات تمد نحوه قفازاتها الحديدية. والأشجار التنينية تهدر بأوراقها. وأشجار الموز ونخيل الساغو تطرد الذباب من على صلعة المهندس. والورود الملتفة حول الشرفة تتساقط على صندله.

لكن كل شيء كان عبثاً. كان برونس جائعاً يريد تناول طعام الغداء. كان ينظر بذهول إلى خليج عرق اللؤلؤ، وإلى رأس مدينة باطوم البعيد، وينادي بصوت غنائي:

– مووووسيك! مووووسيك!

كان الصوت يجمد بسرعة في الهواء شبه الاستوائي. لم يصله أي جواب. كان برونس يتصور إوزة بنية كبيرة بجلد دهني مشوي، ولعدم قدرته على تمالك نفسه، صاح:

– موسيك! الإوزة جاهزة!

– أندريه ميخائيلوفيتش – صاح صوت نسائي من الغرفة – لا تصرع رأسي!

أجاب المهندس الذي لف شفّتيه السميكتين كالأنبوب بسرعة:

– موسيك! أنت لا تشفقين على زوجك الصغير!

– اخرج من هنا، أيها الشره!

لكن المهندس لم يستسلم. كان ينوي متابعة نداءاته للإوزة، التي كان يرسلها دون جدوى منذ ساعتين، لكن حفيفاً مفاجئاً دفعه للالتفات من حوله.

من أجمة الخيزران الخضراء - المسودّة خرج رجل بقميص طويل أزرق ممزق، محزوم بشريط مبروم مهترئ بشرابات سميكة، وبسروال مخطط مهترئ. وكانت لحية شعّاء تتجعد على وجه الغريب الطيب. كان يمسك جاكيتاً بيديه.

اقترب الرجل وسأل بصوت لطيف:

- أين يوجد المهندس برونس هنا؟

- أنا المهندس برونس - قال معزّم الإوزة بصوت جهير غير متوقع.

جثا الرجل على ركبتيه صامتاً. كان هذا الأب فيودور.

- هل جُننت! - صاح المهندس قافزاً - انهض، من فضلك!

- لن أنهض - أجاب الأب فيودور وهو يهز رأسه، ناظراً إلى المهندس بعينين صافيتين.

- انهض!

- لن أنهض!

وأخذ الأب فيودور يضرب رأسه بالحصى بحذر، حتى لا يسبب لنفسه الألم.

- موسيك! تعالي إلى هنا! - صرخ المهندس المذعور - انظري ماذا يجري. انهض، أرجوك. هيا، أتوسل إليك!

- لن أنهض - كرر الأب فيودور.

ركضت موسيك إلى الشرفة، متفهمة ببراعة لهجة زوجها.

عند رؤيته للسيدة، زحف الأب فيودور، دون أن ينهض، مقترباً منها، وانحنى عن قدميها، وقال مكرراً:

- عليك أيتها الأم، عليك يا عزيزتي، عليك أعلق آمالي.

عندئذ احمر المهندس خجلاً، وأمسك بالزائر من تحت إبطه، وأنهضه كي يقف على رجليه، لكن الأب فيودور احتال وثبّت رجليه. قام برونس الساخط وشد الضيف الغريب إلى الزاوية وأجلسه على كرسي شبه كنية (من صنع هامبز، لكنه ليس من قصر فوروبيانينوف، بل من غرفة ضيوف بوبوفا زوجة الجنرال).



– لا أجرؤ – تتمم الأب فيودور، واضعاً على ركبتيه جاكيت الخباز الذي تفوح منه رائحة الكيروسين – لا أجرؤ على الجلوس بحضور السادة المتميزين.

وقام الأب فيودور بمحاولة جديدة للجثو على ركبتيه. أمسك المهندس بصراخ حزين الأب فيودور من كتفيه.

– موسيك – قال المهندس وهو يتنفس بصعوبة – كَلْمِي هذا المواطن. هنا، ثمة شيء من سوء الفهم.

اتخذت موسيك على الفور لهجة عملية. وقالت مهددة:

– في منزلي، من فضلك، لا تجثو على ركبتيك!

– يا عزيزتي – قال الأب فيودور متأثراً – أيتها الأم!

– أنا لست أمك. ماذا تريد؟

تتمم الأب بعبارات غير مفهومة، لكنها كما يبدو مؤثرة، متوسلة. وبعد مسألات طويلة، فهما أنه يرجوهما، كنوع من الصدقة، أن يبيعه طقماً من اثني عشر كرسيّاً، أحدها ذلك الكرسي الذي يجلس عليه الآن.

لشدة دهشته، أرخى المهندس يديه عن كتفي الأب فيودور الذي جثا على الفور على ركبتيه وأخذ يطارد المهندس كالسلحفاة.

– لماذا – صاح المهندس مبتعداً عن يدي الأب فيودور الطويلتين – لماذا عليّ أن أبيع كراسيّ؟ مهما جثوت على ركبتيك، لا أستطيع أن أفهم شيئاً!

– غير أن هذه الكراسي لي – تأوه الأب فيودور.

– كيف هي كراسيك؟ ومن أين كانت كراسيك؟ هل فقدت عقلك؟ موسيك، الآن أصبح كل شيء واضح بالنسبة لي! إنه مريض نفسياً بشكل واضح!

– إنها كراسي – أكد الأب فيودور بمذلة.

– ماذا تقول، برأيك أنا سرقته منك؟ – استشاط المهندس غضباً – سرقته؟ موسيك، أسمعني! إن هذا نوع من الابتزاز!

– أبدأ، يا إلهي – همس الأب فيودور.

– إذا كنت قد سرقتها منك، فطالب المحكمة، ولا تعمل في منزلي هرجاً ومرجاً! أسمعني، يا موسيك! إلى أية درجة تصل الوقاحة. لا يُسمح لي بتناول طعام الغداء بطريقة إنسانية.

لا أبدأً، الأب فيودور لم يرد المطالبة بكراسيّه عن طريق المحكمة. وكان يعرف أن المهندس لم يسرق كراسي منه. أوه، كلا! لم تدّر هذه الفكرة في ذهنه أبدأً. لكن هذه الكراسي كانت تعود قبل الثورة إليه، هو الأب فيودور. وهي عزيمة جداً على زوجته التي تُنازع الآن في فورونج. وتلبية لإرادتها، وليس بجرأته الشخصية، سمح لنفسه بالاستعلام عن مكان وجود الكراسي والحضور إلى المواطن برونس. إن الأب فيودور لا يطلب صدقة. لا، أبدأً! فهو بوضع مادي جيد (مصنع غير كبير للشمع في سماري) كي يسعد الدقائق الأخيرة من عمر زوجته. وهو مستعد لأن يتكارهم ويدفع مقابل جميع الكراسي عشرين روبلاً.

– ماذا – صرخ المهندس وقد احمر لونه – عشرين روبلاً؟ مقابل أثاث رائع لغرفة ضيوف؟ موسيك! أسمعني؟ إنه مريض نفسياً! أقسم بالله، إنه مريض نفسياً!

– أنا لست مجنوناً ولا مريضاً. وكل ما في الأمر أنني أنفذ إرادة زوجتي التي أرسلتني.

– أوه، يا للشيطان – قال المهندس – بدأ من جديد يزحف ويجثو! موسيك! إنه يزحف من جديد!

– حدد سعراً – تأوه الأب فيودور، وهو يضرب بحذر رأسه بجذع شجرة أروكاريا (شجرة من فصيلة الصنوبريات – م).

– لا تكسر الشجرة، أنت رجل غريب الأطوار! موسيك، يبدو أنه ليس مريضاً. إنه كما يبدو، رجل مستاء لمرض زوجته. هل نبيعه الكراسي، ما رأيك؟ ونتخلص منه، ما رأيك؟ وإلا فسيكسر جبينه.

– ونحن على ماذا سنجلس؟ – سألته موسيك.

– نشترى غيرها.

– وبعشرين روبلاً؟

– بعشرين أنا لن أبيعها. ولن أبيعها بمئتي روبل... سأبيعها بمئتين وخمسين روبلاً.

وجاء الجواب بضربة قوية من رأسه على شجرة التنين.

– حسناً، يا موسيك، لقد شعرت بالسأم منه.

اقترب المهندس بحزم من الأب فيودور وأخذ يملي عليه إنذاره النهائي:

– أولاً، ابتعد عن شجرة النخيل ما لا يقل عن ثلاث خطوات؛ وثانياً، انهض فوراً. وثالثاً، سأبيع الأثاث بما لا يقل عن مئتين وخمسين روبلاً.

– ليس من أجل المنفعة الذاتية – ردد الأب فيودور – بل فقط تنفيذا لرغبة زوجتي المريضة.

– حسناً، يا عزيزي، زوجتي أيضاً مريضة. أليس كذلك، يا موسيك، لديك علة في الرئتين؟ ولكن، أنا لا أطلبك على هذا الأساس بأن تبيعني، على سبيل الافتراض، جاكيتك بثلاثين كوبيكاً.

– خذه مجاناً – صاح الأب فيودور.

لوح المهندس بيده منفِعلاً وقال ببرود:

– أنت، توقف عن نكاتك. لن أدخل معك في أي نقاش. أنا أقدر ثمن الكراسي بمئتين وخمسين روبلاً، ولن أتنازل عن كوبيك واحد.

– بخمسين روبلاً – اقترح الأب فيودور.

– موسيك – قال المهندس – نادِ لباغراتيون. فليرافق المواطن إلى المخرج.

– ليس بهدف الربح...

– باغراتيون!

ركض الأب فيودور خائفاً، وذهب المهندس إلى غرفة الطعام وجلس أمام الإوزة المشوية. وقد كان لطيره المفضل تأثير مفيد. فبدأ يهدأ.

في تلك اللحظة عندما لف المهندس عظم الإوزة بمنديل ورقي، وقرب قدم الإوزة من فمه الوردي، ظهر في النافذة وجه الأب فيودور المستعطف.

– ليس من أجل الربح – قال بصوت ناعم – بخمسة وخمسين روبلاً.

زأر المهندس دون أن ينظر إليه. فاختم الأب فيودور.

كانت طيلة اليوم بعد ذلك تلوح سحنة الأب فيودور في جميع أنحاء الفيلا. فكانت تظهر تارة في ظل شجرة الأرز اليابانية، أو تظهر في بستان أليوسفي تارة أخرى، أو تطير عبر الفناء الجانبي، أو ترتجف وتبتعد إلى حديقة النباتات.

كان المهندس طيلة اليوم يدعو زوجته موسيك، ويشتكي من المجنون، ومن وجع الرأس. وبحلول الظلام، كان يُسمع صوت الأب فيودور من حين لآخر.

– بمئة وثمانية وثلاثين – صاح من مكان ما في السماء.

وبعد دقيقة جاء صوته من جهة منزل دومباسوف.

– بمئة وواحد وأربعين روبلاً – اقترح الأب فيودور – ليس من أجل الربح، أيها السيد برونس، بل فقط...

أخيراً، لم يتحمل المهندس، وخرج إلى وسط الشرفة، ناظراً إلى الظلام المحيط، وبدأ يصيح بصوت متزن:

– فليرافك الشيطان! بمئتي روبل! فقط خلّصني منك.

سُمع حفيف أغصان الخيزران المضطربة، وأنين خفيف وخطوات مبتعدة. ثم ساد الصمت المطبق. كانت النجوم تتألق في الخليج. وكانت اليراعات تلاحق الأب فيودور، وتحوم حول رأسه، مغطية وجهه بلون طبي أخضر.

– لقد تحركت الوزأت الآن – تمتم المهندس وهو يدخل غرف الفيلا.

في هذه الأثناء، كان الأب فيودور قد استقل آخر حافلة على طول ساحل البحر إلى باطوم. وعلى الجانب تماماً، مع صوت تقليب كتاب، سمعت أمواج صغيرة تلتطم بالشاطئ، ضربت الريح وجهه، ورد صوت صفارة الإنذار في الحافلة على مواء بنات آوى.

في هذا المساء أرسل الأب فيودور إلى زوجته كاترينا ألكسندروفنا في بلدة (ن) البرقية التالية:

عثرت على البضاعة أرسلني مئتين وثلاثين روبلاً بالتلغراف. بيعي ما تريدين. فيديا.

طيلة يومين كان يتجول بحماس مقابل فيلا برونس، ومن بعيد كان ينحني للسيدة موسيك، حتى أنه من فترة لآخرى كان صراخه يغطي المسافات الاستوائية البعيدة:

– ليس من أجل الربح والمصلحة الذاتية، بل فقط تلبية لإرادة زوجتي التي أرسلتني.

في اليوم الثالث استلم النقود ببرقية يائسة:

**بعت كل شيء بقيت بلا كوبيك واحد أقبلك وانتظرك. يفستيغنييف لا يزال يتناول طعام الغداء عندنا. كاتيا.**

قام الأب فيودور بعدّ النقود من جديد، ورسم إشارة الصليب على صدره بغيرة وإيمان، واستأجر عربة شاحنة وتوجه إلى الرأس الأخضر.

كان الطقس غائماً. وكانت الرياح تدفع الغيوم من الحدود التركية. كان البخار يغطي نهر تشوروخ. وأخذت تصغر باطراد المساحة الزرقاء في السماء. وصلت العاصفة إلى ست درجات. تم منع السباحة وركوب القوارب في البحر. كان البرق والرعد يغطيان باطوم. وكان العاصفة تهز الشاطئ.

عند وصوله إلى فيلا المهندس برونس، أمر الأب فيودور السائق الأدجاري (نسبة لأدجاري، إقليم في جورجيا - م.) الذي كان يرتدي قلنسوة على رأسه أن ينتظره، وذهب هو لجلب الأثاث.

- جلبت لك النقود - قال الأب فيودور - تنازل قليلاً في السعر.

- موسيك - تأوه المهندس - لا يمكنني التحمل أكثر من ذلك.

- لا، لقد أحضرت النقود - بادر الأب فيودور - مثني روبل، كما قلت.

- موسيك! خذي منه النقود! واعطه الكراسي. وليحملها بسرعة. أنا أعاني من ألم الشقيقة!

تم تحقيق هدف العمر. معمل الشمع في سماري وصل بنفسه إلى يديه. وانسكبت حبات الماس في جيبه، مثل البزر.

تم نقل الكراسي الاثني عشرة إلى العربة الشاحنة، واحداً بعد الآخر. كانت تشبه كثيراً كراسي فوروبيانينوف، مع فارق وحيد، هو أن تنجيدها لم يكن من القماش المزين بالورود بل من القماش الأزرق بشريط وردي.

كان اللفة تسيطر على الأب فيودور. وكان قد علق تحت ثيابه بلطة بشريط. جلس الأب فيودور إلى جانب سائق العربة الشاحنة، ملتفتاً كل دقيقة إلى الكراسي في الخلف، ووصل إلى باطوم. لقد نقلت الخيول النشيطة الأب فيودور وكنزه إلى الأسفل، إلى الطريق السريع، ومن أمام مطعم «فينال - النهاية»، ومن أمام طاوالات الخيزران التي كانت الريح تهب بين سرادقها، وعبر النفق، الذي ابتلع آخر ناقلات النفط، وعبر المصور المحروم في

هذا اليوم الكئيب من زبائنه، ومن أمام لافتة «حديقة باطوم النباتية»، وسارت بسرعة عادية فوق الكورنيش (الطريق الساحلي). وفي المكان الذي يلامس فيه الطريق الكتل الصخرية انهمر رذاذ الماء المالح على الأب فيودور. كانت الأمواج التي تصدها الكتل الصخرية عن الشاطئ، تتحول إلى فوآرات ترتفع إلى السماء وتسقط ببطء.

ألهمت صدمات الأمواج وانفجاراتها روح الأب فيودور المشوشة. وكانت الخيول التي تجابه الريح تقترب ببطء من مخينجاوري (بلدة صغيرة في جورجيا - م.). وعلى مد النظر كانت مياه الأمواج الخضراء العكرة ترتفع وتنتشر. كانت رغوة الأمواج البيضاء تغطي الطريق حتى باطوم، وكأن ريحاً هبت على التنورة الداخلية لسيدة غير أنيقة ورفعتها من تحت فستانها.

- قف! - صرخ الأب فيودور، مخاطباً الحوذي - قف، أيها المسلم!

وبدأ ينقل الكراسي، وهو يرتجف ويتعثر، من الشاحنة إلى الشاطئ المهجور. استلم الحوذي الأدجاري (من منطقة أدجاليا في جورجيا - م.) اللامبالي خمسة روبلات أجره، وجلد خيوله وانطلق. أما الأب فيودور، فبعد أن اقتنع من عدم وجود أي شخص من حوله، سحب الكراسي من الجرف إلى جزء صغير لا يزال جافاً من الشاطئ، وأخرج البلطة.

سيطر عليه الشك والتردد، ولم يعرف من أي كرسي يبدأ. ثم اقترب كالمجنون من الكرسي الثالث وضرب ظهره بالبلطة بوحشية. انقلب الكرسي دون أن يتضرر.

- آها! - صاح الأب فيودور - سأريك نجوم الظهرا! وهجم على الكرسي وكأنه كائناً حياً. وسرعان ما انهار الكرسي وتقطع وكأنه قطع الملفوف. لم يكن الأب فيودور يسمع ضربات البلطة بالخشب وبالقماش وبالنوابض. فقد خرس بهدير العاصفة الكبيرة جميع الأصوات الغريبة الجانبية، كما في لبادة.

تكسرت الكراسي واحداً إثر الآخر. وكان غضب الأب فيودور يتزايد شيئاً فشيئاً. كما كانت تزداد قوة العاصفة. ووصلت بعض الأمواج إلى أقدام الأب فيودور.

كانت ضوضاء العاصفة الكبيرة تغطي المنطقة من باطوم إلى سينوب. وكان البحر يستشيط غضباً ويصب جام غضبه على كل سفينة صغيرة. وكانت الباخرة «لينين» تدخن بأنبوبها الاثنين وتستقر بصعوبة على مؤخرتها، وهي تقترب من مدينة نوفوروسيسك. كانت العاصفة تدور في البحر الأسود رامية بأمواج تزن آلاف الأطنان على شواطئ طرابزون ويالطا وأوديسا وكونستانتا. وخلف مضيق جبل طارق كان المحيط الأطلسي يضرب شواطئ أوروبا. لقد أحاطت المياه الغاضبة بالكرة الأرضية كلها.

كان الأب فيودور يقف على شاطئ باطوم ناضحاً بالعرق، وقد قَطَعَ الكرسي الأخير. بعد دقيقة انتهى كل شيء. سيطر اليأس القاتل على الأب فيودور. وعندما ألقى نظرة مذهولة على الجبل الذي شكله من قوائم الكراسي وظهورها ونوابضها تراجع إلى الوراء من الخوف. فأمسك الماء به من قدميه. فتقدم إلى الأمام وهرب مبللاً إلى الطريق السريع. واندفعت موجة كبيرة إلى ذلك المكان الذي كان يقف فيه الأب فيودور، وعند تراجعها حملت معها الأثاث المكسّر لزوجة الجنرال بابوفا. وهذا ما لم يعد يراه الأب فيودور. فقد سار على الطريق السريع منحنياً، محدودباً وضاعطاً بقبضته المبلولة على صدره.

دخل إلى مدينة باطوم، وكالأعمى لم ير شيئاً من حوله. كان وضعه سيئاً وكئيماً للغاية. كان من المستحيل تماماً أن يصل إلى مدينته، مسقط رأسه، وهو بعيد عن بيته خمسة آلاف كيلومتر ولا يوجد في جيبه سوى عشرون روبلاً.

مرّ الأب فيودور من أمام البازار التركي، الذي نصحوه فيه هامسين بأن يشتري البودرة وجوارب نسائية حريرية وتبغ سوخومي الطازج، ومشى إلى المحطة وضاع في حشد الحمالين.

## الفصل الأربعون تحت الغيوم

بعد ثلاثة أيام من الصفقة التي تمت بين الكهربائي ميتشنيكوف وصاحبي الامتياز غادر مسرح كولومبوس المدينة بالقطار عبر محج قلعة وباكو. طيلة هذه الأيام الثلاثة كان صاحب الامتياز، غير الراضين عن محتوى الكرسيين المفتوحين على جبل معشوق، ينتظران من ميتشنيكوف الكرسي الثالث، وهو الأخير من كراسي مسرح كولومبوس. لكن الكهربائي المنهك بشرب ماء نارزان صرف العشرين روبلاً كلها على شراء الفودكا ووصل إلى تلك الدرجة من السكر، بحيث حُبس في قسم الأدوات المسرحية.

– هذه هي المياه الحامضة «كيسليي فودي» – قال أستاذ بعد أن علم برحيل المسرح – يا له من مخلب كلب هذا الكهربائي! تعامل بعد هذا مع العاملين في المسرح!

غدا أستاذ أكثر تمللاً وصخباً من السابق. وزادت فرص العثور على الكنز (المجوهرات) إلى حد كبير.

– نحن بحاجة إلى النقود للسفر إلى فلاديقفاز – قال أستاذ – ومن هناك سنذهب إلى تفليس بالسيارة على الطريق السريع العسكري الجورجي. مناظر خلابة! مناظر طبيعية ساحرة! هواء جبلي رائع! وفي النهاية – مئة وخمسون ألف روبل كاملة. ثمة منطوق وجدوى من متابعة الاجتماع.

لكن السفر من مينرالنيي فودي (المياه المعدنية) لم يكن بهذه السهولة. فقد اتضح أن فوروبيانينوف عديم الموهبة في السفر بالقطار من دون تذكرة، وبما أن محاولاته لركوب القطار كانت فاشلة، فقد كان عليه أن يلقي الكلمات والخطب بالقرب من «حديقة الزهور» بصفته راعياً سابقاً لمؤسسة تعليمية. وكان النجاح ضئيلاً ومحدوداً في هذا العمل. فلم يجمع أكثر من روبلين خلال اثنتي عشر ساعة من العمل القاسي والمُذل. بيد أنه مبلغ كاف للسفر إلى فلاديقفاز.

في بسلان (مدينة في أوسيتيا الشمالية – م.)، طُرد أستاذ الذي كان مسافراً دون تذكرة، وركض المحتال الكبير بجرأة خلف القطار ثلاثة أميال، مهدداً بقبضته هيبوليت ماتفييفتش البريء.

بعد ذلك تمكن أستاذ من القفز إلى دَرَج قطار شحن بطيء متوجه إلى سلسلة جبال القوقاز. ومن موقعه هذا كان أستاذ يتأمل بفضول بانوراما سلسلة جبال القوقاز الظاهرة أمامه.



كانت الساعة الرابعة صباحاً. وقد أنيرت قمم الجبال بضوء الشمس الوردي الداكن. لم تحز الجبال على إعجاب أستاذ. وقال:

– فيها الكثير الكثير من الأناقة. جمال بري. خيال أحقق. شيء لا قيمة له.

في محطة فلاديففاز كانت حافلة كبيرة مفتوحة تابع لمؤسسة النقل التجاري في فلاديففاز تنتظر المسافرين القادمين، وقال فيها أناس لطفاء:

– من يقصد الطريق السريع العسكري الجورجي، ننقله إلى المدينة مجاناً.

– إلى أين أنت، يا كيسا؟ – قال أستاذ – علينا أن نركب الحافلة. فلينقلونا مجاناً.

غير أن أستاذ لم يتسرع في تسجيل مكان له في الحافلة المرتبطة بمكتب مؤسسة النقل التجاري في فلاديففاز. وخلال محادثته بانتعاش مع هيبوليت ماتفييفتش، كان يتغنى بجبل ستولوفايا (الجبل المطعم – م.) المحاط بغيمة، ولكن عندما وجد أن الجبل شبيه بالطاوله حقا، ابتعد بسرعة.

اضطرا للمكوث في فلاديففاز عدة أيام. فجميع محاولتهما للحصول على المال للسفر على الطريق السريع العسكري الجورجي إما أنها لم تتم نهائياً أو كانت تعطي من المال ما يكفي فقط لطعامهما اليومي. ولم تنجح محاولتهما لجمع النقود الصغيرة من المواطنين. فسليلة جبال القوقاز كانت عالية جداً وظاهرة للعيان بحيث كان من المستحيل جمع المال مقابل مشاهدتها. كانت ظاهرة تقريباً من جميع الجهات. ولم تكن هناك معالم أخرى في فلاديففاز. أما ما يتعلق بنهر «تيريك» فقد كان يجري إلى جانب مضمار سباق الدراجات الذي كانت المدينة تجبي رسوماً للدخول إليه من دون مساعدة أستاذ. وجمع الصداقات الذي قام به هيبوليت ماتفييفتش لم يجلب خلال يومين سوى ثلاثة عشر كوبيكاً.

(المقاطع التالية محذوفة من جميع الطبعات السوفييتية للرواية – م.)

عندئذ استخرج أستاذ من مخابئ سترته سفاري دسطة ورق اللعب، وجلس على الطريق عند مخرج المدينة، ونوى اللعب بثلاثة أوراق. وإلى جانبه كان يقف هيبوليت ماتفييفتش، الذي تلقى التعليمات اللازمة كي يمثل دور المشاهد الفائز، المندهش من سهولة الفوز. وخلف الصديقين كانت ترتسم سلسلة الجبال والقمم الثلجية في السحب.

كان أستاذ يصرخ: الورقة الحمراء تفوز، الورقة السوداء تخسر.

أمام الحشد المتجمع من أبناء القبائل الجبلية المتجاورة، والإنغوشيين والأسيتيين(من شعوب جبال القوقاز - م.) بقبعاتهم المصنوعة من اللباد، كان أستاذ يرمي إلى الأعلى ثلاث أوراق، واحدة منها حمراء اللون والورقتان المتبقيتان بلون أسود. وكان يعرض على أي مواطن أن يضع على البطاقة الحمراء أي رهان يريده. وتعهد أستاذ بالدفع لمن يربح على الفور:

- الورقة الحمراء تفوز، الورقة السوداء تخسر! لاحظت - راهن حذرث - اربح وخذ المال!

لقد أسرث سكان الجبال بساطة اللعبة وسهولة الفوز. فالورقة الحمراء كانت تقع أمام أعين الجميع إلى اليمين أو إلى اليسار، ولم تكن هناك أية صعوبة في تخمين موقعها.

تدريجياً، بدأ المشاهدون ينجذبون إلى اللعبة، وأستاذ خسر من أجل المظهر فقط أربعين كوبيكاً. انضم إلى الحشد فارس يرتدي معطفاً شركسياً بنياً وقبعة حمراء من جلد الخراف وخنجراً عادياً على بطنه.

- الورقة الحمراء تفوز، الورقة السوداء تخسر! - نادى أستاذ، متوقعاً الربح - لاحظت - راهن، حذرث - اربح وخذ المال.

قام أستاذ بعدة تمريرات ورمى الأوراق.

- ها هي! - صاح الفارس، مترجلاً من حصانه - ها هي الورقة الحمراء! لقد لاحظت جيداً!

- ضع المال وراهن، يا صديقي، إذا لاحظت - قال أستاذ.

- ستخسر! - قال الفارس.

- لا مانع. إذا خسرت سأدفع المال - أجاب أستاذ.

- أراهن بعشرة روبلات.

- ضع النقود.

فتح الفارس أزرار معطفه الشركسي وأخرج محفظة نقود بنية.

- ها هي الورقة الحمراء! رأيته جيداً.

رفع اللاعب الورقة. كانت الورقة سوداء.

- ورقة أخرى؟ - سأل أستاذ، وأخفى ربحه.

- ارم الورق.

رمى أستاذ الأوراق الثلاث.

خسر الفارس الجبلي عشرين روبلاً أخرى. ثم ثلاثين روبلاً. قرر الفارس اللعب مرة أخرى واسترداد ماله بأي ثمن. كان الحشد صاخباً. توجه الفارس نحو خسارة تامة. في هذه المرة أقدم أستاذ، الذي لم يتدرب منذ فترة طويلة على الأوراق الثلاث وفقد مؤهلاته السابقة، على الغش في اللعب بشكل فاضح.

- اعطني المال - صاح الفارس.

- ماذا؟ - صرخ أستاذ - لقد رأى الناس كل شيء! لا يوجد أي غش!

- سواء رأى الناس أم لم يروا، هذا يخصهم. أنا رأيتك، أنت بدلت الورقة، وضعت الورقة السوداء بدلاً من الحمراء! ردّ إلي نقودي!

بهذه الكلمات هجم الفارس على أستاذ. تحمل المخادع الكبير الضربة الأولى على رأسه بصمود، ووجه للفارس ضربة قوية. عندها اندفع الحشد كله ضد أستاذ. هرب هيبوليت ماتفييفتش إلى المدينة. لم يضرب الإنغوشيون، المستشيطنون غضباً، أستاذ طويلاً. فقد بردوا بسرعة كما يبرد هواء الجبل ليلاً. بعد عشر دقائق عاد الفارس الجبلي بأمواله إلى قريته، وعاد الحشد إلى شؤونه اليومية، أما أستاذ، الذي كان يبصق دماً ينز من لثته المكسورة بعيداً وبأناقة، فتوجه للاتحاق بهيبوليت ماتفييفتش. (هنا تنتهي المقاطع المحذوفة من الطبعات السوفييتية للرواية - م.)

- هذا يكفي - قال أستاذ - لدينا مخرج واحد - الذهاب إلى تفليس سيراً على الأقدام. خلال خمسة أيام سنقطع مئتي ميل. لا بأس، أيها الأب، مناظر جبلية ساحرة، هواء نقي!... نحتاج إلى المال لشراء الخبز والمرتديلا المفضلة. يمكنك أن تضيف إلى مفرداتك بعض الجمل الإيطالية، التي تراها مناسبة، ولكن بحلول المساء عليك أن تجمع روبلين على الأقل! لن نتمكن اليوم من تناول طعام الغداء، يا رفيقي العزيز. واحسرتاه، حظنا سيء...

منذ الصباح الباكر عبّر صاحب الامتياز الجسر على نهر تيريك، ودارا حول الثكنات العسكرية، وتوغلا في الوادي الأخضر الذي يجتازه الطريق السريع العسكري الجورجي.

- نحن محظوظان، يا كيسا - قال أستاذ - هطل المطر ليلاً، ولن نضطر لابتلاع الغبار. استنشق الهواء النقي، أيها المشير. غنّ. تذكر الشعر القوقازي. تصرف كما هو مطلوب!...

لكن هيبوليت ماتفييفتش لم يغنّ ولم يتذكر الشعر. كان الطريق صعوداً. والليالي التي أمضاها ملتحمًا السماء تركت أثرها بوخز كان يشعر به في خاصرته، وبثقل في ساقيه، أما المرتديلا المفضلة فسببت له حرقه مؤلمة دائمة. كان يمشي منحنيًا على جنبه، ماسكاً بيده رغيفاً كبيراً مغطى بصحيفة فلاديقفقاز، ويجر قدمه اليسرى بثقل.

عليه أن يمشي من جديد! وهذه المرة إلى تفليس، وفي هذه المرة في أجمل طريق في العالم. لم يكن يهتم هيبوليت ماتفييفتش بكل هذا. ولم يكن ينظر إلى الجانبين مثل أستاذ. حتى أنه لم يلاحظ نهر تيريك الذي بدأ يهدر بالفعل في قاع الوادي. فالقع الجليدية وحدها، الساطعة تحت أشعة الشمس كانت تذكره بشيء غامض ما؛ إما بريق الألماس، وإما بأفضل توابيت المعلم بيزنشوك.

حتى محطة البريد الأولى – بالطا، كان المسافران يسيران في مجال تأثير جبل ستولوفايا (جبل في جورجيا بالقرب من فلاديقفقاز – م.). وكانت كتلته الأساسية الكثيفة مع خطوط من الثلج تتبعهما لمسافة عشرة أميال. تجاوزت المسافرّين سيراً على الأقدام في البداية سيارة ركاب صغيرة من مؤسسة النقل التجاري في القوقاز، وتجاوزتهما بعد نصف ساعة حافلة كبيرة تنقل ما لا يقل عن أربعين سائحاً، وما لا يزيد على مئة وعشرين حقيبة سفر.

– انحنوا لجبل كازبيك – صاح أستاذ في إثر السيارة – قبلوا نهره الجليدي اليساري!

بعد مرور السيارات بقيت تفوح طويلاً في الجبال رائحة البنزين المحروق والدوايب المطاطية الساخنة. وسبق عرب الجبال المسافرّين وهم يزمرون بقوة بسياراتهم. وجاءت سيارة فاييتون من المنعطف مقابلهم.

في بالطا أعطى أستاذ قطعة من المرتديلا لهيبوليت ماتفييفتش، وأكل هو نفسه قطعتين. وقال:

– أنا معيل الأسرة، ومن المفترض أن أحصل على غذاء مقو.

بعد بالطا دخل الطريق في الوادي وتقدم على شكل إفريز ضيق، منحوت في المنحدرات الصخرية المظلمة. كان حلزون الطريق يصعد إلى الأعلى، وفي المساء وصل صاحب الامتياز إلى محطة لارس، التي ترتفع ألف متر عن سطح البحر.

أمضيا ليلتهما في كوخ بائس مجاناً، حتى أن كلاهما حصل على كأس من الحليب، بعد أن فتننا صاحب البيت وضيوفه بحيل أوراق اللعب.

كان الصباح رائعاً جميلاً، لدرجة أن هيبوليت ماتفييفتش المتعطر بهواء الجبل، كان يمشي بنشاط وحيوية أكثر من الأمس. بعد محطة لارس برز فجأة جدار سلسلة الجبال الجانبية. وتحول وادي نهر تيريك هنا إلى وديان عميقة ضيقة. أصبح المشهد أكثر قتامة، والنقوش والكتابات على الصخور أكثر عدداً. وهناك، حيث قلصت الصخور مجرى نهر تيريك لدرجة أن صاحب الامتياز شاهداً على طول الجسر المقدر بعشرة ساجين (ساجين: مقياس روسي يعادل متر ونصف - م.) عدداً كبيراً من النقوش والكتابات يعادل جميع الكتابات المخطوطة على أسوار الوادي الصخرية كلها، وحتى أن أستاذ نسي عظمة وادي نهر داربال (داربال نهر يقع على الحدود بين جورجيا وروسيا - م.)، وأخذ يصرخ محاولاً التغلب على هدير نهر تيريك:

– أناس عظماء! انتبه، أيها المشير. هل ترى؟ أعلى قليلاً من السحب وأدنى قليلاً من النسر! ثمة عبارة منقوشة: «كوليا وميكا، تموز/يوليو عام 1914». مشهد لا ينسى! انتبه إلى فن التخطيط! كل حرف بحجم متر ومرسوم بالألوان الزيتية! أين أنتما الآن كوليا وميكا؟ فكر بهذا أيضاً هيبوليت ماتفييفتش.

أين أنتما، يا كوليا وميكا؟ وماذا تفعلان الآن، يا كوليا ويا ميكا؟ سمنتما، على الأغلب، وتقدمتما في السن؟ ربما لا يمكنكما الآن الصعود إلى الطابق الرابع، وليس تحت السحاب ترسمان اسميكما؟

أين تعمل يا كوليا؟ تقول إن العمل غير مريح؟ تتذكر طفولتك الذهبية؟ وكيف كانت طفولتك ذهبية؟ هل تعتبر تلويث الوادي بالكتابة طفولة ذهبية؟ كوليا، أنت فظيع! وزوجتك ميكا امرأة بغيضة، رغم أن ذنبها أقل من ذنبك. عندما كنت ترسم اسمك، وأنت معلق على الصخرة، كانت ميكا تقف على الطريق وتنظر إليك بعينين عاشقتين. آنذاك، كنت تبدو لها وكأنك بيتشورين الثاني (غريغوري بيتشورين بطل رواية الشاعر ليرمانتوف «بطل من هذا الزمان» - م.). والآن هي تعرف من أنت. أنت مجرد أحمق! نعم، أنتم جميعكم هكذا، معجبون بالأماكن الجميلة! بيتشورين، بيتشورين، لغبائكم لا يمكنكم تسوية الحساب. وتابع أستاذ:

– كيسا، دعنا، نحن أيضاً نخلد أنفسنا. نغلق فم ميكا. بالمناسبة، لدي طباشير! والله، سأتسلق الآن وأكتب: «كيسا وأوسيا كانا هنا».

ودون أن يفكر طويلاً، وضع على الحاجز الذي يفصل الطريق عن قاع نهر تيريك الفياض مؤونتهما من المرتديلا المفضلة وبدأ يتسلق الصخر. تابع هيبوليت ماتفييفتش في البداية تسلق المحتال الكبير، ثم انتهى، والتفت فأخذ يتأمل أساس قلعة تامارا التي لا تزال قائمة على الصخرة وتشبه سن الحصان.

في هذا الوقت، وعلى بعد ميلين عن صاحبي الامتياز، ومن جهة تفليس دخل الأب فيودور إلى وادي داريال. كان يمشي بخطوات جندي ثابتة، ناظراً إلى الأمام بعينين ماسيتين صلبتين، وامتكناً على عصا طويلة برأس محني.

لقد أنفق نقوده الأخيرة في الوصول إلى تفليس، وهو يسير الآن إلى بلدته سيراً على الأقدام، ويأكل ما يحصل عليه من الصدقات السخية. عند اجتيازه المضيق الصليبي (ويبلغ ارتفاعه 2345 متراً عن سطح البحر) عضه نسر. لوح الأب فيودور للطائر الجسور بالعصا وتابع طريقه.

كان يسير، متشابكاً مع السحاب، ويتمتم:

– ليس من أجل مصلحتي الشخصية، بل تلبية لإرادة زوجتي التي أرسلتني!

كانت المسافة تتناقص بين الأعداء. وعندما دار من خلف رأس حاد، واجه الأب فيودور عجوزاً بنظارة ذهبية.

انشق المضيق في عيني الأب فيودور. وتوقف نهر تيريك عن هديره الأبدي.

تعرف الأب فيودور على فوروبيانينوف. بعد الفشل الذريع في باطوم، وبعد انهيار جميع آماله، أثرت الفرصة الجديدة للحصول على الثروة على الأب فيودور تأثيراً غير عادي. فقد أمسك بعنق هيبوليت ماتفييفتش من تفاحة آدم النحيلة وصرخ بصوت أجش:

– أين وضعت كنز حماتك التي قتلتها؟

لاذ بالصمت هيبوليت ماتفييفتش الذي لم يتوقع شيئاً كهذا، وأنزل عينيه حتى كادت أن تلامس عدسات نظارته.

– قل! – أمره الأب فيودور – اعترف، أيها الكافر!

شعر فوروبيانينوف أنه يفقد أنفاسه.

هنا رأى الأب فيودور، المحتفي بنصره، بندراً يقفز على الصخور. نزل المدير الفني إلى الأسفل، صارخاً بملء حنجرتة:

تتكسرين، أيتها الصخور الداكنة،

تغلين وترغين أيتها الأمواج...

شَلْ خوف عظيم قلب الأب فيودور. فواصل بصورة آلية الإمساك برقبة المشير، لكن ركبتيه أخذتا ترتعشان.

– آه، ومن هذا؟ – صاح أستاذ بود – منظمة منافسة!

لم يتأخر الأب فيودور. وبخضوعه لغريزته الطيبة، خطف المرتديلا والخبز وركض بعيداً.

– اضربه، أيها الرفيق بندر! – صرخ هيبوليت ماتفييفتش من الأرض بعد أن أخذ نفساً.

– اقبض عليه! امسكه!

صَفَّر أستاذ مستهزئاً. وصاح وهو يركض وراءه:

– تيووو! هَش! معركة في الأهرامات، أو بندر في الصيد! إلى أين تركض، أيها الزبون؟  
يمكنني أن أعرض عليك كرسيًا ممزقاً!

لم يستطع الأب فيودور تحمل عناء المطاردة، وتسلق صخرة شديدة الانحدار. كان يدفعه إلى الأعلى قلبه الذي ارتفع إلى حنجرته، وخاصة ما يعرفه الجبناء من رجفان في الكعبين. كان قدماه ينفصلان بسرعة عن صخر الغرائيت ويحملان صاحبهما إلى الأعلى.

– أوووو! – صاح أستاذ من الأسفل – امسكه!

– لقد سرق مؤونتنا – صاح هيبوليت ماتفييفتش، راكضاً نحو أستاذ.

– قف! – هددته أستاذ – أقول لك، قف!

لكن هذا أعطى قوة جديدة للأب فيودور المنهك. فارتفع إلى الأعلى بعدة قفزات، ووجد نفسه أعلى بخمسة عشر متراً من أعلى النقوش المكتوبة.

– اعطني المرتديلا! – ناداه أستاذ – اعطني المرتديلا، أيها الأحمق! سأغفر لك كل شيء.

لم يعد الأب فيودور يسمع شيئاً. ووجد نفسه على أرض مستوية، لم يصل إليها قبل الآن أي شخص. كان شكل الأب فيودور مربعاً. وأدرك أنه لا يستطيع النزول بأي شكل.

كانت الصخرة تنحدر بشكل عمودي تقريباً على الطريق السريع، ولم يكن هناك ما يستدعي التفكير بالنزول من حيث صعد. نظر إلى الأسفل. كان أستاذ محتداً، وفي قعر الوادي الضيق كانت تلمع نظارة المشير.

– سأعطيك المرتديلا – صاح الأب فيودور – أنزلني!

رداً عليه، كان نهر تيريك يهدر، ووصلت صرخات حادة من قلعة تامارا. ففيها كان يعيش البوم.

– انزلوني! – صرخ الأب فيودور، شاكياً، حزيناً.

كان يرى جميع مناورات صاحبي الامتياز. كانا يركضان تحت الصخرة، ومن خلال الإيماءات والحركات، فهم أنهما كانا يشتمان به بكلمات نابية.

بعد ساعة، رأى الأب فيودور المستلقي على بطنه، وقد أنزل رأسه إلى الأسفل، رأى بندر وفوربيانينوف يذهبان باتجاه المضيق الصليبي.

حل الليل بسرعة. كان الأب فيودور يرتجف ويبكي في الظلام الدامس والرعْد الجهنمي تحت الغيم مباشرة. لم يعد بحاجة لكنوز الأرض كلها. كان يريد شيئاً وحيداً: النزول إلى الأسفل، إلى الأرض. في الليل كان ينوح كثيراً، حتى أنه كان يغطي أحياناً على هدير نهر تيريك، وفي الصباح عزز قواه بالمرتديلا المفضلة مع الخبز، وأخذ يضحك ضحكات شيطانية على السيارات التي كانت تسير في الأسفل. وأمضى بقية يومه متأملاً الجبال والشمس التي تنير السماء. في الليلة التالية رأى في منامه الملكة تامارا. طارت الملكة عنده من قلعتها وخاطبته بغنج:

– سنكون جارين.

– يا أمّاه! – قال الأب فيودور مستصرخاً بعاطفة صادقة – ليس من أجل الربح...

– بل من أجل تلبية رغبة زوجتك التي أرسلتك.

– ومن أين تعرفين – تفاجأ الأب فيودور.

– أنا أعرف. تفضل لعندي، أيها الجار، لنلعب معاً بالورق لعبة الستة والستين! حسناً؟

ضحكت وحلقت بعيداً، مطلقة المفرقات في السماء الليلي. في اليوم الثالث بدأ الأب فيودور يوعظ الطيور. ولسبب ما كان يقنعهم باللوثرية. وقال يخاطبها بصوت رنان:

– أيها الطيور، اعترفوا بخطاياكم علانية!

في اليوم الرابع بدأوا يشيرون إليه من الأسفل للسياح. وكان يقول المرشدون ذوو الخبرة:



– إلى اليمين – قلعة تامارا، وإلى اليسار ثمة شخص حي، ولا يُعرف، كيف يعيش، وبم يتغذى، وكيف وصل إلى هنا.

– يا له من شعب متوحش – كان السياح يستغربون مذهولين – أبناء الجبال!

كانت السحب تسير. وكانت النسور تحلق فوق الأب فيودور. وأقدم أكثرها جرأة على سرقة بقية المرتديلاً المفضلة، ورفرف بجناحيه فوق نهر تيريك ذي الرغوة، ورمى فيه رطلاً ونصف من الخبز.

هز الأب فيودور بإصبعه مهدداً في وجه النسور، وهمس مبتسماً بتألق:

لا يعرف طائر الله،

لا الهموم، ولا العمل

ولا يبني باجتهاد

عشه المتين.

نظر النسور نظرة جانبية بشذر إلى الأب فيودور، وصاح «كوكو ريكو» وطار.

– آه، أيها النسور، أيها النسور، أنت جيفة كبيرة!

بعد عشرة أيام وصلت من فلاديقفاز فرقة إطفاء وأنزلت الأب فيودور على النحو اللازم بتجهيزاتها.

عندما كانوا ينزلونه، كان يصفق بيديه ويغني بصوت كريه:

ستكونين ملكة العالم كله

يا صديقتي الأبدية!

وكان القوقاز القاسي يردد عدة مرات كلمات الشاعر ميخائيل ليرمنتوف وموسيقاً أ. روبنشتاين.

– ليس من أجل مصلحتي الخاصة – قال الأب فيودور لرجل الإطفاء – بل فقط...

ونقلوا الكاهن الضاحك على سلم الإطفاء إلى مستشفى الأمراض العقلية.

## الفصل الحادي والأربعون الهزة الأرضية

– ما رأيك، أيها المشير – سأله أستاذ عندما اقترب صاحب الامتياز من قرية سيوني – كيف يمكننا أن نكسب المال في هذه المنطقة القزمة، الواقعة على ارتفاع ألفي متر ونيف؟

لاذ هيبوليت ماتفييفتش بالصمت. فالعمل الوحيد الذي كان يمكن أن يقوم به كي يؤمن طعامه وشرابه هو التسول والاستجداء، ولكن هنا، في المنعطفات الحلزونية والأفاريز الجبلية، لم يكن هناك من يستجدي منه.

ومع ذلك، هنا أيضاً كان من الممكن الاستجداء، لكنه استجداء من نوع خاص، إنه استجداء ألبى (جبلي، نسبة لجبال الألب – م.): كان يركض أطفال إلى كل حافلة أو سيارة تمر من أمام القرية ويؤدون أمام الجمهور المتحرك عدة خطوات من رقصة «ليزغينكا» القوقازية، بعدها كان الأطفال يركضون وراء السيارة صارخين:

– اعطونا نقوداً! اعطونا نقوداً!

فكان الركاب يرمون لهم القطع المعدنية بخمسة كوبيك ويصعدون بسياراتهم إلى المضيق الصليبي.

– مسألة نظيفة – قال أستاذ – لا تتطلب نفقات كبيرة، ومدخولها ليس كبيراً، لكنه ذا قيمة في وضعنا.

بحلول الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم الثاني من الرحلة، أدى هيبوليت ماتفييفتش، بإشراف المدير الفني، رقصته الأولى أمام المسافرين الراكبين في السيارات. كانت رقصته شبيهة برقصة المازوركا، لكن المسافرين المشبعين بجمال القوقاز البري، اعتبروها مثل رقصة «ليزغينكا» وكافأوه بثلاث قطع من فئة خمسة كوبيكات. وأمام السيارة التالية القادمة من تفليس إلى فلاديقفاز، وكانت حافلة كبيرة، رقص وقفز المدير الفني نفسه.

– اعطوني نقوداً! اعطوني نقوداً! – صرخ غاضباً.

وكافأه الركاب الضاحكون بكرم على قفزاته. جمع أستاذ من الطريق المغبر ثلاثين كوبيكاً. لكن أطفال قرية سيوني رموا المنافسين بشلال من الحجارة. وهرباً من قصف الحجارة، توجه المسافرين بخطوات سريعة نحو أقرب قرية، حيث أنفقا ما جمعاه من نقود على شراء الجبن وخبز التنور.

بهذه الأعمال والرقصات كان صاحباً الامتياز يقضيان أيامهما. ينامان بين شعاب الجبال. في اليوم الرابع هبطا حسب تعرجات الطريق إلى وادي كيشاور. هنا كانت الشمس حامية، وبعد أن تجمدت عظام الشريكين في المضيق الصليبي، شعرا بالدفع بسرعة.

وحل محل صخور داريال وظلمة المضيق وبرودته المسطحات الخضراء والأبنية السكنية في الوادي العميق. كان يسير الجوّالان فوق نهر أراغفا، وينزلان إلى الوادي الأهل بالسكان والمواشي المنزلية والمواد الغذائية. هنا كان من الممكن طلب الصدقات والتسول، وكسب بعض النقود أو السرقة ببساطة. هنا إقليم ما وراء جبال القوقاز.

بعد أن شعر صاحباً الامتياز بالمرح والبهجة، أسرع في سيرهما أكثر.

في بلدة باسانور، البلدة الغنية المشمسة حيث يوجد فندقان والعديد من الأكواخ والبيوت، استطاع الصديقان استجداء خبز التنور، واستلقيا في الأحراش مقابل فندق «فرنسا»، المجهّز بحديقة وفيلين صغيرين مربوطين بالسلاسل. وقد استمتعا بالدفع والخبز الشهي وبالإجازة التي استحقاها عن جدارة.

ومع ذلك، سرعان ما قطع عليهما إجازتهما صرير زمامير السيارات وحفيف الإطارات الجديدة على الطريق السريع العاجي والنداءات والصيحات المبتهجة. ألقى الصديقان نظرة. وصلت إلى فندق «فرنسا» ثلاث سيارات جديدة من طراز واحد. توقفت السيارات بهدوء. خرج برسيتسكي من السيارة الأولى. خرج بعده محرر زاوية «المحكمة والحياة» بشعره المغبر. ثم خرج من جميع السيارات أعضاء نادي السيارات في صحيفة «ستانوك» (الماكينة).

– استراحة – صرخ برسيتسكي – يا معلم! خمسة عشر صحن شاشليك!

دخل إلى فندق «فرنسا» أشخاص نعسون، وسمع ثغاء الكباش الذي سحبوه من رجليه إلى المطبخ.

– ألم تتعرف على هذا الشاب؟ – سأل أستاذ رفيقه – إنه المراسل الصحفي في باخرة «سكريابين»، وأحد منتقدي إعلاننا. ولكن بأية سيارات أنيقة وصلوا! وما يعني هذا؟

اقترب أستاذ من آكلي شواء الشاشليك، وانحنى بلطف زائد لبرسيتسكي.

– بونجورا! – قال المراسل – أين رأيتك، يا رفيقي العزيز؟ آه، أتذكر. فنان الباخرة «سكريابين»، أليس كذلك؟

ضغط أستاذ بيده على قلبه وانحنى باحترام.

– اسمح لي، اسمح لي – تابع برسيتسكي، بذاكرة المراسل القوية – ألسنت أنت الذي هجم عليك حصان العربفة فف موسكو، فف ساحة سفردلوفسكايا؟

– وكيف لا، وكيف لا! وكذلك بحسب ملاحظتك الدقيقة، انقضت الحادثة بخوف بسيط.

– وأنت هنا، كيف، تمارس عملك الفني؟

– لا، أنا هنا بغرض الرحلات.

– سيراً على الأقدام؟

– سيراً على الأقدام. يؤكد الخبراء، أن الرحلة بالسيارة في الطريق السريع العسكري الجورجي هي مجرد غباء.

– ليس دائماً غباء، يا عزيزي، ليس دائماً! فها نحن، على سبيل المثال، نساfer بالسيارة، وليس هذا غباء. فالسيارات، كما ترى، هي سياراتنا، أؤكد، سياراتنا، جماعية تعاونية. خط سير مباشر موسكو – تفليس. لا تكلف الرحلة من البنزين إلا مبلغاً بسيطاً. راحة وسرعة الحركة. نوابض المقاعد طرية. إنها أوروبا!

– من أين لكم كل هذه السيارات – سأل أستاذ بحسد – هل ربحتم مئة ألف؟

– لا، مئة ليس مئة، لكننا ربحنا خمسين ألفاً.

– بالورقة التاسعة (لعبة ورق – م.)؟

– في سحب السندات، والسند الرابع تعود ملكيته لنادي السيارات.

– نعم – قال أستاذ – وبهذا المال اشترىتم سيارات؟

– كما ترى!

– نعم، يا سيدي، ربما تحتاجون إلى مرشد؟ أنا أعرف شاباً ممتازاً، لا يشرب الكحول.

– أي مرشد؟

– حسناً، الإرشادات العامة، الاستشارات التجارية، التدريب العملي بالطريقة التكاملية... ما رأيك؟

– أنا أفهمك. لا، لسنا بحاجة.

– لستم بحاجة؟

– لا، للأسف. ولسنا بحاجة إلى رسام أيضاً.

– في هذه الحالة، اعطني عشر روبلات.

– أفدوتين – قال برسيتسكي – من فضلك، اعط هذا المواطن من حسابي ثلاثة روبلات. التوقيع غير ضروري. هذا الشخص غير مسؤول.

– هذا قليل جداً – علّق أستاذ – لكنني أقبلها. أنا أعرف صعوبة وضعك. بالطبع، لو ربحتم مئة ألف لأعطيتني خمسة روبلات كاملة. لكنكم ربحتم خمسين ألف روبل فقط لا غير. على أية حال، أشكرك.

خلع بندر قبعته باحترام. وخلع برسيتسكي قبعته باحترام. انحنى بندر بلطف. ورد برسيتسكي بانحناء لطيفة. لوح بندر بيده مودعاً. لوح برسيتسكي بيده، وهو وراء مقود السيارة. لكن برسيتسكي ذهب بسيارة رائعة إلى المسافات البعيدة المشرقة، بصحبة أصدقاء مرحين؛ أما أستاذ فبقي على الطريق المغبر مع رفيق أحمق.

– هل رأيت هذا التآلق؟ – خاطب أستاذ هيبوليت ماتفييفتش.

– شركة النقل التجاري والصناعي بالسيارات لما وراء القوقاز، أو الشركة الخاصة «موتور»؟ – سأل مستفسراً فوروبيانينوف الذي أصبح خلال عدة أيام من الرحلة على دراية جيدة بجميع أنواع النقل بالسيارات على الطريق – كنت أود أن أقترّب منهم وأرقص لهم.

– قريباً ستغدو غيباً للغاية، يا صديقي المسكين. أي شركة نقل تجاري وصناعي لما وراء القوقاز هذه. هؤلاء الناس، أسمع، ربّحوا خمسين ألف روبل! أنت بنفسك ترى، يا كيسا، كم هم مرحين وكم اشتروا من مختلف أنواع النفائات الميكانيكية! عندما سنحصل على أموالنا، سوف ننفقها بعقلانية أكبر. أليس كذلك؟

وبينما كان الصديقان يحلمان، وهما يمشيان، بما سيشتريانه عندما يصبحان ثريين، خرجا من بلدة باسانور. كان هيبوليت ماتفييفتش يتخيل بصورة حيوية شراءه لجوارب جديدة والسفر إلى خارج البلاد. أما أحلام أستاذ فكانت أوسع نطاقاً. كانت مشاريعه ضخمة: بناء سد على النيل الأزرق تارة، وافتتاح قصر للقمار في ريغا مع فروع له في جميع جمهوريات الاتحاد تارة أخرى.

في اليوم الثالث قبل الغداء، وبعد المرور على أماكن مغبرة ومملة: أنا نور، دوشيت، تسلكاني، اقترب الصديقان الجوالان من متسختنا - عاصمة جورجيا القديمة. هنا استدار نهر كورا نحو مدينة تفليس.

في المساء عبر المسافرين محطة زيمو - أفشال للطاقة الكهربائية. كان يتألق الزجاج والماء والكهرباء بأضواء مختلفة. وكل هذا كان ينعكس ويرتجف في نهر كورا سريع الجريان.

هنا تصادق صاحب الامتياز مع فلاح أوصلهم على عربة إلى تفليس في الساعة الحادية عشر ليلاً، في تلك الساعة عندما تستدعي نضارة المساء سكان العاصمة الجورجية إلى الشارع بعد النهار الحار الخانق.

- مدينة ليست سيئة - قال أستاب، وهو يخطو إلى شارع شوتا روستافيلي - أتعرف يا كيسا...

وقبل أن ينهي كلامه ركض أستاب وراء مواطن، وبعد عشر خطوات وصل إليه وأخذ يتحدث معه بحيوية.

ثم عاد بسرعة ووخز هيبوليت ماتفييفتش بإصبعه في خاصرته، وهمس بسرعة:

- أتعرف من هذا؟ إنه المواطن كيسليارسكي صاحب «معمل أوديسا للمعجنات» كعكات موسكو». سنذهب إليه. الآن، أنت من جديد، مهما كانت المفارقة كبيرة، عملاق الفكر وأب الثورة الروسية. لا تنسى أن تنفخ وجنتيك وتحرك شاربنيك. وهما، بالمناسبة، قد كبرا قليلاً. آه، لعن الله الشيطان! يا لها من حالة! الثروة، الحظ! إذا لم آخذ منه خمسمائة روبل الآن، ابصق في عيني!

هيا! هيا!

وبالفعل، وعلى مسافة بسيطة من صاحبي الامتياز، كان يقف كيسليارسكي بلون أزرق - حليبي من الخوف في بدلة من الكتان وقبعة من القش.

- أنتما متعارفان، كما يبدو - قال أستاب هامساً - هذا رجل، مقرب من الامبراطور، عملاق الفكر وأب الديمقراطية الروسية. لا تلق بالاً إلى بدلتك. هذا خصيصاً من أجل التمويه. خذنا إلى مكان ما، بسرعة. علينا أن نتحدث.

كان كيسليارسكي، الذي جاء إلى القوقاز للاستجمام والاستراحة من اضطرابات ستارغورود، محبطاً للغاية. وبعد أن نطق بتفاهات حول الركود في صناعة الكعك، أجلس

كيسليارسكي الشخصين الرهيبيين من معارفه في عربة ذات دعامات مطلية بالفضة ومسند ونقلهما إلى جبل داوود. صعدوا إلى قمة جبل ستولوفيا (الجبل المطعم) بواسطة التلفريك. ونزلت مدينة تفليس بأضوائها المقدرة بالآلاف إلى الأسفل ببطء. وصعد المتآمرون إلى النجوم مباشرة.

كانت طاولات المطعم مصفوفة على العشب. وكانت الأوركسترا القوقازية تعزف بصوت خفيض، وكانت فتاة صغيرة، أمام نظرات والديها السعيدة، وبمبادرتها الذاتية، ترقص رقصة «ليزغينكا» بين الطاومات.

– اطلب من النادل تقديم شيء ما – قال بندر.

وبأمر من كيسليارسكي الخبير، تم تقديم النبيذ والخضار والجبن الجورجي المالح.

– وشيئاً ما من الطعام – قال أستاذ – لو عرفت، يا عزيزي السيد كيسليارسكي، ما اضطررنا إلى تأجيله، أنا وهيوليت ماتفييفتش، لأخذتك الدهشة من شجاعتنا.

فكر كيسليارسكي بآس: «من جديد! من جديد تبدأ مشاكل وعذاباتي. ولماذا لم أذهب إلى القرم؟ لقد كنت أرغب بوضوح بالذهاب إلى شبه جزيرة القرم! وهنرييتا نصحتني!»

لكنه طلب دون تدمير صحنين من شواء الشاليك وأدار وجهه الخدوم نحو أستاذ.

– حسناً – قال أستاذ، ناظراً من حوله وخافضاً صوته – باختصار. يراقبوننا من شهرين، وغداً، على الأغلب، سينتظرونا حصار على شقتنا المموهة. وسنضطر إلى تبادل إطلاق النيران.

ابيضت وجنتا كيسليارسكي من الخوف، وأصبحتا بلون الفضة.

– نحن سعداء – تابع أستاذ – أن نلتقي في هذا الموقف المقلق مناضلاً مخلصاً للوطن.

– نعم م! – قال هيوليت ماتفييفتش بفخر، متذكراً بأي حماس وجوع كان يرقص «ليزغينكا» على مقربة من بلدة سيوني.

– نعم – همس أستاذ – نأمل بمساعدتك أن نلحق الهزيمة بالعدو. سأعطيك مسدس باربلو.

– لست بحاجة – قال كيسليارسكي بحزم.

في الدقيقة التالية، اتضح أن رئيس لجنة البورصة ليست لديه إمكانية للمشاركة في المعركة القادمة. وهو يتأسف كثيراً، لكنه لا يستطيع. فهو غير مطلع على فن الحرب. ولهذا

انتخبوه رئيساً للجنة البورصة. وهو في حالة يأس كامل، ولكن من أجل إنقاذ حياة أب الديمقراطية الروسية (فهو نفسه أكتوبري قديم) مستعد لتقديم المساعدة المالية الممكنة.

– أنت صديق حقيقي للوطن! – قال أستاذ باحتفاء وهو يشرب بعد تناوله الشاشليك برائحته القوية نبذاً حلواً. – خمسمائة روبل يمكنها أن تنقذ عملاق الفكر.

– قل لي – سأل كيسليارسكي شاكياً – ألا يمكن لمثني روبل أن تنقذ حياة عملاق الفكر؟

لم يتحمل أستاذ، ومن تحت الطاولة ركل بحماس هيبوليت ماتفييفتش بحماس.

– أنا أعتقد – قال هيبوليت ماتفييفتش – أن المساومة هنا غير مناسبة!

فتلقى على الفور ركلة على فخذه وكانت تعني: «برافو، يا كيسا، هذا ما تعنيه المدرسة!».

سمع كيسليارسكي لأول مرة في حياته صوت عملاق الفكر. وتفاجأ كثيراً من هذا الظرف، وسلم لأستاذ بسرعة خمسمائة روبل. ثم دفع حساب المطعم، وغادر بسبب صداد في رأسه، تاركاً الصديقين على الطاولة. بعد نصف ساعة أرسل لزوجته في ستارغورود البرقية التالية:

**سأذهب حسب نصيحتك إلى القرم جهزي حقيبة السفر من باب الاحتياط.**

إن المتاعب والفاقة الطويلة التي عانى منها أستاذ بندر طويلاً، كانت تتطلب تعويضاً سريعاً. لهذا ثمل المحتال الكبير في تلك الأمسية في مطعم الجبل حتى كاد أن يفقد وعيه، وكاد أن يقع من عربة التلفريك في طريقه إلى الفندق. وفي اليوم التالي نقّذ حلمه القديم. واشترى بدلة رمادية مرقطة بالتفاح. كان يشعر بالحر بهذه البدلة، لكنه مع ذلك كان يرتديها ويتصبب عرقاً. واشترى فوروبيانينوف في متجر الألبسة الجاهزة التعاوني في تفليس بدلة بيضاء اللون وقبعة بحرية بعلامة تجارية ذهبية لنادي اليخوت. وكان هيبوليت ماتفييفتش يشبه في هذا الزي أمير بحر تجاري من الهواة. وانتصبت قامته، وأصبحت مشيته ثابتة.

– آه! – قال بندر – طبقة رفيعة! لو كنت امرأة لعملت تخفيضاً لهذا الرجل الجميل مثلك، حسماً قدره ثمانية بالمئة من السعر العادي. آه! آه! في مثل هذا الشكل يمكننا أن ندور! هل يمكنك الدوران، يا كيسا؟

– أيها الرفيق بندر – قال فوروبيانينوف مؤكداً – ماذا بالنسبة للكرسي؟ علينا أن نستعلم عن ما يحدث في المسرح.



– هو – هو! – اعترض بندر وهو يرقص مع كرسي في غرفة موريتانية كبيرة من فندق «أورينت» – لا تعلمني كيف أعيش. أنا الآن شرير. لدي نقود. لكنني كريم. أعطيك عشرين روبلاً وثلاثة أيام لنهب المدينة! أنا – مثل سوفوروف!... (قائد عسكري روسي – م.) انهب المدينة، يا كيسا! امرح واستمتع!

ولوح أستاذ بوركيه وغنى بوتيرة سريعة:

أحاديث المساء، أحاديث المساء،

كم توحى بعدد من الأفكار.

غرق الصديقان في تناول المسكرات أسبوعاً كاملاً. تغطى طقم فوروبيانينوف البحري بنبيذ تفاح متعدد الألوان، وانتشر النبيذ على طقم أستاذ على شكل تفاحة كبيرة قزحية.

– مرحباً! – قال أستاذ لرفيقه في اليوم الثامن، الذي خطر في ذهنه بتأثير الخمار، أن يقرأ صحيفة «فجر الشرق». – اسمع، أنت أيها السكير، ماذا يكتب الأذكاء في الصحف! اسمع!

## أخبار المسرح

البارحة، في 3 أيلول/سبتمبر، أنهى مسرح كولومبوس الموسكوفي جولته في تفليس

واتجه في جولة مسرحية إلى يالطا. ومن المفترض أن يبقى المسرح في شبه جزيرة القرم حتى بداية فصل الشتاء في موسكو.

– آها، لقد أخبرتك – قال فوروبيانينوف.

– ماذا أخبرتك – قاطعه أستاذ.

غير أنه كان مرتبكاً، محرجاً. فهذا السهو كان مزعجاً جداً. وبدلاً من الانتهاء من مطاردة المجوهرات في تفليس، عليهما أن يتوجها الآن إلى شبه جزيرة القرم. وباشر أستاذ العمل على الفور. تم شراء تذكرتين إلى باطوم، وتم حجز مقعدين من الدرجة الثانية على باخرة «بيستل» (بافل بيستل – ثوري روسي – م.) التي ستبحر من باطوم إلى أوديسا في 7 أيلول/سبتمبر، في الساعة 23 حسب توقيت موسكو.

في ليلة العاشر إلى الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، عندما استدارت باخرة «بيستل» إلى عرض البحر متجهة إلى يالطا، ولم تدخل إلى ميناء أنابا بسبب العاصفة، رأى هيبوليت ماتفييفتش حلماً أثناء نومه.

حَلَمَ أنه كان يقف في بدلة أمير البحر على شرفة منزله في ستارغورود، وكان يعرف أن الحشد المجتمع في الأسفل ينتظر شيئاً منه. وقد أنزلت رافعة كبيرة على قدميه خنزيراً ببقع سوداء.

جاء البواب تيوخون في بدلته مع الجاكيت وأمسك بالخنزير من قائمته الخلفيتين وقال:

– فليذهب إلى الجحيم! وهل يقدم مكتب الدفن «نيمفا» (الحورية – م.) أية مساعدة!

ظهر خنجر في يد هيبوليت ماتفييفتش. ضرب به الخنزير في جنبه، ومن الجرح الكبير الواسع بدأت تتناثر الماسات وتقفز على الاسمنت. كانت تقفز وتطنّ بصوت عال يعلو باطراد. وفي النهاية أصبح طرقها وطنينها رهيباً لا يُطاق.

استيقظ هيبوليت ماتفييفتش بتأثير ضربات الموجة على كوة الباخرة.

اقتربت الباخرة من يالطا في جو هادئ وفي صباح مشمس مرهق. كان المشير، الذي تعافى من صدام البحر، يتباهى في مقدمة الباخرة، بالقرب من الجرس المزين بزخرفة سلافية مسبوكة. صَفَّت يالطا المرحّة على طول شاطئها متاجرها الصغيرة ومطاعمها العائمة. كانت تقف على الرصيف مركبات بمقاعد مخملية تحت مظلات قماشية مثبتة، وسيارات وحافلات شركة نقل القرم وجمعية «سائق القرم». وكانت الفتيات السمراوات يقمن بتدوير مظلاتهم المفتوحة ويلوحن بمناديلهن.

كان الصديقان أول من نزل إلى الكورنيش القائظ. وعند رؤية صاحبي الامتياز ظهر من بين الحشد المستقبّل والفضولي مواطن في بدلة حريرية وأسرع بالخروج من حرم المرفأ. ولكن كان الوقت قد فات. فعيّنا المحتال الكبير اليقظتان تعرفتا مباشرة على هذا المواطن بطقمه الحريري.

– انتظر فوروبيانينوف! – صاح أستاذ.

وركض إلى الأمام بسرعة كبيرة، بحيث أدرك الرجل الحريري قبل المخرج بعشر خطوات. وعاد أستاذ على الفور ومعه مائة روبل.

– لم يعط أكثر. على أية حال، أنا لم أُلح، وإلا فلن يكون لديه من المال ما يكفي لعودته إلى بيته.

وبالفعل، هرب كيسليارسكي هذه المرة بالسيارة إلى سيفاستوبول، ومنها بعربة قطار من الدرجة الثالثة إلى بيته في ستارغورود.

أمضى صاحباً الامتياز اليوم كله في الفندق، جالسين على الأرض وعاريين، يركضان إلى الدوش في الحمام كل دقيقة. لكن الماء كان يتدفق دافئاً، مثل الشاي النتن. لم يكن هناك خلاص من الحرارة الشديدة. وبدا وكأن يالطا ستذوب قريباً وتصب في البحر.

بحلول الساعة الثامنة مساءً، ارتدى الشريكان حذائيهما الساخنين، وهما يلعبان جميع كراسي الدنيا، وتوجها إلى المسرح.

كانت تُعرض مسرحية «الزواج». كان ستيبان المرهق بالحر الشديد، يقف على يديه وكاد أن يسقط. وكانت أغافيا تixonوفا تركض على السلك، ممسكة بيديها المتعرقتين المبللتين مظلة كُتب عليها: «أنا أريد بودكليوسين». في هذه الدقيقة، كما كان حالها طيلة اليوم، كانت ترغب بشيء واحد فقط: الماء البارد المثلج. كذلك الجمهور كان عطشاً، يريد أن يشرب. لهذا، وربما لأن ستيبان كان يلتهم بيضة مقلية ساخنة، أثار اشمئزاز الجمهور، ولم ترق له المسرحية.

شعر صاحباً الامتياز بالرضا، لأن كرسيهما، إلى جانب ثلاثة كراسي جديدة فخمة بذراعين من طراز روكوكو، كان في مكانه.

كان الصديقان المختفيان في إحدى مقصورات اللوج، ينتظران بصبر انتهاء المسرحية التي طالت كثيراً. تفرق الجمهور أخيراً، وركض الممثلون لينالوا قسطاً من البرودة. ولم يبق أحد في المسرح سوى مساهما شركة الامتياز. ركض كل كائن حي إلى الشارع، تحت المطر الشديد الذي انهمر فجأة.

– اتبعني، يا كيسا – أمره أستاذ – واحتياطاً لكل طارئ، نحن ريفيان لم نعثر على المخرج.

شقاً طريقهما إلى خشبة المسرح، وهما يشعلان أعواد الثقاب، واصطدما مع ذلك بالمكبس الهيدروليكي، وفحصا خشبة المسرح كلها.

ركض المحتال الكبير إلى الأعلى على السلم، إلى قسم تجهيزات التمثيل.

– تعال إلى هنا! – ناداه أستاذ.

لوح فوروبيانينوف بيديه وصعد إلى الأعلى.

– هل ترى؟ – قال أستاذ، مشعلاً عود الثقاب.

من بين الضباب برزت زاوية من كرسي هامبز وقسم من المظلة مع العبارة المنقوشة عليها: «أريد...»

– ها هو! هنا مستقبلنا وماضيها وحاضرنا. أشعل عود الثقاب، كيسا. سأفتحه.

وأدخل أستاذ يديه في جيبه لاستخراج أدواته. وقال وهو يمد يده إلى الكرسي:

– هيا! عود ثقاب آخر، أيها المشير.

اشتعل عود الثقاب، والغريب، أن الكرسي نفسه قفز إلى الجانب، وفجأة وأمام عيون صاحبي الامتياز المذهولين، سقط عبر الأرضية.

– يا أماه! – صاح هيبوليت ماتفييفتش، وقد ارتد طائراً إلى الجدار رغماً عنه.

وانقلع زجاج النافذة بضجة، والمظلة التي كُتبت عليها عبارة: «أريد بودكليوسين» التي التقطتها الزوبعة، طارت من النافذة إلى البحر. كان أستاذ مرمياً على الأرض وقد تراكت فوقه الدروع الخشبية الرقيقة.

كانت الساعة الثانية عشرة وأربع عشرة دقيقة. تلك كانت الهزة الأرضية الأولى لزلزال شبه جزيرة القرم الكبير عام 1927.

كانت هزة عنيفة من تسع درجات سببت كوارث كثيرة في جميع أنحاء شبه جزيرة القرم، وانتزعت الكنز من أيدي صاحبي الامتياز.

– الرفيق بندرا! ما هذا؟ – صاح هيبوليت ماتفييفتش مدعوراً.

كان أستاذ خارجاً عن طوره. لقد سد الزلزال طريقه. وكان هذا الحدث الأول في ممارسته الغنية.

– ما هذا؟ – صاح فوروبيانينوف.

كانت تصل من الشارع الصرخات، والأنين، والدوس على الأقدام.

– هذا يعني أن علينا أن نهرب إلى الشارع بأقصى سرعة، قبل أن ينهار علينا الجدار. بسرعة! بسرعة! اعطني يدك وقبعتك.

واندفعوا نحو المخرج. ولدهشتهم، وجدا عند الباب الذي يؤدي إلى الجادة من خشبة المسرح، كرسي هامبز مستلقياً على ظهره، سليماً لم يلحق به أي ضرر. تشبث به هيبوليت ماتفييفتش بقبضة مميتة، وهو يزعم بصوته كالكلب.

– اعطني الزردية! – صاح مخاطباً أستاذ.

- أنت أحرق رديء! - تأوه أستاذ - سينهار السقف الآن، وهو هنا يفقد عقله! بسرعة إلى المخرج!

- الزردية! - كان يهدر هيبوليت ماتفييفتش كالمجنون.

- اذهب إلى الجحيم! اذهب إلى الشيطان أنت وكرسيك! إن حياتي غالية علي كذاكرتي!

بعد قوله هذه الكلمات اندفع أستاذ إلى المخرج، ونبح هيبوليت ماتفييفتش ثم أمسك بالكرسي وركض نحو أستاذ. وما إن أصبحا في منتصف الجادة، اهتزت الأرض تحت أقدامهما، وسقط القرميد من سطح المسرح، وفي المكان الذي غادره صاحب الامتياز للتو، سقطت بقايا المكبس الهيدروليكي.

- والآن، اعطني الكرسي - قال بندر بهدوء - فقد سئمت من الإمساك به، كما أرى.

- لن أعطيه! - صاح هيبوليت ماتفييفتش.

- ما هذا؟ تمرد على السفينة؟ اعطني الكرسي. أسمع!

- هذا الكرسي لي! - كرر فوروبيانينوف، مغطياً على الأنين والبكاء والطقطقة الصادرة من كل مكان.

- في هذه الحالة، خذ مكافأتك، أيها القالوش القديم!

وضرب أستاذ فوروبيانينوف على رقبته بقبضته الحديدية. وفي هذه الدقيقة عبرت الجادة قافلة الحريق مع المشاعل، ومن خلال ضوءها المرتعش رأى هيبوليت ماتفييفتش على وجه أستاذ تعبيراً رهيباً، بحيث أنه خضع على الفور وأعطاه الكرسي.

- حسناً، الآن، الوضع جيد - قال أستاذ ملتقطاً أنفاسه - قُضي على التمرد. والآن، خذ الكرسي واتبعني. أنت مسؤول عن سلامته. وحتى إذا ما جاءت هزة بخمسين درجة، يجب أن يبقى الكرسي سليماً! فهمت؟

- فهمت.

تجول صاحب الامتياز طيلة الليل مع الحشود المذعورة، دون أن يقرروا جميعاً الدخول إلى بيوتهم التي غادروها أو توقع هزات جديدة.

عند الفجر، وبعد أن انحسر الخوف قليلاً، اختار أستاذ مكاناً لا توجد على مقربة منه جدران يمكن أن تنهار، ولا أناس يمكنهم أن يعيقوا، وشرع بفتح تنجيد الكرسي.

صدمت نتائج فتح الكرسي وكشف محتويات تنجيده صاحبي الامتياز كليهما. لم يكن هناك أي شيء في الكرسي. ضحك هيبوليت ماتفييفتش، الذي لم يحتمل جميع الصدمات ليلاً وصباحاً، ضحك الفئران.

بعد ذلك مباشرة، حدثت الهزة الثالثة، وانشقت الأرض وابتلعت ما سلم من الهزة الأولى، وكرسي هامبز الممزق، الذي ابتسمت أزهاره للشمس التي ولجت في الغبار الملبد كالغيوم.

وقف هيبوليت ماتفييفتش على قوائمه الأربع ووجهه وجهه المجعد إلى قرص الشمس القرمزية الملبدة وبدأ يعوي. وعند سماعه له سقط المحتال الكبير فاقد الوعي. وعندما صحا واستعاد وعيه وجد على مقربة منه ذقن فوروبيانينوف التي نمت عليها شعيرات أرجوانية. كان هيبوليت ماتفييفتش فاقداً وعيه. قال أستاذ بصوت متعاف من مرض التيفوئيد:

– في النهاية بقيت لدينا فرصة وحيدة، مائة بالمائة. الكرسي الأخير(صحا هيبوليت ماتفييفتش عند سماعه كلمة «كرسي») اختفى في المخزن التجاري لمحطة أكتوبر، ومن المستبعد ان يكون قد غار إلى باطن الأرض. ما الأمر؟ الاجتماع يستمر.

في مكان ما، كان الطوب يتساقط مصطدماً. وكانت صفارة الباخرة تدوي بصفارات طويلة.

## الفصل الثاني والأربعون الكنز

في يوم ممطر من نهاية تشرين أول/أكتوبر، كان هيبوليت ماتفييفتش من دون جاكيت، بصدريته القمرية المغطاة بالبريق الفضي الصغير يجهد نفسه في غرفة إيفانوبولو. كان هيبوليت ماتفييفتش يعمل على حافة النافذة، لأنه لم يكن هناك طاولة في الغرفة حتى الآن. تلقى المحتال الكبير طلبية كبيرة من العمل الفني لتحضير لوحات عناوين لجمعيات الإسكان. كلف أستاذ فوروبيانينوف بتخطيط لوحات العناوين على الاستنسل، وهو نفسه كان قرابة شهر، منذ وصوله إلى موسكو، يدور ويتجول في منطقة محطة أكتوبر بحماس لا يضاهاى، متتبعاً آثار الكرسي الأخير، الذي يخفي في أحشائه بلا شك ماسات مدام بيتيخوفا.

كان هيبوليت ماتفييفتش يخطط اللوحات المعدنية الصغيرة، مجدداً جبينه. فخلال ستة أشهر من مطاردة الماس فقد عاداته القديمة.

كان هيبوليت ماتفييفتش يرى في الليالي سلاسل جبلية مزينة برايات برية وحشية، وكان إيزنورينكوف يطير أمام عينيه، محركاً فخذه الأسمرين، والقوارب تنقلب، والناس تغرق، وتسقط طوبة من السماء، والأرض المنبسطة تطلق دخاناً كبريتياً في الأعين.

لم يلاحظ أستاذ الذي كان يومياً إلى جانبه أي تغيير على هيبوليت ماتفييفتش. في حين أنه قد تغير بشكل غير عادي. ولم تعد مشية هيبوليت ماتفييفتش كما كانت، وتعبير عينيه أصبح وحشياً، أما شاربه الذي نما فلم يعد موازياً لسطح الأرض بل أصبح متعامداً معها تقريباً، كما هو لدى قط عجوز. كما تغير هيبوليت ماتفييفتش من الداخل. وظهرت في طباعه ملامح الحسم والقسوة وهي غير مميزة له في السابق. لقد ربت فيه هذه الملامح الجديدة ثلاث حلقات: خلاصه بأعجوبة من القبضات القاسية لهواة الشطرنج في فاسيوكي، وظهوره الأول في دور المتسول في «حديقة الزهور» في بياتيغورسك، وأخيراً الهزة الأرضية التي تضرر قليلاً بعدها هيبوليت ماتفييفتش وأضر في نفسه كراهية خفية نحو شريكه.

لقد سيطرت على هيبوليت ماتفييفتش في الفترة الأخيرة أقوى الشكوك. كان يخشى أن يفتح أستاذ الكرسي بنفسه، ويأخذ الكنز لوحده، ويتركه تحت رحمة القدر. ولم يجرؤ على التعبير عن شكوكه لمعرفته بيد أستاذ القاسية الثقيلة وطباعه التي لا تعرف الهوادة. كان هيبوليت ماتفييفتش يتألم، وهو جالس يومياً أمام النافذة ينظف بشفرة مثلمة قديمة الحروف الناشفة. كان يخشى كل يوم أن لا يرجع أستاذ، وأن يموت هو، مشير النبلاء السابق، من الجوع تحت سياج موسكو الرطب.

لكن أستاذ كان يرجع كل يوم، رغم أنه لم يحمل إليه أية أخبار سارة. كانت طاقته ومرحه لا ينفدان. ولم يكن يفارقه الأمل دقيقة واحدة.

سُمع في الممر وقع أقدام وارتطم أحدهم بالخزانة الحديدية المقاومة للحريق، وفُتح الباب الخشبي الرقيق بسهولة قلب الريح لصفحة كتاب. وظهر المحتال الكبير على العتبة. كان ناضحاً كله بالماء، وخداه أحمران يحترقان كالتفاحة. وكان يتنفس بصعوبة. وصرخ قائلاً:

– هيبوليت ماتفييفتش! اسمع، هيبوليت ماتفييفتش!

استغرب فوروبيانينوف. لم يناديه المدير الفني في السابق أبداً باسمه واسم أبيه. وفجأة فُهم...

أخرج نفساً وسأله: وجدته؟

– تلك هي المسألة، أنني وجدته. آه، يا كيسا، فليمزقك الشيطان!

– لا تصرخ، كل شيء مسموع.

– صحيح، هذا صحيح، كل شيء مسموع – همس أستاذ بسرعة – هو موجود، يا كيسا، هو موجود، وإذا أردت يمكنني أن أريك إياه الآن. إنه موجود في نادي العاملين في السكك الحديدية، نادي جديد... بالأمس كان الافتتاح... كيف وجدته؟ هراء؟ شيء صعب للغاية! عملية بارعة، تم تنفيذها بشكل رائع حتى النهاية! مغامرة تاريخية كلاسيكية!... وباختصار، درجة رفيعة!

ودون انتظار أن يرتدي هيبوليت ماتفييفتش الجاكيت، ركض أستاذ إلى الممر. وانضم إليه فوروبيانينوف على الدرج. انطلق الاثنان في الشوارع الرطبة إلى ساحة كالانشيفسكايا، وهما يمطران أحدهما الآخر بالأسئلة. حتى أنه لم يخطر بذهنيهما أن من الممكن ركوب الترام.

– أنت ترتدي ثياباً وكأنك إسكافي – ثرثر أستاذ بفرح – من يمشي بمثل هذه الثياب، يا كيسا؟ لا بد لك من ملابس داخلية نظيفة، وجوارب حريرية، وقبعة! ثمة ملامح نبيلة في وجهك! قل لي، أنت بالفعل كنت مشير النبلاء؟

بعد أن أشار إلى المشير على الكرسي الذي كان في غرفة حلقة الشطرنج، وكان مظهره كمظهر بقية كراسي هامبز العادية، لكنه يخفي في باطنه جواهر قيمة، اقتاد أستاذ فوروبيانينوف إلى الرواق. وكان الرواق خالياً من الناس. اقترب أستاذ من النافذة التي لم تغلق بعد باللاصق استعداداً لفصل الشتاء، وسحب من المزلاج فردتي النافذة. وقال:



– من خلال هذه النافذة، يمكننا أن نصل بسهولة ويسر إلى النادي في أية ساعات من ساعات الليل. احفظ، يا كيسا، النافذة الثالثة من المدخل الرئيس.

تجول الصديقان طويلاً في أنحاء النادي، بوصفهما ممثلين لقسم التعليم الشعبي، وأبديا إعجابهما الشديد بالقاعات والغرف الرائعة.

كان بناء النادي صغيراً لكنه جيداً. دخل صاحب الامتياز عدة مرات في غرفة الشطرنج وتابعا باهتمام واضح تطور عدة مباريات في ألعاب الشطرنج.

– لو لعبت في فاسيوكي – قال أستاذ – جالساً على مثل هذا الكرسي، لما خسرت مباراة واحدة. حماستي لم تكن لتسمح لي. ولكن، دعنا نذهب أيها العجوز، لدي خمسة وعشرون روبلاً مخفية. علينا أن نشرب البيرة ونستريح قبل زيارتنا الليلية. ألا تغريك البيرة، أيها المشير؟ لا بأس. غداً سوف تستمتع بشرب كميات غير محدودة من الشمبانيا.

في سيره من حانة البيرة في شارع سيفتسف فراجك، كان أستاذ شديد المرح وأخذ يتنمر على المارة. كان يعانق بشكل خفيف هيبوليت ماتفييفتش الثمل من كتفيه، ويقول بلطف:

– أنت رجل عجوز وسيم للغاية، يا كيسا، لكنني لن أعطيك أكثر من عشرة بالمائة. قسماً بالله لن أعط أكثر. ولماذا أعطيك؟ لماذا تحتاج إلى الكثير من المال؟

– كيف لماذا؟ كيف لماذا؟ – قال هيبوليت ماتفييفتش مغتاضاً.

ضحك أستاذ من أعماق قلبه وضغط بخده على الكم المبلل لرفيقه في الامتياز.

– حسناً، ماذا ستشتري يا كيسا؟ ليس لديك أي خيال. والله، يكفيك خمسة عشر ألفاً... أنت ستموت قريباً. أنت كبير السن. عموماً، أنت لست بحاجة للمال... أتعرف يا كيسا، يبدو لي أنني لن أعطيك شيئاً. فهذا شيء من التدليع والدلال. ولكن سأخذك يا كيسا، وأجعلك سكرتيراً لي. ما رأيك؟ أربعون روبلاً في الشهر. ومصروف شخصي. وأربعة أيام إجازة في الأسبوع... ما رأيك؟ وسيكون لديك ملابسك الخاصة، وبخشيش، وضمان اجتماعي... ما رأيك؟ هل يناسبك هذا العرض؟

انتزع هيبوليت يده بسرعة ومشى إلى الأمام. لقد دفعه هذا المزاح إلى الجنون. لحق أستاذ بفوروبيانينوف عند مدخل القصر الوردي. وسأله:

– هل زعلت مني حقاً؟ أنا كنت أمزح. ستحصل على نسبتي الخاصة وهي ثلاثة بالمئة. والله، ثلاثة بالمئة تكفيك، يا كيسا.

دخل هيبوليت ماتفييفتش إلى الغرفة متجهماً.

– ما رأيك، كيسا؟ – قال أستاذ مازحاً – وافق على ثلاثة بالمئة! كُرمى لله، وافق! لو كان شخص آخر غيرك لوافق على الفور. انت لست بحاجة لشراء غرف، ومن حسن حظك، أن إيفانوبولو سافر إلى مدينة تفير لسنة كاملة. أو على أية حال، ادخل في عداد خدمي... مكان دافئ.

عندما رأى أن هيبوليت ماتفييفتش لم يبد أي استجابة، تئأب أستاذ بسرور، ومدّ نفسه إلى السقف، ليملأ قفصه الصدري العريض بالهواء، وقال:

– حسناً يا صديقي، جهّز جيوبك. سنذهب إلى النادي قبل الفجر. هذا أفضل وقت. يكون الحراس نياماً ويحلمون بأحلام سارة، ولهذا السبب كثيراً ما يسرحونهم، من دون مكافأة نهاية الخدمة. في غضون ذلك، أنصحك يا عزيزي بأن ترتاح.

استلقى أستاذ على ثلاثة كراسي، جمعت من مختلف أنحاء موسكو، وقال وهو يغفو:

– وإلا ستكون خادماً عندي!... راتب لائق... طعام ومصروف... وبخشيش... حسناً، حسناً، لقد مزحت... الجلسة تستمر في حالة انعقاد! لقد انكسر الجليد، أيها السادة المحلفون.

هذه كانت كلمات المحتال الكبير الأخيرة. وغرق في نوم هادئ، عميق، منعش، غير مثقل بالأحلام والكوابيس.

خرج هيبوليت ماتفييفتش إلى الشارع. كان مفعماً باليأس والغضب. كان القمر يقفز فوق السحب. كانت الأسوار المعدنية المبللة للقصور تلمع بشكل كثيف. والمصابيح الغازية، المحاطة بأكاليل من الماء المغبر، تنير باهتزاز. وطُرد سكير من حانة بيرة «أريول» (النسر – م). أخذ يصيح السكير المغمور. تجهم هيبوليت ماتفييفتش وعاد إلى الورا. كانت لديه أمنية واحدة: الانتهاء من كل شيء بأسرع وقت.

دخل إلى الغرفة، ونظر بصرامة إلى أستاذ النائ، مسح نظارته وأخذ موس الحلاقة من حافة النافذة. كانت تظهر على حافته بقايا الألوان الزيتية الناشفة. وضع موس الحلاقة في جيبه، ومرّ ثانية من أمام أستاذ، دون أن ينظر إليه، لكنه كان يسمع أنفاسه، وجد نفسه في الممر. هنا كان الجو هادئاً ونعساً. فكما يبدو، كان الجميع نياماً في غرفهم. وفي ظلام الممر الكامل، ابتسم هيبوليت ماتفييفتش ابتسامة كيدية سامة، وشعر بأن الجلد يتحرك على جبهته. وكى يختبر هذا الشعور من جديد، ابتسم مرة أخرى. وتذكر فجأة، أن الطالب بيختيف – كاكوف في الثانوية كان قادراً على تحريك أذنيه.

وصل هيبوليت ماتفييفتش إلى الدرج وأصاخ السمع بانتباه. لم يكن هناك أحد على الدرج. من الشارع كانت تصل قعقة حوافر حصان عربية الأجرة، بصوت عال وواضح، وكأنهم كانوا يحسبون في الحواسب اليدوية الخشبية. عاد المشير إلى الغرفة بخطوات قط خرساء، وأخرج من جيب جاكيت أستاذ المعلق على الكرسي خمسة وعشرين روبلاً وزرديّة، ووضع على رأسه قبعة أمير البحر القذرة وأصاخ السمع من جديد.

كان أستاذ نائماً، ولا يشخر. وكان بلعومه الأنفي ورثاه تعمل بصورة مثالية، منتظمة، تستنشق الهواء وتزفره. وكانت يده الكبيرة متدلية على الأرض. ولشعوره بنبضاته الثابتة كل ثانية، رفع هيبوليت ماتفييفتش كم يده اليمنى إلى كوعه، وغطى يده العارية بمنشفة قطنية، وابتعد نحو الباب، وأخرج موس الحلاقة من جيبيه - وبعد أن قاس بعينه مسافات الغرفة، أدار مفتاح النور. انطفأ النور، لكن الغرفة بقيت مضاءة بشكل خفيف بنور مصباح الشارع المنعكس على حوض الماء السماوي.

– هذا أفضل – همس هيبوليت ماتفييفتش.

اقترب من رأس أستاذ، وترك يده التي تحمل موس الحلاقة بعيدة، وبكامل قوته غرز الموس كله بشكل مائل في حنجرة أستاذ، وسحب على الفور موسى الحلاقة وارتد إلى الحائط. أصدر المحتال الكبير صوتاً يشبه صوت مغسلة المطبخ التي تبتلع بقايا الماء. تمكن هيبوليت ماتفييفتش من عدم تلويث نفسه بالدم. وبعد أن مسح الجدار الحجري بجاكيتته، تسلل إلى الباب الأزرق بعد أن ألقي نظرة لثانية واحدة على أستاذ. كان جسده قد تقوس مرتين وانحني على ظهور الكراسي. كان ضوء الشارع يعوم على البركة السوداء التي تشكلت على أرض الغرفة. فكّر هيبوليت ماتفييفتش:

– «من أين هذه البركة؟ نعم، نعم، دم... لقد مات الرفيق بندر».

فتح فوروبيانينوف منشفة ملطخة بعض الشيء، ورماها، ثم وضع موسى الحلاقة بحذر على الأرض، وابتعد بعد أن أغلق الباب بهدوء.

لقد مات المحتال الكبير على أعتاب السعادة التي تخيلها لنفسه.

عندما وجد نفسه في الشارع، قطب هيبوليت ماتفييفتش جبينه متمتماً: «الماسات كلها لي وليس ستة بالمئة»، وتوجه إلى ساحة كالانشيفسكايا.

عند النافذة الثالثة من المدخل الرئيس لنادي السكك الحديدية، توقف هيبوليت ماتفييفتش. كانت النوافذ الزجاجية للبناء الجديد قد أصبحت رمادية اللون من ضوء بزوغ الفجر. وكانت تُسمع في الهواء الرطب الأصوات الخافتة المكتومة للقاطرات المناورة. صعد هيبوليت ماتفييفتش بمهارة إلى حافة النافذة، ودفع إطارها وقفز بهدوء إلى الممر.

بعد أن استدل بسهولة في قاعات النادي الرمادية قبل الفجر، دخل هيبوليت ماتفييفتش إلى قاعة الشطرنج، وبعد انجرح جرحاً بسيطاً من صورة إيمانويل لاسكر، المعلقة على الجدار، اقترب من الكرسي. لم يكن في عجلة من أمره. فلم يكن هناك ما يستدعي السرعة بالنسبة له. لم يكن هناك من يطارده. كان أستاذ الشطرنج أستاذ بنذر قد نام نومته الأبدية في القصر الوردي في شارع سيتسيف فراجك.

جلس هيبوليت ماتفييفتش على الأرض، وأحاط بالكرسي بساقيه السميكين، وبرباطة جأش طبيب الأسنان بدأ ينتزع من الكرسي المسامير النحاسية كلها. انتهى عمله بعد أن انتزع المسمار الثاني والستين الأخير. كان القماش الانكليزي والقماش الليفي المبطن يغطيان بحرية تنجيد الكرسي.

كان عليه أن يرفعهما فقط كي يرى العلب، والعلب الصغيرة والصناديق الممتلئة بأحجار الماس النفيسة.

فكر في نفسه هيبوليت ماتفييفتش الذي تعلم الحكمة في مدرسة المحتال الكبير: «الآن سأخذ سيارة على الفور وأتوجه إلى محطة السكك الحديدية. ومن ثم إلى الحدود البولونية. وسينقلونني، مقابل حجرة ماسية صغيرة ما، إلى الجانب الآخر، وهناك...»

ورغبة منه بأن يرى بسرعة ماذا سيكون «هناك...»، سحب هيبوليت ماتفييفتش من تنجيد الكرسي القماش الانكليزي والقماش الليفي المبطن. وانكشفت أمام عينيه النواضح الانكليزية الرائعة، والحشوة الرائعة، حشوة ما قبل الحرب، التي ليس لها مثل الآن. ولكن لم يكن هناك في الكرسي أي شيء آخر. أخذ هيبوليت ماتفييفتش يقلب التنجيد وجلس نصف ساعة كاملة، دون أن يبعد الكرسي عن رجليه القويتين، مكرراً بغباء:

– لماذا لا يوجد شيء هنا؟ هذا غير ممكن! هذا غير ممكن!

كان قد أصبح الجو مضاءً تقريباً، عندما ترك كل شيء كما كان في نادي الشطرنج، وخرج بصعوبة وإنهاك من النافذة إلى الشارع، ناسياً هناك الزردية والقبعة بعلامتها الذهبية لنادي اليخوت غير المعروف، والذي لم يلاحظه أحد من قبل. كان هيبوليت ماتفييفتش يكرر، مبتعداً عن النادي حارة واحدة:

– هذا غير ممكن! هذا غير ممكن!

ثم عاد إلى الوراء إلى النادي وأخذ يتجول على طول نوافذه الكبيرة، محرراً شفتيه:

– هذا غير ممكن! هذا غير ممكن! هذا غير ممكن.

كان من حين لآخر يصرخ وبمسك برأسه الرطب من ضباب الصباح. أخذ يمسح شعره الشائب، متذكراً جميع أحداث الليل. لقد كانت تأثير الإثارة الماسية قوية جداً: فتداعى لمدة خمس دقائق.

– إنهم يمشون هنا، أناس مختلفون يمشون هنا – سمع فوروبيانينوف صوتاً من فوق أذنه. رأى حارساً في بدلته القماشية الرسمية وجزمته الباردة. كان الحارس عجوزاً، كبير السن، لكنه طيب، كما يبدو.

– يمشون ويمشون – قال الحارس الذي سئم من وحدته الليلية، راغباً بالتواصل – وأنت أيضاً أيها الرفيق، مهتم بالنادي. وهذا صحيح. فهذا النادي عندنا، يمكن القول، أنه غير عادي.

نظر هيبوليت ماتفييفتش متألماً إلى الحارس المتورد من الصقيع.

– نعم – قال العجوز – هذا النادي غير عادي. ليس له مثيل في أي مكان.

– وما هو الشيء غير العادي فيه؟ – سأل هيبوليت ماتفييفتش، مجمّعاً أفكاره.

نظر العجوز إلى فوروبيانينوف بسرور، يبدو أن قصة النادي غير العادي كانت تروقه هو نفسه، وكان يحب تكرارها. وبدأ الحارس يروي قصته:

– حسناً. أنا أمارس الحراسة للعام العاشر، ولم يقع مثل هذا الحادث. اسمع، أيها الجندي. حسناً، هنا دائماً كان يوجد نادي، ومعروف أي نادٍ كان، القسم الأول من خدمة جر التدفئة المركزية. أنا كنت أحرصه. كان نادياً عديم الفائدة... كانوا يدفعونه ويدفئونه، ولم يستطيعوا فعل أي شيء. ويأتي لعندي الرفيق كراسيلنيكوف ويسألني: «إلى أين يذهب الحطب عندك؟» وهل أنا أكل الحطب؟ كافح الرفيق كراسيلنيكوف طويلاً مع النادي – هنا رطوبة، وهنا برد قارس، ليس هناك من مكان لفرقة الآلات النحاسية، والتمثيل في المسرح كان عذاباً صرفاً: فالسادة الممثلون كانوا يتجمدون من البرد. بقي يرجو تقديم قرض لبناء ناد جديد خمس سنوات، ولا أعرف ماذا نتج عنه. لم تكن توافق عليه لجنة الطرق لنقابة عمال السكك الحديدية. في الربيع الأخير اشترى الرفيق كراسيلنيكوف كرسيّاً لخشبة المسرح، كرسيّاً جيداً، وثيراً ناعماً...

كان هيبوليت ماتفييفتش يصغي، متكنّناً بجسده على الحارس. كان شبه فاقد لوعيه. وكان الرجل العجوز يضحك فرحاً، وهو يروي كيف أنه ذات مرة صعد على هذا الكرسي، من أجل فك المصباح الكهربائي، ووقع منه.

– لقد انزلت من هذا الكرسي، وتمزق التنجيد الذي يغطي مقعده. وأنظر – من تحت القماش والبطانة يتناثر عقد خرز أبيض في سلسلة.

– عقد – قال هيبوليت ماتفييفتش.

– عقد! – صاح العجوز مفتخراً – وأنظر، من جديد، أيها الجندي، فأرى هناك في الكرسي علماً مختلفة. حتى أنني لم ألمس هذه العلب. ذهبت مباشرة إلى الرفيق كراسيلنيكوف وأعلمته. كما قدمت تقريراً بعد ذلك للجنة. لم ألمس هذه العلب والصناديق الصغيرة ولم أمسها. وحسناً فعلت، أيها الجندي، فهناك تم العثور على كنز أخفته البرجوازية.

– أين الكنز؟ – صاح المشير.

– أين، أين – قلده العجوز – هناك، عليك أن تفكر وتذكر، أيها الجندي. هذا هو.

– أين؟ أين؟

– نعم هذا هو – صاح الحارس المتورد الخدين، مبتهجاً من الأثر الذي أحدثه – هذا هو! امسح نظارتك! بنينا النادي بالكنز، أيها الجندي! ألا ترى؟ ها هو النادي! تدفئة مركزية على البخار، ألعاب الداما مع الساعات الميقاتية، البوفيه، المسرح، لا بسمح بالدخول إليه بالقالوش (الجزمة المطاطية)!...

تجمد هيبوليت ماتفييفتش، ودون أن يتحرك من مكانه، انتقل بعينه على طول الأفاريز.

هذا هو الكنز إذن، كنز مدام بيتيخوفا! هذا هو! كله هنا! مائة وخمسون ألف روبل وصفر صفر كوبيك، كما اعتاد أن يقول أستاذ – سليمان – بيرتا – ماريا بندر.

لقد تحولت الماسات إلى واجهات زجاجية صلبة وطوابق وأدراج من الخرسانة المسلحة، وتحول اللؤلؤ إلى وقاعات رياضية مكيفة. وتحول إكليل المجوهرات إلى صالة مسرح بمنصة مسرحية دوارة، وتحول حبات اللؤلؤ إلى ثريات كاملة، والأساور الذهبية مع الزمرد تحولت إلى مكتبة رائعة، وتحول المشبك إلى دور للحضانة، وورشة عمل واسعة، وقاعة شطرنج وقاعة بلياردو!

لقد بقي الكنز، وتم الحفاظ عليه ولم يهدر بل زاد ونما. كان من الممكن لمسه لمس اليد، ولكن كان من غير الممكن حمله وأخذه. لقد انتقل إلى خدمة الناس الآخرين.

لمس هيبوليت بيديه حجر الغرانيت الذي يغطي جدران النادي. فانتقلت برودة الحجر إلى صميم قلبه. وبدأ يصرخ.

كان صراخه محمومًا، عاطفياً، وحشياً – صراخ ذئبة اخترق الرصاص جسمها – وانتقل صراخه إلى منتصف الساحة، وتدلى إلى تحت الجسر، لكنه كان يصطدم في كل مكان بأصوات مدينة كبيرة استيقظت، وبدأ صراخه يخفت ثم ذوى خلال دقيقة واحدة.

انبسط صباح خريفي رائع من الأسطح الرطبة إلى شوارع موسكو. وانطلقت المدينة نحو مسيرتها اليومية المعتادة.

# الفهرس

مقدمة المترجم 9

الإهداء 13

الجزء الأول: أسد ستارغورود 15

الفصل الأول: بيزنشوك و«الحوريات» 17

الفصل الثاني: وفاة مدام بيتوخوفا 30

الفصل الثالث: «مرآة الآثم» 40

الفصل الرابع: ربّة الرحلات البعيدة 50

الفصل الخامس: ماضي مسجل الأحوال المدنية 56

الفصل السادس: المحتال الكبير 78

الفصل السابع: دخان الماس 88

الفصل الثامن: آثار «تيتانيك» 97

الفصل التاسع: اللص الأزرق 102

الفصل العاشر: أين خصلات شعرك؟ 116

الفصل الحادي عشر: الميكانيكي والبيبغاء والعرافة 125

الفصل الثاني عشر: ألفبائية «مرآة الحياة» 137

الفصل الثالث عشر: المرأة الحامية – حلم الشاعر 153

الفصل الرابع عشر: تنفّس بعمق – أنت متحمّس! 167

الفصل الخامس عشر: اتحاد السيف والمحراث 186



## الجزء الثاني: في موسكو 203

الفصل السادس عشر: وسط محيط من الكراسي 205

الفصل السابع عشر: داخلية الراهب برتولد شوارتز 208

الفصل الثامن عشر: أيها المواطنون، احترموا المفارش! 225

الفصل التاسع عشر: متحف الأثاث 233

الفصل العشرون: التصويت على الطريقة الأوروبية 245

الفصل الحادي والعشرين: من إشبيليا إلى غرناطة 257

الفصل الثاني والعشرون: العقاب 271

الفصل الثالث والعشرون: إلتشكا الغاوية، آكلة لحوم البشر 286

الفصل الرابع والعشرون: أبشالوم فلاديميرفيتش إزنورنكوف 297

الفصل الخامس والعشرون: نادي سائقي السيارات 309

الفصل السادس والعشرون: حديث مع المهندس العاري 323

الفصل السابع والعشرون: زيارتان 332

الفصل الثامن والعشرون: سلة «الاعتقال» الرائعة 339

الفصل التاسع والعشرون: الدجاجة وديك المحيط الهادي 350

الفصل الثلاثون: مؤلف قصيدة «غافريلليادا» 362

الفصل الحادي والثلاثون: حفنة الأقوياء، أو الباحثون عن الذهب 376

الفصل الثاني والثلاثون: في مسرح كولومبوس 386

## الجزء الثالث: كنز مدام بيتوخوفا 405

الفصل الثالث والثلاثون: ليلة ساحرة على نهر الفولغا 407

الفصل الرابع والثلاثون: الزوج المشبوه 421

الفصل الخامس والثلاثون: الطرد من الجنة 435

الفصل السادس والثلاثون: مؤتمر الشطرنج بين الكواكب 446

الفصل السابع والثلاثون: وغيرهم... 465

الفصل الثامن والثلاثون: منظر البركة المَلَكِيَّة الشفافة 475

الفصل التاسع والثلاثون: الرأس الأخضر 486

الفصل الأربعون: تحت الغيوم 497

الفصل الحادي والأربعون: الهزة الأرضية 510

الفصل الثاني والأربعون: الكنز 526

- 1.1
2. [الغلاف](#)
3. [الكراسي الاثنا عشر](#)
4. [مقدمة المترجم](#)
5. [الإهداء](#)
6. [الجزء الأول أسد ستارغورود](#)
7. [الفصل الأول بيزنشوك و«الحوريات»](#)
8. [الفصل الثاني وفاة مدام بيتوخوفا](#)
9. [الفصل الثالث «مرآة الآثم»](#)
10. [الفصل الرابع ربّة الرحلات البعيدة](#)
11. [الفصل الخامس ماضي مسجل الأحوال المدنية](#)
12. [الفصل السادس المحتال الكبير](#)
13. [الفصل السابع دخان الماس](#)
14. [الفصل الثامن آثار «تيتانيك»](#)
15. [الفصل التاسع اللص الأزرق](#)
16. [الفصل العاشر أين خصلات شعرك؟](#)
17. [الفصل الحادي عشر الميكانيكي واللبغاء والعرافة](#)
18. [الفصل الثاني عشر ألفبائية «مرآة الحياة»](#)
19. [الفصل الثالث عشر المرأة الحامية - حلم الشاعر](#)
20. [الفصل الرابع عشر تنفّس بعشق - أنت متحمّس!](#)
21. [الفصل الخامس عشر اتحاد السيف والمحراث](#)
22. [في موسكو](#)
23. [الفصل السادس عشر وسط محيط من الكراسي](#)
24. [الفصل السابع عشر داخلية الراهب برتولد شوارتز](#)
25. [الفصل الثامن عشر أيها المواطنون، احترموا المفارش!](#)
26. [الفصل التاسع عشر متحف الأثاث](#)
27. [الفصل العشرون التصويت على الطريقة الأوروبية](#)
28. [الفصل الحادي والعشرين من إشبيليا إلى غرناطة](#)
29. [الفصل الثاني والعشرون العقاب](#)
30. [الفصل الثالث والعشرون التشكا الغاوية، آكلة لحوم البشر](#)
31. [الفصل الرابع والعشرون أبشالوم فلاديميرفيتش إزورنيكوف](#)
32. [الفصل الخامس والعشرون نادي سائقي السيارات](#)
33. [الفصل السادس والعشرون حديث مع المهندس العاري](#)
34. [الفصل السابع والعشرون زيارتان](#)
35. [الفصل الثامن والعشرون سلة «الاعتقال» الرائعة](#)

36. [الفصل التاسع والعشرون الدجاجة وديك المحيط الهادي](#)
37. [الفصل الثلاثون مؤلف قصيدة «غافريلليادا»](#)
38. [الفصل الحادي والثلاثون حفنة الأقوياء، أو الباحثون عن الذهب](#)
39. [الفصل الثاني والثلاثون في مسرح كولومبوس](#)
40. [كنز مدام بيتوخوفا](#)
41. [الفصل الثالث والثلاثون ليلة ساحرة على نهر الفولغا](#)
42. [الفصل الرابع والثلاثون الزوج المشبوه](#)
43. [الفصل الخامس والثلاثون الطرد من الجنة](#)
44. [الفصل السادس والثلاثون مؤتمر الشطرنج بين الكواكب](#)
45. [الفصل السابع والثلاثون وغيرهم...](#)
46. [الفصل الثامن والثلاثون منظر البركة المَلَكِيَتِيَّة الشفافة](#)
47. [الفصل التاسع والثلاثون الرأس الأخضر](#)
48. [الفصل الأربعون تحت الغيوم](#)
49. [الفصل الحادي والأربعون الهزة الأرضية](#)
50. [الفصل الثاني والأربعون الكنز](#)
51. [الفهرس](#)